التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

العلوم التجريبية

بين الكتاب والسنة وساير الكتب السماوية

المجلد (٢٠)

آيت الله العظمي الصادقي الطهراني

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المطالب

خلق السموات والأرض من الماء ٧
أوّل ما خلق الله الماء ١٣
كروية الأرض أو بيضويتها ٢٢
تقسيم الأيام الستة بين خلق السماوات والأرض، خلق الأرض قبل السماء ٢٨
المادة الاولية لخلق الكون <ماء>؟! ٣٨
«وبارک فيها»: ٤٥
«وَ قَدّرَ فيها أقْواتَها»: ٤٥
«سَواءً لِلسّائِلين» ٤٥
<ثم استوى الى السماء وهى دخان>: ٤٦
وأوحى ... أمرها: ٤٩
فذلكة حول أيام الخلق: ٥٠
جوٌّ من السماء لايصلح لتنفس الإنسان والحيوان ٥٠
السماء سبع شداد ٥٥
فمم بنى السبع؟ وما هو السبع؟ وما هو السبع الشداد؟ ٥٦
<وجعلنا سراجاً وهاجاً> ٥٨
دحو الأرض بعد خلق السماء؟ ٦٩
دحو الأرض وطحوها: ٧١
نظرية التوسعة علمياً وقانونها قرآنياً ٧٥
خلق الأرض قبل السماء ٨٢
للسماوات بأنجمها عمدٌ لاترونها ٨٥
قصور السماء و بروجها: ٩٤
رتق السماوات والأرض وفتقمها: ٩٥
خلق كل دابة من ماءٍ ١٠٥
الأرض الفراش و السماء البناء ١٠٨
عرش ملكة سبا تسير قبل ارتداد طرف مسيرة شهر ١١١
كلام حول تبدل المادة طاقة وموجة ١١٨
صلاة لطير وتسبيحها صلاة لهن لرب العالمين ١٢٢
آيات ربانية فى السماوات والأرض ١٢٤
إنسان الأرض والسماء؟ ١٤٨
تلميحات الى أسفار فضائية ١٥٦
سفار فضائية ١٥٩
سلام الإذاعة والاستذاعة الصوتية والصورية ١٦٨
معراج الرسول5 فى غزّ وفضائى عميق: ١٧٢
أسئلة مطروحة حول: ١٧٢
الغزوة المعراجية المحمدية ومركبتها العجيبة، الرحلة الفضائية فى نطاق العلم: فى عمق الزمان والمكان: ١٧٢
مشكلة الجاذبية: ١٧٨

خلاصة عن الرحلة المعراجية: ١٨٤
نيازک ناريّة من مدفعيّات سماوية ١٩١
شهب سماوية نيازک نارية ١٩٦
نكات على ضوء هذه الآيات ١٩٩
السماء الدنيا بمصابيحها الرجوم: ٢٠٢
رجوم الشياطين؟ ٢٠٢
صيِّبات سماوية ٢٠٥
كروية الأرض(١) ٢١٠
كرويَّة الأرض٢ ..... ٢١٤
حركات الأرض الأرض الراجفة ٢١٩
الأرض مهد ومهاد (٢) ٢٢٢
خلق الأزواج ٢٢٥
النوم السبات: ٢٢٦
الأرض القرار ٢٢٦
الأرض الكفات ٢٢٩
الرواسى الملقاة على الأرض والرياح اللواقح ٢٤٣
الرواسى المانعة عن مَيَدان الأرض ٢٥٦
ارتقاء فى الاسباب السماوية ٢٥٩
إزجاء سحاب من الأرض الى السماء ٢٦١
تسخيرات فى الكائنات ٢٧٤
عجائب الأرض ٢٧٥
المشرق والمغرب... ..... ٢٨٣
المشرقين و المغربين... ..... ٢٨٣
المشارق وال١غارب.... ..... ٢٨٣
حركات الشمس والقمر... ..... ٢٩٠
ولتعلموا عدد السنين والحساب ٢٩٢
قيامة الكائنات... ..... ٢٩٧
سورة التكوير مكّية وآياتها تسع وعشرون ٢٩٧
قيامة الكائنات ٣١٦
القيامة ٣٢٠
خافضة رافعة ٣٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا الكتاب الذى بين يديك تظمٌ نبراتٍ من مختلفِ العلوم التجريبية التي حصلت عليها البشريه حتّى الآن بكَدٍّ وجدٍّ والتى لم تحصل عليها لحد الآن وعَلَّهُ سوف تحصل عليها وكذالك الحقائق التي لن تحصل عليها البشريه لأنها مخصوصةٌ بعلم الله تعالى كالمادة الاوليه ذات زوجين اثنين وكيفيّاتٍ من خلق السماوات والارض وما بينهما، فلقد حصلنا عليها في هذا الكتاب من آياتٍ بينات في مثلثةالجهات وعلى الله توكلنا نعم المولى ونعم النصير.

محمد الصادقي الطهراني

قم المقدسة

هاتف: ٢٩٣٤٤٢٥

خلق السموات والأرض من الماء

<وَ هُوَ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ فى سِتّةِ أَيّام وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَي الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنّ الّذينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبينٌ>(٧:١١).

آية وحيدة منقطعة النظير في صيغة التعبير عن مرحلتي الخلق الأولين، حيث الثانية تتبنى الأولى كما تبنّتها الثالثة وعلى طول الخط.

هذه الآية قد تتحدث عن المادة الفردة الأولى، أو الخلق الأول: <الماء> حيث <كان عرشه> في خلق السماوات والأرض «على الماء»، وحين تعني <عرشه> بناءَه تعالى في خلقهما، وقد يعني معه أن كانت سلطته التدبيرية <على الماء>.

لقد تحدثنا في قول فصل عن <خلق السماوات والأرض في ستة أيام> على ضوء آياتها، ففصلناه في <فصلت> و <البقرة> و <النازعات> وما أشبه، ـ كما تجئى ـ وما فصِّلت هي أفصل وأحصل رغم أنها أعضل مما سواها ولكنها أفضل تبياناً.

وهنا نتحدث عن ذلك <الماء> الذى هو مادة خلق الأرض والسماء، بكل إمعان وإتقان، وعن <كان عرشه على الماء> والله هو المستعان فعليه التكلان.

العرش هو كسائر اللغات المشتركة الإستعال بين الخلق والخالق، هنا تجرَّد عن المعاني الخَلقية، وتختص بما يناسب ساحة الربوبية، فقد تعني هنا مستقر سلطته تعالى، وقد جاءت العرش ـ ايضاً ـ بمعنى البناء <مما يعرشون>(١٦:٦٨) و <ما كانوا يعرشون>(٧:١٣٧) فقد كان بناءه تعالى حين خلق السماوات والأرض على الماء، أم وسلطته وهما هنا يعنيان أن مادة خلقهما كانت هي الماء.

ومن ثمَّ عرش ثان هو لإدارة شؤون السماوات والأرض كما <خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم إستوى على العرش يدبِّر الأمر>(١٠:٣)

وعرش ثالث يوم القيامة الكبرى: <وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم..>(٣٩:٧٥) <ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية>(٦٩:١٧) فالعرش وهو السلطة الربانية بملابساتها الخلقية، هو واقعياً وفعلياً ليس إلاّ في مثلث الزمان، على المادة الأولية: <وكان عرشه على الماء> وعلى السماوات والأرض: <يدبر الأمر> وعلى القيامة الكبرى، تقديراً وتدبيراً، و أما قبل الخلق حيث كان الله ولم يكن معه شيء فلا

عرش إذ لامعروش، مهما كان له العرش ذاتياً لمكان الحياة والعلم والقدرة الطليقة، فهو <خالق إذ لامخلوق> بمعنى قدرته على الخلق قبل مشيئته، كذلك هو <ذوالعرش> إذ لامعروش، بمعنى سلطته على ما يخلق من معروش فعرش.

فهو <ذو العرش المجيد. فعّال لما يريد>(١٦:٨٥) فعاليته الفعلية الواقعية هي عرشه الفعلي في مثلث الزمان، وفاعليته الشأنية بكمال القدرة الفعلية عرشه الشأني[١]، والقرآن إنما يتحدث عن الأول دون الثانى، اللهم إلاّ ماقد يدل على الخلق الأول كهذه الآية، فقد كان عرشه وسلطته على الماء قبل خلقه سلطةً على إنشاءِه، وبعده سلطة على تقديره وتدبيره، ثم قبل خلق السماوات والأرض سلطة على خلقهما، وبعد خلقهما سلطة على تقديرهما وتدبيرهما، ثم قبل إقامة القيامة سلطة عليها كأصل، وبعد سلطة على تقديرها وتدبيرها.

فلئن توسعنا في صيغة العرش لكان له مراحل ست، إلاّ أن القرآن يذكر تلك الثلاثة من السلطة الفعلية بعد كل مرحلة من الخلق تقديراً له و تدبيراً.

وأما <الماء> هنا، فهل هو المعروف لدينا حيث نَشربه ونُشرب به زروعنا ودوابنا؟ وهو مما خلق مع السماوات و الأرض أم بعدهما، فهو وليد <الماء> الذى خُلق منه الأرض والسماء، فأين والد وما ولد؟

ذلك، و <كان> تضرب إلى أبعد أغوار الماضى البعيد لكينونة <الماء> قبل خلق الأرض والسماء، فليس هو الماء المتولد فيهما وعنهما حيث خلقهما <و> الحال أنه <كان عرشه على الماء>.

وقد يروى في بُعد هذا الماضي البعيد عن الإمام على أميرالمؤمنينΔ ما العقل منه يحيد لروعته وبداعته حيث يضرب إلى مليارات من سنيِّنا والله أعلم[٢] ولاسيما بما نعلمه

---

١ . الدر المنثور ٣: ٣٣٣ أخرج مسلم والترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله5: إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء.

٢ . في تفسير البرهان ٢: ٢٠٨ عن تفسير العياشى سئل أميرالمؤمنينΔ عن مدة ما كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء؟ فقال: تحسن أن تحسب؟ فقال السائل: نعم، فقال: لو أن الأرض ←

حتى الآن من آلاف السنين الضوئية الفاصلة بيننا وبين جُزُر من النجوم للسماء الأولى.

هنا يعرَّف <الماء> أنه أم الكائنات بأسرها المعبّر عنها دوماً بـ <السماوات والأرض> أم <ومابينهما> أم <وما فيهما> فهو الخالق الأول على الإطلاق حيث خلق منه كل خلق من الأرواح والأجساد الكامنة فيه، كيف لاوقد <حمل دينه وعلمه الماء قبل أن يكون سماء أو أرض أو إنس أو جن أو شمس أو قمر>[1]، وكما في الآثار:

←

من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى السماء حب خردل ثم كلفت على ضعفك أن تحمله حبة حبة من المشرق الى المغرب حتى افنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين جزءً من بقاء عرش ربنا على الماء قبل أن يخلق الأرض والسماء، ثم قال: إنما مثلث لك مثالاً.

أقول: نظراً <على ضعفك> بطؤاً في الحركة، والسعة الهائلة بين المشرق والمغرب، وأهم منها عدد حبات الخردل ملأ الأرض والسماء على سعتها الهائلة، نظراً إلى هذا المثلث، وأن الزمن الذى يتطلب ذلك النقل هو <ربع جزء من سبعين جزء> أى ٢٨٠٠/١ من بقاء عرش ربنا، وانه <انما مثلت لك مثالاً> يعرف مدى طائل الزمن الذى كان عرشه على الماء و هو بليارات بليارات من السنين في حسابنا والله أعلم.

وفى بحارالأنوار ٥٤: ٢٣١ عن كتاب المختصر للحسن بن سليمان مما رواه من كتاب الخطب لعبد العزيز بن يحيى الجلودى قال: خطب أميرالمؤمنين(عليه السلام) فقال: <سلونى فإنى لا أسأل عن شيءٍ دون العرش إلا أجبت فيه فقام رجل ـ وفيه أنه سأله تعنتاً عن مسائل منها ـ فكم مقدار ما لبث الله عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء، قال: تحسن أن تحسب؟ قال: نعم، قال: لعلك لاتحسن! قال: بلى إنى لأحسن أن أحسب، قال على Δ: أفرأيت لو كان حب خردل في الأرض حتى سد الهواء و ما بين الأرض والسماء، ثم أذن لمثلك على ضعفك أن تنقله حبة حبة من مقدار المشرق إلى المغرب ثم مدَ عمرك وأعطيت القوة على ذلك حتى تنقله و أحصيته لكان ذلك أيسر من إحصاء عدد أعوام ما لبث عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء وإنما وصفت لك ببعض عشر عشير العشير من جزء مائة ألف جزء واستغفر الله من القليل في التحديد.>.

أقول إنه لايستطيع أى محاسب دقيق أن يحاسب ذلك المقدار وإن في مليار من السنين، كيف و أقرب الجزر السماوية إلينا تبعد ١٠٠/٠٠٠ من السنين الضوئية هي جزيرة <ماجلان> تبعد ٢٥٠/٠٠٠ و <اندروما>.

[1] . نورالثقلين ٢: ٣٣٧ في كتاب التوحيد عن داود الرقى قال: سألت أبا عبدالله Δ عن قول الله عزَّوجلّ: <وكان عرشه على الماء>، فقال لى ما يقولون؟ قلت: يقولون إن العرش كان على الماء والرب فوقه، فقال: كذبوا، من زعم هذا فقدصير الله محمولاً ووصفه بصفة المخلوقين ولزمه أن الشيء

←

<أول ما خلق الله الماء> <ولو كان أول ما خلق من خلقه، الشيءَ من الشيء، إذاً لم يكن له إنقطاع أبداً، ولم يزل الله إذاً ومعه الشيءٌ ليس هو يتقدمه، ولكنه كان إذ لا شيءَ وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه>.[١]

إذاً فليس هو مائنا (H_2O) منسوباً إلى هذين الوالدين، ولا أي عنصر أو جزيءٍ حتى الئيدروجين حيث النسب يشملها كلها، فإنه على كونه أبسط الذرات ـ فيما يعرفه العلم حتى الآن ـ منسوب إلى والدين هما <الكترون و البروتون> أم وفيه مزيد من <نيوترون وبوزيترون>.

إنما المادة الأم الفردة الأولى هي المشار إليها في آية الذاريات ﴿وَ مِنْ كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ﴾(٥١:٤٩) فـ <كل شيء> يعم الشيء الأوّل المخلوق منه سائر الأشياء، وأقل تركيب له يشكل كيانه المادى كأبسطه، هو الجزء آن الهندسيان أو الفيزيئيان، أم و هما تشكلان كيان المادة كأصل لها أصيل، وقد فصلنا البحث حول كيان المادة الفردة غير القابلة للإنقسام ببقاء زوجها على ضوء آية الذاريات.

وترى ولماذا سميت المادة الأولية هنا بـ <الماء> ولها أسمها؟ ذلك لأنها غير معروفة لدينا حتى نعرف لها إسماً، وأفضل تعريف بها إسمياً هو <الماء> إعتباراً بمشابهة أجزاءِه حسب المعرفة السيطة وبساطتها، حيث يركب من ذرّتي الأوكسيجين والئيدروجين، فلتسمِّى المادة الأوليه بإسم أبسط المواد المعروفة لدنيا عرفياً وعلمياً، وكما استعمل <الماء> في مني الإنسان وسائر الحيوان، وما أشبه في سائر القرآن.

ذلك، وكما يعرف <الماء> من وراءِ ذلك الإسم بسماته، فمنها هنا أنها مادة

←
الذى يحمله أقوى منه، قلت: بين لى جعلت فداك، فقال: إن الله عزَّوجلّ حمل دينه وعلمه... أقول: وهذه عناية لطيفة أن علمه ودينه بحملتهما كانا محمولين في <الماء>!

[١] . الكلينى في روضة الكافى باسناده عن محمد بن عطية قال: جاء رجل إلى أبى جعفرΔ من أهل الشام من علمائهم ـ إلى أن قال ـ : وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان...

السماوات والأرض لخلقهما، وفي الذاريات نعرف أبسط تركيب له أنه ذو بعدين اثنين.

ثم وهنا آثار مستفيضة عن الرسول5 وعترته المعصومين(عليهم السلام) تتوارد لتأييد أن هذا <الماء> هو المادة الأولية المخلوقة قبل كلِّ شيءٍ، مهما اختلفت أحياناً في كيفية التفجُّرة الأولى لخلق السماوات والأرض منها.

فالمروي عن النبي5: <أول ما خلق الله الماء> مهما روى عنه أيضاً <أوّل ما خلق الله نوري> حيث الأولية الأولى تعني الزمنية، والثانية تعني الرتبيّة بين الأرواح القدسية، وقد خلقت بأجسادها من <الماء> كما خلقت الأرواح من الأجساد كما تعنيه <ثم أنشأناه خلقاً آخر>(١٤:٢٣) على تفصيل مذكور عند تفسيرها وتفسير آية الروح <قل الروح من أمر ربي> (٨٥:٧) فراجع الفرقان.

فقد يروى عنه5 <وخلق عرشه على الماء>[١] و <وإن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء>[٢] و <كان الله ولاشيء غيره و كان عرشه على الماء و كتب في الذكر الحكيم كل شيءٍ ثم خلق سبع سماوات...>[٣] وهنا <لاشيء غيره> قد يعني تفصيل الخلق دون إجماله، حيث <كان عرشه على الماة> بياناً لإجماله.

ويروى عن خليفته الإمام علي∆ قوله: <أنشاءً الخلق إنشاءً، وابتدأه إبتداءً، بلا رويَّة أجالها، ولاتجربة إستفادها، ولاحركة أحدثها، ولا همامة نفس إضطرب فيها،

---

[١] . الدر المنثور ٣٢٢:٣ عن أبي رزين قال قلت يا رسول الله5 أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: <كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء> أقول <في عماء> قد يعني عماء التفصيل لخلقه إذ <كان عرشه على الماء> و على <أين كان> سؤال عن <أين> المكانة في خلقه الخلق دون المكان، وإذا كان عن المكان فالجواب ينفيه بما فيه <ما تحته وما فوقه..> حيث هما نافيتان فتسلبان عنه كلا الفوق والتحت.

[٢] . المصدر عن ابن ابعاض قال قال رسول الله5:...

[٣] . المصدر عن بريدة قال: دخل قوم على رسول الله5 فقالوا: جئنا نسلم على رسول الله5 و تفقهه في الدين ونسأله عن بدء هذا الأمر فقال: كان الله.... أقول: قد يعني <ولا شيء غيره> ما عناه نفس التعبير من ذي قبل.

أحال الأشياء لأوقاتها، ولام بين مختلفاتها، وغرَّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل إبتداءِها، محيطاً بحدودها وإنتهاءها، عارفاً بقرائنها وأحناءها.

ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواه، وشق الأرجاء، وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماءً متلاطماً تيّاره ـ فهذا الماء المُجرى كان قبل جريانه كائناً كأول ما خلق! ـ متراكماً زخَّاره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلَّطها على شدِّه، وقرنها إلى حده، الهوآء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق، ثم أنشأ سبحانه ريحاً إعتقم مهبَّها، وأدام مربَّها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخض السِّقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره، حتى عبَّ عُبابُهُ، ورمى بالزبد رُكامُه، فرفعه في هواء منفتق، وجوّ منفهق، فسوى منه سبع سموات جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً، وسَمكاً مرفوعاً، بغير عمد يدعمها، ولادسار ينظمها، ثم زينها بزينة الكواكب، و ضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً، وقمراً منيراً، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقم مائر...>.[١]

<وكان من اقتدار جبروته، وبديع لطائف صنعته أن جعل من ماءِ البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يَبَساً جامداً، ثم فطر منه أطباقاً ففتقها سبع سماوات بعد إرتتاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت عى حده> (الخطبة ٢٠٩)

فقد <كان كل شيءٍ ماءٌ وكان عرشه على الماء، فأمر الله عزَّ ذكره الماءَ فاضطرم ناراً فأمر الله النار فجمدت فارتفع من جمودها دخان خلق الله عزَّوجلّ السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الماء...>.[٢]

---

[١] . من الخطبه الأولى في نهج البلاغة عن الإمام على أميرالمؤمنينΔ.

[٢] . البرهان ٢: ٢٠٧ عن الكافى بسند متصل عن محمد بن مسلم قال قال لى أبو جعفرΔ:.. و في نور الثقلين ٢: ٣٣٨ عن الكافى عن سدير الصير في سمعت حمران بن أعين يسأل أبا جعفرΔ عن قول الله عزّوجلّ: <بديع السماوات> فقالΔ: إن الله عزّوجلّ ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله ←

ذلك، وكما بدأ خلقه من الماء حيث <كان عرشه على الماء> فقد كان قبل أن يكون كان، لم يوجد لوصفه كان، إذ لم يكن شيءٌ ولم ينطق فيه ناطق فكان إذ لا كان>.[١]

<الحمد لله الذى كان في أزليّته وحدانياً>[٢].

و <إعلم علمَّك الله الخير أن الله تبارك وتعالى قديم والقدم صفة دلت العاقل على أنه لاشيءَ معه في ديمومته، فقد بان لنا بإقرار العامة معجزة الصفة أنه لاشيءَ قبل الله ولا شيء مع الله في بقاءه، و بطل قول من زعم أنه كان قبله أو كان معه شيءٌ، و ذلك أنه لو كان معه شيءٌ في بقاءه لم يجز أن يكون خالقاً له، لأنه لم يزل معه فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه، ولو كان قبله شيءٌ كان الأول ذلك الشيء لا هذا، وكان الأول أولى بأن يكون خالقاً للثانى>.[٣]

أوّل ما خلق الله الماء

هذا ما تدل عليه آيتنا هذه: <وكان عرشه على الماء> ومستفيض أحاديثنا، ونموذجاً بارعاً منها حوار بين أبى جعفر الباقرΔ ورجل من علماء الشام حيث قال لهΔ:

<جئت أسألك عن مسأله لم أجد أحداً يفسرها لى، وقد سألت ثلاثة أصناف من الناس، فقال كل صنف غير ما قاله الآخر، قالΔ: وما ذلك؟ فقال: أسألك ما أول ما خلق عزّوجلّ من خلقه؟ فإن بعض من سألته قال: القدرة، وقال بعضهم: العلم، وقال بعضهم: الروح –

فقال أبو جعفر(عليهما السلام) : ما قالوا شيئاً، أخبرك أن الله علا ذكره كان ولا شيءَ غيره، عزيزاً ولا عز كان قبل عزّه، وذلك قوله: <سبحان ربك رب العزة عما

←
فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون، أما تسمع لقوله تعالى: <وكان عرشه على الماء>...

[١] . المصدر باسناده عن أبى عبدالله‌Δ قال:...

[٢] . المصدر عن التوحيد عن إسحاق بن غالب عن أبى عبدالله عن آبائهΔ قال قال رسول الله5:...

[٣] . المصدر عن التوحيد عن إسحاق بن غالب عن أبى عبدالله عن آبائهΔ قال قال رسول الله5:...

يصفون> وكان خالقاً ولا مخلوق، فأول شيءٍ خلقه من خلقه الشيءٌ الذى جميع الأشياء منه، قال السائل: فالشيء خلقه من شيءٍ أول لا من شيء؟ فقال(عليه السلام): <خلق الشيء لا من شيءٍ الشيءٌ من شيئ إذاً كان قبله، ولو خلق لم يكن له إنقطاع أبداً، ولم يزل الاّ ومعه شيءٌ ولكن كان الله ولا شيء معه، فخلق الشيء الذى جميع الأشيباء منه وهو الماء>.[١]

ذلك، فقد يعني الخبر أن أول ما خلق الله النور[٢] نور الإرادة الخالقة التي خلق بها الماء، وكما يروى عن موسى بن جعفر(عليهما السلام) قوله في جواب: أين كان ربك حيث لاسماء مبنيَّة ولا أرض مدحية؟ قال: <كان نوراً في نور و نوراً على نور، خلق من ذلك النور ماءً منكدراً...>[٣]، فالنور الأول ذاته فقد كان في ذاته نوراً، والنور الثانى في مشيئته التي خلق بها الخلق الأول.

وما يروى عن النبى5 من قوله: <أوّل ما خلق الله نور نبيك>[٤] قد تعنى الأولية في كيانه ودرجته لافى كونه ووجوده زماناً، أم إن الأول في المادة الأولية في الزلفى إلى الله هو هو5.[٥]

---

[١] . التوحيد ٣٢ بسند متصل عن جابر الجعفى قال: جاء رجل من علماء الشام إلى أبى جعفرΔ فقال:...

[٢] . العيون ١: ٢٤٠ عن الرضا عن آباءه (عليهم السلام) قال علىΔ في جامع الكوفة إذ قام إليه رجل من أهل اشام فقال أخبرنى عن أول ما خلق الله، قال: خلق النور، قال فمم خلقت السماوات؟ قال: من بخار الماء، قال: فمم خلقت الأرض؟ قال: من زبد الماء، قال: فمم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج.

[٣] . البحار ٥٤: ١٠١ عن الإختصاص قال يونس بن عبدالرحمن يوماً لموسى بن جعفرΔ: أين كان ربك...

[٤] . البحار ٥٤: ١٧٠ عن رياض الجنان باسناده إلى الصدوق باسناده عن جابر بن عبدالله قال قلت لرسول الله5: أوّل شيء خلق الله تعالى ما هو؟ فقال: نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل شيءٍ...

[٥] . وفيه عن جابر قال قال رسول الله5: أوّل ما خلق الله نورى ففتق منه نور علىΔ ثم خلق العرش واللوح والشمس والقمر وضوء النهار ونور الأبصار والعقل والمعرفة، وفي الخصال ومعانى الأخبار ←

وكما <إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين> ـ <وأمرت أن أكون أوّل المسلمين> ثم وليست للأولية الزمنية مكانة أمام الأولية في المكانة.

ذلك، وهكذا المروى عنه5 <أول ما خلق الله نورى> ـ <أوّل ما خلق الله العقل>[1] فنور النبى5 وعقله المعني من العقل <هو أول خلق من الروحانيين>[2] أولية في الدرجة، وهكذا أولية في كيفية المادة التي خلق منه نوره5 ـ خلق من الماء أول ما خلق من الروحانيين، فالأولية في الدرجة بين كل الروحانيين هي لعقل محمد5 ثم هي لكل العقول على درجاتها.

فـ <الحمدلله الذى كان عرشه على الماء حين لاشمس تضيء ولاقمر يسري، ولابحر يجري، ولا رياح تذري، ولاسماء مبنيَّة، ولاأرض مدحيّة، ولاليل يجنُّ، ولانهار يكنُّ، ولا عين تنبع، ولاصوت يُسمع، ولاجبل مرسى، ولاسحاب منشأ، ولا إنس مبروء، ولاجن مذروءَ، ولاملك كريم، ولاشيطان رجيم، ولا شيٌ معدود>.[3]

ذلك وقد يروى عن رسول الهدى5 في كيفية خلق السماوات والأرض من <الماء>: <إن الله عزَّوجلّ لمَّا خلق الماء فجعل عرشه عليه قبل أن يخلق السماوات والأرض،

←

باسناده المتصل إلى سفيان الثورى عن الصادق عن آباءهΔ عن علىΔ قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق نور محمد5 قبل أن يخلق السماوات والأرض والعرش والكرسى واللوح والقلم و الجنة والنار و قبل أن يخلق آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى و عيسى وداود وسليمان وقبل أن يخلق الأنبياء كلهم بأربعمائة ألف سنة» وأربع وعشرين ألف سنة أقول هذا العدد هو من عديد الأدلة على أن المعني بهذه الأولية هو الأولوية، فهو أولى من عديد الرسل كلهم، وهو يجمعهم في نفسه المقدسة وزيادة!

[1] . العوالم (٢ ـ ٣: ٤٠) غوالى اللئالى عنه5 وفيه عن المكارم(٥٩٣) في وصية النبى5 لعليΔ: يا على! أوّل ما خلق الله ـ خلقه الله ـ العقل، وعن العلل عن اميرالمؤمنينΔ <النور>.

[2] . المصدر(٤١) تحف العقول في حديث موسى الكاظمΔ لهشام: يا هشام! إن الله خلق العقل وهو أوّل ما خلقه الله من الروحانيين عن يين العرش من نوره.

[3] . الإقبال باسناده إلى التلعكبرى باسناده إلى أيا ابن سلمة عن أبيه عن أبى عبداللهΔ في دعاء يوم عرفة: أنت الكائن قبل كل شيءٍ والمكوّن لكل شيء ـ إلى قوله ـ : الحمدلله...

وذلك قوله <وكان عرشه على الماء> يعني وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، فأرسل الله الرياح على الماء فتفجر الماء من أمواجه فارتفع عنه الدخان و علا فوق الزبد فخلق من دخانه السماوات السبع فخلق من زبده الأرضين السبع..>.[١]

وفي الباقرΔ: <كان كل شيءٍ ماءً وكان عرشه على الماءِ فأمر الله تعالى الماء فاضطرم ناراً فخمدت فارتفع من خمدها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد>.

وفيه <... وخلق الشيءَ الذى جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شيءٍ إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إلى شيءٍ... ثم خلق النار من المار فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماءً صافية...>.[٢]

ولو كان <الماء> هنا هو المعروف عندنا فكيف ـ إذاً ـ يتفجر ويرتفع عنه الدخان و هو المستصحب مع اللهيب، أو يضطرم ناراً، أو يخلق منه نار، وقد نص القرآن أن السماء كانت دخاناً: <ثم استوى إلى السماء وهي دخان...>(١١:٤١) فهذه التفجرة الأولى في التكوين، التي أولدت السماوات والأرض، كانت في المادة الأم المعبر عنها بـ <الماء> و علَّه أمُّ الذرات وأصل حروف التكوين، وقد تفجرت فانفجرت منها سائر حروف التكوين الصالحة لخلق السماوات والأرض بما فيهما وما بينهما.

ولأن الله تعالى جعل نسب كل شيءٌ إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً ـ وكما يروى ـ فهذا الماء قد يكون هي الحروف الأولية لسائر التكوين بعده، فعلها المادة الفردة ذات بعدين اثنين وهما أقل تركيب لأى كائن كان، فقد خلقت سائر حروف التكوين ـ ذراتٍ أما أشبه ـ من تلك التفُّجرة الأولى، كما تخلق الجُزيآت من هذه الذرات، وتُخلق

[١] . تفسير الإمام الحسن العسكرىΔ قال قال أميرالمؤمنينΔ قال رسول الله5:...
[٢] . تفسير البرهان، ج ١، عن أصول الكافى.

العناصر من الجزيـآت.

والمحاولات الكادحة البشرية هي كلها كالحة في حقول الحصول على معرفة المـادة الأولى التي هي أبسط المواد، وهي البداية والنهاية لكيان المـادة، بـدءً لتكوينـها منـها، وختماً لإعدامها فيها.

فلا مجال ـ إذاً ـ لإحتمال أن <الماء> هنا هـو المعـروف لـدينا، حيـث السـماوات والأرض ـ وهما وليدتا ذلك الماء ـ هما يحملان الماء المعروف، وله نسب همـا الـذرَّتان، كما ولكل ذرة نسب هو أجزاءها التي تتشكل منها، ثم ليس قابلاً للإحتراق حتى يصعد منه دخان هو المستصحب للَّهيب، ولو كان القصد من <الماء> هو الذرات التي يتشـكل منها لكان الصحيح ذكرها بما يناسب تعريفها.

ثم وليست لفظة الماء بالتي تعيِّن المعروف لدينا، بل القرائن هي التي تقرر كيانه، وهنا المقرر كتاباً وسنة هو المادة الأولية لخلق الكون القابلة للإحتراق، التي ليس لهـا نسـب يرجع إليه، وليس خلقها بإرادة الله نسباً له، إنما النسب هو الذى خلق منه، فقـد خلـق كل شيء من ذلك <الماء> ولم يُخلق هو نفسه من شيء، بل هو المخلـوق لامـن شـيءٍ حيث خلقه الله لامن شيءٍ سبق، لا من شيء ذاته فإنه باين من خلقه وخلقه باين منه، ولاشيءٍ خارج ذاته، لأنه حسب النص أوّل ما خلق الله، فليكن مخلوقاً لا مـن شـيءٍ، وإنما بإرادة الله تعالى خلقاً لذلك المخلوق الأول، دون أن يكون هناك مخلوقٌ منه.

فكل خلق بعد الماء له مخلوق منه هو الماء، وليس للماء نفسه مخلوقاً من شيئٍ، وإنما كيانه تركُّب مَّا تحتاجه المادة في أصل كونها وكيانها، وليس ذلك تركّباً من جزئيه بعـد خلقهما وكونهما منفصلين، حيث لاكون ولاكيان لكل منهما إلاَّ حالة تركُّبـهما، فـذلك المركب يكون كأول كائن مركباً، ثم إنعدامه يساوي ويساوق إنفصالهما، فإنـه إنفصـال عن كونهما تماماً، وتمام التفصيل حول هذه المادة البسيطة راجع إلى آية الذاريات: <ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين>.

وحصيلة البحث حول الآية ـ بمراجعة أخرى إليها ـ كالتالية:

<الماء> فيها حيث يقابل <السماوات والأرض> ليس هو الماء المخلوق في السماوات والأرض، فهما ـ كلما تذكران في القرآن ـ عبارة اخرى عن الكون كله، فحين تفردان بالذكر تعنيان كافة الكائنات المخلوقة وحين تُقرنان بـ <الماء> تعنيان الكون كله إلاّ <الماء>.

ثم الله جعل للسماوات والأرض نسباً هو الماء ولم يجعل للماء نسباً ينسب إليه، فقد يعلم أن ليس لهذا الماء نسب، وماء السماوات والأرض له نسب الـ (H_2O) حيث ركِّب منهما.

ولأن كافة التركيبات غير الأولية راجعة إلى <الماء> فليكن هو المركب الأول غير المركب عن مادة أخرى، فهى ـ إذاً ـ مادة فردة لاتركيب لها عارضاً على أجزاءها، اللَّهم إلا التركب الذاتي الذي لو تحلل عنه لكان تحللاً عن كونه بأسره، رغم سائر التحللات في التركبات غير الأولية، فإنها تحللات عن الكياني المادي العارض دون كونه الذاتي أصلاً لوجوده.

فلذلك لاتعنى هذا <الماء> أية مركَّبة مادية غير الأولية، سواة أكانت مركبة الماء المعروف عندنا، أم الذرات التي تشكله ككل (H_2O) أم كلٌّ من ذرتى الأوكسيجين والئيدروجين، أم وأجزاءَ كلٍّ، إذ لم تثبت أمومة سائر المركبات غير الأولية لأية ذرة وصل العلم إليها حتى الآن، ولن يصل إليها بعد الآن، حيث الأم الأولى غائبة عن الحواس والعقول في كلّ الحقول، إلا أن يكشف الوحي عن وجهها النقاب، وقد كشف هنا وفي آية الذاريات: <ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكَّرون. فروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين>(٥١:٤٩).

ذلك، وكما أن المركبات غير الأولية ركِّبت من عناصر وجزيآت وذرات، وكذلك الذرات ركبت من أُخرى لانعرفها، هكذا المادة الفردة الأولى أخذت تتركب بمختلف الفواصل والأشكال حتى حصلت مواد أُخرى ومنها الذرات التي نعرفها.

ولأن <الماء> كيفما كان ـ ليس إلاّ مادة، إذاً فليس الكون المخلوق منها إلاّ مادة أو

مادية، إذ لا يُخلق المجرد عن المادة كما لا تخلق المادة عن المجرد لمكان التباين بينهما، والمجرد مجرد عن الخلق والحدوث، فالأرواح وما أشبه، المعبّر عنها بالمجردات هي كلها ماديات خلقت من <الماء>.

ثم وتأويل الماء إلى العقل المجرد والروح المجرد ليس ليفيد القائلين الغائلين بتجرد الأرواح والعقول بنفس السند، وليس الماء مركباً من المجرد والمادة ـ لوصح ذلك التركب وأمكن ـ حيث ينتشيء المجرد عن مجرده! والمادة عن مادته، إنما هو <الماء>.

إذاً فخلقُ كل شيءٍ من <الماء> يطارد خلق المجردات إلاّ ألاّ تكون من الأشياء المشمولة لـ <السماوات والأرض> و<الله خالق كل شيء> وما أشبه من آيات.

ذلك عرض للمادة الأولية المخلوق منها السماوات والأرض بتعبير عبير من العليم الخبير، وأين ذلك مما في التوراة المصرحة: <في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرفُّ على وجه الماء> (التكوين ١: ١ ـ ٣).

فإن كان ذلك الماء هي المادة الأولية، فاذا تأخر عن <السماوات والأرض> المخلوقتين منه، ثم وإن كان ـ إذاً ـ يعني من <روح الله> عرش الله، فما هي المناسبة بين روح الله وعرش الله؟ أم يعني <الماء> المخلوق كسائر الكون من المادة الأولية، فما يختص ذلك الماء بين سائر الخلق برفّ روح الله عليه؟!

فإنما هي كلمة إشراكية متَّخذَّة من الوثنيات العتيقة حيث تعتبر <سيفا>: الروح المهلك: الأقنوم الثالث، أنه هو الروح الذي يرف على وجه الماء!.[1]

وهذا الإله الذي يرف روحه على وجه الماء حق له أن يعني من ذلك السبح الطويل

---

[1] . هذا هو الثالوث البوظى كما يقول المستر فابر في كتابه أصل الوثنية: <نجد عند الهنود ثالوثاً من برهمة وفشنو وسيفا، وهكذا نجد عند البوظيين فإنهم يقولون: إن بوظا إله واحد ويقولون بأقانيمه الثلاثة، وكذلك بوظى <جينست> يقولون عن <جيفا> أنه مثلث الأقانيم، والأقنوم الثالث: سيفا هو الروح الذى يرف على وجه الماء.

الوبيل، فيعيى ـ بأحرى ـ في خلقه السماوات والأرض وكما في التكوين (١: ٢ ـ ٤) <فأكملت السماوات والأرض وكل جندها>.

<وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع علمه الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً>!.

ذلك، ولهذا سمّوا يوم السبت سبتاً اعتباراً بسبته تعالى عن خلقه استراحة فيه! والقرآن يزيف هذه الهرطقة الحمقاء قائلاً: <ولقد خلقنا السماوات والأرض في ستة أيام وما مسَّنا من لغوب>(٣٨: ٥٠) قضية هيمنته على ما بين يديه، تزييفاً لكل تجديف، وتصديقاً لصالح الوحى فيه.

ذلك، ولنرجع إلى تتمة البحث حول الآية مهما لم نقض حقها كما يحق، وإنما قدمنا قدر المستطاع.

<وَ هُوَ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ ألأَرْضَ فى سِتّةِ أيّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أيّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إنّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنّ الّذينَ كَفَرُوا إنْ هذا إلاّ سِحْرٌ مُبينٌ>

بلوىً بذلك الكون الواسع الشاسع في حقل العمل بكل جوانبه، فميدان الكون مسرح للتسابق في إحسان العمل.

<إنّا جَعَلْنا ما عَلَى ألأَرْضِ زينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أيّهُمْ أحْسَنُ عَمَلاً>(١٨: ٧)

<لِيَميزَ اللّهُ الْخَبيثَ مِنَ الطّيِّبِ>(٨: ٣٧)

وأحسن عملاً هو أحسن عقلاً فقد <تلا رسول الله5 هذه الآية فقيل ما معنى ذلك يارسول5 قال: <ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً، ثم قال: وأحسنكم عقلاً أورعكم عن محارم الله وأعلمكم بطاعة الله>.[١]

[١] .الدر المنثور٣: ٣٢٢، أخرج داود بن المجر في كتاب العقل وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا رسول الله5...

فليس يعني <أكثركم عملاً> ولكن <أصوبكم عملاً> وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة[١] <ألا إن الله قد كشف الخلق كشفةً لا أنه جهل ما أخفوه من مضمون أسرارهم ومكنون ضمائرهم، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فيكون الثواب جزاءً والعقاب بواءً،>.[٢]

فـ <إن الله خلق الخلق فعلم ما هو إليه صائرون، فأمرهم ونهاهم فما أمرهم به من شيءٍ فقد جعل لهم السبيل إلى الأخذ به، وما نهاهم عنه من شيءٍ فقد جعل لهم السبيل إلى تركه، ولايكونون آخذين ولاتاركين إلاّ بإذنه، وما جبر الله أحداً من خلقه على معصية بل إختبرهم بالبلوى كما قال: <ليبلوكم أيكم أحسن عملاً>.[٣]

ذلك، وأصل الخق وفصله في ستة أيام هما <ليبلوكم> ففي أصله إذ <كنت كنزاً> مخفياً فأجبت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف> وفي فصله لنحسن العمل بمَهلٍ ودون عَجَل، حيث المهل هو على أية حال خير من العجل إلا لضرورة، والله خلق الكون من <الماء> في ستة أيام دون ضرورة <ليبلوكم> في فاسحة المجالات والجلوات <أيكم أحسن عملاً>.

<**ولئن قلت**> بعد كل هذه التفاصيل <**إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا**> القول وذلك البعث <**إلا سحر مبين**> وهم يعيشون واقع الخلق المنَّضد المنظوم، وواقع الدلالات الصادقة من الآيات البينات تكوينية وتدوينية! وقد تخطَّوا عن فرية السحر على القرآن إلى فريته على إنباآته، وكل ذلك لعجزهم عن نقضه.

هذا، وقد يستفاد من <ليبلوكم> غايةً لخلق السماوات والأرض، أنها البلوى

---

[١] . نورالثقلين ٢: ٣٤٠ في أصول كافى عن أبى عبدالله∆ في الآية.

[٢] . المصدر في نهج البلاغة قال∆:... ثم قال: الابقاء على العمل حتى يخلق أشد من العمل والعمل الخالص الذى لاتريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عزَّوجل والنية أفضل من العمل إلا أن النية هي العمل ثم تلا قوله عزّوجلّ: قكل يعمل على شاكلته يعنى: على نيته.

[٣] . المصدر في كتاب الإحتجاج وروي عن علي بن محمد العسكرى(عليهما السلام) أن أبا الحسن موسى بن جعفر(عليهما السلام) قال:...

المتواترة ليطلَع فيها <أيكم أحسن عملاً> فهم ـ إذاً ـ غايةٌ لذلك الخلق العظيم.

ولأن محمداً5 هو أول العابدين وأفضل العارفين، فهو الغاية القصوى من الخلق أجمعين، هو ومن معه من المحمديين من عترته وسائر الأنبياء الله ورسله والصالحين من عباد الله. وهكذا يصدَّق المروي في حديث قدسي: <لو لاك لما خلقت الأفلاك>.

صحيح أن في الخليقة من هم كالإنسان في أنه بأحسن تقويم، ولكن الفعلية المتميزة في ميدان التقويم الأحسن بكدح كامل وسعى شامل كافل ليس إلاّ لمحمد5 فهو الأفضل الأكمل على الإطلاق بين العالمين أجمعين منذ بداية الخلق إلى يوم الدين.

ذلك، وحتى إذا يعني من <أيّكم> كافة المكلفين ـ وهو صحيح كأصل ـ فلا ريب أيضاً أنه5 فاق المكلفين كلهم لأنه <أول العابدين> على الإطلاق طول الزمان وعرض المكان.

<وَ هُوَ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ فى سِتّةِ أَيّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنّ الّذينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبينٌ>

فـ <بادروا الموت وغراته، وأمهدوا له قبل حلوله، وأعدوا له قبل نزوله، فإن الغاية القيامة وكفى بذلك واعظاً لمن عَقَل، ومعتَبراً لمن جَهِل، وقبل بلوغ الغاية ماتعلمون من ضيق الأرماس، وشدة الإبلاس، وهول المطلع، وروعات الفَزَع، واختلاف الأضلاع، واستكاك الأسماع، وظلمة اللَّحد، وخيفة الوعد، وغم الضريح، وردم الصفيح، فاللهَ الله، عباد الله، فإن الدنيا ماضية بكم على سَنَن، وأنتم والساعة قَرَن، وكأنما قد جاءت بأشراطها، وازِفت بأفراطها، وأناخت بكلا كلها، وانصرمت الدنيا بأهلها، وأخرجتهم من حضِنها، فكانت كيوم مضى، أو شهر إنقضى...> (الخطبة ٢٢٣)

كروية الأرض أو بيضويتها

<إِنّ رَبّكُمُ اللّهُ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ فى سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوى عَلَى

الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمينَ>(٥٤)

هنا تعريف بتأويل المبدأ للقرآن وإلى معاده وكما القرآن كله تعريف مختصة بأصل الخلق دون التدبير، ولقد فصلنا القول حول خلق السماوات والأرض في ستة أيام بطيّات آياتها ولاسيما في <فصلت والنازعات والبقرة> وهنا الإستواء على العرش هو الإحاطة على عرش القدرة والتدبير بعد خلقهما، وإن كان الله على كل شيء قديراً، ولكن فعلة فعلته القدرة والتدبير ليست إلاّ بعد فعلية المقدور والمدبَّر، وحاقة البحث عن العرش تجدها في عرش الحاقة وما أشبه كآية الكرسى وسواها.

وهنا <يغشي الليل والنهار> يعني إغشاء الليل النهار قصداً إلى الظلمة الطارئَة على الجو، يطلبه حثيثاً في هذه الدورة الدائبة الدائرة، فدور الليل يطلب النهار في هذا الفلك الدوار.

فالنهار هنا هو الجو ـ المظلم بطبيعة الحال ـ الذي طرءه الضوء، فإغشاء الليل النهار هو طريان الظلمة على جو النور، ومما تشبهها <وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ> فإن سلخ النهار من الليل هو سلخ الضوء عن أفقه الخاص الذي هو مظلم لولا الضوء، فالليل والنهار هما عارضان على الجو، ولولا الجو فلا ليل ولانهار، كما لولا الوجود فلا أزلية ولاحدوث، ثم الليل الظلمة مخلوق مع الجو ذاتياً، والنهار النور مخلوق بعد الجو عرضياً، لسلخ النهار عن الليل لمحة إلى عرضية النهار على الجو المظلم بطبيعة الحال، وإغشاء الليل النهار إشارة إلى زوال النهار بزوال الشمس، فـ <يُغشي الليل النهار> هو رجوع الجو إلى حالته الأصلية الطبيعية.

ثم و<يطلبه حثياً> لمحة صارحة لاختلاف الآفاق الأرضية، فهي إذاً مدوَّرة غير مسطحة، وإلاّ لم يكن معنى ولا واقع لـ <يطلبه حثيثاً> أن يطلب الليل النهار حثيثاً تدريجياً سريعاً مجداً ـ حيث الحث بجد وسرعة ـ بل ليكن الأرض كلها ليلا أم كلها نهاراً لو كانت مسطحة و شبه مسطحة، وهذا الطلب ليس إلا من حصائل حركة

الأرض وكرويتها، أم وحركة الشمس.

ذلك، فلولا أن الظلمة أصل للجو المظلم، مخلوق معه دون غيار، لم يكن لسلخ النهار عنه معنى صالح، حيث السلخ ليس إلا لقشر عارض، وأما <يغشى الليل النهار> فإنه اعشاءٌ، لذلك الجلد العارض بغشاء الظلمة الذاتية.

ثم <يطلبه حثيثاً> لايصدق إلا باختلاف الآفاق، وإلا لم يكن طلبه لاحثيثاً ولا غير حثيث لمكان المفارقة البائنة بينهما، إذاً فلتكن الأرض منحنية السطح كروية أو بيضوية أماهيه حتى يصدق <يطلبه حثيثاً> سريعاً.

ذلك، فهذه الآية المغشية الليل والنهار، ومعها آية التكوير: <يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَي النّهار وَ يُكَوِّرُ النّهارَ عَلَي اللَّيْل>(٥:٣٩) وهكذا آيات الإيلاج بينهما كـ < ذلِكَ بِأَنّ اللّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النّهار وَ يُولِجُ النّهارَ فِي اللَّيْل>(٦١:٢٢) وآية السلخ <وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ>(٣٧:٣٦)

هذه الآيات كلها إشارات متقنة لكروية الأرض ودورانها ولم تكن الظروف النازلة فيها القرآن تسمح للتصريح بذل إذ كان يوجه بالتكذيب سناداً إلى الحس، والعلم حينذاك.

فهذه وأضرابها من الإشارات اللطيفة القرآنية المعبر عنها بالبطون، كانت لابد منها في ذلك الكتاب المحلق على كافة المكلفين منذ نزوله إلى يوم الدين.

فقد يعبر عن حركات الأرض بـ <الراجفة> و <الكفات> و <الذلول> تدليلاً واضحاً على أن الأرض محكومة بحركات متداخلة فهي <راجفة> ومسرعة في الطيران منقبضة على سطحها وفضاءها الكائنين فيها: أحياءً وأمواتاً <كفاتاً> وأنها على حركاتها معدّلة لحد لاتحس <هو الذى جعل الكم الأرض ذلولاً> وما أشبه.

وهنا يقول الإمام علىΔ: <وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم من صياخيدها.. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها>.

ذلك، وما منا اليوم صورة رائعة للأرض بواسطة الأقمار الصناعية تبين لنا كيف يدخل الليل في النهار تدريجياً ويتكور عليه، وكلها أدلة فلكية قرآنية على كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس.

ثم وخلق <الشمس والقمر والنجوم> حال كونها مسخرات ككل <بأمره> حيث سخرها للخلق انتفاعاً لهم منها، دون تدبير ربانى لها بأصولها: <وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار>(٣٣:١٤) وذلك يختلف اختلافاً مَّا عما سبقها في الآية نفسها: <وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ> فان لنا تأثيرات في الفلك والأنهار دون الشمس والقمر والليل والنهار.

هذا، وكما أن <الشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره> في ظاهر التكوين، كذلك ـ و بأحرى ـ شمس الرسالة القدسية وقمرها ونجومها في باطن التشريع، إذ يحمله حملته من الله وكما يروى عن رسول الله5: <النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتى أمان لأُمتى>.[1]

[1] . كما في ينابيع المودة(٢٠) من طريق الحاكم، وابن بطريق في المعدة من طريق مسند أحمد عن علىΔ وأحمد بن حنبل في فضائله: ١٨٩ ح ٢٦٧ عنهΔ والحاكم في المستدرك ١٤٩ عن ابن عباس و ج ٢: ٤٤٨ باسناده عن جابر و ج ٣: ٤٥٧ باسناده عن محمد بن المنكدر عن أبيه، وكذا الذهبى في تلخيص المستدرك، ورواه الطبرانى فثى المعجم الكبير ٥: ٢٥ باسناده عن إياس بن سلمة عن أبيه عنه5 والسيوطى في إحياء الميت من طريق الحاكم عن ابن عباس ومن طريق ابن أبى شيبة ومسدد في مسنديهما، والترمذى في نوادر الأصول، وأبويعلى والطبراني جميعاً عن سلمة، ورواه في الجامع الصغير ٥٨٧ عن سلمة بن الأكوع وفي ص ٧ من طريق الحافظ: أبوبكر عبدالله بن محمد بن أبى شيبه النخعى والمسدد في مسنديهما، والترمذى في نوادر الأصول، وأبويعلى في مسنده والطبرانى في الكبير، وابن عساكر باسنادهم جميعاً عن إياس بن سلمة عن جابر، وأخرجه من طريق الحاكم عن ابن عباس الحزاورى في مشارق الأنوار ٩٠ والنقشبندى في رموز الأحاديث ٨٢ والصنعانى في مشارق الأنوار ١٠٩ والحضرمى في رشفة الصادى ١٧ و ٣٧ و ٧٨ من طريق الحاكم عن ابن عباس وأحمد في المناقب عن علىΔ، وفي وسيلة المآل ٥٩ عنهΔ والسهمودى في الإشراف على فضل الأشراق ٤٠ والأمر تسرى في أرجع المطالب ٣٢٩، والنبهانى في الشرف المؤبد ٢٩ عنهΔ وفي جواهر البحار في فضائل النبي المختار ٣٦١/١، والنبهانى في الفتح الكبير ٣: ٢٦٧ سلمة، والحموينى في فرائد المسطين ٢: ٢٤١ و ٢ و ٥٢١ و الطبرى في ذخائر العقبى ١٧ والزرندى في نظم درر السمطين ←

وهكذا يخاطَب النبى5 في حقل الأمر <ليس لك من الأمر شيء> (١٢٨:٣) وكما هنا <ألا له الخلق والأمر>.

فلست ـ أنت أيها الرسول النبي الألمعي ـ لست تملك شيئاً من أمر التكوين والتشريع والثواب والعقاب والعفو، أو الإستئصال و الاستصلاح أو تدبير المصالع في أوقاتها، أو تقديم الآجال عن مقراتها أو تأخيرها وما أشبه من الأمور الربانية في حقل التكوين والتشريع، و <انما أنت منذر> و <إنما أنت مذكِّر. لست عليهم بمصيطر>(٢٢:٨٨)

<أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَکَ اللّهُ رَبّ الْعالَمينَ> له الخلق وله أمر الخلق استمراراً وتدبيراً وما أشبه من شؤون الخلق لصالحه غاية وبداية وعلى أية حال في كل تكوين وتشريع وما أشبه.

ذلك، فلا مجال هنا لبعض التفسلفات الفالسة الكالسة أن <الأمر> يعني إيجاد المجردات، والخلق هو إيجاد الماديات، فقد ذكر هنا خلق السماوات والأرض و الإستواء على عرش تسخيرهما بسائر النجوم وتدبيرها كلها وهو الأمر بعد الخلق **<أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَکَ اللّهُ رَبّ الْعالَمينَ>** حيث جمع لنفسه الخلق والأمر دون أن يتخذ لنفسه شريكاً أو يكون له يد في الأمر كما لا شريك له في الخلق، والمشركون معترفون بان الله تعالى هو الخالق لاسواه، ولكنهم يعطون أمر الخلق لغيره كلاًّ أو بعضاً.

ثم الأمر هنا ليس ليختص بأمره تعالى بعد خلق الكون، بل وله الأمر قبله وقبل

←

٢٣٤ والقدوس الحنفى في سنن الهدى والهيثمى في مجمع الزوائد ٩: ١٧٤ والكافى في السيف اليمانى المسلول ٦٤ و الكازرونى في شرف النبى ٢٨٣ والخوارزمى في مقتل الحسينΔ ١: ١٠٨ عن علىΔ وابن عباس والأنسى اللبنانى في الدرر واللآلى ٢٠٣ وضيف الله في فيض الغدير ٢: ٦٢ وسفيان الثوري في ترجمة بن عباس من كتابه: المعرفة والتاريخ ١: ٥٣٨ والصبَّان في اسعاف الراغبين ١٤٤ والهيثمي في الصواعق ١٨٥ والقندوزي في الينابيع ٢٠، والمتقي الهندى في كنزالعمال ١٣: ٨٨ (عنهم ملحقات احقاق الحق ٩: ٢٩٤ ـ ٣٨٠ و ١٨: ٣٢٣ ـ ٣٣٠ و غاية المرام ٢٧٤ الباب ٦٦ و ٦٧)

أمره، كما وله الخلق قبل الخلق والأمر وبعدهما فهو <خالق إذ لامخلوق وعالم إذ لامعلوم..>[١] فـ <من زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبياءه لقوله: <ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين>[٢]

وقد يعني الأمر هنا الهدى الشاملة لكل خلق تكويناً وتشريعياً: <ربنا الذى أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى> (٥:٢٠) هداية تناسب غايته المخلوق لها.

فهنا <ألا له الخلق والأمر> حصر لهما بساحة الربوبية، وغايتها الأخرى هو الرب لاسواه، لايشاركه أحد في خلقه أو هدى، في تكوين أو تشريع، ولا تعنى الرسالة الإلهية التي هي القمة العالية في مناصب لمن سوى الله، إلا رسالة الأحكام التي يشرعها الله سبحانه.

ذلك، وصيغة الخلق في القرآن تعني ـ دونما استثناء ـ كل الخليقة، مادية بطاقاتها ومنها الأرواح فقد <خلق كل شيء وهو بكل شيءٌ عليم>(١٠١:٦) ـ < أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللّهُ مِنْ شَيْءٍ>(١٨٥:٧) < وَ مِنْ كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ>(٤٩) <خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ>(٥:٢٢) < خَلَقْناهُمْ مِنْ طينٍ لازِبٍ>(١١:٣٧)

فهذه الآيات ونظائرها تدل على تحليق الخلق على كلّ شيءٍ، سواء أكان خلقاً متدرجاً في تكوّنه كما السماوات والأرض برمَّتهما، أم دون تدرج كما الخلق الأوّل لمكان خلقه لامن شيءٍ، فالمخلوق من شيءٍ يجوز فيه التدرج، ولكن الذى يخلق لامن شيء فلا مجال فيه لتدرج، فغير الخلق الأول بين متدرج التكوّن وسواه، والخلق الأول

---

[١] . نورالثقلين ٢: ٤٠ في الخرائج والجرائج قال أبو همام سئل محمد بن صالح أبا محمدΔ عن قوله تعالى: <لله الأمر من قبل و من بعد> فقال: له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد أن يأمر به مما يشاء فقلت في نفسي هذا القول لله .

[٢] . الدرالمنثور ٣: ٩٢ ـ أخرج ابن جرير عن عبدالعزيز الشامى عن أبيه وكانت له صحبة قال قال رسول الله5 من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط ما عمل ومن زعم...

محصور في سواه.

وكما أن <الأمر كله لله>(١٥٤:٣) كذلك التدريج وسواه كله لله، والأمر المذكور في القرآن(٧٢) مرة، لم يأت وإن مرة يتيمة يعني إنشاة المجردات غير المتدرجة في الإنتشاء، إنما هو بين أمر التكوين والتشريع أمراً فيهما ومطلق الشيء والفعل،دونما اختصاص بمجرد وما أشبه، فالأمر الدستور يجمع بالأوامر، والأمر الفعل أو الشيء بالأمور.

ثم الأمر بعد استواءه على العرش هو كل أمر في حقل الخلق: <ثم استوى على العرش يدبر الأمر>(٣:١٠)

وطليق الأمر تدريجياً وسواه لاينافي في ذكره في سواك <وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب>(٧٧:١٦) رغم أن أمر الساعة ـ وهو مجموع أمري قيامة الإماتة والإحياء ـ ليس ـ فقط ـ في إيجاد مجردات، إنما هو تدبير الكون بلمحة، ثم تعميره بلمحة أخرى: <وَ نُفِخَ فِي الصّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السّماواتِ وَ مَنْ فِي ٱلأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ اللّهُ ثُمّ نُفِخَ فيهِ أُخْري فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ>(٦٨:٣٩) فلا يدل < قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي>(٨٥:١٧) انه من عالم المجردات لمكان الأمر، وانما القصد إلى أنه أياً كان ليس إلاّ من الله، سواء أكان روح العصمة الرسالية أم روح القرآن أم سائر الأرواح، إذ ليس للخلق مدخليتها أبداً، وإنما كله من الله، وان كل خلق هو من الله.

ولو أن الأمر غير متدرج، فيكف ـ إذاً ـ <يَتَنَزّلُ ٱلأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلي كُلّ شَيْءٍ قَديرٌ وَ أَنّ اللّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا>(١٢:٦٥)

وأما <إِذا قَضي أَمْرًا فَإِنّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ>(١١٧:٢) ألاّ تدرج في أمره، فهذا لا يقضى سلب أى تدرج وان كان بأمر الله.

تقسيم الأيام الستة بين خلق السماوات والأرض، خلق الأرض قبل السماء

١

<قُلْ أَ إِنّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالّذى خَلَقَ الْأَرْضَ فى يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدادًا ذلِکَ رَبّ الْعالَمينَ>(٩)

آيات أربع من <فُصِّلت> هي منقطعة النظير في سائر القرآن بما فَصَّلت من أيام الخلق بين السماوات والأرض بعد إذ أُجملت في آياتها السبع[١] ولكنها تركت إجمالات بعد تفصيلاتها مما حيّرت ألباب الباحثين عنها فأصبحت معترك الآراء المتضاربة، وقد توضحها هي بنفسها عند التأمل اللائق بها فيها، والآيات التي تُناظرها تناصرها في إيضاح ما أجمِل منها ما أجمَلها، دون أن نمشي في تفسيرها مكبين على وجوهنا، لاجئين في دراسة القرآن إلى نظريات العلماء القابلة للتبديل أو التعديل، فلا نحمل على القرآن ما لايتحمله من توجيهات، أو هو ساكت عنها، وإنما نستنبط من نصوصه

---

[١] . السبع هي التالية:

١ ـ <إِنّ رَبّكُمُ اللّهُ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ فى سِتّةِ أَيّام ثُمّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْش يُغْشِى اللّيْلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثًا وَ الشّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النّجُومَ مُسَخّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللّهُ رَبّ الْعالَمين>(٥٤:٧)

٢ ـ <هُوَ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ فى سِتّةِ أَيّام ثُمّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْش يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْض وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ>(٤:٥٧)

٣ ـ <وَ هُوَ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ فى سِتّةِ أَيّام وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنّ الّذينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبينٌ>(٧:١١)

٤ ـ <إِنّ رَبّكُمُ اللّهُ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ فى سِتّةِ أَيّام ثُمّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْش يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكّرُونَ>(٣:١٠).

٥ ـ <الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فى سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبيرًا>(٥٩:٢٥)

٦ ـ <وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فى سِتّةِ أَيّام وَ ما مَسّنا مِنْ لُغُوب>(٣٨:٢٥)

٧ ـ <اللّهُ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فى سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىّ وَ لا شَفيعٍ أَ فَلا تَتَذَكّرُونَ>(٤:٣٣)

وظواهره مشياً على صراط مستقيم، حيث القرآن هو الإمام الذى لابديل عنه. ولا دليل أوضح وأتقن منه، فهو ـ فقط ـ المحور وسائر الأنظار حائرة حوله، نصدق منها ما صادقه نصه دون تمحُّل، ونُرجِّح ما يصادق ظاهراً منه ثابتاً متظاهراً بتفسير منه، ونضرب عرض الحائط ما يخالفه نصاً أو ظاهراً جلياً أم لا يوافقه اللهم إلا المتواتر الذي لاأثر عنه في القرآن سلباً أو ايجاباً فهو المستفاد للمعصومين عليهم السلام عن الحروف الرمزية.

هنالك تساؤلات حول أيام الخلق أماهيه؟ وما هما اليومان تارة لخلق الأرض، وأخرى لتسبيع السماء، وما هي الأربعة بينهما ولماذا هيه و الجمع ثمانية؟ أو قد يزيد عليها يوم لأقل تقدير نصيباً مفروضاً لخلق الدخان. فأين الثمانية او التسعة أماهيه؟ واين الستة الثابتة بآياتها السبع؟ <ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً>؟

ثم ومن <ثم استوى إلى السماء> نتلمح كصراحة أن خلق الأرض كان قبل السماوات بمرحلة، فهو قبل خلق الأنجم في السماء الدنيا بمرحلتين، فهى ـ إذاً ـ قبل الشمس المخلوقة مع الأنجم، وقد تُنازع ذلك السبق آياتِ النازعات < ءَ أَنْتُمْ أَشَدّ خَلْقًا أَمِ السّماءُ بَناها(٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها(٢٨) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها(٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها(٣٠) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها(٣١) وَ الْجِبالَ أَرْساها(٣٢)

مَتاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ> (٣٣ـ٢٧).

وعلى ضوءها النظريات العلمية القائلة أن الأرض هي من مواليد الشمس المنفصلة عنها، المستضيئة منها! ومن ثم فماذا تعنى <ثم استوى إلى السماء وهي دخان> من الإستواء ومن الدخان؟ وما هي المقاولة بين رب العالمين والأرض ودخان السماء؟ وما هو إتيانهما طوعاً أو كرها وقولهما: <أتينا طائعين> وإلى مَ يرجع ضمير الجمع في <فسوّاهن> ولايسبقه جمع؟ وما هو الوحي في كل سماءٍ، دون إلى كل سماءٍ، أم لكل

سماءٍ؟

ما هو اليوم:

اليوم في مطلق ما يعنيه هو واحد الزمان حقيقياً أو نسبياً، فالواحد الحقيقي هو واحد الحركة في المادة الأوّلية ولا يعلمها إلا الله أو من علَّمها إياه كـ <كل يوم هو في شأن> (٢٩:٥٥)

والنسبي ـ بما نعرف ـ يعم اليوم الإلكتروني وهو مقطع من الزمن للدور الإكتروني حول شمسها البروتونية، وسنتها ١/ ٥٠٠٠٠ ثانية أرضية... ثم اليم الأرضي نهاراً أم بليله ـ كما في آيات ـ قد لاتعدو عشرين[١] بين الآى التي تحمل اليوم وهي تذرف أربعمائة وتسعة وأربعين.

ثم أيام عمر الإنسان طفولة وكهولة وشيخوخة، إلى ايام السلطة لآل فلان وفلان، الى يومي الدهر، فـ <الدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا بتطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر> وإلى أيام عمر الكون منذ البداية حتى الآن، وإلى يوم القيامة، وإلى ايام السنة الأربع وهي فصولها التي يتقدر فيها الأرزاق كلها، وإلى الايام النجومية، ثم الأيام الكونية التي خلقت فيها السماوات والأرض، وقد تعد يوماً واحداً بحساب المجموعة: ﴿إِنّ عِدّةَ الشّهُورِ عِنْدَ اللّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْرًا في كِتابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فيهِنّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكينَ كَافّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافّةً وَ اعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقينَ﴾(٨:٣٦) حيث اعتبرت السنة يوماً واحداً، والأيام التكاملية للأرض والسماوات بعد خلقهما، أمّاذا من أيام ابتداءً من <كل يوم هو في شأن> وإنتهاء إلى يوم الكون كله منذ خُلِق حتى النهاية، وبينهما متوسطات من هذه وسواها.[٢]

إن الايام المذكورة في آيات التقسيم ليست هي الوليدة عن دوران الأرض بعد

---

[١] . وهي الآيات ٢: ٢٠٣ و ٣:٤١ وأضرابها.

[٢] . راجع ج ٢٩: ١١٦ ستجد لليوم على ضوء آية المعارج.

خلقها ودحرها، إذ تسبق الأرض والسماء، بل هي على الترتيب بين أيام الخلق، وتكملة الخلق، والأيام الفصول، وهي مختلفة الزمان وأحيانا بمليارات الأضعاف بنسبة بعضها لبعض.

فليست هي الأيام النجومية العالمية وواحدها، ٤٣٢٠٠، سنة[١] حيث القرآن يخاطب المكلفين اجمعين دون النجوميين حتى يحصر صلاحاته الكونية فيما يصطلحون، ولا لأيام التدبيرية الألف او المعارجية الخمسين الف، فإنها خاصة بمواردها في آياتها، وانما هي ادوار الخلق والتكملة اماذا مما يحوم حوم خلق السماوات والأرض، حسب المراحل المختلفة المتدرجة من خلق الكون وتكامله.

هنالك يومان واربعة ويومان في آياتها الأربع من <فصلت> هذه، وليس ليُعنى من الكل أيام أصل الخلقة التي هي ستة، مع العلم أنها لاتخرج عن نطاق الخلقة!

أترى أن <أربعة أيام> تعنى تتمة الأربعة[٢] فهى مع اليومين الاخرين ستة، كما يقال:

---

[١] . في تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوى ٤: ١٦٥: اعلم ان لفظة (يوم) قد وردت في علوم البابليين والآشوريين التي عثر عليها العلماء في المكتبة الملكية بقصر (آشور بانيبال) ففى هذه الخزانة وجدوا انهم قسموا منطقة البروج الى اثنى عشر قسماً وهي البروج، وقسموا الدائرة ٣٦٠ درجة وهكذا الدقيقة والثانية.. والأسبوع سبعة ايام ويقولون ان تقهقر الاعتدالين في زمان (٤٣٢٠٠) سنة ويسمون هذه المدة يوماً من الايام العالمية وجعلوا السنة الشمسية التي قدرها ٣٦٥ يوماً وربع يوم ثانيه واحدة من السنة العالمية ثم يقسمون اليوم العالمى إلى اثنتى عشرة ساعة، فتدبَّر تجد أن اليوم جاوزت عشرات الألوف من السنين وهو اليوم العالمى.

[٢] . ومما يؤيده من الروايات ما في الدر المنثور ٥: ٣٦٠ ـ اخرج ابن جرير والنحاس في ناسخه وابوالشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى في الاسماء والصفات عن ابن عباس ان اليهود اتت النبى5 فسألته عن خلق السماوات والأرض فقال5 خلق الله الأرض يوم الاحد والإثنين وخلق الجبال وما فيهن من منافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه اربعة فقال تعالى: (قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذى خَلَقَ الْأَرْضَ في يَوْمَيْن وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبّ الْعالَمين(٩) وَ جَعَلَ فيهاَ رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فيها وَ قَدَّرَ فيها أَقْواتَها في أَرْبَعَةِ أَيّام سَواءً لِلسّائِلين(١٠) وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملَّائكة الى ثلاث ساعات بقين منه فخلق في اول ساعة من هذه الثلاثة الآجال حى يموت من مات وفي الثانية القى الآفة على كل شيء من منتفع به، وفي الثالثة خلق آدم واسكنه الجنة وامر ابليس ←

سرت من البصرة إلى الكوفة في يومين وإلى كربلاء في أربعة أيام، والآيات السبع أن الخلق في ستة أصلح قرينة لهكذا توجيه؟ ولكنه خلاف الفصيح والأدب الصحيح أن يتمحّل في مثل هذه المعاريض الهامة بين معترك الآراء، ولزامها البيان الصريح <خلق الأرض في يومين وجعل فيها... في يومين> أمَّاذا، والمثال إن صح في نفسه ليس إلاّ في استمرارية فعل واحد كالسفر وأمثاله، وهنا أفعال عِدَّة مفصولة بعضها عن بعض كما فصل <خلق الأرض في يومين> عن <وجعل فيها.. في أربعة ايام>؟!

ثم اليومان بعد الأربعة المختصان بتسبيع السماء لايفسحان مجالاً لأصل دخان السماء، والآئح من <خلق السماوات والأرض في ستة أيام> في آياتها، ومن <قضاهنَّ سبع سماوات في يومين> هنا بعد دخانها ـ: أن الستة تنقسم ـ لأقل تقدير ـ إلى ثلاثة هي خلق الأرض ودخان السماء وتسبيع الدخان.

فجعلُ الأربعة تتمتها بعد اليومين ـ على مشاكله العدة ـ لايغنى عن المناقضة بين الستة والزائدة، فأن يوم الدخان يجعلها سبعة! أم يزيد يوماً لتزيين السماء الدنيا بمصابيح فرجعت ثمانيه!

أم إن الأربعة لا تَمِتُّ بصلة لأيام الخلقة، إذاً فهى الفصول الأربعة لدور السنة حيث تقدر بها أقواتها كل سنة؟[1] وفي ذلك التوجيه العضال إهمال أمرين من الثلاثة المتقدمة

←

بالسجود له واخرجه منها في اخر ساعة، قالت اليهود ثم ماذا يا محمد! قال: ثم استوى على العرش، قالوا قد اصبت لو أتممت ثم قالوا استراح فغضب النبي5 غضباً شديداً فنزل: <ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بنهما في ستة ايام وما مسَّنا من لغوب فاصبر على ما يقولون> ورواه مثله في المجمع عن عكرمة عن ابن عباس عنه5 الى <خلق يوم الجمعة> بتفاوت يسير.

[1] . نورالثقلين ۴: ۵۳۸ تفسير على بن ابراهيم اخبرنا احمد بن ادريس عن احمد بن محمد عن ابن محبوب عن ابى جميلة عن ابان بن تغلب قال قال لى ابو عبدالله∆ يا ابان ـ الى ان قال ـ: <فى اربعة ايام> يعني في اربعة اوقات وهي التي يخرج الله عزّوجل فيما اقوات العالم من البهائم والطير وحشرات الأرض وما في البر والبحر في الخلق من الثمار والنبات والشجر، و ما يكون فيه معاش الحيوان كله وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء...

←

على الأربعة: <وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فيها> بإشغال الثالث فقط ـ : <وقدر فيها أقواتها> أنها متعَلَّق الظرف <في أربعة ايام> دونها، فلا هما ضمن <يومين> كما الثالث إذ ليسا من أصل الخلق، ولم يُذكرا قبل يومين، ولاضمن الأربعة إذ اختصت بالثالثة، ولماذا ذلك الإختصاص؟ وذكر أيام بعد أفعال متتالية يقتضى الشمول بطبيعة الحال!

ثم اللفظ الصحيح الصريح لهذا الإختصاص <وقدر أقواتها في أربعة أيام وجعل فيها... وبارك> بُعداً عن أي التباس، وكما نراه في تسبيع السماء <فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحي في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ> حيث خرج الوحي والتزيين عن يومي تسبيع السماء!

أم إن الأربعة هي الأدوار التكاملية الأرضية بعد خلقها، ذكرت هنا لأفعال ثلاثة، وأجملت في تكلمة السماء عن فِعلَيها، فلا هما ضمن اليومين لتسبيع السماء، ولاذُكر لهما يوم؟

إن ذلك لحق تنطق به الآية نفسها، ففيها خلق للأرض، وفيها دون ذلك مما في الأرض، والكل قبل تسبيع السماء: <هُوَ الّذى خَلَقَ لَكُمْ ما في الْأَرْضِ جَميعًا ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلّ شَىْءٍ عَليمٌ>(٢٩:٢) والأيام الستة في آياتها السبع تخص أصل الخلق دون ما فيه!

وقد تعم <قَدّرَ فيها أَقْواتَها في أَرْبَعَةِ أَيّامٍ> الفصول الأربعة دلالة ضمنية تتحملها الآية وتوءيد الرواية: فـ <في أربعة أيام> تتعلق أصالة بالثلاثة تكملة للأرض، وبالأخيرة، الفصول الأربعة بعد التكملة.

إذاً فالمذكورة من الأيام الستة لخلقهما ليست هنا إلاّ الأربعة، واليومان الآخران

←

اقول: إنها رواية يتيمة في تفسير الأربعة بالفصول الأربعة، فقد تطرح او تؤول بأنها ضمن المعني من الأربعة.

علهما لخلق الدخان، أم يقتسمان بينه وبين خلق الأنجم في السماء الدنيا، أمَّاذا من محتملات علَّنا نستعرضها.

فالنتيجة الحاسمة المجتثة لجذور المحتملات الدخيلات أن خلق الأرض كان قبل تسبيع السماء، فهو ـ إذاً ـ قبل الشمس بمرحلتين إذ خُلقت مع سائر الأنجم في السماء الدنيا بعد تسبيعها، ترى هذه هي الأرض خلقت فى أصلها قبل الشمس دون انفصال عنها، فما ترى في تكملتها الثلاث في أربعة أيام، هل هي كما الأرض مدبرة لها بعد يوميها وقبل يومي السماء؟ وآيات النازعات تؤخر ماءها ومرعاها عن بناء السماء!

هنا محكمات في تقديم ما في الأرض كما الأرض، وأخر متشابهات ترجع إلى هذه المحكمات : ـ فآية البقرة تجمعها في تقدّمها على السبع السماوات: <هُوَ الّذى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلأَرْضِ جَميعًا ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلّ شَىْءٍ عَليمٌ>(٢٩).[١]

و آية فُصِّلت ما في الأرض أن <وَ جَعَلَ فيها رَواسِىَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فيها وَ قَدّرَ فيها أَقْواتَها في أَرْبَعَةِ أَيّام سَواءً لِلسّائِلينَ(١٠) ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِىَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ>(١١)

وآيات النازعات هنا متشابهات في جهات، محكمات في أخرى، فإنها تصرح أن دحو الأرض فإخراج ماءِها ومرعاها وإرساء جبالها، هي كلها بعد بناء السماء، دونما تصريحة ولا إشارة أن خلق الأرض بعد بناء السماء، ثم تبقى الأفعال الثلاثة الأخرى المتشابهات بين فصلت والنازعات.[٢]

فهل إنهما كما الأرض قبل تسبيع السماء، أم هي ـ فقط ـ بعده وخلقها نفسها قبلَه.

---

[١] . نورالثقلين ٢: ٢٩٢ ح ١٢ تفسير العياشى عن جابر عن ابى جعفر الباقرΔ قال قال اميرالمؤمنين ان الله جعل ذكره وتقدست اسماءه خلق الأرض قبل السماء ثم استوى على العرش لتدبير الأمور.

[٢] . في فصلت <جعل فيها رواسى....> وفي النازعات <اخراج منها ماءها> مهما اختلف الترتيب بين الثلاثة هنا وهناك.

وهنا تشابهٌ في بناء السماء هل هو تسبيعها؟ فالثلاثة إذاً بعده، أم بناءٌ لها من دخانها قبل سبعها؟ و <ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ> قد لاتسمح مجالاً لبناء ثان، فإن القضاء سبعاً مبدءه ـ قط ـ الدخان، لاشيءٌ ثان! أم إنه بناء الدخان أولاً ثم بناء ثان هو، <سواهن سبع سماوات>؟ والدخان ليس فيه ماءٌ ينزل على الأرض، مع العلم أن مياه الأرض جلّها من السماء!

أم إن الثلاثة في النازعات متأخرة عن ثلاثِة فصلت، تأخر البارز عن الكامل، فقد <جعل فيها رواسى من فوقها> قبل بناء السماء <والجبال أرساها> بعدها، ثم <وَ بارَكَ فيها وَ قَدّرَ فيها أَقْواتَها> بنزول تراكيب الماء من دخان السماء ولمَّا تصبح بالفعل بركات وأقواتاً إذ كانت مخبيَّات، ثم <أخرج منها ماءها ومرعاها> بعد بطونها وكمونها، إذاً فالثلاثة هي قبل بناء السماء دخاناً أم سبع سماوات، كامنة في الأرض، وهي بعد ذلك ظاهرة، وكما <الأرض بعد ذلك دحاها> وهي الحركة المعتدلة التي هيأتها لفعلية الحياة، وقد كانت شَموساً في حراكات غير معتدله.

ولأن <قدّر فيها أقواتها> قد تعنى ـ فيما عنت ـ أقوات الفصول الأربعة، لذلك فمن هذه الثلاث ما هو متأخر عن تسبيع السماء، كما منها المتقدم عليه، ونحتمل أخيراً ـ بناءً على وحدة الثلاثة في فصلت والنازعات ظهوراً وكموناً ـ أن للسماء بنائين اثنين بعد دخانها، بناءً اوّل انتج <رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها(٢٨) فَأَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها>(٢٩) وهي تعديل لها وتحريك عن حَرٍّ الى قَرٍّ لحدّ إنزل الماء، وبناءً ثانياً هو تسبيعها؟ وآية فصِّلت تعنى البنائين مع بعض، ودحو الأرض وإخراج ماءها ومرعاها وإرساء جبالها كان بين البنائين!.

إذاً فلا تنازع بين آيات فصلت والنازعات إلا تشابهات ترجع إلى محكمات والله أعلم بما أنزل من محكمات ومتشابهات.

وأمَّا نظرات العلماء في انفصال الأرض عن الشمس، فإنها على كونها فرضيات لم

تصل لحد القانون العلمي القاطع، ليست لتعارض صُراح الآيات أنها خلقت قبل الشمس بمرحلتين، وقد أثبت العلم أخيراً إستحالة الواقعية لهذه الفرضية لاختلاف جرمي الأرض والشمس شاسعاً يُحيل تولد إحداهما عن الأخرى.[١]

---

[١] . الفرضيات حول تشكيل المنظومة الشمسية كالتالية:

١ ـ ولادتها، وكلّف كوكب من ذوات الأذناب لإيلادها فضربت بنفسها الشمس في سرعتها الهائلة فتقاطرت منها قطرات، وهذه المواليد الحائرة أصبحت تدور حول أنفسها على أثر هذه الضربة الهائلة فأصبحت عائله لأمها الشمس.

٢ ـ الفرضية الحلقوية او السحابية لـ <كانت> الآلمانى ٢٠ ـ ٣٠ بعد بوفون: ابطل كانت باستدلالات واستبعادئات فرضية التصادم ومنها أن كوكبة صغيرة لاتقدر في صدامها مع الشمس أن تفصل عنها جذوات تصبح كُرات، فهذه الفرضية بعيدة في عالم الفرض... وسائر الأدلة المذكورة في محالها ـ ثم يشرح فرضية الحلقوية بأن الشمس كانت في البداية كتلة وسيعة من الغازات المعتدلة الشاغلة للمنظومة الحالية، وكانت تحول حول نفسها بهدوء فانتقلت مقادير من حرارتها على أثر التشعشات إلى الأجواء المحيطة بها فانتقصت بذلك حرارتها فانقبضت وتراكمت لحد كثير فزادت حركتها الدورانية فخلقت هذه السرعة زياده في فرارها عن مركزها وعلى اثرها تَسطَّح قطبها وانقطعت منها حلقات سقطعت على الصفحة الاستوائية ثم تكسرت هذه الحلقات وتراكمت وتحولت عن الحلقات الغازية الى كرات المنظومة الحالية.

٣ ـ فرضية <لابلاس> الفرنسى ١٧٩٦ م:

لابلاس ياخذ الفرضية الحلقوية بعين الإعتبار (فى كتابه عرض الجهاز العالمى) وعرضها مرة ثانية بشرح أوسع ووجهٍ أبدع ولكنه لم يكن لوقت ما يستدل له بأدلة رياضية ـ : ثم ـ كلارك ماكس ول ـ بعد ستين سنة من هذه الفرضية ـ اخذ يجدد النظرية فيها بدقةووصل الى النتيجة التالية:

أن تقبل هذه الفرضية يستلزم قبول تناقضات عدة....

ولحد الآن أصبح الف ضيتان الحلقوية والتصادم مقبورين تِلوَ بعض، ومن ثم اخذ چمبرلن مولتون الامريكى وسرجس جنس الانجليزي يجددون حياة فرضية التصادم مرة أُخرى، ولانها لم تكن مثل الحلقوية تشتمل على تناقضات، وفي هذه الرجعة وهي ترث الفرضية السحابية طُرد عنها بعض الاستبعادات التي كانت عليها، فالسيارة ذات الذنب هنا اصبحت ثابتة وجرمها كالشمس لكى تستطيع بصدامها مع الشمس على فصل قطرات منها.

ولكنها رغم هذه الرجعة لم تعد قابلة للقبول، حيث الأصل المفروض فيها وفي زميلتها مظنة المشابهة بين عناصر الشمس وسيارات المنظومة، فماذا بعدُ اذا اختلفت العناصر هنا وهناك اختلافاً شاسعاً.

هنا <نيززيكر> الالمانى في كتابه (سر الخلقة) يتبنى تشكل المنظومة على مبنى العناصر التي تشكل الشمس وسائر المنظومة قائلاً: إن الفيزياء النجومية كشفت عن اختلاف العناصر بنى الشمس وسائر المنظومة.

←

هذا ـ وإلى رجعة تفصيلية بحثاً دقيقاً عن آية التقسيم:

كيف خلقت السماوات والأرض؟ وممَ خلقتا؟ ومتى خلقتا؟ أسئلة تطرح نفسها وإليكم إجاباتها:

المادة الاولية لخلق الكون <ماء>؟!

آية يتيمة وحيدة في القرآن تتكفل بياناً مجملاً لأُم الكون اجمع: المادة الأولى التي خلقت منها السماوات والأرض ومابينهما: <وَ هُوَ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ ٱلأَرْضَ في سِتّةِ أَيّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَي الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً>(٧:١١) وقد مضى بيانها الفصل.

<كان> هنا تضرب إلى أعماق الماضى البعيد يكينونة <الماء> قبل خلق الأرض والسماوات، فليس ـ إذاً ـ هو الماء المتولد عنهما وفيهما حيث خلقهما <و> الحال أن <كان عرشه على الماء>.

والعرش بما يعنيه من معانيه ـ هو السلطة والبناء، وقد كانت سلطته التدبيرية قبل

←

ثم <شترومكرن> بعد تأمل زائد حول كيفية هذه العناصر حصل على نتيجة: أن ٣٥٪ من جرم الشمس يتشكل من خالص الأوكسيجين، ومن ثم تبين انه ٥٠٪ وقسم كبير منها هليوم ـ .

ثم <شوارتس شيلد> استمر في تكامل هذا المبنى، وعلى اثر التجزية الدقيقة الطيفيه من سطح الشمس أنتج أن الشمس تشتمل ـ فقط ـ على ١٪ من العنصر الأرضى و ٩٩٪ منها مركب من ئيدروجين بكثرة وهليوم بقلة.

هذا آخر ما انتجته التحقيقات حول عناصر الشمس وسائر المنظومة، مما يُحيل حسب العادة انفصال الأرض وسائر المنظومة من الشمس.

ومن لباب العجاب ان <ويزيكر> وهو اول كاشف لاختلاف العناصر يرتجع إلى فرضيّتى كانت ولابلاس موجهاً ذلك الإستبعاد ان الحلقات المنفصلة عن الشمس علّها من ١٪ من جرمها المشابه لأجرامها، حيث الشمس كانت مائة أضعاف حجمها الفعلى وعلى أثر الحركة الدورانية انفصلت عنها ـ فقط ـ العناصر لـ ١٪ التي تشكل الارض وسائر المنظومة.

هنا نعرف مدى بطلان هذه الفرضيات، وصحة البيان القرآنى الناصع، أن لاصلة بين الأرض والشمس إلا في المادة الأُم : <الماء> وان الارض متقدمة على الشمس في اصل تكوّنها، وان كانت تستضيء منها حال اعتدالها الحيوى الحالى.

خلق الأرض والسماء على الماء إذ لم يخلقهما دون مادة سابقة.

وقد وردت في بُعد هذا الماضي لكينونة الماء رواية ما أرواها واروعها عن الإمام اميرالمؤمنينΔ تضرب إلى مليارات من سنّينا وقد تقدمت.

وعن سائر العترة الطاهرة كلمة واحدة في متظافر الرواية <كان كل شيء ماءً وكان عرشه على الماء فأمر الله الماء فاضطرم ناراً ثم أمر النار فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان وخلق الأرض من الرماد>[1] مما تتأيد بالقرآن <ثم استوى إلى السماء وهي دخان...>.

<الماء> هو الخلق الأول اذ لا خلق غيره، وهو المادة الأولى إذ لا مادة سواها <ولو كان اوّل ما خلق من خلقه، الشيء من الشيء، إذاً لم يكن له انقطاع أبداً، ولم يزل الله إذاً ومعه شيءٌ ليس هو يتقدمه، ولكنه كان إذ لاشيء وخلق الشيء الذى جميع الأشياء منه وهو الماء الذى خلق الأشياء منه، فجعل نسب كلّ شيءٍ إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إلى شيء>.[2]

إذاً فليس هو ـ قطعاً ـ مائناً: (H_2O) منسوباً الى أبوين، ولا أى عنصر أو جُزيىء أو ذرة حتى الئيدروجين حيث النسب يشملها كلها فهى ـ إذاً ـ المادة الأولى المعبّر عنها هنا بالماء لمناسبات شتى قدمناها في موضعها.

ذلك أن الماء على أثر تفجُّرة فوق الذرية اقتسمت إلى زبد الأرض ودخان السماء، وهذه أولى الفتقات بعد رتقات للأرضين والسماوات:< أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقًا فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ(٣٠) وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فيها فِجاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١) وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ>(٢١:٣٢)

---

[1] . رواه الكليني في الكافي بسند عن محمد بن مسلم، قال قال لى ابو جعفرΔ:...

[2] .الكليني في روضة الكافي باسناده عن محمد بن عطية قال جاء رجل الى ابى جعفرΔ من اهل الشام من علمائهم ـ الى ان قال ـ : وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان...

فقد كان هنالك رتق أوّل إذ كانتا ماءً <ففتقناهما> فتلك التفجُّرة عن مادتها الأولى، وفتقٌ ثان اقتسام كلٍّ إلى طبقات سبع، وثالث فتق السماء بالأمطار وفتق الأرض بالإنبات، ورابع فتق السماء بالوحى وفتق أراضى القلوب بتقبل الوحى، أمّاذا من فتق بعد رتق فصلناها في آية هود(٧).

آية الدخان تشير إلى ما خلَّفه الفتق الاوّل: <ثم استوى إلى السماء وهي دخان> ثم الثانى: <فقضاهن سبع سماوات في يومين> و رابع: <وأوحى في كل سماء امرها> وبينما الثالث يشار إليه في تكملة الأرض: <وبارك فيها وقدر فيها أقواتها> إمطاراً من السماء فإنباتاً من الأرض.

وترى هذه السماوات نرى مادتها المرتوقة: <دخان> وفتقها إلى سبعها هنا، فأين المادة الأرضية وأين فتقها إلى سبعها؟ واين سبعها؟

<خلق الأرض في يومين> تشير إلى أصلها مادة كثيفة تناسبها كما السماء في دخانها، ثم <من الأرض مثلهن>(١٢:٦٥) و«من» تشير إلى انقسامها إلى سبعها، ومن ثم <وقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرها... فقضاهن سبع سماوات في يومين> تشير إلى موازات انقسامها إلى سبعها مع تسبيع السماء <فى يومين> متداخلين لهما لذلك التقسيم الجسيم! فسبعُ الأرض ومادتها في مراحلها الثلاث غامضة مرموزة، دون سبع السماء بمادتها، ونحن نسكت عما سكت الله عنه، ونستلهم ما ألهمه رمزاً كما هنا.

فلولا تسبيع الأرض مع تسبيع السماء في يوميها فلماذا خطاب التكوين لهما <إئتيا...> ولماذا الجواب تقبُّلاً لتكوين <قالتا أتينا طائعين>؟

ولأن الأرضين السبع هي في السماوات، وعلَّ كل واحدة منها في كل واحدة منها، لذلك <فقضاهن سبع سماوات> و <هن> جمعاً باعتبار الأولى الى سبع وسبع، فهنّ إذاً اربع عشر طبقات.

هذان يومان من أصل الخلق يختصان بخلق السماء والأرض طباقاً، وقبلهما يومان لخلق الارض الأمّ امّاذا من أرض: <خلق الأرض في يومين> وهل للسماء الأم <وهى

دخان> من نصيب في الباقين من الستة، وهل لـ <وزيَّنا السماء الدنيا بمصابيح> من نصيب فيهما؟ نعم بطبيعة الحال، فإنهما ضمن خلق السماوات من طباقها وكراتها وقبلهما دخانها، كما الأرض وطباقها، أمور خمسة حصلت في ستة أيام!..

فهل ـ بعدُ ـ يبقى نصيب لخلق المادة الأم: <الماء>؟ كلاّ، لأنه ليس من خلق السماوات والأض في شيءٍ إذ لم تكن حينها لاسماءً ولا أرضاً، ولايعنى خلقهما إلاّ الزبد والدخان الحصيلين من التفجرةفوق الذرية في المادة الأم، فلخلق الأرض يومان، ولتسبيع الأرض والسماء يومان، ثم الآخران يقتسمان بين دخان السماء وتريين السماء الدنيا بمصابيح.

أم وكما تداخل السّبعان في يومي السماوات، كذلك التداخل للأرض والدخان في يومي الأرض، فيبقى أخيران لزينة السماء الدنيا!

ثم اليومان لخلق الأرض قد يتخللهما اليومان لتسبيع السماء والأرض، فتتأخر الأفعال الثلاثة للأرض في أيامها الأربعة عن استقلال هذه الأرض، مهما شملت هذه الثلاث سائر الأرضين السبع!

وعلى أيه حال هنا محكمات في ذلك التقسيم العضال، يومان لخلق الأرض، ويومان لتسبيع السماء، ثم لاندري كيف التقسيم في الآخرين.

ومن ثم تداخل السبعين ليومي تسبيع السماء، ولاندري هل تداخل الأرض والدخان في يومي الأرض أم لكلٍّ نصيبه متفاصلاً؟

ولأن خلق الأرض كما السماء يشمل مرحلتي الوحدة الأم والكثرة السبع، فـ <خلق الأرض في يومين> قد يعني يوماً لخلق الأرض الأم ويوماً لتسبيعها مع السماء، فتصبح الأربعة ـ إذاً ـ ثلاثة، فثلاثة باقية لسائر الخلق!.

هنا لك نصوص وظواهر هي بدرجاتها محكمات، وهنا مبهمات مجملات متشابهات،نؤمن بما تشابه منها ونعلن ما أحكم فيها نصاً بنص وظاهراً بظاهر والله أعلم بما قال!

ثم لابد لنا من تحقيق معمَّق أنيق حول ذلك التقسيم في رجعة ثالثة إلى آيات التقسيم:

<خَلَقَ ٱلْأَرْضَ في يَوْمَيْنِ>:

ترى أنها أرضنا هذه التي نسكنها؟ حيث الأرض ـ بإفرادها ـ في كافة إطلاقاتها في ساير القرآن تعنيها لاسواها.

لكنما الأى ظاهرة كما السماء تعنى جنسها الشامل للسبع إلاّ لقرينة تخصها، والخطابات القرآنية تعم كافة المكلفين فلا تخص أهل هذه الأرض، ولو أنها هذه لاسواها فكيف اقتسمت مع السماء إلى سبع؟ أوَ ليس لسائر السبع نصيب من يومي الخلق وأربعة التكملة، وقد شملتها الأيام الستة في خلق السماوات والأرض!

أم إنها السبع حيث الإطلاق يشملها، وآيات خلق السماوات والأرض تؤيدها؟ إلاّ أن <قضاهن> الشامل لقضاء الأرض سبعاً، تعارض سبعها قبل تسبيعها!

أم انها الأرض الأم خلقت في يومين، ثم في <قضاهن> اقتسمت سبعاً؟وكيف تقتسم بعدها لأنها الثلاثة في أربعة ايام؟ والظاهر من <خلق الأرض> كل خلق جوهرى لها فيشمل تسبيعها!.

علّ الثلاث أوسطها أُولاها، أن خلقت سبعاً <فى يومين> واستكملت في أربعة، ثم تمكنت في <قضاهن> اقتساماً في السماوات السبع، فالقضاء لدخان السماء تسبيعها، وللأرضين السبع تمكينها عن جمعها إلى مكانات أخرى، ولذلك ترى النص يخص <سبع سماوات> بذلك القضاء، وتهمل عن سبع أرضين، مع العلم أنها داخلة في القضاء، والفارق أن قضاءالسماء تقسيم لها إلى سبع، وقضاء الأرضين تحويل لها إلى سماواتها.

وقد يساعد هذه الوسطى أدب اللفظ حيث يقدم الأفعال الثلاثة على تسبيع السماء، وواقع المعنى، إذ من البعيد جداً إقتسام الأرض سبعاً بعد تكملتها، وتساعدها الروايات

المستعرضة لها.[١]

وهنا اليومان قد يقتسمان إلى خلق الأرض الأم، واقتسامها إلى سبع ومن ثم الأربعة التكاملية للثلاثة، ولو أنّ تَقَسُّم الأرض إلى سبع كان في غير يوميها، موازياً لسبع السماء أمّاذا؟ فالمحتملان التاليان في موردها:

١ ـ يومٌ للأرض الأمّ الحصيلة عن تفجرة الأم الأُولى: <الماء> ويومٌ لتجميدها بعد ذوبانها وقد تؤيده <هُوَ الّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النّشُورُ>(١٥:٥٧) حيث ذلت بعد شماس، واعتدلت بعد ارتكاس، فلشماسها يوم ولذِلِّها يوم.

٢ ـ أم إن يوماً لحالتي شماسها وذِلِّها والآخر لدحوها: <والأرض بعد ذلك دحاها> وعلى أثر دحوها وحِراكها، تصلَّبت رواسيها شيئاً فشيئاً في أعماقها فـ <أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها(٣١) وَ الْجِبالَ أَرْساها>(٣٢) كبداية للأعمال الثلاثة في الأربعة التكاملية... أماذا؟

ولكنما الأوفق لِلَمَحات الآيات وتصريحات لروايات وقضية الترتيب الطبيعى علّه ما قبلهما، أن الثانى لتسبيع الأرض، ثم الأربعة لتكامل السبع، ومن تمكينها في مكاناتها بين السماوات السبع، ثم إخراج ماءها الكامن فيها ومرعاها الباطن لها، وإرساء جبالها في أعماقها بعد ما جعلت من فوقها، وخالقها أعلم بما قال.

---

[١] .ومنها رواية الكافى عن الصادقΔ <وفي يوم الاحد والثنين خلق الأرضين> تفسير البرهان ٢: ١٧٧ وفيه ٢٠٧:٢ عن تفسير العياشى عن عبدالله بن سنان عنهΔ مثله. ومنها ما في شرح النهج للخوئى ٣٩٣:١ عن النبى5 ـ <فخلق من زبده الأرضين السبع...> ومنها ما في دعاء عرفة عن الإمام الحسينΔ ـ تسبِّح لكل السماوات السبع والأرضون ومن فيهن> وفي القرآن <الأرض> مكان <الأرضون> مما يدل على انها معنية من <الأرض> وقد يدل عليه أو يؤيده ما في الدر المنثور ٢٦١:٥ عن عكرمة ان اليهود قالوا للنبى5، يوم الأحد قال: <خلق الله في الأرض> وجاه الرواية المتظافرة عنه5 وعن عترتهΔ أنها خلقت يوم الأحد والأثنين، كما في نفس المصدر اخرج ابن جرير عن ابى بكر قال جاء اليهود الى النبى5 فقالوا يا محمد اخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الايام الستة فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والأثنين.... اذاً فاليوم الثانى لتسبيع الأرض بعد خلقها.

<وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فيها وَ قَدَّرَ فيها أَقْواتَها في أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَواءً لِلسّائِلينَ>(١٠)

هنا افعال ثلاثة في أربعة أيام، فكيف التقسيم لثلاثة بين أربعة؟

تعرّفنا من آيه الذَّلول حالتى ألأرض في شِماس وذِلٍّ، فقد كانت في اوّل أمرها شماساً: محترقة مذابة وفي حراكات مضطربة كما الدابة الشموس، فحركتها الدورانية من ناحيه، ومساس سطحها الخارجى مع الهواء من أخرى <وجعل فيها رواسى من فوقها> كبداية لخلق الجبال ولمّا ترسوا الجبال في أعماقها، وإنّما أمواج على سطح الأرض، وكما يسأل الإمام اميرالمؤمنينΔ <مِمَّ خُلِقَت الجبال؟ قال: من الأمواج>[١] وعلّه اليوم الأول من الأربعة لبداية خلق الجبال.

ثم وتدَّها في أعماق الأرض لما أخذت الأرض تجمد من ظاهرها إلى أعماقها <والجبال أرساها> تعنى التي جُعلت فيها من فوقها وأرساها في متنها وعمقها، فللجبال حالة أولى هي نصبها <وإلى الجبال كيف نصبت>.

<وجعلنا فيها رواسى من فوقها>:

وحالة أُخرى بعدها هي إرساها: <والجبال ارساها> وتوتيدها: <والجبال أوتاداً>(٧:٧٨) أن تميد بكم «وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم>(١٥:١٦) <وعدَّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصُّم من صياخيدها فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحِملِها> <ووتَّد بالصخور مَيَدان أرضه> وهذا من دحوها الذى خلَّف إخراج ماءِها ومراعاها بعد ما: <والجبال أرساها>!

هذان يومان كما يقول القرآن لنصب الجبال وإرساءها، وقد يصادقه نظرات معرفة الأرضية أن اليوم الأول لبداية ظهور الجبال والثانى لإرساء الجبال في قطع أيديها، والأول ٣٦٠ مليون سنة والثانى ١٣٥ مليون سنة.

---

[١] . تفسير البرهان: ١٠:٣٢٧.

فالملاحظ في الدور الأول ظهور <كالدونين وهرسى نين> وفي الثانى أغلب الجبال الفعلية، والأصل هو المستفاد من القرآن ليومي جعل الجبال وإرسائها.

«وبارك فيها»:

مباركة الأرض هي تحصُّل المياه فيها وتهيؤُها لتبريك الأرض ببركاتها وبـذلِّها بعـد شماسها، وقرِّها بعد حرِّها، واعتدال حركاتهـا بعـد إضـطرابها، وتقـول نظريـة معرفـة الأرضية: إن هذا الدور لم يعد طائلاً إلاّ ٥٤ مليون سنة، والأكثرية الساحقة مـن المـاء والكلاء التي نعيشها الآن هي من ذلك الدور، وهي أهم الأدوار الجغرافية لأرضنا، لهـا أهميتها بين أدوارها.

«وَ قَدّرَ فيها أَقْواتَها»:

علَّها أخذٌ في تنظيم الفصول الأربعة، ولأن الأقوات ليسـت إلاّ لـذويها، فهـو دور ظهور الحياة الحيوانية والإنسانية على وجه الأرض، وتقول النظرية إن هذا اليوم الرابع يقدر بـ ٣٠٠٠٠٠ سنة ـ او اكثر ـ التي ظهر فيها الإنسان ككل.[1]

«سَواءً لِلسّائِلينَ»

يعنى المحتاجين، لأن كل محتاج سائل، وفي العالم مِن خلق الله مَن لايسأل ولا يقـدر عليه من الحيوان كثير <فهم سائلون وإن لم يسألوا>[2] بلسان القال!

<يسأله من في السماوات ومن الأرض كل يوم هو في شـأن. فبـأى آلاء ربكمـا تكذبان> (٢٩:٥٥) <وَ آتاكُمْ مِنْ كُلّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدّوا نِعْمَتَ اللّهِ لا تُحْصُوها إِنّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ>(٣٤:١٤)

وترى البركات والأقوات السواء للسائلين هل هي قدر السؤال وحسبها؟ إنها قـدر

---

[1] . وهذا على فرض صحته لاينافى عمر هذا النسل المقدر بزهاء عشرة الآف، فان قبله أنسأل إنسانية كما فصلنا في آية الخلاقة في البقرة.

[2] . نور الثقلين ٥٣٨:٤ تفسير القمى عن الإمام الصادقΔ في حديث طويل حول تفسير آية التقسيم.

الحاجيات والمصلحيات دون إفراط فيها ولاتفريط، فالنبات يأخذ من الماء والهواء ومن القَرِّ والحرِّ قدر الحاجة، والحيوان آخذ منها كما يحتاجه، وعلى الإنسان أن يعدل فيما يأخذ دون أثرةٍ ولاكبرياء، اقتطاعاً لأكثر مما يحتاجه مهما كان من سعيه، فوا ويلاه إذا كان من مساعى الآخرين!.

<ثم استوى الى السماء وهي دخان>:

ذلك إستواءه الإستيلاء لخلق الدخان سبعاً كما خلق الأرض في يومين <هُوَ الّذى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلأَرْضِ جَميعًا ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلّ شَىْءٍ عَليمٌ>(٢:٢٩)

هنا وهناك <إستوى إلى> وبعد خلق السماوات الأرض <استوى على> والفارق بينهما أن الأولى استواء لخلقهما. والثانية استواءٌ لتدبير أمرهما: <إِنّ رَبّكُمُ اللّهُ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ ٱلأَرْضَ في سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوي عَلَي الْعَرْشِ يُغْشِى اللّيْلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثًا وَ الشّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النّجُومَ مُسَخّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الأَمْرُ تَبارَكَ اللّهُ رَبّ الْعالَمينَ>(٧:٥٤)

إستوى إلى السماء لخلق لها ثان وهي دخان، حالة ثانية للمادة الأم، فنصيب السماء دخان ثائر، ونصيب الأرض زبدٌ مائر، وليدان اثنان إثر التفجرة فوق الذريه للوالدة الكبرى: <الماء> ترى ما هي <الدخان> ولم يأت ذكرها إلاّ هنا، وفي سورة <الدخان>: < فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ(١٠) يَغْشَي النّاسَ هذا عَذابٌ أَليمٌ(١١) رَبّنَا اكْشِفْ عَنّا الْعَذابَ إِنّا مُؤْمِنُونَ>(١٢)

ليس الدخان ـ فقط ـ الصاعد عن محترق الحطب وأضرابه، بل هو المستصحب للهيب أيّا كان: من لهيب الأحطاب والفحوم الحجرية، إلى لهيب الفلزات المذابة على درجاتها الحراريةالمختلفة، وإلى لهيب الغازات الصاعدة عن التفجرات الذرية على درجاتها الحرارية، إلى الئيدروجين وقد شكلت الكرة الشمسية منها في قسم كبير من جرمها، ففى مركزها ٧٠ مليون درجة من الطاقة الحرارية، وإلى ٣٨٠ مليون درجه

كالتي في مركز الشعرى وهي تبعد عنا ٥٠٠٠٠ ضعف الشمس، وهنا لك درجات فوقها لم يصل العلم إليها حتى الآن، والتى وصلها ليست إلاّ من وليدات الدخان الأُم.

وهل هنالك بناءٌ للسماء بين دخانها وطباقها، كما بنيت الأرض أرضاً مّا، ثم انقسمت الى سبعها؟ علّه نعم، فالتسوية سبعاً تتحمل للسماء بناءً أولاً هُو لها وحدها بتحويلها عن دخانها إلى حالة أُخرى، فيه <رفع سمكها فسوّاها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها> وثانياً هو تسبيعها، فخلق الأرض وما فيها هو قبل تسبيع السماء كما تقول آية البقرة وفصِّلت، ودحو الأرض وإخراج ماءها ومرعاها هو بين بناء السماء وتسبيعها.

فـ <ثم استوى إلى السماء وهي دخان> لبناءها سماءً وتسويتها سبعاً وكما:

فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أوكرها «ثُمّ اسْتَوي إلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحي في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ»(١٢).

وتراه قولاً لفظيا؟ وليست الأرض والسماء من أهل المقال لفضياً، ولاخيرة الأفعال <طوعاً> وإذ لا تختار فـ <كرها>! فهو ـ إذاً ـ قولة الفعل تكوينياً كما في سائر تكوينه <إِنّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ>(٨٢:٣٦) وتعبيره عن فعله بقوله إشارة إلى نفاذ أمره دونما نَظرة للفاعل ولامن القابل، وهي فيهما لكل فاعل غير الله <وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا>(١٥:١٣) فهذه السجدة وذلك التسليم تعطفان إلى طواعية شاملة للكون أمام أمر التكوين في بداية الخلق ونهايته، فقد <خلق السماوات موطّدات بلا عَمَد، قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متكلئات ولا مبطآت>[١].

[١] . نهج البلاغة عن الامام اميرالمؤمنينΔ.

<ذلل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرى أشراجها>[١] فقد كان التحامها ـ وعلّه بناءها سماءً قبل سبعها ـ كان ذلك بدعاءها والأرض <إئتيا> <قالتا أتينا طائعين> فكان في إتيانهما بناءٌ لهما ثان بعد دخان السماء وزبد الأرض أُماذا؟

وفى <طوعاً او كرهاً> إشارة إلى حتيمة إرادته، أن لو كانت لهما خيرة لامتنعتا، فإتيانهما ـ إذاً واقع كَرها، <قالتا> بلسان الكينونة والحال وواقع المحكى المقال: <أتينا طائعين>! فعل العاقل اللبيب والسامع المجيب جرياً على المراد، وقوفاً عند الحدود والأقدار، من غير معانات طويلة ولامشقَّة شديدة، فكانت في ذلك جارية مجرى الطائع المميز انقاد إلى ما أُمر به ووقف عندما وقف عنده»!

<فقضاهُن> هل السماء فحسب؟ والإتيان بعد الأمر لهما دونها فحسب! أم لهما؟ وهذه جمعٌ وهما اثنان!... إنه قضاءهما سبعاً، سبعاً في سبع، علَّ كل أرض استكنت في سماءٍ أماذا؟ وما ألطفه تعبيراً أن الأرض ما كنُ السماء كسائر الأنجم حيث حولها الفضاء، ليست على قرنى الثور و لاظهر الحوت أماذا من أماكن اختلقتها أيدى الجهل والجعل! <فقضاهن سبع سماوات في يومين> دورين من الأدوار الستة لخلق السماوات والأرض، وذلك قضاء تكوين ثان للأرض والسماء أياً كان، فإنه <قضاهن> لا <لهن> أو <إليهن> أو <عليهن> أم سائر القضاء التي تحمل سائر معاني القضاء!

ترى أحدها لتسبيع السماء والآخر لتزيين السماء الدنيا بمصابيح كما يروى[٢] ولو كان لذلك التزيين نصيب منهما فصحيح التدبير عنه إذاً <فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في

---

[١] . الدرالمنثور ٥: ٣٦٠ في رواية ابن عباس الماضية عن النبى5 <وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة... اقول وقد سبق صدرها انها تصرح <فى اربعة أيام> تعنى في تتمتها وهي ايضاً خلاف ظاهر الآية، فالرواية بمجموعها مطروحة لمخالفة الكتاب.

[٢] . الدرالمنثور ٥: ٣٦٠ في رواية ابن عباس الماضية عن النبى5 <وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة... اقول وقد سبق صدرها انها تصرح <فى اربعة ايام> تعنى في تتمتها وهي ايضاً خلاف ظاهر الآية، فالرواية بمجموعها مطروحة لمخالفة الكتاب.

يَوْمَيْن>! فنصيبه ـ إذاً ـ من اليومين الباقين.

أم إنهما ـ فقط ـ لتسبيع السماء كما في رواية أُخرى[١] وهو الصحيح الفصيح من آيتهما فتصدَّق روايته ويعرض عن الأخرى.

ولو كان لذلك التزيين نصيب منهما فصحيح التعبير إذاً <فقضاهن... وزينا: في يومين>! فنصيبه ـ إذاً ـ من اليومين الباقين.

وأوحى ... أمرها:

وذلك الوحى ـ أياً كان ـ يشمل الوحي في كل أرض مثل في كل سماءٍ كما <ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن...> والأمر الموحى في كل من السماوات السبع والأرضين السبع: <يُدَبِّرُ ٱلأَمْرَ مِنَ السّماءِ إِلَي ٱلأَرْضِ ثُمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ ٱلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدّونَ>(٥:٣٢) و <كل سماء أمرها> تلمح باختصاص كلٍّ بوحي خاص، اللّهم إلاّ وحي الشرعة الشاملة لكل عام وخاص!

أترى أن الأمر الموحى في كل أرض وسماء هو التكوينى فقط؟ ولايناسبه الوحى، إنما القضاء أماذا من صيغ التكوين! أم هو التشريعى؟ فلماذا <فى كل سماء> دون <الى>! أم إنه يعنيهما والوحى <فى> جامع للوحيين كما للأرض <بأن ربك اوحى لها> رمز في التكوين بعد ما كونت أماذا من خلق يعبَّر عنه بـ <أوحى> ثم الثانى: الوحي <الى> كما إلى الأنبياء والملائكة أمّن ذا من مؤمنٍ بارع، وإلى حيوان صانع كما <أوحى ربك إلى النحل>! فكلِّ سماءٍ ولكلِّ ارض أمرٌ من الأمور: اشياءَ وأفعالاً، وامرٌ من الأوامر شرعة ففعالاً[٢]، وهما من الأمر المدبَّر من السماء إلى الأرض والعارج إليه.

والأمر أياً كان يقابل الخلق <ألا له الخلق والأمر> فهو التدبير للخلق مادياً: وحياً لخلق، أو معنوياً: وحياً إلى خلق، يجمعها <وأوحى في كل سماء أمرها>!

---

[١] . نورالثقلين ٥٣٩:٤ ح ٧ في روضة الكافى عن الصادقΔ في حديث تقسيم ايام الخلق: <وخلق السماوات يوم الاربعاء ويوم الخميس...> وروى مثله القمى عن الرضاΔ.

[٢] . حيث الامر بين هذه المعانى الثلاث: الشيء ـ الفعل ـ ومقابل النهى.

<وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ>:

والسماء الدنيا هي أدنى السماوات السبع إلينا، فهى الأولى بالنسبة لنا، أم هي الدنيا بالنسبة للأرضين السبع كلها في احتمال أنها كلها في السماء الأولى، وعلّ الأُولى اَولى كما قد تقتضيها: <فقضاهن سبع سماوات> و <مصابيح> هنا هي <الكواكب> في الصافات، تشمل كافة الكرات الصابحة، السابحة في خضم البحر الملتطم، مرئية بعيون مجردة ومسلحة أماهيه؟ وهي تشمل شمسنا، فهى متأخرة عن أرضنا وعن الأرضين كلها، فليست هي والدة لها، بل هي وليدة غازات في السماء الدنيا كما والأرض، حيث انتهيا إلى الجدة الأولي <الماء>!

وهذه الكرات مصابيح لمن يستصبحها، وحفظاً من كل شيطان مارد، أماذا من حِكَم أُجمل عنها <ذلك تقدير العزيز العليم>.

قد لايريبنا شك أن لتزيين السماء الدنيا نصيباً من اليومين الباقيين، كما ولدخان السماء نصيب منهما، فهل هنا نصيب ثالث لـ <أوحى في كل سماءٍ أمرها>؟ بطبيعة الحال نعم، ولكنه أنى؟ وقد قُضيت الستة، ولكنه لا، حيث الوحى <في> ليس من الخلق، وإنما هو تدبيرٌ وتكوينٌ للخلق، وهو بعد أصل الخلق، فإنما الشركاء في الأيام الستة، الأرض بتسبيعها والدخان بتسبيعها وتزيين السماء الدنيا.

فذلكة حول أيام الخلق:

فذلكة حول أيام الخلق أسماء أيام الأسبوع التي تتكرر في أحاديثنا لاتعني أنها بقدرها هي أيام الخلق، بل هي صِيغ فرعية عن الأيام العالميةأو الأرضية المختلفة مع بعض بالآفات المضاعفات، خلافاً للخرافات التي أقحمت في التوراة أُنها أيامنا هذه بلياليها!

جوٌّ من السماء لايصلح لتنفس الإنسان والحيوان

فمن... يؤمنون:

والصدر هنا هو صدر الروح الكامن في صدر الجسم، وهكذا العقل في المخ، والقلب في القلب، الذي هو نفسه في الصدر، وكما يُشرح صدر الجسم بسطاً للحمه ونشراً، كذلك صدر الروح الذى هو مصدر الإيمان والكفر وسيطاً بين العقل والقلب، فالفطرة والعقل وللب والصدر والقلب والفوآد هي مراكز المعرفة كلٌّ تلو الأخرى مترتبة في تنقل المعرفة الحقة والباطلة، وإنما يذكر القلب أكثر بكثير من زملاءه لأنه قلب الروح، والمركز الرئيسى النهايي لكل محاصيل الروح بجنوده، فهو إمام الأئمة في كيان الإنسان، فـ <القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء> وهنا <فمن اراد الله...> تفريع بياني لـ <أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس>.

وكما ينشرح الصدر ويلين لذكر الله، كذلك ـ وبأحرى ـ القلب: < اللّهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللّهِ ذلِكَ هُدَي اللّهِ يَهْدى بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ>(٢٣:٣٩)

وليس الشرح إلاَّ للمعقَّد الغامض إيماناً وكفراً حيث هما قدر القدرة الخلقية معقّدان، فالله يشرح الإيمان فينشرح كما يريده، ويشرح الكفر فينشرح جزاءً وفاقاً.

ثم إن هداية الله وإضلاله ليسا فوضى جزاف، فإنما يحل كلٌ محلّه جزاءً وفاقاً، وفي الهدى زيادةٌ قضيةَ فضل الله.

<فمن يرد الله أن يهديه> <بايمانه>[1] وهو المريد لهدى الله، المتحرّي عنها، المحاول في إسلامه لله <يشرح صدره للإسلام> إخرجاً عن مضايقه ومزالقه قدر ما أعدَّ له حيث عدَّل صدره <وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعى>.

---

[1] . نورالثقلين ١: ٧٦٥ في عيون الأخبار بسند متصل عن حمدان بن سليمان النيسابورى قال: المحاول في إسلامه لله <يشرح صدره للإسلام> إخرجاً له عن مضايقه ومزالقه قدر ما أعدَّ له حيث عدَّل صدره <وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعى>.

وذلك الشرح مما لايقدر عليه أي محاول له إلاّ بما أعدّله، ثم الله <يشرح صدره للإسلام> بدر جاته حسب الدرجات. فأين شرح صدور الأنبياء كموسىΔ وخاتم النبيين محمد5 حيث تطلبه موسىΔ: <قالَ رَبِّ اشْرَحْ لی صَدْری>(٢٥:٢٠) فاستجيب: <قد اجبت عوتكما> وأعطاه محمداً5: <أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ>(١:٩٤) وقد يروى عن النبي5 أنه <نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح له>.[١]

وأين شرح سائر الصدور غير الحاصلة على ما حصلوا غير الواصلة إلى ما وصلوا؟من شرح الصدور الحاصلة الواصلة؟!

وحين شرح الله صدره للإسلام <فهو على نور من ربه> لايضل عن هداه: <أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين>(٢٢:٣٩)[٢]، ومن شرح الصدر <أن الله إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور فأضاء لها سمعه وقلبه حتى يكون أحرص على ما في أيديكم منكم...>[٣].

ذلك <ومن يرد أن يضله> عن الإسلام والنور <يجعل صدره ضيقاً حَرَجا>: ضيقاً لاينفتح لمحاصيل العقل السليم وسواها من هدىً آفاقية أو أنفسية، و<حَرَجًا> <كلشيء المصمت الذى لايدخل فيه شيء ولايخرج منه شيءٌ>[٤] فهو أضيق الضيق الذى لامدخل فيه ولامَخرج عنه، وأصل الحرج الوادي الكثير الشجر المشتبك الذى لاطريق فيه،

---

[١] . لتوضيح أكثر حول العقل واللب والصدر والقلب والفؤاد راجع ج ٣٢١:٢٣ من الفرقان.

[٢] . في الدر المنثور ٤٤:٣ ـ سئل النبي5 أى المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً، وسئل5 عن هذه الآية <ومن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام>؟ قالوا: فهل لذلك من إمارة يعرب بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود و التجافي عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل لقاء الموت>.

[٣] . نورالثقلين ٧٦٥:١ في أصول الكافى عن ابى عبدالله∆ قال: ان الله عزّوجلّ...

[٤] . نورالثقلين ٧٦٥:١ في تفسير العياشي قال ابوعبدالله∆ لموسى بن أشيم: أتدري ما الحرج؟ قال: قلت: لا، فقال بيده وضم اصابعه: كالشيء المصمت... وفيه عنه∆ في قوله تعالى: <ومن يردأن يضله...> قال:قد يكون ضيقاً وله منفذ يسمع منه ويبصر، والحرج هو اللثام الذى لامنفذ له يسمع به ولا يبصر منه.

والشجرة تحدق بها الأشجار فلايصل إليها رعية ولاوحشية، وكذلك قلب الكافر.

فهى نهاية الضيق حيث لامجال له ولا منفذ لنور المعرفة والإسلام حيث احتله كله الظلام.

و<حَرَجَاً> مصدراً دون <حَرِجاً> صفةً مشبهةً، تعنى المبالغة في إحراجه لحد كأنه نفس الحرج، صدر لايستطيع أن يتنفس نفس الرحمن، وإنما يتنحَّس بنفس الشيطان <كأنما يصَّعد> صاحبه <فى السمآء> والتصعُّد هو صعوبة الصعود <فى السماء> التي لامجال للصعود فيها حيث لامادة للتنفس فيها يستفيد منها صاحب الصدر المتنفس، أم ولاوسيلة صالحة لذلك الصعود.

ذلك وهي حالةنفسيه تجسم في حالة حسية من ضيق النفس وكبد الصدر والرهق المضني من التصُّعد في السماء.

وهنا <فى السماء> دون <إلى السماء> لمحة إلى أن الصعود إلى السماء منه ميسور كما نتصعد إليه نحن بالطائرات والصواريخ، ففى السماء ـ خارجاً عن فضاء التنفس والممكن الصعود إليه منها بحالة محرجة ـ فضاءٌ لايمكِّن الصاعد إليه للتنفس أو التلبث والتريُّث إلاَّ بصورة محرجة مخرجة للإنسان عن طوقه، وهذا من الملاحم القرآنية: إمكانية الصعود في السماء، وصعوبته من حيث مضايق النفس وسواها.

وهكذا يكون مثل من <يجعل صدره ضيقاً حرجاً> ليس له مجال للتصعُّد إلى سماء المعرفة بوحى وسواه، حيث الفطرة منه مستورة، والعقلية معقولة بطوع الهوى، والصَّد ضيق حَرَج والقلب مقلوب، والفؤاد متفئد بنيزان الشهوات والحيوَنات، حيث الله <نكت في قلبه نكتة سوداء وسد مسامع قلبه ووكل به شيطاناً يضله>[1] : <ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون>(٣٧:٤٣).

---

[1] . نورالثقلين ٧٦٥:١ عن ابى عبدالله∆ ـ مضى صدره في شرح صدر المؤمن ـ و إذا اراد بعبد سوءً نكت... ثم تلا هذه الآية: <فمن يرد الله ان يهديه...>.

وذلك رجس على تلك الصدور غير المؤمنة، فـ <كـذلك يجعـل الله الـرجس علـى الذين لايؤمنون> رجسٌ لامحيد عنه على أية حال، و <ذلك بما كسـبت يـداك وأن الله ليس بظلام للعبيد> فالرجس يمثل لنا رَيناً وقذارة: <كلاَّ بل ران على قلوبهم ما كـانوا يكسبون>(١٤:٨٣)فكما أن القلوب ترين كذلك الصدور كلٌّ حَسَبها وبحساب تضُّيقها.

ولأن القلوب هي في الصدور: <ولكن تعمى القلـوب الـتي في الصـدور> فضـيق الصدر الحرج يضيق القلب، كما و <أن القلب ليتجلجل في الجوف يطلـب الحـق فـإذا أصابه اطمأن>[١].

وهكذا الله يُطَمئن القلوب المؤمنة أن يشرح الصدور وهي برَّانيات القلـوب، تحصـل فيها حُصالة ما في الدور <فإذا أعطاه ذلك نطق لسانه بالحق وعقـد قلبـه عليـه فعلـم به...>[٢] ويضيق الصدور فتضيق القلوب التي في الصدور، ومن ميّزات المنشرح صـدره للإسلام معرفة لطائف القرآن التي لايعرفها وينتبه لها إلاَّ من شرح الله صدره للإسـلام، حيث <صفا ذهنه ولطف حسّه وصح تمييزه>.[٣]

ذلك، وهنا قيلات ـ هي ويلات على السذَّج المجاهيل ـ حول هذه الآية وأشـباهها، كـ : ان الهداية والضلالة إنما هما من الله وليس للمهتدي والضال أية حيلة في هداية أو

---

[١] . المصدر في اصول الكافي عن ابى عبدالله∆ قال: ان القلب...

[٢] . المصدر ٧٦٦ في روضة الكافي باسناده الى ابى عبدالله∆ حديث طويل يقول فيه: واعلموا ان الله إذا اراد بعبد خيراً شرح الله صدره للإسلام فإذا اعطاه ذلك نطق... فإذا جمع الله له ذلك تم له اسلامه وكان عند الله ان مات على ذلك الحال من المسلمين حقاً وإذا لم يرد الله بعبد خيراً و كلـه إلى نفسـه وكـان صدره ضيقاً حرجاً فان جرى على لسانه حق لم يعقد قلبه عليه فإذا لم يعقد قلبـه عليـه لم يعطـه الله العمل به فاذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال كان عند الله من المنـافقين وصـار مـا جرى على لسانه من الحق الذى لم يعطه الله أن يعقد قلبه ولم يعطه العمل بـه حجـة عليـه فـاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام وان يجعل السنتكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وانتم على ذلك.

[٣] . المصدر ح ٧٦٧ في كتاب الاحتجاج عن اميرالمؤمنين∆ حديث طويل يقول فى: ثم ان الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدث المبدلون من تغيير كلامه، قسم كلامه ثلاثة اقسـام: فجعـل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل وقسماً لايعرفه إلاّ من صفا... ممن شرح صدره للإسلام أقول: <تغـير كلامه> يعني تغيير المعني دون اللفظ لمكان صيانة القرآن عن التحريف بقاطع الأدلة.

ضلال؟ والقرآن يجيب في عشرات من الآيات عن أمثال هذه الشطحات أن هذه الهداية والضلالة اللتين ينسبهما الله إلى نفسه، إنهما ليستا بدائيتين دون سابقة، بل هما جزاء، فـ <الذين اهتدوا زادهم هدى>(١٧:٤٧) <فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم>(٥:٦١) فإنما يريد الله أن يشرح صدور الذين هم في طريق الهدى فيؤيدهم ويوفقهم لها من فضله، ويريد تضييق صدور الذين هم في طريق الردى مصرِّين عليها فيسد عليهم أبواب الهدى فتحاً لأبواب الردى جزاءً وفاقاً من عدله.

ففي البداية يزيِّن الله الإيمان في قلوب المكلفين، فإذا زاغت بما تخلفت أزاغها الله، وإن صاغت وتابعت شروطاً للإيمان هداها الله، فـ < إِنَّ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ> (٤:٢٧) <وَ اعْلَمُوا أَنَّ فيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطيعُكُمْ في كَثيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتّمْ وَ لكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإيمانَ وَ زَيَّنَهُ في قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ>(٧:٤٩) وعلى الجملة: <كَذلِكَ زَيَّنّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ>(١٠٨:٦)

أجل <كَذلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَي الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ> وأما الذين يؤمنون فقد يشرح صدورهم للإسلام، فليس من الله إلاّ العدل بالنسبة للذين لايؤمنون والفضل للذين يؤمنون: فـ <من يؤمن بالله يهدِ قلبه> <وَ الَّذينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدًي وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ> <وَ الَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنينَ>.

إذاً <فمن يرد الله أن يهديه> هو المهتدي أولاً أو القابل لها في صميمه والساعي لها، والهدى الثانية هي الإسلام لله حقاً بعد ظاهر الإسلام والايمان، ثم <من يرد أن يضله> هو من الذين لايؤمنون، كما قال الله، <كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون>.

السماء سبع شداد

<وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدادًا>(١٢)

سبعٌ شدادٌ هي السماوات والأجواء السبعة، وأقربها إلينا هي السماء الدنيا: سماء الكواكب.

لقد بنيت هذه السبع الشداد من الدخان الصاعد من الماء المضطرم: المادة الأولية لخلق الكون أجمع، إذ فجّرها ربها وأضرمها فصعد منها دخان هي مادة السماء والسماوات السبع، وأزبدت زبداً هي مادة الأرض والأرضين السبع.

فمم بني السبع؟ وما هو السبع؟ وما هو السبع الشداد؟

إنها بنيت من الدخان الصاعد من اضطرام المادة الأولية لخلق الكون: <الماء>:

<ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ>(٤١ :١١ ـ١٢)

والدخان هو المستصحب للهيب، وليس للماء المغلى لهيب، وإنما هو لما يصعد من احتراقه نار ملتهبة، من حطب وفحم حجري وبترول... ومن الذرات وفوق الذرات المتفجرة، وقد يصل الإلتهاب إلى ٧٠ مليون درجة كمركز الشمس الذي لايبقى فيه أى تركب جسماني إلا ما يحافظ على كيان المادة لحدٍّ مّا، ولذلك فإن مركز الشمس لايحمل إلا النيدروجينات التي هي أبسط الذرات فيما نعرف.

وهنالك غازات لها ٢٨٠ مليون درجة من الحرارة كمركز الشعرى، وإنها بعيدة عنا ٥٠٠/٠٠٠ أضعاف بعد الشمس، ولو كانت على بعد الشمس لكانت درجة الحرارة في كوكبنا الأرضى ٤٠ ضعف الآن.

وهناك غازات لم يعرفها العلم حتى الآن، وكل هذه الحرارات والغازات هي ولائد الغاز: (الدخان) الأوّل، الناتج عن التفجّر الأول للمادة الأولية، وهي أم الكائنات.

إنها تفجرت فأولدت دخاناً ساطعاً إلى الجو العالى، وأزبدت زبداً ربّتها عندها، ثم الولد المختلف الفرّار ظل دخاناً إلى أن قضاه الله سبع سماوات.

ثم من هذا الدخان خلقت السبع الشداد، أجواء سبعة متداخلة: <الّذى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقًا ما تَرى في خَلْقِ الرّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَري مِنْ فُطُورٍ>(٣:٦٧) وأدناها إلينا سماء الأنجم: <إِنّا زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِزينَةٍ الْكَواكِبِ>(٦) <وَ

لَقَدْ زَيّنّا السّماءَ الدّنيا بمَصابيحَ>(٥:٦٧)

أجل إنها، السماء الدنيا، لاسماء الدنيا، إنما السماء الموصوفة بأنها الدنيا: أدنى السماوات السبع إلينا، وكُرتنا الأرضية هي من أصغر كواكب السماء الدنيا.

إذاً فليست السبع عدداً دون مفهوم[١] ولاعدداً للأجواء السبعة للسيارات السبع[٢] فإنها مع المليارات من المجرات الحاملة للكواكب، هي كلها في السماء الدينا، ثم لاندري ما هو في الست الباقية.

وإنها شداد، فالسماء هنا لاتعني الفضاء والجو الخالى، او بما فيه من كواكب بل هي جو يحمل أجراماً غازية ـخفيفة وثقيلة ـ من النوع الذى خلقت منه الكواكب، وكما عرفنا من الآيات في <فصلت> : أن السماوات السبع ـ والكواكب في دنياها، إنها كلها ـ خلقت من الدخان، الأمّ: <ثُمّ اسْتَوي إلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنيا بمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ>(١٢)

وكما القرآن يوحي أن المملكة السماوية في توسُّع دائم في بلادها: <الكواكب> <والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون> (٤٧:٥١) لموسعون بناءها بما فيها من كواكب والنجم وبروج، من الدخان الأمّ.

تسمع لفظة الدخان وعلَّك تظنه غازاً رقيقاً، رغم أن اللهيب الذي يستصحب الدخان ليس نوعاً واحداً كلهيب الحطب، فقد يكون لهيب التفجرات الذرية ومافوقها، يتبعها في الثقل والخفة، فكل ذرة تتحمل حرارة أكثر ـ دون أن تتجزأ ـ فثقلها أكثر من ألف درجة، فليكن الغاز الموجود في مركز الشمس ٧٠/٠٠٠ ضعف الحديد ثقلاً وصلابة،

---

[١] . كما يصر به ويكرره الشيخ الطنطاوى دون تفكر في الآيات المعنية.

[٢] . وكما يقوله السيد هبة الذين الشهرستانى في كتابه الهيئة والاسلام، وتجد البحث الفصل في طيات التفسير عند الأنسب فالأنسب، وهنا آيات تسع تصرح بعدد السبع ولاأصل في تأويلها إلا الجهل.

والموجود في مركز الشعرى ٢٨٠/٠٠٠ ضعفه، ثم لدينا مزيد.

أجل: إن هذه لسبع شداد كأشد ما يتصور: شداد في البناء كأتقن البناء، لاتنفطر إلا بفطّر آلهى، شداد في الصلابة وإن لم تكن في كل جوانبها، شداداً بأبوابها، فلا تفتح إلا بمفتاح آلهي: <وَ فُتِحَتِ السّماءُ فَكانَتْ أَبْوابًا>(١٩:٨٧) <فَفَتَحْنا أَبْوابَ السّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ>(١١:٥٤)

سبع شداد نرى من شدة الأولى منها أن علقت فيها بليارات البليارات من قناديل الكواكب، دون أن تؤثر في سقفها فتوراً وفطوراً، فهي معلقة بعمد لاتُرى: <رَفَعَ السّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها>(٢:١٣) <فثمَّ عمدٌ ولكن لاترونها>.[١]

نرى سيارات الكواكب في أفلاكها وراقصاتها في مراقصها، لاتنزلق عن مداراتها...

فيا لها من عمد تدعمها، ويا لهذا السقف الرفيع المحفوظ من صلابة واستقامة!

إنها سبع شداد، متينة التكوين، قوية البناء، خارقةالبنّاء، بقوة تمنعها من التفلك والإنثناء.

<وبنينا فوقكم> وبما أن <كم> تعنى كافة سكنة الأرض، فلزامه كون السبع الشداد أيضاً فوق الكل، وهنا إيحاء لطيف إلى كروية الأرض ومعها السماوات، فبما لها من عمد تدعمها، ويا لهذا السقف الرفيع المحفوظ من صلابة واستقامة!

<وبنينا فوقكم> و بما أن <كم> تعني كافة سكنة الأرض، فلزامه كون السبع الشداد أيضاً فوق الكل، وهنا إيحاء لطيف إلى كروية الأرض ومعها السماوات، فالسماء الدنيا فوق الأرض كلها، ثم مقتصى طباق السماوات كون الباقيات كمثلها سواء.

<وجعلنا سراجاً وهاجاً>

<يا مَعْشَرَ الْجِنّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطانٍ(٣٣) فَبِأَيّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ>الرحمن(٣٤)

[١] . كما يروى عن الامام محمد بن علي الباقرΔ.

المعشر هو الجماعة العظيمة والكثرة الكاملة، فهل الخطاب به في محشر القيامة، إذ يحشرون كاملة أجمعين؟ <وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَميعًا يا مَعْشَرَ الْجِنّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ>(١٢٨:٦) <يا مَعْشَرَ الْجِنّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصّونَ عَلَيْكُمْ آياتي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلي أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرينَ>(١٣٠:٦) أو أن الخطاب يشتمل المعشرين، يوم الدنيا ويوم الدين؟ قد يكون، حيث تتحمله الآية في مغزاها.

وهل الآية تبشير للإنس والجان بملحمة غيبية هي إمكانية غز والفضاء بسلطان علمي أو إقدار بتقدير الرحمان أم ماذا، فهى خاصة بيوم الدنيا؟

فهى لاتمتُّ لهما بصلة بما احتفت به من انذار وتهويل بعذاب يوم الدين: <سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيّهَ الثَّقَلانِ>(٣١) <يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ>(٣٥) <فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ>(الرحمن:٣٧) وأين هكذا تبشير من هذا الأنذار؟

ثم النفوذ هنا <من>: خروجاً عن أقطار السموات والأرض إلى غيرهما، لا<في>: دخولاً في أقطارها غزواً لها، ثم النفوذ فرار من جهة إلى أخرى كما ينفذ السهم، وليس غزو السماء فراراً منها إلى الأرض، ولا من الأرض إلى نفسها، وإنما غزو السماء تزويد وتحكيم لقرار علمى سلطوى في الحياة الأرضية على السماء: أن بإمكان ساكن الأرض وماكنها غزو السماء.

فالآية لاتمت بصلة لما تهواه غزاة السماء، وإنما هي آية الشورى: <وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثّ فيهِما مِنْ دابّةٍ وَ هُوَ عَلي جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَديرٌ>(٢٩:٤٢) إذ تعد بالجمع بين دواب الأرض والسماء، لاتلك التي توعد محاولي النفوذ بإرسال شواظ من نار! فهل هو بعدُ وعدٌ لغزو الفضاء مع وعيد النار؟ ثم ولماذا محاولة النفوذ من تلكم الأقطار؟ أفراراً من حساب الجبار وعذاب النار؟

<إِنّ رَبَّكُمُ اللّهُ الّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوي عَلَى الْعَرْشِ

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفيعٍ إِلاّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكّرُونَ>(٣)

إنه ليست الربوبية بالّتي تنفصل و تنعزل عن الألوهية، كما الألوهية كاملة غير مائلة، وساير الربوبيات المدَّعاة، لا أصل لها ولافرع صالحاً.

وهكذا <إن ربكم الله ـ الذى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ـ ثم استوى على العرش ـ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ـ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ـ أفلا تذكرون>؟

فالله تعالى شأنه يملك هذه الخماسية من الربوبية خلقاً وتدبيراً و تيسيراً فمعبودية <أفلا تذكرون>؟

ذلك، وقضية الألوهية لم تكن محل إنكار المشركين إذ كانوا معترفين مصرِّحين بوحدة الألوهية، ولكنه لم تكن تتبعه مقتضياته، فلقد كان من قضايا ذلك الإعتراف أن يعترفوا التزاماً بربوبيته الوحيدة في حياتهم، ثم الربوبية الإلهّية تتمثل في الدينونة له وحده، إذاً فلا تقدَّم الشعائر والشعورات التعبدية إلا له وحده، فـ <ذلكم الله ربكم فاعبدوه> لاسواه.

هذا ولكن هؤلآء المجاهيل وأضرابهم يحصرون الألوهية في الخالقية ثم يحسرونها عن الربوبية والمعبودية.

والعرش هنا هو عرش تدبير الخلق بعد خلقه: <ثم استوى على العرش لتدبير الأمور>[١] و <كان عرشه على الماء>(٧:١١) قبل أن يخلق منه الأرض والسماء، ثم له عرش يوم القيامة لتدبير الحساب فالثواب والعقاب: <ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية>(١٧:٦٩) فمثلث العرش هو مثلث النشآت، فلاعرش له ـ إذاً ـ قبل خلقه الخلق إذ لا مخلوق حتى يدبَّر.تدبير حكم لاحِوَل عنه وكما في حديث قدسى: <إنى أُدبِّر

[١] . نورالثقلين ٢: ٢٩٢ عن جابر عن أبى جعفر(عليهما السلام) قال قال اميرالمؤمنينΔ: إن الله جلَّ ذكره وتقدست أسماءه قبل السماء ثم...

عبادى لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير>.[1]

ذلك، وقد ذكر <العرش> بـ <عرشه> واحد وعشرين مرة في الذكر الحكيم في تسعة عشر سورة، وهي كلها تعني عرش الربوبية، دون مجرد الألوهية، فقد كان ولاعرش إذ لا خلق يستولي على أمره.

وهذه بين العرش الأول قبل خلق السماوات والأرض حيث <كان عرشه على الماء>(٧:١١) والعرش الأخير: <وترى الملائكة حافين من حول العرش>(٧٥:٣٩) <الّذينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ>(٧:٤٠) <وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ>(١٧:٦٩)

وبينهما سائر عروش الربوبية من عرش الرحمن وهو السيطرة الرحمانية على الخلق أجمع: <الرحمن على العرش استوى>(٥:٢٠) <ثم استوى على العرش فسئَل به خبيراً>(٥٩:٢٥) ذلك المعبّر عنه بعرش التدبير كما هنا <ثم استوى على العرش يدبّر الأمر> وعرش العلم: <ثُمّ اسْتَوي عَلَي الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ>(٤:٥٧)

فعرش الربوبية في ذا لك المثلث مرتكن على علمه المحيط وقدرته الطليقة وقيوميته المطلقة دون أى ندٍّ ولاشريك، فكما لاشريك له في ألوهيته وخالقيته، كذلك في سائر ربوبيته لما خلق.

فلا توكل ـ إذاً ـ إلا عليه: <عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبّ الْعَرْشِ الْعَظيمِ>(١٢٩:٢٩) لأنه

---

[1] . المصدر في كتاب التوحيد باسناده عن النبي5 عن جبرئيلΔ عن الله تبارك وتعالى حديث طويل وفيه: وإن من عبادى المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفه عنه لئلا يدخله العجب فيفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لأفسده، وإن من عبادى المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك و إن من عبادى المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلا بالسقم ولو صححت جسمه لأفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين لمن لايصلح إيمانه إلاّ بالصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك إنى أدبر...

الملك الحق <فَتَعالَي اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقّ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ رَبّ الْعَـرْشِ الْكَـرِيمِ>(١١٦:٢٣) ثم ولا شفيع من دونه: <اسْتَوي عَلَي الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِـيّ وَ لا شَـفِيعٍ اً فَـلا تَتَذَكّرُونَ>(٤:٣٢)

فلايعني العرش لربنا سبحانه وتعالى إلا حيطة علمـه وقيوميتـه في كافـة شـؤون الربوبية.

فكما أنه لا إلّه إلا هو، ولاخالق: <هل من خالق غير الله> كذلك هو رب لما خلق لاربَّ إلاَّ هو، ولا مدخل لغيره تعالى في خلقه، وإنما هـو القيـوم الـدَّيوم في ألوهيتـه وخالقيته وسائر ربوبيته، لاشفيع له في خلقه خلقاً وتدبيراً، ثم ولاجـزاءَ إلاَّ باذنـه فـ <من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه> <ما من شـفيع> في تـدبير الأمـر <إلا مـن بعـد إذنه>فالشفاعة الوساطة في أصل الخلق لاأصل لـه إذ هـو الخـالق لاسـواه، وكـذلك الشفاعة في التشريع، اللَّهم إلا شفاعة شرعية لبلاغ الرسالة، ثم شفاعة في ظاهرة آيات الرسالة، ومن ثم شفاعة في غفران الذنوب وما أشبه، فالشفاعة المسموحة هي على أية حال غير خارجة عن شؤون الربوبية الخاصة به تعالى وتقـدس، كمـا وغيرهـا أيضـاً خاصة باذنه، فلايستقل أحد في هذه الشفاعات المسموحة حيث تنحصر <باذنه>.

وذلك الإذن مشروط بشروطات عدة مسرودة في الكتاب والسنة، ومن السنة ولاية حملة السنة المعصومين(عليهم السلام)، بعد ولاية الله وولاية الرسول وصالحة الأعمـال، وكما يروى عنه5: <شفاعتى لأُمتى من أحب أهل بيتى>[١] و <من أبغض أحداً من أهـل بيتى فقد حرم شفاعتى>[٢] <من آذانى في عترتى لم تنله شفاعتى>[٣] <أول من أشفع له من أُمتى أهل بيتى>[٤] <شيعتك على منابر من نور مبيضَّة وجـوههم حـولى أشـفع لهـم>[٥] و

[١] . ملحقات إحقاق الحق ٩:٤٢٣ و ١٨: ٤٥٨ ـ ٤٥٩.
[٢] . المصدر ٦: ٤١٣ و ٩: ٤٨ و ١٨: ٤٦٠، ٤٦٦
[٣] .المصدر ٩: ٤٨٦.
[٤] . المصدر ٩: ٣٨٠ ـ ٣٨١ و ١٨: ٤٦٤، ٤٦٨، ٥٤٣.
[٥] . المصدر ١٥: ٤٠٦، ٢٢١ و ٤: ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

<الشفعاء خمسة... وأهل بيت نبيكم>[١] و <من أراد التوسل وأن يكون له عندى يد أشفع بها فليصل أهل بيتى ويدخل السرور عليهم>[٢].

وهكذا ينقسم تدبير الأمر ككل إلى أقسام، خاص بالله ككل شؤون الربوبية الإلهية، فلاتعدوه إلى سواه بإذن أو دون إذن، أم خاص به يعدوه إلى من يأذن له، أم هو لمن سوى الله دون خاصة الإذن حيث جعل الخيرة لخلقه فيه.

وهنا <يدبر الأمر> يشمل الأولين، اختصاصاً بشأن الربوبية مهما كان الثانى بإذن، ثم والثالث بما أذن تكوينياً بصورة عامة كسائر شؤون الخلق التكليفية وسواها، فلاتدبير لأى أمر من الخلق استقلالاً عن إذن الله، مهما اختلف إذن خاص في شفاعة عن إذن عام.

<ذلكم> البعيد المحتد <الله ربكم فاعبدوه> لاسواه <أفلا تذكرون> هذه الخصائص الربانية التي تختصه، فالعبودية له وحد هي قضية ألوهيته وربوبيته الوحيدة غير الوهيدة.

<ذلكم الله> الذى كان إذ لاكان، لاعرش ولامعروش حيث يعني <عرشه> سلطته الفعلية بكل مراحل القيومية.

فـ <الله> قبل ظهور فعليات صفاته الخلقية، هو الله دون عرش ولاسواه من كائن.

ثم الله بعدما خلقه الله ـ وقبل خلق السماوات والأرض ـ كان عرشه على الماء.

ومن ثم بعد ما خلقهما <استوى على العرش> ثم بعد خراب العالم كله له عرش تدبير الحساب و الجزاء حيث يحمله يومئذٍ ثمانية، المحمَّلين كموازين الأعمال موازين الحساب.

<ذالكم> فقد جُرِّد عرشه سبحانه عن عرش المخلوقين روحية أو زمينة أو مادية، كما و هو مجرد في ذاته و صفاته وأفعاله عن ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم.

---

[١]. المصدر ٩: ٤٢٥.

[٢]. المصدر ٩: ٤٢٤ و ١٨: ٣٠٦، ٤٧٣، ٤٥٧، ٥٥٥.

<ذالكم الله ربكم أفلا تذكرون> ما رقم في كتاب الفطرة التي فطركم الله عليها، خاسرين أنفسكم في الحاقة، خارجين عنها إلى أهواءكم المضلَّة المطلَّة عليكم!

<إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللّهِ حَقّا إِنّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَ الّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ>(٤)

<إليه> لاسواه ولا رسول الله فضلاً عن أى شركاء أو شفعاء <مرجعكم> أنتم العالمين <جميعاً>: مرجع بجميعه دون إفلات، و <كم> جميعاً دون إفلات، أعنى <وعد الله حقاً> ثابتاً، ولا حَول عنه ولا بداءَ فيه، أو أنه من قيام المفعول المطلق مقام فعله، <إنه> بتحقيق حقيق وتأكيد بليغ أكيد <يبدء الخلق> مصدراً وصادراً <ثم> بعدما يفنيه <يعيده> و لماذا <ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط> وهو فوق العدل، ولا يظلمون نقيراً <والذين كفروا لهم شراب من حميم>: حار حارق، <وعذاب أليم> <بما كانوا يكفرون> عدلاً جزاءً وفاقاً، فهناك درجات حسب الدرجات <ولدينا مزيد> وهنا دركات حسب الدركات دون مزيد إن لم ينقص.

هنا <يبدءُ> مضارعة تدل على إستمرارية الخلق، مما يضيِّق نطاق الخلق بالمكلفين أم ويشمل سائر الخلق لأنه مما يعيشونه إبتلاءً، فالبدء على أية حال هو بدءٌ فيه حالة التكليف لمكان الجزاء لفريقي الإيمان والكفر، فلا تعني الإعادة هنا إلا إعادة الحياة للأحياء بعد ما أماتهم، كما لاتعني إعادةَ المعدوم حتى تمتنع، إنما هي إعادة الأجساد إلى حالة تقبل الأرواح ورجعها إلى أجسادها فـ<كما بدأكم تعودون>(٢٩:٧) <كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين> (١٠:٢١) ـ و الإعادة أهون عليه فيما نقيس إذ لا أهون له، فكل خلقه عنده هيِّن: <ثُمّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ> (٢٧:٣٠) <فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنْشِيُ النّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنّ اللّهَ عَلى كُلّ شَيْءٍ

قَديرٌ>(٢٠:٢٩).[١]

ذلك ولو لم تكن إعادة بعد الموت لكان خلافَ القسط تسويةً بين فريقي الإيمان والكفر، بل وخطوة زائدة للكافرين وحرماناً للمؤمنين، وهذا ظلم لايحصل إلاَّ من ضعيف، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، ضعيفاً في قدرته أو علمه أو حكمته أو رحمته، فلولا الإعادة لجزاء بعد الخلق لكان البدء ظلماً عارياً عن الحكمة العادلة.

فقد بدء الخلق <ليجزي...> وهو يعيده <ليجزي> خلقاً قاصداً بإعادة قاصدة قاسطة ولايظلمون نقيراً.

وهنا <يبدء الخلق ثم يعيده> قد تعني كل الخلق مكلَّفين وسواهم من الخلائق، فقد تلمح أنه يعيد السماوات والأرض كما بدء هما، أم ويعيد خلقاً آخرين مكلفين وسواهم بعد القيامة الكبرى، ولكن احتمال خلق آخرين بعيد عن <ثم يعيده> إذ ليس خلقه آخرين إعادة للأوَّلين، وأما احتمال رجع السماوات والأرض فوارد، وكما تدل عليه <لا يَرَوْنَ فيها شَمْسًا وَ لا زَمْهَريرًا>(١٣:٧٦) <وَ أَمّا الّذينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنّةِ خالِدينَ فيها ما دامَتِ السّماواتُ وَ الْأَرْضُ إلاّ ما شاءَ رَبّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ>(١٠٨:١١)

ذلك، وكما أنه واحد في بدء الخلق لاشريك له أصيلاً ولابديلاً، كذلك هو المرجع والمعيد لاشريك له أصيلاً ولابديلاً، حيث البدء والإعادة والإرجاع هي أمور خاصة بساحة الربوبية فلا تقبل نيابة وإذناً، وكما المستفاد من <إليه مرجعكم جميعاً> حصره مرجعاً ومآباً فحساباً وثواباً وعقاباً.

<رِزْقًا لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذلِكَ الْخُرُوجُ>(١١) فإنه بحاجة إلى علم: <ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفيظٌ>(٤) وإلى القدرة على الإخراج كما بدأ.

وترى التنديد هنا أهو بترك النظر الى السماء شهوداً <كيف بنيناها وزيناها> لماذا لم

[١] . لتطلع واسعاً على المُعاد في المعاد راجع ج (٢٢: ١٠٨ ـ ١١٥) من الفرقان وآيات أشباهها. وفي <عقائدنا> ٦٩ ـ ٢٢٧٨.

يشهدوا كيفية خلق السماء و بناءها وتزيينها؟ <ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا>(٥١:٨١) إذ خُلقوا بعدهما فكيف يشهدون خلقهما! أم يشهدون شهود العلم بعدهما، وخلقُهما من فعل الله، فلا بعلمه إلا الله، أو من ارتضاه من رسول! أم إن النظر هو الماكن لأى ذى بصر أن ينظر إلى السماء فوقه، من بعيد، أو من قريب بالصواريخ والسفن الجوية أم ماذا؟ ولكى يعرفوا ـ قدر النظر ـ كيفية بناء السماء و تزيينها وما لها من فروج، دالة لأى مستدل على حكمة الخلاق العليم؟ وهو الحق الذى تندد فيه آية النظر باالذين يبصرون ولاينظرون، أو ينظرون ولا يعتبرون: <تبصرة ذكرى لكل عبد منيب>!

إن في السماء المبنية المزيّنة فوقهم <وما لها من فروج> سماءً من اللفتات، إلى صفحتها التكوينية الواسعة البارعة، في مثلث من بديع الخلق: <كيف بنيناها ـ وزيناها ـ و ما لها من فروج>!

فأما بناء ها فهو السبع الشداد <وبنينا فوقكم سبعاً شداداً> (١٢:٧٨)[١] و <فوقهم> هنا، كـ <فوقكم> هناك، إشارة كتصريحة الى كروية الأرض، فإنها لزام كون السماء فوق سكنة الأرض كلهم، ثم ولبناء السماء <فوقهم> زوايا شاسعة من حكمة التكوين تستحق مؤلفاً صخماً فذاً علَّه يأتى بأطراف منها قليلة، من خلق دخانها وجعلها طباقاً، وتزيينها بمصابيح أم ماذا؟ تلفت انظارنا هنا إلى الزاوية الأخيرة: <وزينا> وبقاءها على حالتها الرائعة رغم بليارات القنابل الفضِّية التي لزامها فروج: <ما لها من فروج>!

فهناك تزيين لمتن السماء بلونها الجلاّب ومنظرها الغلاّب الخلاّب، ومن ثم بمواليدها المصابيح، القناديل الفضية المعلقة فيها دون عمد ترونها: <رفع السماوات بغير عمد ترونها> (٢:١٣) فثَم عمد ولكن لاترونها! ومن البروج: القصور، أم ماذا: <والسماء ذات البروج> (١:٨٥)[٢]

---

[١] . راجع تفسير الآية في ج ٣٠ ص ٢٥.
[٢] . راجع آية البروج ج ٣٠ ص ٢٥٦ من الفرقان.

ثم <وما لها من فروج> وآية الفروج هذه كآية البروج، هي الوحيدة في القرآن التي تلفت أنظارنا إلى عدم الشقوق التي هي لزام المصابيح والبروج، فكل صفحة منها موتدة بأوتاد المصابيح، مرتفعة بالبروج، فما ترى لها من فروج، اللهم إلا صفحة السماء،، ولأن مصابيحها وبروجها معلقة في أعماقها، مدعمة بعمد لاترونها، ثم المتن الخالي عن مصابيح وبروج، كذلك: ما له في فروج.

وهذا استعراض للسماء في دنياها ان <ما لها من فروج> ولكنها في اخراها كلها شقوق وفروج: <وإذا السماء فُرجت> (٩:٧٧) فالسماء غير ذات الفروج تصبح وقتئذ من ذوات الفروج، ولحد كأنها كلها أبواب وفروج: <وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْوابًا>(١٩:٧٨) وإن كانت فروجها يوم تدميرها بحكمة، كما هي يوم تعميرها بحكمة، سبحان الخلاق العظيم!

<وَ اَلْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ>(٧)

وإن لم ينظروا إلى السماء فوقهم فلا يعتبرون، فإلى الأرض التي عليها يعيشون، والنظر إليها لزام حياتهم، مداً لها، وإلقائاً للرواسي فيها، وإنباتات كل زوج بهيج، مثلث اللفتات الأرضية متوازية للسماية حذوها:

فللأرض مدَّان، مد التعمير كما هنا، ومد التدمير كما في الأخرى: <وَ إِذَا اَلْأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَ أَلْقَتْ ما فيها وَ تَخَلَّتْ>(٤:٨٤) فبمد التدمير تتبدد، كما هي بمد التعمير تتمدد فتنبت فيهاكل زوج بهيج وموزون، من كل الثمرات: <وَاَلْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ(١٩) وَ جَعَلْنا لَكُمْ فيها مَعايشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ برازقينَ>(٢٠:١٥) <وَ هُوَ الَّذى مَدَّ اَلْأَرْضَ وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ وَ أَنْهارًا وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٣) وَ فِي اَلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوراتٌ وَ جَنّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي اَلْأُكُلِ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٤) وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنّا تُرابًا أَ إِنّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ

أُولئِكَ الّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ الْأَغْلالُ في أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ>(٥:١٣)

إن مد الأرض فإلقاء الرواسى، توحي أنها كانت منقبضة غير ممدودة، بلا رواسي ولانبات فلا حياة، شَموساً لاتذل لراكب، مضطربة الحراك، حيث الرواسي الشامخات تمسكها عن المَيَدان <وألقى في الأرض رواسى ان تميد بكم...> (١٥:١٦) فهنا رواسي ملقاة، وهناك أُخرى مجعولات: <وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم> (٣١:٢١)[١] و هما الجبال الموتدة على الأرض من الأعماق، الشاهقة إلى السماء، وعلّ الجعل والنصب أعم من الإلقاء[٢] حيث يشمل ما خلقت من الأمواج التي برزت على سطح الأرض نتيجة الحركات و الإصطدامات بالجو البارد، والتي سقطت من نجوم في السماء، ولعل الإلقاء هنا يخص ما هو نتيجة المد الضغط فتفجرت براكين، فأصبحت مِن عليها راسيات ملقاة من جوفها، أو ما يعم الملقاة من الأمواج سطح الأرضية، إذ كانت شموسة محترقة، أو يعمها والتي سقطت من نجوم السماء، أم ماذا؟

ثم لإلقاء الرواسي ـ أياً كانت ـ دورها الهام في إنبات كل زوج بهيج موزون، فإنها لاتكون إلا ببرودة الأرض، وإلا فلا جبال ولاسواها إلا مذاباً مايعاً في الأرض الشَّموس! وإذ لا جبال رواسي فلا ذِلَّ للأرض عن الشماس، ومن ثم: بعد الذل بالجبال الرواسى يإتى دور تكوُّن و ظهور المياه عن الأبخرة ونزولها من سماء، ولولا الجبال التي تكنُّ الثلوج فتذخر في أعراقها المياه، لَما سبل السبيل لإنبات النبات، سبحان الخلاق العظيم!

وعلَّ <كل زوج بهيج> يشمل كافة الأحياء الأرضية من نبات وحيوان وإنسان: <والله أنبتكم من الأرض نباتاً> (١٧:٧١) بل وبهجة نبات الإنسان أبهج من نبات سائر النابتات و الحيوانات ولأنه لاتخصها:

---

[١] . راجع ج ٣٠ ص ٩٠ و ٣٠٠ من الفرقان.

[٢] . حيث التعبير في مختلف الآيات يختلف بالجعل والنصب والالقاء.

<تبصرة وذكرى لكل عبد منيب>: بل وإنهما في الآيات الأنفسيةأقرب و أحرى من الآفاقية، فكل عبد منيب إلى ربه يتبصر بهذه الآيات ويتذكر، كما المعرض عن ربه المنيب إلى هواه يتعامى عنها فيتعثر.

إنها، لو أبصرتَ بها بصَّرتك، ولو أبصرت إليها أعمتك، والمنيب هو الذى لايبصر بهذه الآيات و يتذكر، كما المعرض عن ربه المنيب إلى هواه يتعامى عنها فيتعثر.

إنها، لو أبصرتَ بها بصَّرتك، و لو أبصرت إليها أعمتك، والمنيب هو الذى لا يبصر إليها وإنما يبصر بها، يجعلها ذريعة يتذرع بها إلى الحق المرام، دون المناهج (العلمية!) التي لانتحوا في مدها و جذرها إلا الحياة الحيوانية، في معرفة زائفة زائغة عقيمة غير عميقة، لاتتخطى النظر في الكون الى معرفةخالق الكون!

هذا هو المنهج العلمي، الماكن الساكن في أدمغة جامدة مطموسة رانت عليها أصالة المادة والحياةالحيوانية، و أما المنهج الإيمانى الصحيح فهو يزيد الناهيج معرفة بارتباطات الكائنات، ثم ربطها كلها بخالق الكائنات، فلا وقفه له عن الحراك، ولاعثرة له في حراك، فإنه دائب الكدح في هذه السبيل، ذاهب إلى ربه فملاقيه: <أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك فملاقيه>(٨٤:٦)!

دحو الأرض بعد خلق السماء؟

<ءَ أَنْتُمْ أَشَدّ خَلْقًا أَم السّماءُ بَناها(٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها(٢٨) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها(٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها(٣٠) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها(٣١) وَ الْجِبالَ أَرْساها(٣٢) مَتاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ>(٣٣)

جولة أُخرى لها جرسها الصارخ في أعماق الأسماع، تُندِّد بالمشركين الطغاة المعتدين المغترين بقوّتهم؛ رداً لهم إلى شيء من مظاهر القوة الإلّهية الكبرى الملمسة المحسوسة، التي لاتحسب قوَّتُهم يحنبها شيئاً يذكر.

<أأنتم أشد خلقاً>

قوةً وصلابةً ورموزاً وغموضاً، بدءاً وعوداً.

<أم السماء بناها>:

بناها كسماء لاكسبع سماوات، لأن دحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها، قبل السماءت، فخلق السماوات السبع متأخر عن خلق الأرض وتعميرها بمرحلة، وخلق أنجمها بما فيها الشمس متأخر عنه بمرحلتين.

يناها من مادتها المنبثقه عن المادة الأولية <ماء> باضطرامها، وهي الغاز: <الدخان> <ثم استوى إلى السماء وهي دخان>... بناها و سواها من ذلك الغاز، أن <رفع سمكها فسوّاها>.

فهنا بنا آن: بناء السماء، وبناء السبع الشداد، والآيات هذه بصدد بيان البناء الأول، ولقد نبأتنا عن البناء الثانى ـ من قبل في سورة النبأ.

<رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها> (٢٨)

والسمك هو الطاق المسموك بما يسمكه ويمسكه من السقوط، وهو هنا عمد لاترونها، كما السماوات أيضاً بأنجمها: <رفع السماوات بغير عمد ترونها>(٢:١٣). فسمك السماء قبل السبع، وسمك السماوات السبع، إنهما كليهما <بغير عمد ترونها> فَثَمَّ عَمَدٌ ولكن لاترونها وعلى حد تفسير باقر العلومΔ.

<فسوّاها> سماءً يرفع سمكها، فلولا سمكها لم تكن سماء، بل كانت تتساقط إلى أعماق الأجواء كما سوف تتناثر الكواكب عند قيامتها واسترجاع سمكها وجاذبيتها.

<فسوّاها> سماءً عادلة الأطراف، متساوية الجوانب و الأكناف، دون اختلاف بين أجزائها، لأنها كانت كلها الغازات الأولية على حرارتها و ظلماتها و إشراقاتها، فتلك ليلها وهذه ضحاها، إذ لم تخلق بعدُ شمسُها المضحية وشموسها المشرقة وكُراتها المستنيرة أحياناً والمظلمة أخرى.

<وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها>(٢٩)

أصل الغطش من الأغطش وهو الذي في عينه شبه عمَش، والتغاطش هو التعامي عن الشيء، فإغطاش ليل السماء هو جعله مظلماً، وعلّه يرمز إلى أن الدخان السماوى

كان نيِّراً لما خلق من تفجر المادة الأولية <الماء> فلما تصاعد دخاناً أظلم: أن أحاطت الظلمة جوانبها المجاورة للفضاء، والنور والضياء باطن في بطنها، ثم الله أخرج ضحاها إذ نشر الدخان في الفضاء وقلَّبه ظهر بطن فأصبح ليلاً وضحىً، نوراً وظلاماً فـ <أغطش ليلها وأخرج ضحاها>.

كل ذلك تؤيده السنة المهتدية بالكتاب وعلى حد تفسير باقرالعلومΔ[1] كما ترى تفاصيلها في البحث الفصل عن خلق السماوات والأرض عند مواضعها الأنسب.

دحو الأرض وطحوها:

<والأرض بعد ذلك دحاها>:

إن دحو الأرض وطحوها: <والأرض وماطحاها> (٦:٩١) إنه كان أياً كان، بعد خلق السماء، لابعد السماوات السبع، لما درسناه في الآيات من <فصلت> أن تسبيع السماء كان بعد خلق الأرض ببركاتها وجبالها، فما هو دحوها وما هو تأثيره عليها؟

إن الدحو والصَّحو هما، الرمي بقهر والإزالة والرحى والدحرجة[2]، والأخيرة هي

---

[1] . نورالثقلين ٥ : ٥٠١ روضة الكافي بالاسناد عن محمد بن عطية عن أبي جعفرΔ أنه قال لرجل من أهل الشام: وكان الخالق قبل المخلوق ولو كان أول ما خلق من خلقه الشيء من الشيء إذاً لم يكن له انقطاع أبداً ولم يزل الله إذاً ومعه شيء وليس هو يتقدمه، ولكنه كان إذ لا شيء غيره و خلق الشيء الذى جميع الأشياء منه فجعل نسب كلى شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه. وخلق الريح من الماء ثم سلَّط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزبد على قدر ما شاء أن يثور، فخلق من ذلك الزبد أرضاً بيضاء نقية ليس فيها صدع ولاثقب ولاصعود ولاهبوط ولاشجرة ثم طواها فوضعها فوق الماء، ثم خلق الله النار من الماء فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور، خلق من ذلك الدخان سماءً صافية نقية ليس فيها صدع ولاثقب، وذلك قوله: «والسماء بناها. رفع سمكها فقسوّاها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها» قال: ولاشمس ولاقمر ولانجوم ولاسحاب ثم طواها فوضعها فوق الأرض ثم نسب الخلقتين فرفع السماء قبل دحو الأرض فذلك قوله عز ذكره: «و الأرض بعد ذلك دحاها» يقول بسطها.

[2] . في تاج العروس <دحى السيل بالبطحاء رمى، والمطر الداحي الذي يدحوا الحصى عن وجه الأرض بنزعه، والدحو الحجارة للرماة بها، ويقال للفرس: يدحوا إذا رمى بيده رمياً.

أشمل معانيها وأكفاها دلالة على أن دحوها هو الحركة المنظّمة، أو بدايتها المكّلمة بإرساء الجبال في أعماقها، وعلى حد تعبير الأميرΔ <وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشتاخيب الشُّمّ من صياخيدها، فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها> و <سكنت الأرض مدحوّة في لجَّة تيّاره، ورُدَّت من نخوة باءِه واعتلائه وشموخ أنفه وسموِّ غلوائه وعلى كظَّة جريئة فهمد بعد نزقانه، ولبد بعد زَيَقانه وثباته>[١]... وسكون الدحو هنا هو السكون عن الاضطراب بانتظام حراكها في دحوها.

وقد ذكرنا مسبقاً ـ سناداً إلى آيات ـ أن الأرض كانت متحركة منذ خلقت، ثم جعلها الله تعالى ذلولاً بعد شماسها، وهنا تعرفنا إلى بدايتها في انتظام حركاتها أنها بعد خلق السماء قبل تسبيعها.

وفي روايات مستفيضة أن الدحو كان من تحت الكعبة ـ زادها الله شرفاً .

فعن إمام المتقين علىΔ: <إن شاميَّاً سأله عن مكة المكرمة لم سمِّيت مكة؟ قال: لأن الله مكَّ الأرض من تحتها، أى دحاها>.

والمك هو الدحرجة كما في القاموس، وعنهΔ أيضاً: <فلما خلق الله الأرض دحاها من تحت الكعبة ثم بسطها على الماء>.

وهذه الكرامة لمكة المكرمة هي نقطة الإبتداء لانتظام حركات الأرض الناتجة عنه مختلف ألوان الحياة، وكما أن حج البيت قيام في الحياة وانتظام للحركات الإنسانية في مختلف حالاتهما <جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس> أى نقطة تلاق وانطلاق لكافة المتطلبات الحيوية الجماعية الإسلامية السامية.

---

[١] .وبداية الخطبة <كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة ولجج بحار زاخرة يلتطم أوادى أمواجها وتصطفق متقاذفات أثباجها وترغوا زبداً كالفحول عند هياجها،فخضع جماح الماء المتلاطم الثقل حملها وسكن هيج ارتمائه إذ وطأته بكلكلها وذل مستحذياً إذ تمعكت عليه أهلها، فأصبح بعد اصطحاب أمواجه ساجياً مقهوراً وفي حكمة الذل منقاداً أسيراً>...

هذا، وإن تفسير الدحرجة لدحو الأرض ما تصرِّح به اللغات الصراح والأحاديث المفسرة لحق المعني منه، ولاتنافيه اللغة والاحاديث التي تفسّره بالبسط، لأن انبساط الأرض في نفسها وللحياة هو لزام حراكها المنظمة المعقولة الدورانية، إذ كانت لينة تتأثر بالحراك على أثر قانون الفرار عن المركز، ولم يفسره بـ <البسط> إلا لغة التفسير، وكما نراه في الكثير من كتب التفسير، وكذلك الأحاديث التي تعنى تفسير النتيجة الهامة من دحوها وحراكها، ومن الشاهد عليه أننا لانرى البسط في معنى الدحو إلا بالنسبة للأرض لاسواها!

وإن أهم ما أنتجه دحو الأرض وطحوها هو بسطها وإخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها في أعماقها، بعد أن كان ماؤها مخبوءً فيها، وجبالها لينة دون رسوٍّ في قطع أديمها.

إن بداية ظهور الجبال هي من حصيلة الأمواج التي ظهرت على سطح الأرض نتيجة الحركات والإصطدامات بالجو البارد، وقانون الفرار عن المركز، وكما عن عليΔ حين يُسئل: <ممَّ خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج>: أى أمواج السطح المذاب، الضارب إلى الإنجماد في المواضع المستعدّة.

فلقد مدَّت الأرض وسُطحَت على أثر حركاتها الأولية، ثم على أثر دحوها، فألقى فيها رواسي شهقت من فوقها وأرسيت في بطنها: <وَ ٱلْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ>(١٩:١٥) <هُوَ الّذى مَدّ ٱلْأَرْضَ وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ وَ أَنْهارًا>(٣:١٣).

والرواسى الملقاة تعم المخلوقة الممتدة على سطح الأرض إلى باطنها، والتي انبثقت من تفجرات البراكين، والتي سقطت من نجوم السماء.

ومن أهم ما نذكره هنا كأبلغ نموذج روائي بعد الآيات ما عن أميرالمؤمنينΔ بشأن الجبال: <و جبّل جلاميدها ونشوزَ متونها وأطوادَها فأرساها في مراسيها فألزمها قرارتها فمضت رؤوسها في الهواء ورَسَت أصولها في الماء، فانهدَّ جبالها عن سهولها وأساخ قواعدها في متون أقطارها ومواضع أنصابها فأشهق قلالها وأطال أنشازها

وجعلها للأرض عماداً وأرَّزها فيها أوتاداً فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلـها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها>.

فقد سطحت الأرض ومدت بما دحيت <وإلى الأرض كيف سطحت> فتهيئت لرسوِّ الجبال وإرسائها في قطع أديمها، ثم <أخرج منها ماءها ومرعاها>.

<أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها(٣١) وَ الْجِبالَ أَرْساها>(٣٢)

عرفنا مسبّقاً أن مياه الأرض كلها من السماء، وهنا نعرف أنهـا نزلـت عليهـا قبـل دحوها وقبل تسبيع السماء وخلق أنجمها، فما كان الماء ليخرج من كبـد الأرض وهي مجنونة الحراك والحرارة يتصاعد منها بخاراً الى السماء، لو كانت على حرارتها، أو كـان بخاراً مكنوناً في جوفها لكى يفر عنها لو ظهر على سـطحها، حـتى إذا دحاهـا ربُّهـا، فأرسى جبالها المتكوّنة من الأمواج على سطحها الذائب، أرساها في قطع أديمها بعد ما كانت لينة غير راسية، ثم إرساء الجبال ـ ولزامه برودة الأرض شيئاً مّا ـ هيَّـأ الأرض لإخراج مائها ومن ثم مرعاها: <متاعاً لكم ولأنعامكم>.

وإرساءها الجبال يوحي بتكوّنها قبل إرسائها، وكما الآيات المسبّقة تدل أنها نصبت ثم أرسيت <وإلى الجبال كيف نصبت>...

فلقد خلقت الأرض محترقة مذابة لاماء فيها ولاكلاء ولاجبال، ثم الله أنزل عليها من السماء ماءً بعد ما بردت شيئاً ما، ولكنها ابتلعت ماءهـا خـوف ارتجاعهـا إلى السـماء نتيجةَ الحرارة الزائدة، وأخذت الجبال تظهر عليها من الأمواج، ثم دحاها فأرسى جبالها وأخرج منها ماءها ومرعاها.[١]

<مَتاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ>(٣٣)

كل ذالك ليمسكم وأنعامكم، يمتِّع أنعامكم لكي تتنعمـوا منـها، ويمـتعكم إلى أجـل مسمى لتذكروا نعمة ربكم وتشكروه عليها.

---

[١] . في الدر المنثور بالاسناد عن قيس بن عبادة قال: إن الله لما خلـق الأرض جعلـت تمـور، فقالـت الملائكة،: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صبحاً وفيها روايس فلم يدروا من أين خلقت.

نظرية التوسعة علمياً وقانونها قرآنياً

<وَ السّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ>(٤٧)

السماء منصوباً بالمفعولية معطوف على الآيات المسبقة، الآفاقية والأنفسية <ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُمْ> ففى بناءها وتوسيعها آيتان من آى القدرة والرحمة الالٰهية، تتأيدان بتقدم العلم، ولاسيما الثانية: ان المملكة السماوية في توسع دائم، فإسم الفاعل (موسعون) ولاسيما بتأكيديه: (نا) و (ل) يوحي بدوام التوسيع: (نظرية التوسعة)! ترى أن اتساع مملكة السماء يعم طباقها السبع ايضاً، كما يعم أجواءها وكراتها، ولتصبح ثماني او اكثر؟ وقد لاتنافيه الآيات المستعرضة لخلقها سبعاً لانها في عرض بدايتها! إلا أن الحاكية عن كونها سبعاً عند نزول القرآن: <تُسَبِّحُ لَهُ السّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فيهِنّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَليمًا غَفُورًا>(١٧:٤٤) متجاوبة مع المصرحة بمنتهى المعراج وهو الأفق الاعلى <عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى> قد تنافى ازديادها على السبع كنقصاتها، اللهم إلا في توسيع جنة المأوى، المحيطة بالسابعة، الواقعة على صرحها، وهي من ضمن السماء.

ثم ترى أن اتساعها ومنذ سبعها؟ ام منذ خلقها؟ أن إفراد السماء هنا يوحي بأنه منذ خلق الدخان: <الغاز> السماوى، الثائر من تفجر المادة الأم: <الماء> فمن توسيعها جعلها سبعاً، ثم خلق أنجمها: <ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحي في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السَّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ

الْعَلِيمِ>(١٢:٤١)

ثم السبع بجنتها المأوى، وبأجوائها وأنجمها مستمرة في التوسع الى قيامتها، والعلم حتى اليوم لم يكشف النقاب إلا عن شيءٍ من توسعها في انجمها واجوائها.

إن آخر ما انتجته التحقيقات الفكلية ان قطر كل سلسلة من الجزائر السماوية اربعون الف سنة ضوئية، والقسم المركزى منها كتلة نارية الكترونية ذرية، تدور عليها السلسلة السحابية، ونتيجة للدوران تنفتح وتنتشر القطر السحابى الحلزونى لحدٍ مّا، وتصبح كقطع سحابية مضيئة، أو مجموعة كواكب، وبعد آلاف الملايين من السنين ينمحي المحل الأصل للسلاسل الحلزونية، وبدلاً عن القطع المضيئة التي هي مراكز الكواكب وأصولها تظهر في صحنة الفضاء كواكب منفردة، وهكذا يكون دوران المجموعات السحابية مولّدة للكواكب وسائر النقط النورانية في الفضاء>.

كما وان بعض الكواكب تقوم قيامتها قبل القيامة الكبرى، إلا أن المواليد منها أكثر من الأموات،وإلا لايكون لتوسّع المملكة السماوية من معنى!.

ثم الأيدى الإلّهية المبنية بها السماء، والموسَّعة بها، هي أيدى العلم والقدرة والرحمة والحكمة، كما أن <نا> هنا وهناك، توحي بأن الله جمع في هذه السماء، كما في الأرض وأنفسكم، جمع كافة أياديه ورحماته، الممكن جمعها في الخلق، فما هو بالخلق وعلى الخلق بضنين!.

<وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ>(٤٨)

توحي بأن الأرض لم تكن مفروشة ممهّدة لأهليها منذ خلقت ولفترة لانعلم عنها شيئاً، ثم شاءت إرادة الرحمة الإلّهية أن تفرشها وتمهِّدها للأهلين، ولاسيما لنا كما جعلت كذلك ذلولاً: **<هُوَ الّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النّشُورُ>(١٥)**[1]

[1] . راجع الفرقان ج ٢٩ ص ٣٧ حول آية الذلول.

آية عديمة النظير في كيفية البرهنة على وجود الله وتوحيده، تحمل أعمق الأدلة الواقعية والعقلية الدالة على الله: <ظاهرةالتركب في كل شيء>! ما يدل دلالة قاطعة لامَحيد عنها على الحاجة الذاتية في كل شيءٍ، في أعماق ذاته، إلى ما وراءه، الذي يباينه في كيانه <ففرو إلى إلله إنى لكم منه نذير مبين>؟

هذه الآية تتطلب في ايضاح ما تعنيه دراسة واسعة عميقة فصلنا في <حوار>[1] و نستعرض هنا ما يناسب موسوعتنا، صادرين عن آيات الله البيِّنات.

إنها تحكم على كلِّ شيءٍ بكونه زوجين. بغية التذكر: أن الكل فقراء إلى الله، فالفرار عن الكون الفقير اللاشيء، إلى الممكِّن الغنى الذي خلق كلِّ شيءٍ.

<من كل شيءٍ>: ماكنا نعرفه، وما عرفناه بالجهود العلمية، وما نحن في سبيل معرفته، وما لن نعرفه لاختصاص معرفته بمكوّنه: <سُبْحانَ الّذى خَلَقَ ٱلأَزْواجَ كُلّها مِمّا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ>(٣٦:٣٦) ما لايعلمونه حالاً، أو ولااستقبالاً، لاستحالة أن يعلمه إلاّ الله كالمادة الأم: المادة الأولية الفردة التي خلقت لامن شيءٍ، ومنها خلق كلُّ شيءٍ، فلا يعلمها إلا الخلاق العليم، مهما علم الخلق عن مواليدها شيئاً.

فالشيء ـ أياً كان ـ كيانه أنه زوجان، في أقل تقدير، شريكان في كونه وكيانه، لولاهما دون أحدهما، لم يكن هو شيئاً قط.

إن الشيء المادة كسائر المواد، أو المادى كسائر الأرواح، إنه ككلٍّ و دون استثناء، محكوم بازواجية الكون والكيان، كيفما كان وأيّان فلا تجد، ومحال أن تجد:خلقاً هو فرد كائن واقع دون قرين، وإن كان في المادة الأم نفسها، كما وأن الزوجية التركُّب والأبعاد لزام الكيان المادى مادامت كائنة، فإذا زالت عن الوجود زالت الزوجية كماتزول المادة نفسها، وكما أنها توجد لأول وحلة مركبة الكيان.

---

[1] . راجع كتابنا: (حوار بين الإلٰهيين والماديين) ص ٢١١ ـ ٢٢٨ و (الفرقان ـم ٢٢).

إن ازدواجية كيان المادة قد تتبنّى كونها كأصل، ولأوّل ظاهرة من مظاهرها كالمادة الأُم، وقد تتبناها كحالات غير أوّلية، كالحالة الشخصية: موجبة أو سالبة، كأجزاء للذرات، ثم الذرَّية، ثم الجُزيئية، ثم العنصرية، ثم العناصرية، ولابسيط مستحيل التجزء، فيزيائياً هنا وهناك، اللهم الا المادة الأمّ بزوجيها، فإن تجزئتها هي إعدامها، كما أن ايجادها هو خلقها زوجين توأمين، ثم وليس لكلٍ من زوجيه زوجان، كما لايمكن كون كلٍّ منهما بكيان مستقل عن زميله.

لقد كانت البشرية تزى أن العناصر الأربعة بسائط، إلى أن كشفت النقاب عما دونها من جزيآت، ثم عن ذرات انهتها حتى الآن إلى زهاء ١٠٦ ذرة، زاعمة أنها بسيطة: أجزاء لاتتجزى، وأقل تراكيبها هما الشحنتان: الموجبة البروتونية، والسالبة الإلكترونية، ثم ظهرت على أجزاء أُخرى لها كالنيوترون والبوزيترون، واستطاعت أن تفتح القلاع الذرية بمدفعيات جبارة علمية، فتجروئُها إلى شيءٍ من أجزائها، وتبديل عناصر إلى أُخرى بقذف القلاع الذرية في نواتها، وقد سمّاها العلماء بالكيمياء النواتى.

فالبشرية على ضوء العلم والجهود الجبارة استطاعت حتى الآن أن تعرف تراكيب وأزواجها فيما لم يكن بحسبان: <مما لايعلمون> ولكن هل للإنسان أيا كان، وكيفما تقدم في العلوم، أن يعرف حقيقة المادة الأم فضلاً عن زوجيها؟ من المؤكد أنها <مما لايعلمون> نهائياً، فإن المادة الأم هي ملكوت المادة، مما يختص علمه بالخلاق العليم.

إن الذى يستحق اسم الشيء، المحوم عليه بازدواجية الكيان، ليس إلاّ المادة الأم، وبأحرى مواليدها الذرات بأجزائها، والجزيآت و سائر العناصر، وأما الزوجلان للمادة الأم، فهما معاً شيءٌ وأم الأشياء، وأما كل واحد منهما مستقلاً عن الآخر في واقعه فليس شيئاً حتى يحمل زوجين أم سواه، اللهم إلاّ في تصور مبهم في أعلى صروح العقل، أما في الواقع الخارجي فليس بالإمكان كونه ولا كيانه إلا مع زميله التوأم، كما يخلقان معاً هوية وزمناً، ويعدمان كذلك مع بعض.

وإذاً سُئلنا: ما هي حقيقة كلٍّ منفصلاً عن الآخر؟ فالجواب أن لاحقيقة إلا

الخيال!... وإذا كان عدماً، فكيف بالإمكان أن يتحصل من توأمين عادمين كائنٌ مادي يحمل زوجين كائنين؟ فالجواب: أنهما معاً خلقا لا من شيءٍ، كان قلبهما، لا من اللاشيء، وإنما: لا من شيءٍ، فكل منهما إذاً قبل الإنضمام، إنه قبل الوجود، كسائر الأعدام الممكنة الوجود، وهما حال الإنضام موجود واحد، وكل منهما مستقلاً عن الآخر مستحيل الوجود، ومع حال الآخر مندغم الكيان معه كالعكس، فالمجموع <إذاً> مادة فردة هي أم المواد، وكل منهما مادي، لامادة ولا لامادة، ليس مادة لعدم تركّبه، أم بصيغة أخرى، هما موجودان معاً بعد خلقهما كمادة واحدة، أمَّ وهما معدومان معاً قبل خلقهما، ثم لابرزخ بين حالتي الوجود والعدم، إلا فرض انفصال كل عن توأمه، فرضاً غير واقع مع الحفاظ على كيان الأم، وفيما يكون واقعاً فليس إلا بإعدامهما بإعدام الأم.

ومن ناحية أخرى إن القول باللانهاية في أجزاء المادة ممكنة التجزء أم مستحيلته، انه قول بجمع الأجزاء المادية اللامحدودة في المواد المحدودة، جمعاً بين المتناقضين، و هو يحيل الكيان المادى على أية حال.

وفيما إذا سئلنا: هلا يمكن تجزئة المادة الأم، وإن كانت بالقدرة الإلهية؟ فالجواب: أن التجزئة هنا بمنى إنفصال الزوجين وبقاءهما أو أحدهما منفصلاً عن الآخر، إنها مستحيلة وليس للمحال جواب! وهي بمعنى إنفصالهما عن الوجود، وانعدام المادة الأم جذرياً، إنها بهذا المعنى ممكن، إذ القادر على الإيجاد قادر على الإعدام، لو صح التعبير عن إعدام المادة الأم بتجزئتها! ولكنه إعدام لها كما أو جدت، أو جدت زوجين مع بعض، وتُعدم كذلك زوجين مع بعض، وليس لأحدهما كيان مستقل عن توأمه واقعاً على أية حال.

وفيما إذا سئلنا: ترى بالإمكان أن تكون المادة الأم ذات زوجين فقط، والكيان المادى لزامه أياً كان> أبعاد ثلاثة، وكيف يحمل زوجان بسيطان أقل من ثلاثة أبعاد.

فالجواب: أن الثلاثة لزام مواليد الأم، الزائدة في تراكيبها عنها، وأما هي فيكفيها

بُعدان، وهما أقل تقدير للكيان المادى، بُعدان فيزيائيان، أم هندسيان! وقد يعنيهما الامام علىΔ في قوله: <... دالة بتفريقها على مفرقها وبتأليفها على مؤلفها وذلك قوله عزوجل: <ومن كل شيءٍ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون> ففرق بينها وبين قبل وبَعد ليُعلم أن لاقبل له و لابعد...>[1] والإمام الرضاΔ في قوله: <فرَّق الله بالأشياء بين قبل وبَعد ليُعلم أن لاقبل له ولابَعد> إذ يفسران الزوجين بقبل وبَعد: أنهما لزام المادة في كيانها الذاتى الأولى، سواء أكانا زمنيين، فلكل كائن قبلٌ، إذ لم يكن ـ وبَعد فسوف لايكون، والله تعالى قبل القبل أزلياً وبَعد البَعد أبدياً، أو كانا ما هوييين داخل الذات وهما البُعدان فيزيائياً، أم هندسياً، بُعدان! مكانيان قبل وبعد، والله تعالى خارج عن المكان وعن الأبعاد أياً كان.

وأخيراً ما هي الصلة بين الزوجين هذين وبين تذكر الألوهية وراءَهما والفرار إلى الله منهما؟

أقول: إنه تذكر للغافلين عن الحيطة البربوبية بالأشياء، أن الفقر والحاجة مند غمان في أصول كيان المادة، ولنأخذ المادة الأم ـ وهي أغنى المواد وأولاها ـ مثالاً لهذه الذكرى.

هذان الزوجان كما عرفناهما، كل منهما ليس في ذاته إلا <لا> لايملك كوناً ولاكياناً فضلاً عن تكوين زميله، وكل منهما متوقف في كونه على الآخر كالعكس، لاتوقف المعلول على علته، اذ لاتتصور العلية لما ليس له نصيب من الوجود، ولا المعلولية لما لايمكن أن يوجد مستقلاً عن زوج، إذاً فكل منهما بحاجة إلى زميله في إمكانية إفاضة الوجود عليه، فلا تجد هنا وهناك إلا فقراً، فإمّا أن يُحرما عن الوجود، أو يفيض لهما الوجود خلاق الوجود، أفليست هذه الزوجية في كل شيءٍ، هي التي دلتنا على الحاجة

[1] . التوحيد للمصدق باسناده عن الامام الصادقΔ قال: بينا اميرالمؤمنين يخطب على منبر الكوفة إذ قام رجل... فقال: يا اميرالمومنين! هل رأيت بك؟ فقال.... وهي خطبة توحيدية عظيمة... (راجع كتابنا <حوار> في شرح الخطبة).

الذاتية في كل شيءٍ؟ الى مَ؟ هل كل إلى مثيله؟ والفقر مع الفقر لايزداد إلا فقراً! أم إلى غير مثيله؟ فهو الله تعالى شأنه الذى <ليس كمثله شيئٌ>! <ففروا إلى الله إنّى لكم منه نذير مبين> فرار العاقل المتذكر، من اللاشيء إلى مَن خَلق كلَّ شيء لامن شيءٍ، من الفقر المحض إلى الغنى المطلقة، من الكائنات ـ كل الكائنات ـ التي هي أزواج، ولا أقل من زوجين، إلى الواحد الفرد الصمد من لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً ولاموتاً ولاحياتاً ولانشوراً، إلى من بيده ناصية كل شيءٍ.

تُرى هل توجد غنىً ذاتية في أىِّ شيء، والزوجية آية الحاجة في كل شيءٍ سواء أكانت في المادة الأمِّ حيث الزوجان هما كيانهما كأم في أصل كونهما! وإذ لم يكن إفاضة الوجود من كل للآخر لمكان استحالتين فهي بحاجة ماهوية إلى ماوراءها من كائن ليس زوجين وهو الله الفرد الأحد.

هنالك استحالة أولى هي اللاشيء، فإن كلاًّ من الزوجين مستقلا عن الآخر ليس شيئاً، واستحالة ثانية هي لزوم تقدم الشىء على نفسه لو اعتبرنا كلا منهما شيئاً، أن يكون الشىء علةً لما هو معلول له، فحال كون أحد الجزئين علةً للآخر يجب تقدمه عليه، وحال كونه معلولاً له يجب تأخره عنه، ولزامه تقدم وتأخر شيء عن آخر، والنتيجة تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنه!

هذا هو الفقر الذاتى في المادة الأم، وبأحرى في مواليدها، فالشحنة في كيانها الخاص بحاجة إلى ازدواجية ما، وكذلك الذرة، والجزئى ومختلف العناصر.

فأي باب ندق من كائنات العالم نسمع صرخات الفقر والعدم من ذواتها، فإلى من هي مفتقرة إلا إلى الغني المطلق؟ <ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين>؟

وهنا التعبير بالفرار لطيف جداً، وعجيب حقاً، فهو يوحي بالأثقال والأغلال التي تثقل وتغل النفوس البشرية إلى هذه الكائنات الحقيرة الفقيرة، فتأسّرها عن الإنطلاق، وتحصرها في عقال الأوهاق، وتنسى أخيراً أن لها ربّاً!

فلابد ـ لكى نتحلل عن أسرها وحصرها ـ أن نعرفها أولاً بالفقر والعدم الذاتى، ثم

نفر بكل ما نملك من سرعة وجلادة، إلى الله الذى خلقها ويفيض لها دائباً، نفر بأجنحة العقل واللُّب والعلم، مستخدمين كافة الطاقات ولكي لانرجع مغلولين إن تبأطأنا في السير، أو أخطأنا المسير، والله هو الولي القدير، <ففرّوا الى الله إنى لكم منه نذير...>.

ثم الفرار إلى الله درجات، كما الفرار عنه دركات، فأولى درجات للفرار إلى الله رفض الشركاء والأنداد عنه، وأشرفها وأولاها الفرار عما سوى الله، و عن نفسك أيضاً إلى الله، وإلى حد الدنو والتدلى: <ثم دنى فتدلى> أن يصبح كله معرفة لله، وعبادة لله، ناسياً نفسه إلا تذرّعاً بهما إلى ابتغاء مرضاة الله، ومن صح فراره إلى الله صح قراره مع الله، فلا تجد فيه حالة مع من سوى الله إلا الفرار، ومع الله إلا القرار.

خلق الأرض قبل السماء

<هُوَ الّذى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ جَميعًا ثُمّ اسْتَوى إِلَى السّماءِ فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلّ شَىْءٍ عَليمٌ>(٢٩)

ترى أنَّ خلق هذه بما فيها مقدم عن خلق السماء؟ اقول: نعم واقول: لا!

نعم: إنها خلقت قبل تسبيع السماء، فقبل نجومها ومصابيحها ومنها الشمس!

ولا: فانها خلقت مع دخان السماء او بعده ام قبله: لاندري، حيث انفجرت المادة الأم: <الماء> فأزبدت زبداً خُلِقت منه الأرض وزملاءها الست الاخرى، وثار منها دخان هو المادة السماوية الأُولى.

فهنا الإشارة: <ثم استوى الى السماء فسوّاهن سبع سماوات> كتصريحة أن خلق الأرض بما فيها هو قبل تسبيع السماء، وكانت السماء وقتئذٍ سماءً، أمع الأرض ام قبلها؟ هنا لاندرى، وتجد التفصيل الأصيل في <فصلت> كما فصلناه على ضوء الآيات الثلاث.[١]

---

[١] . <قل إنكم لتفكرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين...>.

فـ <ما في الأرض جميعاً> هنا هي رواسيها وبركاتها وأقواتها ثم من بعد ذلك سوّى السماء سبعاً وهي دخان لم تسوَّ بعدُ سماءً ولاسماوات.

فللسماء مراحل ثلاث: ١ ـ الدخان ٢ ـ السماء مبنية واحدة ٣ـ السماوات السبع.

واللائح من آية البقرة والآيات من فصلت أن الأرض خلقت برواسيها وأقواتها قبل خلق السماء سبعاً، وإذ كانت دخاناً: < ثُمّ اسْتَوي إلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحي فِي كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليم>(١٢).

وآيات النازعات تؤخر إخراج ماء الأرض ومرعاها و إرساء جبالها ـ بدحرها ـ تؤخرها عن بناء السماء، ولأن خلق الأرض ببركاتها و اقواتها كان قبل تسبيع السماء، فلا يعني بناءُ السماء في النازعات ـ قطعاً ـ تسبيعها، فانما تطوى غازها الى سماءٍ واحدة هو أقل تقدير لبناءها: <ءَ أَنْتُمْ أَشَدّ خَلْقًا أَمِ السّماءُ بَناها(٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها(٢٨) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها(٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها(٣٠) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها(٣١) وَ الْجِبالَ أَرْساها(٣٢) مَتاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ>(٣٣:٧٩)

بناها من أصلها الثانى <الدخان> المنبثق من المادة الأمِّ <ماء>.[1]

وترى أن هذا البناء الأوّل للمساء هو قبل تكملة الأرض أم بعدها؟ آيات <فصِّلت> تقدِّمها على هذا البناء، و آيات النازعات تؤخرها، فهل هنا تنازع بين فريقي الآيات؟

اقول: هنا تكملة للأرض في أدوارها الأربعة بخلق رواسيها و بركاتها وتقدير أقواتها هي كلها قبل بناءِ السماءً إذ هي دخان كما في آيات <فصلت>.

---

[1] . <قل ءانكم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين و تجعلون له اندادا ذلك رب العالمين...>.

وهناك تكملة أُخرى ـ بإرساء جبالها وإخراج ماءها و مراعاها ـ هي بعد بناء السماء كما في النازعات، إذاً فلا تَناحُر بين الآيات.

وحاصل الترتيب التكويني، ١ ـ خلق الارض ببركاتها واقواتها كامنة فيها والجبال غير راسية في متونها ٢ ـ بناء السمآء برفع سمكها فإغطاش ليلها وإخراج ضحاها ٣ ـ دحو الأرض فاخراج ماءها المكنون ومرعاها، وإرساء جبالها المجعولة عليها فيها ۴ ـ تسوية السماء سبعاً بعد هذا البناء وذلك الخلق، وقد توحي بفصل بناء السماء بين تكملتي الأرض: <فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا> أن تأتى الأرض للتكملة الثانية والسماء لبناءها، ثم تسبيع السماء بعد هذا البناء وتلكما التكملتين.

او قد تكون بنا السماء هي هي دخان السماء، فقبلها او معها خلق الأرض ببركاتها واقواتها من فوقها، وبعدها دحو الأرض بليلها وضحاها باخراج ماءها ومرعاها والجبال ـ من فوقها ـ أرساها في متنها.

إذاً فإتيان السماء لتسبيعها وإتيان الأرض للتكملة الثانية اماهيه؟[١]

وترى ماذا تعني <ثم استوى الى السمآء>؟ اقول: معاني الاستواء تختلف حسب اختلاف مواردها، متعديةً بأداة وسوّاها، فمنها الإعتدال والتمام: <وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ آتَيْناهُ حُكْمًا وَ عِلْمًا>(١۴:٢٨) والإستقامة: <فاستوى على سوقه> (٢٩:۴٨) والإحاطة: <الرحمن على العرش استوى>(۵:٢٠) والإستقرار: <فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ>(٢٨:٢٣) <لتستووا على ظهوره> (١٣:۴٣) والتماثل: <هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل> (٧۶:٢۶) وإتمام التدبير على سواء فيما عديت بإلى كما هنا: <ثم استوى الى السماء> تمَّ تدبيره الى تسوية السماء سبعاً دونما تكلف رغم أنها سماء.

ومعنى المساواة مضَّمنة فيها في كافة احوالها، فالاستواء الى السماء هو إتمام تدبيره الى السماء، على سواء في ذلك بين الأرض والسمآء، فانما هما وِجاه خلقه وتدبيره

[١] . تفصيل البحث الى الآيات في فصلت.

سواسية سواء، دون عيٍّ ولالغوب.

ولماذا <فسواهن>؟ والسماء واحدة لايرجع اليها ضمير جمع! وجمع السماء وهي السبع لاتسوّى سبعاً، اللهم الا تحصيلاً للحاصل!

اقول: السماء وحيدة قبل تسبيعها، ولكنها لمشارفتها الى سبعها اعتبرت كانها سبع <فسوّاهن> السماء المشارفة لسبعها <سبع سماوات> <وهو بكل شيء عليم> ولذلك فهو على كل شيء محيط و بكل شيء قدير.

وطالما تنادى آيات من الذكر الحكيم ـ المستعرضة لخلق الكون ـ أن السماوات سبع، فقولة القائلين أنها بليارات حسب عديد الكرات، او أنها الأجواء السبعة للمنظومة الشمسية، إنها قولة خاوية هُراء، فان سماوات المُفرطين هناك والمفرِّطين هنا كلُّها مطويات كنقاط في السماء الاولى من السبع حسب القرآن، وقد فصلت في <فصلت>.[1]

كما وان توجيه خلق ما في الأرض بتقديره دون ايجاده رغم المصارحة من متظافر الآيات، وزعم أن ايجاده مؤخر عن السبع السماوات، في اتفاق مزعوم، إن ذلك مما يضرب به عرض الجدار[2] فالقرآن بنفسه وجيه لايقبل التوجيه، وإنما علينا توجيه أفكارنا الى مغازي آي الذكر الحكيم!

للسماوات بأنجمها عمدٌ لاترونها

<اللّهُ الّذي رَفَعَ السّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمّ اسْتَوى عَلَي الْعَرْشِ وَ سَخّرَ الشّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلّ يَجْرى لِأَجَلٍ مُسَمّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ

[1] . تفصيل البحث حول السماوات في الآيات من فصلت و سائر آياتهاف كل حسب دلالاتها.

[2] . في تفسير الآلوسى نقل الامام الواحدى عن مقاتل واختار المحققون ولم يختلفوا ان جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع بل اتفقوا عليه، اذاً يجعل الخلق في الآية بمعنى التقدير لا الايجاد، او بمعناه ويقدر الارادة يعني اراد خلق ما في الأرض جميعاً، وكذلك الخلق والجعل في آيات فصلت!

تُوقِنُونَ>(٢)

<ربّك> الذى بارك بالحق الذى انزله إليك، ورفعه في سماوات الوحي لأعلى قمة شاملة تحلق على كتابي التكوين والتدوين <ربك> هذا هو <الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها...>.

هنا تبدء الآيات بالمعجزة الكونية، الدالة على المكوّن الواحد العليم الحكيم القدير، برسم مشاهد كونية بارعة ضخمة، لمسة في السماوات واخرى في الأرض، ثم لمسات تلو أخرى في مشاهد أُخرى <لعلكم بلقاء ربّكم توقنون>!

فاللمسة الأولى تبدء بالسماوات المرفوعة، المعروضة على الأنظار ليل نهار، حيث نرى سماوات مرفوعة <بغير عمد ترونها> فمن هذا الذي رفعها؟ ومن هذا الذي دعمها؟ إلاّ الله الواحد القهار؟!

<السماوات> جمعاً هي السبع الطباق، فحين نراها دون وثاق، والمرفوع في الجو بلا وثاق يدعمه مستحيل في العقول، فليكن لها <عمدٌ لاترونها> فثم عمد ولكن لاترونها[١] فان <ترونها> تصف العَمَد وهي جمع العماد، ولولا عمدٌ تدعمها لكانت <ترونها> زائدة بائدة، فهي إذاً توصيفة احترازية عن عمد غير مرئية، إذاً فهي <موّطدات بلاعمد، قائمات بلا سند>[٢] مرئية: <سقفاً محفوظاً وسمكا مرفوعاً بغير عمد تدعمها و لادِسار ينظمها>[٣] ولا رفعَ إلا برافع، ولاحفظ ولاسمك إلاّ بحافظ وسامكٍ ممسكٍ!

تاتى <السماوات> في ساير القرآن(١٩٠) مرة، ولا رفع لها إلاّ هنا وفي الرحمن <و السماء رفعها و وضع الميزان> و في النازعات بإفرادها <أم السماء بناها. رفع سمكها

---

[١] . نورالثقلين ٢: ٤٨٠ ح ٥ القمى حدثنى ابى عن الحسين بن خالد عن ابى الحسن الرضاΔ قال قلت له: اخبرنى عن قوله تعالى <والسماء ذات الحُبك> فقال: هي محبوكة الى الأرض وشبك بين اصابعه، فقلت كيف يكون محبوكة الى الأرض والله يقول<رفع السماوات بغير عمد ترونها> فقال: سبحان الله اليس يقول <بغير عمد ترونها> فقلت: بلى قال: فثم عمد ولكن لاترونها...

[٢] . في نهج البلاغة قالΔ: فمن شواهد خقه خلق السماوات موطدات...

[٣] . النهج في كلام له يذكر فيه خلق السماوات <جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعلياهن سقفاً محفوظاً

فسوّاها> و في الطور <والسقف المرفوع>.

ولان رفع الشيء ليس إلاّ بعد كونه بانخفاض، فلتكن السماوات مرفوعة بعد خلقها غير مرفوعه كما فصلتها الآيات في فصلت وفصلناها على ضوئها وفق ما فصِّلت.

فالسماوات المرفوعة بأجرامها الضخمة الثقيلة فانها <سبع شداد> إنها تدلّنا على رافع رفعها، ثم بقاءها مرفوعة محفوظة عن التساقط دليل على داعم يدعمها، ولأن الرافع الداعم لايُرى فلنؤمن بمن لايُرى بما يُرى فإنه دليل على ما لايُرى.

وعلّ الجمع في <عمد ترونها> يوحي بعمدٍ لاترى، فليست هي القوة الجاذبية فحسب اذ ليست جمعاً ـ كذلك ـ الله، اذ لا آله إلاّ الله، اذاً فهى كل ما لايرى ممن يدعمها كما رفعها بعد ما خلقها وهو الله تعالى، ومما يدعمها مرتفعة كالجاذبية العامة، فالله تعالى هو العماد الأصيل في كل كثير وقليل، ثم الجاذبية أمّاهيه من المدبرات امراً من قبل الله، حيث ابى الله أن يجرى الأمور إلاّ باسبابها، وهو السبب الأول، وهو مع كل الاسباب ومسبب للأسباب، فهو العماد الأوّل المسنود إليه إمساكها في آية الحج: <ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ باذنه>.

فقصارى ما يرفعه الناس في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة، لاتتعدى بناية او برجاً او وطائرة وكل ذلك بحاجة الى دعامة بحسبها، فكيف بالامكان ان تحفظ هذه السماوات المبنية العظيمة بهذه الأجرام الهائلة، تحفظ مرفوعة بلا عمد ولا دسار ينظمها، فإذ لاترى عَمَدها فلتكن هناك عَمَد ولكن لاترونها!

ولماذا يبتدء في ذلك العرض العريض بالسماوات البعيدة عنا دون الأرض القريبة منّا وهي كما السماوات مرفوعة في جوِّها بغير عمد ترونها؟

لان رفع السماء وبقاءها في جو الفضاء بغير عمد ترونها معلومٌ لكل ناظر اليها، ولكنما الأرض ـ على كونها معلقة في جو الفضاء كما السماء ـ لم تكن ظاهرة التعلق و العلقة، إذ كانوا يزعمونها مستقرة على دعامة، مهما دلت على كونها معلقة في جو الفضاء كما السماء ـ لم تكن ظاهرة التعلق والعلقة، إذ كانوا يزعمونها مستقرة على

دعامة، مهما دلت على كونها معلقة آيات عدة وروايات مسرودة في محالها، مؤيِّدة للعلم و متأيدة به لغير ذوى العلم، ومن آياتها هي الجامعة بينهما كآية الإمساك: <إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كانَ حَليمًا غَفُورًا>(٣٥:٤١) وامساكهما بعد زوالها دون خلقهما مرة اخرى يدلنا ان زوالهما هو تساقطهما عن محالهما، دون انعدامهما، فكما السماوات بحاجة الى امساك عن السقوط كذلك الأرض.

ولأن دخان السماء رفعت قبل تسبيعها: <ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ> (٤١:١١) اذاً فرفع السماوات رفع ثان لذلك الدخان اقتساماً له الى سبع وجعله طباقاً فوق بعض، وفي ذلك الرفع الرفيع خلق الأنجم لأنه تكملة لبناء السبع الطباق وبعده استواء الله على عرش الملك والتدبير.

<ثُمّ اسْتَوي عَلَي الْعَرْشِ وَ سَخّرَ الشّمْسَ وَ الْقَمَرَ> مما يؤكد خلقهما في ذلك الرفع، وهما من أنجم المجرَّة الأدنى الى أرضنا <كل يجرى لأجل مسمًّى> وهي أجل قيامتها ضمن القيامة العامة الطامة <يدبِّر الأمر> في السماوات والأرض وما بينهما <يفصِّل الآيات> تكويناً وتدويناً وكل ذلك <لَعَلّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ> لقاء المعرفة في الأولى والأخرى ولقاء الجزاء يوم الجزاء.

لقد فصلنا القول حول العرش في طيات آياتها الأنسب وانه كناية عن السلطة الربوبية المطلقة على كل شيء، ولان السلطة الفعلية ليست إلاّ بعد مُلكٍ بالفعل، فالعرش لله قبل خلقه اذ <كان الله ولم يكن معه شيء> ثم خلق المادة الأوليه التي خلق منها كل شيء فـ <كانَ عَرْشُهُ عَلَي الْماء> (١١:٧) و من ثم كان عرشه على السماوات والأرض <الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما في سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوي عَلَي الْعَرْشِ الرّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبيرًا>(٢٥:٥٩)

فاستواء الرحمن على العرش ليس إلا لبسط الرحمة بباسط يديه، حيث الرحمان رحمة عاملة شاملة كل شيءٍ.

وهنا تسخير الشمس والقمر نموذج من تسخير الانجم، وتدبير الأمر يعم أمرها وكل خلق تكويناً وتشريعاً، وتفصيل الآيات يعم آيات التكوين كعامة الكون، وخاصة الرسل فانهم آياته العظمى، وآيات التشريع كعامة، وخاصة الشرعة القرآنية، فكما له الخلق وحده كذلك له الأمر وحده، لا خالق ولا آمر معه: <إِنّ رَبّكُمُ اللّهُ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ ٱلأَرْضَ في سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوي عَلَي الْعَرْش يُغْشِي اللّيْلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثًا وَ الشّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النّجُومَ مُسَخّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ ٱلأَمْرُ تَبارَكَ اللّهُ رَبّ الْعالَمينَ> (٥٤:٧) فالخلق هو خلق الكون كله المعبّر عنه بالسماوات و الأرض، والأمر هو عرش ملكه في ربوبيته المطلقة علماً وتدبيراً، وتفصيلاً وتقديراً أماهيه؟

وترى ما هي الصلة بين لقاء الرب وماقبله من خلق وتدبير؟ إن رفع السماوات بغير عمد ترونها واستوى على العرش وتسخيره ما تحت العرش وتدبير الأمر وتفصيل الآيات، إن في ذلك كله آيات لوجود الله ووحدئه وعلمه وقدرته وعدله وحكمته، وهي كلها ذريعة لمعرفته وهي افضل لقاءِه، ومن ثم الجزاء يوم الجزاء، فذلك الرفع الرفيع والتسخير المنيع والتدبير والتفصيل لكتاب التدوين والتكوين الوسيع، كلها توحي بعودة للخلق الى الخالق فانه من كمال التقدير الحكيم، ولولاها لكان تطويلاً بلا طائل، وتفصيلاً دون حاصل! <فنظرت العين الى خلق متصل بعضه ببعض ودلّها القلب على ان لذلك خالقاً وذلك انه فكر حيث دلّته العين على ان ما عاينت من عظم السماء وارتفاعها في الهواء بغير عمد ولادعامة تمسكها، و انها لاتتأخر فتنكشط ولاتتقدم فتزول، ولاتهبط مرة فتدنوا ولاترتفع فلا ترى>[1] والقادر على هذا الخلق العظيم الحكيم إبداعاً أقدر على اعادته مرة أخرى> <افعنينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد>.

ثم من السماء البعيدة المدى، القريبة لهذه الذكرى، إلى الأرض التي نعيشها ونمشى

[1] . نورالثقلين: ٢: ٤٨١ عن كتاب الاهليلجة قال الصادقΔ..

على مناكبها، هبوطاً للخط التصويرى الهائل من السماء إلى الأرض، عرضاً للوحتها العريضة الأولى حين أكملها وبناها كما السماء بناها.

<وَ هُوَ الَّذى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ وَ أَنْهارًا وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ>(٣)

وهنا يرسم مدّ الأرض بعد خلقها كلمسة اولى لهذه اللوحة الفسيحة لساكنيها، ومن ثم خط الرواسى وخدُدود الأنهار بخطوطها، ثم الثمرات الناتجة عن ازدواجية الخطين وامتزاجهما تلو بعض و زوجية الثمرات واغشاء الليل النهار في سباقهما على مدّ الآفاق <ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون>.

وللأرض مدان اثنان، مدٌ اوّل لإحياها كما هنا وفي أضرابها: <وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ>(١٩:١٥) <وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ>(٧:٥٠)

ومدٌّثان لإماتتها: <وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَ أَلْقَتْ ما فيها وَ تَخَلَّتْ>(٤:٨٤) وأين مدٌ من مدٍّ تعميراً وتدميراً؟

ولأن المدّ ليس إلاّ عن انقباض فلتكن الأرض قبل مدِّها منقبضة لاتحنٌّ لجعل جبال و رواسى أو إلقاءها عليها، فضلاً عن جعل الأنهار والثمرات، فبمدها قرّت فغرّت لقرارة الحياة عليها: <الله الذى جعل الأرض قراراً>(٦٤:٤٠) و ذلك هو ذِلُّها بعد شماسها: <هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور> (١٥:٦٧) و في ذلك كفاتها: <أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتًا(٢٥) أَحْياءً وَ أَمْواتًا(٢٦) وَ جَعَلْنا فيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتًا>(٢٧:٧٧)

ولأن الأرض كروية فمدها هو بسطها في حجمها وعلّه على اثر حركاتها الدورانية حين ذوبانها، وقانون الفرار عن المركز يحكم بذلك الإنبساط في جوانبها، فانجماد سطحها وانبثاق أقسام منه هي اثقل من فوقها وهي جبالها الراسية في متن اديمها واعماقها <ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون>!

وترى ما هما <زوجين اثنين> والزوجان هما اثنان دون زيادة ولانقصان؟

الزوج هو الفرد الذى له قرين، كلٌ زوج للآخر كما الآخر، وهما القرينان معا، فلكى يدل على المعنى الأوّل: القرينين ـ قيدهما باثنين لكيلا يعنيا الأربع في المعنى الآخر، فمن الأوّل <وخلق منها زوجها>(١:٤) <وانه خلق الزوجين الذكر والانثى>(٤٥:٥٣)

ولأن الثمرات أزواج وأقران، لا ـ فقط ـ زوجين، فقد يعنيان الذكر والأنثى ولا تعنى الثمرات ـ فقط ـ الناضجات حتى يقال: ان زوجية الذكورة والأنوثة إنما هي في زهراتها دون نفس الثمرات المخلَّفة منها، حيث الثمرات هي ناتجات نابتات عن الأرض بأنهارها، منذ زهراتها إلى ناضجاتها.

فكل النابتات تحمل في ذواتها زوجين اثنين، فتضم اعضاء الذكورة واعضاء الأنوثة مجتمعة في زهرة واحدة، او متفرقة فهى لايتولد ثمارها وحبُّها إلاّ بين زوجين اثنين، كما والبعض منها ـ كذلك ـ زوجان اثنان.

عضو الذكر قد يكون عشيراً لعضو الأنثى في شجرة واحدة كالاغلبية الساحقة من الأشجار، وأخرى يقتسم العضوان بين شجرة وأخرى كما النخل، و في الواحدة إيضاً قد يجتمعان في زهرة واحدة كشجرة القطن، ام في زهرتين كالقرع، وذلك مما كشف العلم عنه النقاب بعد قرون عدة من نزول القرآن <ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون>!

ومن <زوجين اثنين> في الثمرات: الحلو والحامض، الرطب واليابس، الحار والبارد، الصيفى والشتوى أماذا من زوجيات، وقد تجد في شجرة واحدة ثمرة ذات زوجين ام ازواج من ألوان وطعوم و <ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون>!

ثم <يغشى الليل النهار> لمحة لامعة الى كروية الأرض و دور انها، فذلك الإغشاء دليل كونهما مع بعض، فليست الأرض ـ اذاً ـ مسطحة ذات افق واحد: ليلٌ كلها ثم نهارٌ كلها، بل هي ذات أفاق في إشراقة الشمس عليها من مشرقها إلى مغربها، ففي كل انتقالة للأرض حول نفسها يغشي سرادق الليل وجه النهار <يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً> (٤٥:٧) سريعاً حسيساً، فغشي الليل النهار في طلبه السريع دليل على سرعة

الحركة الأرضية وتبادل آفاقها في إشراقة الشمس عليها، فقبل افق الشمس ليلٌ وبعده، والليل الخلفى لها يغشي النهار الذى تنتقل عنه، كما والليل الآتى يغشاه النهار الذي يأتي وآيته: <يكوِّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل> (٥:٣٩) كما فصلناها تفصيلاً.

فلولا كروية الأرض لم يكن ليل ونهار مع بعض، ولولا حراكها حول نفسها لم يطلب الليل النهار حثيثاً، ومهما لم تكن كروية الأرض معروفاً حين نزول القرآن وحتى ردح بعيد بعده، بل كان خلاف الحس والرأى العام، ولكنما التفكر في حالات الأرض يدلّنا على ما يخفى منها فـ <ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون>.

ان في مدّ الأرض وجعل الرواسى والأنهار فيها، وجعل الزوجين من كل الثمرات فيها، وأغشاء الليل النهار، ان في ذلك المربع الربيع <لآيات> عدة <لقوم يتفكرون> في آيات العلم والقدرة والحكمة والرحمة الواسعة!

فعلى مدّ الزمن وتمديد الافكار زمناً بعد زمن، تظهر آياتٌ تلو آيات من هذا الكون البارع البديع لقوم يتفكرون، فيزدادوا على ضوءها معرفة برب العالمين حيث العلم في توسُّعه الدائب هو من خدام الايمان لو لم يخلد الى الأرض ابتاعاً للأهواء.

ولنقف هنا وقفة متأملة معتملة أمام تلك التقابلات الفنية في ذلك المشهد الرائع البديع، بين مدّ الأرض والرواسى والأنهار والزوجين من كل الثمرات وتلا حق الليل والنهار في إغشاء بطلب حثيثاً، من ثم إلى قطع الأرض:

<وَ فِى ٱلأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوراتٌ وَ جَنّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلي بَعْضٍ فِى ٱلأُكُلِ إِنّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ>(٤)

ارض واحدة هي <قطع متجاورات> على كونها قطعة ورقعة واحدة، فما هو رمز الكثرة المتجاورة؟

لأنها حسب الحالات والأثرات ليست واحدة، فمنها السبخة النكدة، ومنها الجدبة

القفرة، ومنها صخرة صلدة، ومنها رخوة لينة، و من ثم هي بين عامرة وغامرة، ريّانة عطشانة، حية مزروعة وميتة أمّاهيه، وكلها ارض واحدة، تقابلات فنية في لوحة واحدة بقطع متجاورات، فليكن وراءَها تصميمة قاصدة واحدة حيث الاختلاف بذلك النسق المنضّد المنظم دليل الإرادة الوحيدة، غير الكثيرة.

هذه اجمالة جميلة عن هذه الأرض وإلى تفصيلات هي من خلفيات مختلف القطع بطباعها المختلفة: <وجنّات من اعناب وزرع ونخيل> فالأعناب والنخيل يمثلان كل الاشجار المثمرة لانهما اهمها نفعاً، والزرع يشمل كل ما يزرع، وهذه الثلاث بين <صنوان و غير صنوان> مع ان الكل <يسقى بماءٍ واحد> ثم <ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون> حيث استعمال العقل في مختلف هذه المظاهر على وحدة الأرض والماء دليل التصميم الهادف الوحيد، لولا ذلك فلماذا الاختلاف، وهو لايأتى إلاّ عن مختلف، والماء واحد والأرض واحدة، والبذر الواحد يأتى بمختلف الأثمار لوناً وطعماً وحجماً!

و<صنوان> مثنى وجمع واحده <صنو> وهو المماثل، وهو الغصن الخارج عن اصل الشجرة، فالصنوان هي الأمثال النابتة على اصل مشترك، وغير صنوان خلافها وهي من اصول عدة، فمن الصنوان مختلف الأعضاء بين خضراء وحمراء وصفراء في شجرة واحدة، فترى تمرات مختلفة حجماً وطعماً ولوناً في نخلة واحدة، وعنبات حلوة وحامضة، بين خضراء وحمراء وصفراء من شجرة وحدة وارض واحدة وماءٍ واحد، كما نرى متماثلات ومختلفات من أصول عدّة، فمن هذا الذى يجعلها مختلفة صنوان، ام متوحدة وغير صنوان إلاّ الرحمن، فباي آلاء ربكما تكذبان؟

وهكذا تكون الثمرات في أنسال الانسان <صنوان و غير صنوان> وكما يروى عن النبى5 قوله: <يا علي الناس من شجرتين وأنا وانت يا على من شجرة واحدة ثم قرء

الآية>[١] وقوله <ص) <إن عم الرجل صنوا أبيه>.[٢]

<ونفضل بعضها على بعض في الأكل> صنواناً وغير صنوان، فقد نرى تفاحات من شجرة واحدة مختلفة الطعوم مفضلة بعضها على بعض في الاكل حلاوة وحموضة أمّاهيه <ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون> أرض واحدة وماءٌ واحد وشجرة واحدة والثمرة مختلفة، اترى هذه صدفة عمياء ام تصميمة قاصدة لئلاء.

لسنا نقول أن ليست هناك علل طبيعية توثر هذه التأثيرات، ولكنها بارادة الله الواحد القهار، لو كانت هي الطبيعة وحدها كانت أثراتها على نسق واحد دونما اختلاف، ولاسيما في الصنوان فسبحان العزيز المنان!

قصور السماء و بروجها:

<وَ السّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ>(١)

البروج هي القصور العالية المتبّرجة بالزينة، سواء أكانت في المدن السماوية التي عمّرها ربها أم وعمَّرها إنسانها أم غيره من العقلاء المتمدنين، وعلى حد تعبير أمير المؤمنينΔ: <هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين وخمسين سنة>.[٣]

بروج في مدن السماء، أم مستقلة مبنية خارجة المدن النجومية، والجمع المحلى باللام: (البروج) يقتضى شمول البروج هذه، كل القصور السماوية، مشيَّدة وسواها وكما

---

[١] . الدر المنثور ۴: ۴۴ أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبى وابن مردوية عن جابر (رضي الله عنه) سمعت رسول الله 5 يقول: يا على... ورواه ابن شهر آشوب عن الخركوشى في شرف المصطفى والثعلبى في الكشف والبيان والفضل بن شاذان في الآمالى واللفظ له باسنادهم عن جابر بن عبدالله ورواه النطنزى في الخصائص عن سلمان عنه5.

[٢] . المصدر اخرج عبدالرزاق وابن جرير عن مجاهد ان النبى5 قال: لاتؤذونى في العباس فانه بقية آبائى وان عم الرجل صنو ابيه.

[٣] . في تفسير القمى عن أبيه عن ابن أبى عمير عن بعض الأصحاب عن الصادقΔ أن علياًΔ قال:....

في الأرض: <أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيَّدة> (٧٨:٨٤) ومن مدرعة مجهَّزة بالمدفعيات والقاذفات، وسواها: <وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجًا وَ زَيَّنّاها لِلنّاظِرِينَ(١٦) وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ(١٧) إِلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ>(١٨)

فبروج السماء ـ إذاً ـ قصورٌ عالية: من محصَّنة جعلها ربها في السماء حفظاً عن مسترقّي السمع من الشياطين، وسكناً للملإ الأعلى: <لايسمّعون إلى الملإ الاعلى ويقذفون من كل جانب> بروج و بروج انسانية او ملائكية أماهيه تشملها <البروج> ككل.

رتق السماوات والأرض وفتقمها:

<أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ>(٥٢)

الم ير الذين كفروا آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق <اولم ير الذين....> عطفاً على ما أراهم تعالى ولم يروا ولم يتبصروا.

<الذين كفروا> او منهم هنا هم المشركون المقسِّمون الخلق والتدبير بين الله و الآلهة، لا الماديين او و الكتابيين مهما شملهم <الذين كفروا> هامشياً حيث الحوار كان مع المشركين دون سواهم.

والرؤية المتساءل عنها هي العلمية رأياً كأنها رؤية بصر، و هي الأكثرية الساحقة من اطلاقات الرؤية، ولاسيما المقرونة بما هنا <ان السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما> فأين كانوا هم ومَن قبلهم حتى ينظروا الى فتقهما بعد رقتهما ومنها خلقهما؟ <ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا>(١٨:٥١)

وذلك الرتق والفتق في بناية الكون، وما متواصلان بمختلف الصور على طول الخط، انه نقض صارم على خرافة التفرقه بين الخلق والتدبير، فانهما مجموعان لِصقَ بعض في

كل رتق وفتق، فهما ـ اذاً ـ فعلٌ واحد من فاعل واحد، وحتى اذا كانا منفصلين فتناسق الخلق والتدبير في كل رتق وفتق دليل وحدة الناسق، المدبر الخالق، وكما وحدة الخلق دليل وحدة الخالق.

ثم الرؤية العلمية، عقلية او تجريبية، بالنسبة للفتق بعد الرتق، منها ما هي حاصلة عبر القرون البشرية لكل راءٍ مراعٍ صالحَ الرؤية، فـ <اولم يروا> هنا استفهام إنكار، انهم رأوا ثم حكموا بخلاف ما رأوا، سواء الماديين منهم استدلالاً بالتحولات المتواترة عبر الكائنات على المكوِّن، او المشركين استدلالاً بوحدة الخلق والتدبير على وحدة الخالق والمدبر، او الكتابيين، حيث تضاف الى رويتهم العلمية الرؤية الكتابية القائلة بفتق بعد رتق، فليوحدوا الفاتق الراتق، وليؤمنوا بالشرعة القرآنية الفاتقة لما رتق قبلها، الفاتحة لما انغلق.

ومن ثم رؤية أخرى يُدفعون اليها على مرّ الزمن، فالاستفهام ـ اذاً ـ استنكار لمن لايتدبرون حتى يروا فتقاً بعد رتق اكثر مما رأوا، حيث هما بعد بدايتهما مستمران مع الزمن في كافة اجزاء الكون.

اذاً فـ <اولم ير> غابر يحلِّق على المستقبل والحاضر، حيث الرؤية الحاضرة والمحضرَّة تعم عامةالمكلفين دون ابقاء واستثناء.

فكما اختصاصها بالماضين تضييق لنطاق الدعوة القرآنية، كذلك ـ وبأحرى ـ اختصاصها بالآتين من العلماء الغربيين، اختلافاً من بعض المفسرين المتفرنجين المتأرجفين، انهم هم المفترضون فرضية انفصال الأرض من الشمس، تاويلاً عليلاً لـ <اولم يرَ> الى <اولا يرون>و <الذين كفروا> بهؤلاء فقط، و <السماوات> بالشمس <والأرض> هي الأرض، فـ <كانتا رتقاً> انهما كانا جرماً واحداً، ثم <فتقناهما> بفصل الأرض عن الشمس>!!![1]

[1] . تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوى ١٠: ١٩٧ تحت عنوان: القرآن إذ اخبر بأمور لم تعلم الا في القرن التاسع عشر يقول: تبت عن اهل او روبا في هذه العصور اذ هم الذين قراوا هذا العلم وقالوا ان ←

تخريجات فيها تحريجات وتهريجات كأنها خدمة غالية للقرآن، وفقاً بينه و بين هذه الافتراضة غير القانونية ولا الثابتة، المقبورة ـ أخيراً قانونياً علمياً ـ مع الأبد.

ولقد فصلنا في فصلت على ضوء الآية <قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذى خَلَقَ الْأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدادًا ذلِكَ رَبّ الْعالَمين>(٩) فصلنا هناك مدى خرافة هذه القيلة الغائلة الغيلة، وانها تسفير للقرآن عن ساحته وسماحته وليس تفسيراً له، فانها التي لاسند لها علمياً فضلاً عن الواقعية المسنودة الى قوانين تجريبية.

فكيف يعبَّر عن مستقبل خاص بماضٍ عام؟ وعن الشمس وهي قطرة صغيرة من خضمِّ يمّ السماء الدنيا بالسماوات؟ وعن انفصل الأرض عن الشمس بفتقهما عن رتقهما وهو يعم المعاكسة اولاً ويخص الانشقاق لا الاشتقاق ثانياً؟

كلا! وآيات <فصلت> تؤخر خلق الشمس عن الأرض بمرحلتين اثنتين حيث <خَلَقَ الْأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدادًا ذلِكَ رَبّ الْعالَمين(٩) وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فيها وَ قَدّرَ فيها أَقْواتَها في أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَواءً لِلسّائِلين(١٠) ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعين(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحي في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليم>(١٢) والشمس هي من مصابيح السماء الدنيا، فكيف تسبق ارضنا السابق عليها وعلى تسبيع السماء؟!

فاليكم تفسيراً لآية الفتق جديراً بها حسب المستطاع دونما تحميل عليها ما ليس

←

الشمس كانت كرة اشبه بالنار دائرة ملايين من السنين، والأرض والسيارات وتوابعها كانت معها، ثم ان ارضنا انفصلت كما انفصل عيرها من السيارات انفصلن جميعاً من خط الاستواء الشمسى اثناء سرعة سير الشمس وجرها حول نفسها فتباعدت ارضنا والأرضون الاخرى و هي السيارات فان شمسنا والسيارات الاخرى كلها سيارات وكلها ارضون وهكذا كل الشموس التي نراها كأنها كواكب ثابتة ـ على هذه الحال سيارات وقد اشتقت منها وقد قدروا على سبيل الظن ان الأرضين في العوالم كلها لاتنقص عن ثلثمائة مليون ارض مسكونة... فثبت ان ارضنا مشتقة من الشمس و الشمس ايضاً من شمس اكبر منها، اقول و في كل ذلك اسئولة ولاجواب له عنها!.

منها ولا اليها، ودون أن نحاول حمل النص او الظاهر القرآنى على افتراضات خاوية او غير مستيقنة تُقبَل اليوم وتُرفض غداً، فانه إمام العلم وأمامه، خالداً عبر كافة التقدمات العلمية وكشوفها المتعالية، فليطلق سراحه اينما انطلق دون أسرٍ له بنظريات أسيرة محصورة محسورة!

هنا <السماوات> هي السبع الطباق، أولاها هي السماء الدنيا حيث هي القريبة الينا، والشمس بمنظومتها جزءٌ ضئيل من أوليات هذه الأولى.

و <الأرض> علها فقط هذه الأرض، فالأرضون الست الاخرى معنية في نطاق السماوات ان كانت مقسَّمة بينها ام هي في الاولى، ام هي جنس الأرض الشامل للأرضين السبع.

وعلى أيه حال فـ <السماوات والأرض> هنا وفي غيره هما عبارة اخرى عن الكون كله.

<كانتا رتقاً> والرتق لغويا هو الضَمُّ والإلتحام خلقياً ام خالقياً، والمعنى هنا هو الثانى، وانما افردت <رتقاً> مصدراً وهو يثنى ويجمع كما الفاعلى والمفعولي؟ علّه للعناية الى حالة الوحدة حيث لم تكونا حين الرتق الاول لا سماءً ولا ارضاً فضلاً عن سماوات وارضين، وانما كانتا المادة الفردة الاولى المعبّر عنها بالماء: <وَ هُوَ الَّذى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَي الْماءِ>(٧:١١) وطبعاً قبل خلق الأرض والسماء فقد كانتا حينذاك رتقاً في المادة الأمِّ، ففتقت الأم في تفجرُّة هائلة فانقسمت الى دخان السماء وزبد الأرض، كما تفصله آياته في فصلت، بعد إجماله في هود: <وَ هُوَ الَّذى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَي الْماءِ>.

فـ <رتقاً> هنا دلالة أولى على هذه السابقة، فلو كان المعنى منه التصاقهما، ام فقط فتق كلٍّ عن رتقة، لكانت الصيغة السائغة له <رتقين> ولكن <رتقاً> تعم الرتقات الثلاث ابتداءً من هذه الرتقة البدائية وانتهاء الى فتق السماء بالماء وفتق الأرض بالنبات.

ففى آية هود <كان عرشه على الماء> يتبين باجمال انهما كانا في الأصل ماءً وهو عبارة اخرى ـ أحرى من غيرها ـ عن المادة الأم.

وفى فصلت يفصَّل ذلك ورتق ثان: <ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحي في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ>(١٢:٤١)

قد كانت السماء هو اصل ثان لعالم السماء، وقد فتق عن الماء، ثم فتق الى سبعها بمصابيحها، وكما زبد الأرض للأرضين السبع:< اللّهُ الّذى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ>(١٢:٦٥)[١]

ومن ثم فتقت الأرض بالإنبات بما فتقت السماء بانزال الماء، فتقاً ثالثاً بعد رتق ثالث كما هنا <وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون> ـ <أَنّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبّا(٢٥) ثُمّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّا(٢٦) فَأَنْبَتْنا فيها حَبّا>(٢٧:٨٠) <وَ السّماءِ ذاتِ الرّجْعِ(١١) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصّدْعِ>(١٢:٨٦)

وفى رواياتنا تصريحات واشارات الى هذه الفتقات بعد الرتقات كما وتستنكر الفتق المختلَق من اصحاب فرضية الانفصال: <فلعلك تزعم انهما كانتا رتقاً متلازمتين متلاصقتين ففتقت احداهما عن الأخرى...>؟[٢]

---

[١] . الدر المنثور ۴: ٣١٧ ـاخرج ابن ابى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن ابى حاتم و ابوالشيخ في العظمة عن مجاهد في الآية قال: فتق من الأرض ست ارضين معها فتلك سبع ارضين بعضهن تحت بعض ومن السماء سبع سماوات منها معها فتلك سبع سماوات بعضهن فوق بعض ولم تكن الأرض والسماء مماستين ومثله عن ابى صالح.

[٢] . المصدر في روضة الكافى في سؤال الشامى ابا جعفر الباقرΔ عن هذه الآية قالΔ: فلعلك... فقال نعم فقال ابوجعفرΔ استغفر ربك فان قول الله عزوجل <كانتا رتقاً> يقول: كانت السماء رتقاً لاتنزل المطر وكانت الأرض رتقاً لانتبت الحب فلما خلق الله تبارك و تعالى الخلق وبث فيها من كل دابة فتق السمائ بالمطر والأرض بنبات الحب...>.

←

ثم تُثبت سائر الفتقات والمتسفادة من ذيل الآية <وجعلنا من الماء كل شيء حـى> وهي الفتقة الثالثة.

ومن جماع الدلالة على كلها ام جلها مقتطفات من خطب الامام اميرالمؤمنين علىΔ: <وناداها بعد اذ هي دخان فالتحمت عـرى اشـراجها وفتـق بعـد الإرتتـاق صـوامت ابوابها> ـ <وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعه ان جعل مـن البحـر الزاخـر المتراكم المتقاصف يبساً جامداً ثم فطر منه اطباقاً ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها>.

كما <وكانتا مرتوقتين ليس بينهما ابواب ولم يكن للأرض ابواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات>.[١]

وليس الحصر في بعضها بالفتقة الخيرة إلا نسيباً لاستنكار الفتقة المختلَفة، باثبات ما

←

اقول: هذا تفسير بأظهر مصاديق الفتق بعد الرتق كما يبينه ذيل الآيـة، دون حصـر فيـه، وقـد قـدم الامامΔ خلق السماء والأرض من الماء، وفي نفس الحديث بقوله: وخلق الشيء الذى جميـع الاشـياء منه وهو الماء الذى خلق الاشياء منه فجعل نسب كل شيء الى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضـاف اليـه وخلق الريح من الماء ثم سلط الريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثار مـن المـاء زبـد علـى قدرما شاء ان يثور فخلق من ذلك الزبد ارضاً بيضاء نقية... ثم خلق الله النار من الماء فشـققت النـار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء ان يثور فخلق من ذالك الدخان سماء صافية نقية.. و ذالك قوله: <والسماء بناها. رفع سمكها فسواها. و اغطش ليلها واخرج ضحاها...> قال له الشامى يا اباجعفر قول الله عزوجل: <اولم ير الذين كفروا...>؟ قال: <فلعلّك...

[١] . نورالثقلين ٣ : ٤٢٥ في تفسير القمى في سؤال الابرش ابا عبداللهΔ عن هذه الآية فما كان رتقهما وما كان فتقهما؟فقال Δ يا ابرش هو كما وصف نفسه كان «عرشه على الماء...» فلما اراد الله ان يخلق الأرض امر الرياح فضرب الماء حتى صار موجاً ثم ازبد فصار زبداً واحداً... فلما اراد ان يخلق السماء امر الرياح فضربت البحور حتى ازبدتها فخرج من ذلك الموج والزبد من وسطه دخان ساطع من غير نار فخلق منه السماء وجعل فيها البروج والنجوم و منازل الشمس والقمر واجراها في الفلك وكانـت السماء خضراء على لون الماء الأخضر وكانت الأرض غبراء على لون الماء العـذب وكانتـا مرتـوقتين ليس بينهما ابواب ولم يكن للأرض ابواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها فتنبت ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات وذلك قوله <اولم ير الذين كفروا ان السماوات والأرض كانتا رتقـاً ففتقناهمـا> فقال الابرش: والله ما حدثنى بمثل هذه الحديث احد قط اعده على فأعاد عليه، وكان الأبرش ملحـداً فقال: وانا اشهد انك ابن نبى ثلاث مرات.

يصدقها ذيل الآية <وجعلنا من الماء كل شيء حى>.

إذاً فـ <كانتا رتقاً> تحلِّق على كل فتق بعد رتق السماء والسماوات والأرض والأرضين، اجمالاً دلالياً بين الآيات والروايات ولاينبك مثل خبير.

وما تدبير الخلق تكوينياً وتشريعياً إلاّ فتق الرتق، وهو مزيج مع كل خلق، إذاً فالخالق هو المدبِّر والمدبر هو الخالق دون اى فرق ولا فراق بين خلق وتدبير، سبحان العلى القدير!

<فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ>(٣٠)

فمن ذلك الفتق فتق الماء عن رتق، إذ فتق عن أصله في السماء، ثم فتق السماء عنه إلى الأرض، ثم فتق الأرض به باخراج نابتاتها[١] نباتية وحيوانية وإنسانية أمّاهيه من حيٍّ، كما فتقت سائر الكرات الحية بذلك الماء حيث لايختص ـ ولم يكن يختص ـ بهذه الأرض.

فـ <كل شيءٍ حي> تعم كل حي في السماوات والأرض، فكما ان كل شيء حي او ميت فتق من المادة الأولية الأم[٢] : <خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَي الْماءِ> كذلك جعل من اقل ولائدها: الماء ـ كل شيء حى، حياة ثانية بعد الاولى التي هي اصل الكون، فـ :كل شيء حي> يُخرج عن هذا المسرح الثاني كل شيء ميت وهو كل جماد، فالماء الثانى ـ اذاً ـ هو مادة كل حياة في <كل شيء حي>

[١] . ومن الدليل على شمول <حى> للنبات: انزل من السماء ماء فاحيى به الأرض بعد موتها ـ و اضرابها.

[٢] . الدر المنثور ۴: ٣١٧ ـ اخرج احمد وابن المنذر وابن ابى حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقى في الاسماء والصفات عن ابى هريرة قال قلت يا رسول الله5 انى اذا رأيتك طابت نفسي وقرت عينى فانبئنى عن كل شيء، قال: كل شيء خلق من الماء.

دون إبقاء، سواءً كانت حياةً انسانية ام ملائكية ام جنيَّة[١] اماهيه، وما دونها من حياة نباتية وحيوانية.

وقد يعم <الماء> اضافة الى اصله السائر في كل حي كضابطة كونية لأية حياة، قد يعم كل ماءٍ متولد من ذلك الماء بخليط ام دون خليط، كما النطفة الجرثومية المخلوق منها كل دابة: <وَ اللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلي بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلي رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلي أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللّهَ عَلي كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ>(٢٤:٤٥)

فحين يخرج غير الدواب من الأحياء عن <خلق كل دابة من ماءٍ> ليس يخرج عن <جعلنا من الماء كل شيء حي> مثل الملائكة والطير وحيوان البحر، بما يوجد في الأخيرين من ماء النطفة احياناً، مهما كانت الملائكة مخلوقة من ماء ولكنه ليس ماء النطفة اذ لاتزواج بينهم.[٢]

ثم <الماء> النطفة يعم المني الدافق وسواه كما في الانسان وسواه.

ولاَن الماء هو اصل الحياة فـ <طعم الماء طعم الحياة>[٣] وقد يكون بنفس السند شفاءً من بعض الأدواء.[٤]

---

[١] . ولا ينافي خلق الجن من نار جعله من ماء فـ <والجان خلقناه ومن قبل من نار السموم> هو اصلهم الأول كما خلق آدم من تراب، فنسل الجان من ماء النطفة ومن اصل الماء كما ان اصله النار فيه الماء.

[٢] . ولاينافيه خلق الملائكة من النور كما في بعض الاحاديث، حيث النور كما النار من اصل الماء، ام خليطه، ام ان الجعل هو جعل بقاء الحياة الملائكية والجنية بالماء وان لم تكن اصولهم من هذا الماء، فلذلك لم يقل <خلقنا> و الجعل يعم الخلق بداية، وبقاءه واستمراه، فطائفة من الاحياء مثل الانسان مجعولة من الماء خلقاً وبقاءً، ـ والله اعلم بما قال.

[٣] . نورالثقلين ٣: ٤٢٧ عن المجمع وروى العياشي باسناده الى الحسين بن علوان قال: سئل ابوعبد اللهΔ عن طعم الماء، فقال: سل تفقهاً ولا تسأل تعنُّتاً، طعم الماء طعم الحياة قال الله بسحانه <وجعلنا من الماء كل شيء حي> و رواه في قرب الاسناد مثله.

[٤] . المصدر في كتاب طب الأئمة عبدالله بن بسطام قال حدثنا ابن اسحاق ابن ابراهيم عن ابى الحسن العسكريΔ قال: حضرته يوماً وقد شكى اليه بعض اخواننا فقال: يا بن رسول الله ان اهلى كثيراً ←

ولماذا هنا <جعلنا> دون خلقنا؟ علّه حيث المقصود اعم من الخلق بداية، ومن استمرارية المخلوق منه حيوية، فكما خُلق كل حي من ماءٍ، كذلك تستمر حياته بماءٍ، دون إبقاء.

فهنالك فتق اول للخلق عن رتق الماء الأوّل وهو المادة الاولية، وفتق ثان هو خلق هذا الماء المشروب مما خلق منه، وفتق ثالث هو خلق النُطَف الجرثومية عن الماء الثانى، اذاً فلدور الماء في اصل الخلق وفرعه دورٌ فعال منقطع النظير:

<افلا يؤمنون> بذلك الخالق المدبِّر، المدبر الخالق، الذي بيده كل رتق وفتق، وبالنسبة للآلهة المختلفة ومختلقيها، حيث فتقها الله بعد رتق.

<وَ جَعَلْنَا السّماءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ>(٣٢)

هنا عرض لفتق بعد رتق في الأرض، وآخر في السماء، هما من طيات الفتقات الثلاث للسماوات والأرض، والرواسي المجعولة في الأرض ـ لا المخلوقة ـ هي الجبال الراسية الموتَّدة في اعماقها، الشاهقة رئوسها، وعل المفعول الاول <لجعلنا> هي الجبال قبل رسوِّها، وقد خلقت من الأمواج السطح الأرضية، كما سئل الامام علىΔ مم خلقت الجبال؟ قال: من الامواج.

ولماذا جعلت الرواسى؟ <ان تميدبهم> حفاظاً عن المَيدان وهو سرعة الدوران <عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها... فسكنت من المَيَدان برسوب الجبال في قطع أديمها>

←

يصيبهم هذا الوجع الملعون، قال وما هو؟ قال: وجع الرأس، قال: خذ قدحاً من ماءواقرء عليه هذه الآية ثم اشربه فانه لايضره ان شاء الله تعالى.

وباسناده الى حماد بن عيسى يرفعه الى اميرالمؤمنينΔ قال: اذا شكى احدكم وجع الفخذين فليجلس في تور كبير وطست في الماء المسخن وليضع يده عليه وليقرأ هذه الآية، وفيه عن سيف بن عمير عن شيخ من اصحابنا عن ابى عبداللهΔ قال كنا عنده فسأله شيخ فقال: بى وجع وانا اشرب له النبيذ ووصفه له الشيخ فقال له: ما يمنعك من الماء الذى جعل الله منه كل شيء حي؟ قال: لايوافقنى، قال: فما يمنعك من العسل قال الله تعالى: فيه شفاء للناس، قال: لا اجده، قال: فما يمنعك من اللبن الذى نبت لحمك واشتد عظمك؟ قال: لا يوافقنى قالΔ له: اتريد ان اَمرك بشرب الخمر؟ لا والله لا آمرك!

<فسكنت على حركتها من ان تميد بأهلها او ان تسيخ بحِملها> <وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم وانهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون>(١٥:١٦) فللرواسى علاقة عميقه بتوازن الكرة الأرضية في سبحها الدائب في يمِّ الفضاء، فلا تميد بهم وتضطرب بل هي مهد ومهاد!

هذه رواسى الأرض ان تميد بهم في رَجَفَاتها، وتلك فجاجها السبل بينها لعلكم تهتدون، وبأحرى منها الرواسي القادسة الروحية، الراسية في اعماق ارض الحياة الإنسانية، عن ان تميد بكم من ضربات ورجفات، وهم الرعيل الأعلى الرساليين، ثم الفجاج السبل هم العلماء الربانيون، الوسطاء بينهم وبين الناس.

<وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً> عن التساقط من عُلياها الى دنياها، اذ <رفع السماوات بغير عمد ترونها> ـ<ويمسك السماء ان تقع على الأرض إلا باذنه>(٦٥:٢٢) ومحفوظاً عن تسمُّع الجن الى الملإِ الأعلى: <لايسمَّعون الى الملإِ الاعلى ويقذفون من كل جانب. دحوراً ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب> (١٠:٣٧) <وحفظناها من كل شيطان رجيم. الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين> (١٨:١٥)

<وهم عن آياتها معرضون> ـ <قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون>(١٠١:١٠) فهم يعرضون عن آياتها كونية وشرعية.

ومن السماء السقفِ المحفوظِ بآياتها، سماءُ الوحى بآياته، اذ لا تدخُّل فيها من الشياطين وسوهم من المتسمِّعين.

فالسقف ما يظل الانسان من عل، والسماء هي اعلى السقوف، ولكنها خلاف سائر السقوف فانها دون عمد مرئية، وكذلك سماء الرسلات غير مرئية العمد، وهي أعمدة الوحي و رباطاته الإلٰهية محفوظة عن كل انفراج وانهدام و تشعُّث واسترمام، كما هي محفوظة عن مسارق السمع، محصَنة بمقاذف الشهب.

<وَ هُوَ الّذى خَلَقَ اللّيْلَ وَ النّهارَ وَ الشّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ>(٣٣)

هنا تعرفنا الى سباحة الشمس والقمر، كل في فلكه الخاص به، فما هي سبحة الليل والنهار وهما من مظاهر سباحة الأرض والشمس دونما استقلال عنها؟

ان لها ثانية في «يَس» تعني في <يسبحون> الأرض والشمس والقمر: <وَ هُوَ الَّذى خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ>(٣٣) حيث تسبقها الأرض، فهى ـ إذاً ـ معنية في هذه السباحة العاقلة مع النيرَين.

فكذلك الأمر في هذه حيث تسبقها الأرض كما هناك، وهنا زيادة <آياتها> ومنها نجومها بمجرّاتها، فـ <كل> من هذه الثلاثة آياتها <فى فلك يسبحون> دون حاجة الى حمل التوجيه لـ <الليل والنهار> وهما ظاهرتان من سبح الأرض بواجهتها الخاصة للشمس!

وقد نتلمح من هنا ان لاثوابت في آيات السماء، فكلّها سيارات، فردية في أفلاكها، وجماعية في مجرّاتها وجزائرها في خِضِمِّ الفضاء!

هذا و قد تعني <يسبحون> فيما عنت <الليل والنهار> والمعني من سباحتمها في فلكهما مدار كلٍّ تبعاً لدوران الأرض حول نفسها وشمسها، ولكن الليل والنهار مَسبَحان لسباح الأرض وهما لايسبحان، وهنا نتأكيد أن <يسبحون> تشمل <آياتها> كلها، وهي الكواكب كلها.

<وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ>(٣٤)

<الخلد> هنا هو البقاء في الحياة الدنيا، وهي زائلة بمن فيها وما فيها، فلاخلد لها فضلاً عن مواليدها! <وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد> حيث قضوا نحبهم ومنهم من ينتظر كالمسيح والخضر وسائر الأحياء.

خلق كل دابة من ماءٍ

<وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ>(١٨٩)

هنا خلق كل دابة من ماءٍ ولاتشمل كل حى، وفي الأنبياء <وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ>(٣٠) شاملة غير الدواب، من سابح البحر، وطاير السماء

ملائكة اَمَّن ذامِن كائن حيٍّ، بحياة نباتية أو حيوانية أو إنسانية أو جنية أو مَلَكية، وكل حي أياً كان و أيان، إلاّ الميّت كالجمادات مهما كانت لها حياة التسبح بحمد ربهم، ثم وفي هود يعتبر الماء ـ و هو المادة الأم وهي تعم الماء و سواه من كائن ـ يعتبره مادةً لخلق الكون أجمع: <وَ هُوَ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ ٱلأَرْضَ في سِتّةِ أَيّام وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَي الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنّ الّذينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاّ سِحْرٌ مُبينٌ>(٧) ولاتصريحة في القرآن بخصوص خلق دابة او حيٍّ من ماء إلاّ الإنسان: <وَ هُوَ الّذى خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا>(٥٤:٢٥) ولكنه ـ كما الماء: المادة الأولى ـ ليس الماء المعروف، بل <ماءٌ دافق> (٦:٨٦) و <ماءٍ مهين> (٨:٣٢).

فماء الكون أجمع يشمل ماءَ كل حي وسواه، وماء الحياة يشمل كل دابة وسواها من حي، مياه ثلاثة اولاها المادة الأُمّ، وثانيتها مادة الحياة، وثالثتها مادة الدواب، أترى أن الأخيرين واحدٌ هو الماء، فلماذا خصت هنا كل دابة دون كل حي كما هناك؟ علّه لأن ماء الدواب هو المعني مهما كان أصله الماء، وأما الملائكة فلا مني في خلقهم إذ لاتناسل بينهم، وأما الطير فهي وإن كانت من ماءِ المنى، ولكنها ـ إلاّ ماشذ ـ تُخلق من بيض مهما حصلت من مني، وأما الدواب فلا بيض في خلقها إلا تولداً من مني يُمنى!

فأحياء الكون من دابة وسواها مخلوقة من ماءٍ ككلٍّ، ولكنما الدواب تخلق من ماء المني مهما كان أصله الماء، دون غير الدواب إلاّ نذراً.

وقد تلمح التنكر في <من ماءٍ> أنه غير الماء الذي جعل منه كل حيٍّ أو يعمّه، كما التعريف في <من الماء> لمحة إلى أنه الماء المعروف، أن جعل كل حي منه كما أن بقاءه منه!

ثم <خلق> هنا و <جعلنا> هناك لمحة ثانية إلى الفرق بين المائين، فالخلق هو التقدير، والجعل البسيط كما هو الإيجاد، فقد قدر كل دابة ولادةً من ماءٍ، كما جُعل كل حيٍّ ـ تكويناً يعم الولادة ـ من الماء!

فالأحياء ذات أصل واحد هو الماء، والدواب ذات أصل واحد من ماءٍ، والكل مع سائر الكون ذو أصل واحد سمي ماءً هو المادة الأم، فلا أصل للكون أياً كان إلاّ مثلث الماء، فلا مجردَ عن المادة إلاّ خالق الكون! والكون بروحه و جسمه يتنهى إلى الماء إذ <كان عرشه على الماء> المادة الأم، فكل شيء سوى الله، من جماد ونبات وحيوان و إنسان وجان وملائكة أمّن ذا وماذا، إنها مخلوقة من هذا <الماء> دونما استثناء، فأين التجرّد في روح و سواه والكل من مواليد الماء.

إذاً فآيات الخلق والجعل من الماء هي من دلالات المادية الشاملة لما سوى الله من جسم وروح،كما آيات أخرى وروايات وأدلة عقلية تدّلنا على مادية الروح أياً كان، وبحثه الفصل تجده في آية الروح <قل الروح من أمر ربى>.[1]

ولماذا <منهم> هنا ثلاث مرات راجعاً إلى <كل دابّة> و <هم> يعني ذوى العقول؟ إنه لتغليب ذوى العقول من إنس وجن أمَّن ذا؟ تشملهم <كلّ دابة>.

تذكر هنا من صنوف الدواب أقسامٍ ثلاثة <على بطنه ـ على رجلين ـ على أربع> ثم يُشار إلى سائرها الزائد على أربع بـ <يخلق الله ما يشاء> معللاً بالقدرة المطلقة الإلٰهية <إن الله على كل شيءٍ قدير>. ابتداءً بـ <من يمشي على بطنه> كالزواحف، لأنها أعجب مشياً إذ تمشي دون أرجل، ثم <من يمشي على رجلين> وسطاً في العُجاب مع أنه أمتن المشى، ثم <من يمشى على أربع> وهو أمكَنُه وأركَنُه، وكلما ازدادت الأرجل نقص العجاب من ناحية وازداد من أخرى، كالتى تمشى على ألوف الأرجل!

<لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اللّهُ يَهْدى مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ>(٤٦)

هذه الآيات المبينات هي المنزَلة هنا و في ساير القرآن، فإن آياته كلها مبيّنات تبين الحق كما يحق، فمن شاء اهتدى بها <والله يهدى> إيصالاً إلى الحق بعد اهتداء الدلالة <من يشاء> وهو من يشاء الهدى بآياته البينات <إلى صراط مستقيم>.

---

[1] . وكما في آية الزوجين و الأزواج وامثالهما وآية الإنشاء في سورة الحج.

الأرض الفراش و السماء البناء

<الّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشًا وَ السّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثّمَراتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَنْدادًا وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ>(٢٢)

واجهة الخطاب هنا المشركون، المقرّون بالله، المشركون في عبادة الله، يذكّرهم بما يفرض عليهم توحيد العبادة لله <جعل لكم الأرض فراشاً و...> أنداد له في الألوهية، كما تُناظرها آياتها الأخرى: **<أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ(٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرارًا وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهارًا وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزًا أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ(٦١) أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ قَليلاً ما تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَمَّنْ يَهْديكُمْ في ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ تَعالَى اللّهُ عَمّا يُشْرِكُونَ(٦٣) أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقينَ>(٦٤)**

فالأرض الفراش في امتهادها، والسماء البناء بارتفاعها، النازل منها الماء، المخرج من الأرض ثمرات، هذه وتلك التي هي من نعم الله وحده تفرض أن تكون العبادة أيضاً لله وحده دون أنداد: أمثال ونظراء في العبادة، فإنه ضلال مبين: <تَاللّهِ إِنْ كُنّا لَفى ضَلال مُبين(٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبّ الْعالَمينَ>(٩٨)

<الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشًا> <وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ>(٤٨) تلمحان إلى أنها ما كانت فراشاً حين خُلقت، وإنما فُرشت مهداً ومهاداً لساكنيها، راحةَ الحياة دون تصعّب وشماس، فكما الأنعام فراش: <وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشًا>(١٤٢:٦) كذلك الأرض على حركاتها جعلها الله ذِلاً بعد شماس، وحَمولة فرش

بعد ارتكاس، <ملائمة لطباعكم، موافقة لأجسامكم>.[١]

كما وان <لكم> تصريحة: أن فراش الأرض هو لصالح حياتكم عليها، وترى أن <كم> هم نحن الأنسال من آدم الأخير، المخلوق أخيراً بعد ملايين السنين من فراش الأرض، أم والأنسال السابقة من أناسيّ سابقين، الذين خلقوا منذ فراش الأرض، كما تدل عليه آيات الخلافة وأقوات الأرض.

علّه الأوّل، لااختصاصاً بنا، وإنما تكريماً على من سبقنا، أم هو الثانى جمعاً بين المكلفين، وان كانوا حال الخطاب منقرضين، ولكنما الماضين متى يشملهم مستقبل الخطاب؟ اللهم إلاّ إذ خوطبوا من قبل كما هنا وأنّى لنا باثباته!

ويا لفراش الأرض من نعمة عظيمة لاندركها لأننا ساكنوها منذ كنّا، حيث يتطلّب موافقات عدّة بين عناصر عدة تُعِدُّ الأرض بها فراشاً لنا، فلو فقد او قلّ او زاد عنصر واحد من هذه العناصر في ترابها او ماءها او هوائِها لاستحالت او صعبت الحياة عليها، سبحان الخلاق العظيم!...

كذلك السماء حيث جعلها الله بناءً ولم تكن بناءً، فنور الأرض وأمطارها وكثيرةٌ أخرى من بركاتها هي من بنا السمآء: <وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدادًا(١٢) وَ جَعَلْنا سِراجًا وَهّاجًا(١٣) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجًا(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتًا(١٥) وَ جَنّاتٍ أَلْفافًا>(١٦:٧٨) <ءَ أَنْتُمْ أَشَدّ خَلْقًا أَمِ السَّماءُ بَناها(٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها(٢٨) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها(٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها(٣٠) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها>(٣١:٧٩) ... ثم ومن آثار بناء السماء:

---

[١] . نورالثقلين ١: ٤١ عن عيون الاخبار، ابن بابويه بسنده عن الحسن بن على العسكرىΔ مسلسلاً عن آباءه الكرام عن على بن الحسينΔ في الآية.. ولم يجعلها شديدة الحمّا والحرارة فتحرقكم ولاشديدة البرد فتجمدكم ولا شديدة طيب الريح فتصدع هامتكم ولاشديدة النتن فتعطبكم، ولاشديده اللين كالماء فتغرقكم ولاشديدة الصلابة فتمتنع عليكم في دوركم و اَبنيتكم و قبور موتاكم ولكنه عزوجل جعل فيها من المتانة ما تنتفعون به لدوركم وقبوركم وكثير من منافعكم فلذلك جعل الأرض فراشاً لكم...

<وأنزل لكم من السماء ماءً> فـ <أنزل> هنا دون <ينزل> توحي بالنزول الدفعي الأوّل، حيث الأرض كانت كرة عطشانة محترقة، لاماء فيها ولا كلاء، فأنزل الله عليها من ماء السمآء < فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقًا لَكُمْ >: <وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجًا(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّا وَ نَباتًا(١٥) وَ جَنّاتٍ أَلْفافًا>(١٦:٧٨)

فأرضنا الشموس العطشى كانت تتطلَّب لمهادها لنا ماءً: <وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنّا عَلي ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ>(١٨:٣٢) ولو أن مياه الأرض أَو بعضها كانت من نفسها لم يكن هنا موقع للتهديد بذهاب مياه السماء، فإنما حياة الأرض منوطة بمياه السمآء: <وَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها>(١٦٢:٢) فسبحان من أمسكها بعد مَوَجان مياها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهاداً، وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لُجِّي راكد لايجرى، وقائم لايسري، تُكركِره الرياح العواصف، وتمخَضه الغمام الذوارف، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.[١]

<فلا تجعلوا لله نداداً وأنتم تعلمون> أن هذه النعم هي من إلّه واحد دون أنداد! : أمثال ونظائر أو أضداد.

وكما التوحيد له درجات، كذلك اتخاذ الشركاء الأنداد دركات: فالند قد يُعبد من دون الله، أو يُعبد مع الله، ام لا هذا ولا ذاك وإنما يخضع له كما يُخضع لله، ركوعاً ام سجوداً أم ماذا؟ واستغاثة به من دون الله، او مع الله، او بعد الله ام ماذا؟ او اعتقاد تأثير له من دون الله او مع الله او بعد الله ام ماذا؟ فحتى الرئاء شركٌ بالله، فجعل الأنداد لله محرم او كفر او شركٌ او إلحاد بالله، صاعدة إلى اتخاذها آلهة من دون الله، ونازله الى الرئاء وبينهما متوسطات!: <وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون> حيث الشرك كدبيب النمل! ففى الحديث أن رجلاً قال لرسول الله5 ما شاء الله وشئت قال: أجعلتنى لله نداًّ>؟! وقد قالت اليهود له5 دينك خير دين لولا أن امتك مشركون! قال: وكيف؟

[١] . نهج البلاغة عن الإمام اميرالمؤمنين علىΔ.

قالوا: حيث يقولون: لوشاء الله وشاء محمد، فغضب فقال لهم: لاتقولوا هكذا، قولوا: لوشاء الله فشاء محمد> تفريعاً لمشيئته5 على مشيئة الله، لاقرناً لها إياها!

عرش ملكة سبا تسير قبل ارتداد طرف مسيرة شهر

﴿قالَ الّذى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتيکَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدّ إِلَيْکَ طَرْفُکَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبّى لِيَبْلُوَنى ءَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنّ رَبّى غَنِىّ كَرِيمٌ﴾(۴۰)

اترى من <الذى عنده علم من الكتاب> هنا؟ وما هو الكتاب؟ وما هو علمه؟ وكيف أتى بعرشها قبل أن يرتد اليه طرفه وهو بحاجة إلى سرعة هائلة ودون موانع في الطريق لاتناسب وجسم العرش بثقله؟

هل <الذى عنده علم من الكتاب> هو من الجن، عفريت أقوى من الأوّل؟ وتعبيره الصالح <عفريت آخر>! ثم تَقابُله لعفريت من الجن يحكم أنه من الإنس! وكيف يُحرم مؤمنوا الإنس عما يقدر عليه عفاريت الجن، والإنس افضل من الجن ـ ككل ـ ولا سيما في المجال الرسالى أصالة ووصاية..

أم هو سليمان نفسه مخاطباً عفريت الجن، حيث <الذى> للإشارة إلى شخص معين معلوم ولامعلوم هنا إلاّ سليمان نفسه وقد مضى دور العفريت ولاثالث هنا معروفاً في السياق، وان القدسية المتميزة لسليمان تقتضي ان تكون الخارقة بيده لا سواه؟

لكنه لايلائم السياق الفاصح الواضح، حيث ان سليمان هو المتطلِّب لإحضار العرش عنده، فكما <انا آتيك> لعفريت الجن تعني إيتانه إلى سليمان، كذلك <أنا آتيك> للذى عنده علم من الكتاب ليس إلاّ سليمان، كما <مقامك> و <رآه> و <عنده> و<قال..> كلها تعنى سليمان المُحضَر عنده العرش! وحين يأتيه بعرشها أحدٌ من حواشيه، لم يكن

هذا ليدل على أنه أقوى منه وأحرى[١] بل انما يدل على أن الآتى بـه بـأمره يصـلح أن ينوبه حياً وميتاً! ثم <الذى> بوصفها تعرِّف مكانة الآتى به مسنوداً إلى لياقته ولباقتـه، ومكانة سليمان عُرِفت من ذى قبل باكثر من ذلك!

أم هو <خضرΔ>؟ قد يجوز في نفسه ولكنه لادليل عليه يُتَّبع، مهمـا كانـت لخضـر مكانته العالية، ثم لارجاحة له على من سواه في ذلك المسرح مهما كان أرجح منهم في سواه، حيث النص: <يا ايها الملأ من يأتينى بعرشها> ولم يكن خضر من ملاءِه وحواشيه وأعضاده الملكية.

إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه وخليفته كما في متظافر الأحاديث.

ومنها ما يروى عن الرسول5: ذاك وصي أخى سليمان بن داود.[٢]

وأما الكتاب! فهل هو كتاب تشريع؟ وكثير هؤلاء الذين يعلمونه تماماً، وفوق <علمٌ من الكتاب> اللامحة إلى بعض العلم، ولايقدرون على ذلك ولامادونه من خارقة ربانية! وليس الإتيان به من الواقعات الشرعية المكلف بها مُدراءُ الشرعة حتى يكفيهم علمهـم بها لتحقيقها!

أم هو كتاب التكوين ـ وقد عبِّر عنه في احاديثنا بالإسم الأعظم وله ثلاثة وسبعون حرفاً، وقد أوتي الذي عنده علم من الكتاب حرفاً منه وأوتي الرسول محمـد5 وأهـل بيته المعصومين ذلك الإسم إلا حرفاً واحداً؟

والتكوين والتشريع هما من مختصات الربوبيه علماً وقدرةً، وليست الآيات الرسـالية

---

[١] . قد مضى رواية العياشى عن علي بن محمد الهادي عليهما السلام وفيه: وذلـك مـن علـم سـليمان اودعه آصف بامر الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته..

[٢] . نورالثقلين ۴: ۸۸ في روضة الواعظين للمفيد قال ابوسعيد الخدرى سألت رسول الله5 عن قوله الله جل ثناء ه <قال الذي عنده علم من الكتاب> قال ذاك...

ومثله ما عن بصائر الدرجات عن جابر عن الباقرΔ وعن عمر الجلال عن ابى عبدالله‌Δ وعـن عيـون الأخبار عن عمر بن واقد عن موسى بن جعفر عليهما السلام، وعن الكافى عن ابى الحسـن صـاحب العسكر على الهادىΔ.

مما يعلمها أو يقدر عليها الرسل، والرسول محمد5 وهو أول العابدين وافضل العارفين لم- يكن عنده هذه الآيات محوّلة، <وَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنّ بِها قُلْ إِنّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللّهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ>(١٠٩:٦)

فإنما الرسل مجاري لتحقق الآيات الرسالية بإذن الله على ايديهم، لتدل على اختصاصهم بالله ورسالتهم من الله، فقد خاف موسى من حية تسعى محوّلة عن عصى <قلنا لاتخف إنك انت الأعلى> فلو كانت آية بعلمه وقدرته لما خافها.

وفى عيسى <وتحيى الموتى باذنى> وهو القدرة الإلهية بعلم هما المصدر لآياته وسائر افعاله الخاصة به.

وما علم آصف بن برخيا بجنب علم محمد5 بالكتاب إلا كقطرة من يَمٍّ[1] فهل هو بعدُ كان عنده علم من كتاب تكوين لم يكن عند محمد(ص)؟!

قد يعني <الكتاب> هنا كتاب المعرفة الربانية، فكلما كانت معرفة الله اكمل فآيات الله الجارية بإذنه على ايدي العارفين به اكثر واكمل.

فعلم الكتاب كله يختص بالله، إذا لا يعرف الله حق المعرفة إلاّ هو، ثم المعرفة القمة الممكنة لمن سوى الله هي التي كانت لمحمد5 وأهليه المعصومين(ع)، وهي تنقص حرفاً

[1] . تفسير البرهان ٣: ٢٠٤ عن الكافى عن ابراهيم بن هاشم عن سليمان عن سدير قال: كنت أنا و أبوبصير وميسر ويحيى البزاز وداوود الرقى في مجلس ابى عبدالله∆ إذ خرج الينا و هو مغضب فلما اخذ مجلسه قال عجباً لاَقوام يزعمون انا نعلم الغيب ما يعلم الغيب إلاّ الله لقد هممت بضرب خادمتى فلانة فذهبت عنى فما عرفتها في أى البيوت هي من الدار، فلما ان قام من مجلسه وصار إلى منزله دخلت انا وأبوبصير و ميسر على أبى عبدالله∆ فقلنا له جعلت فداك وسمعناك تقول في امر خادمك ونحن نعلم انك تعلم علماً كثيراً لا ينسب إلى علم الغيب؟ قال: يا سدير ما تقرأ القرآن؟ قلت: قد قرأناه جعلنا الله فداك فقال هل وجدت فيما قرأت من كتاب الله <قال الذى عنده علم من الكتاب أنا اتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك> قلت جعلت فداك قد قرأته، قال فهل عرفت الرجل وعرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال قلت فأخبرنى حتى أعلم، قال: قدر قطرة من المطر الجود في البحر الأخضر ما يكون ذلك من علم الكتاب، قلت: جعلت فداك ما اقل هذا؟ قال يا سدير ما اكثره لمن لم ينسبه إلى العلم الذى اخبرك به، يا سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله <قل كفى بالله شهيداً وبينكم ومن عنده علم الكتاب> والله عندنا ثلاثاً.

واحداً من كتاب المعرفة الكاملة، وهو حرف الذات القدسية، ثم الاثنان والسبعون حرفاً الباقية[١] من ذلك تعني معرفة الله القمة لهم عليهم السلام إلاّ معرفة الذات، فهم مهما حُرموا من حق معرفته الخاصة به <ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادك> ولكنهم زُوِّدوا بالمعرفة الحقة الممكنة في حقهم، فهم يعرفون الله بكل حروف المعرفة وجوانبها إلاّ حرف الذات وجانبها.

والحرف الواحد من هذا الأسم الأعظم المختص بالله، هو جانب الذات وصفات الذات وحقيقة الصفات الفعلية، وسائر الحروف وهي سائر الجوانب المعرفية، مقسمة بين المخلَصِين من عباد الله وكلما ازدادت هذه الحروف المعرفية، زاد الله صاحبها حملاً لشرعته، ومظهراً لآيات علمه وقدرته <عبدى اطعنى حتى اجعلك مَثَلى انا اقول للشيء كن فيكون، واجعلك تقول للشيء كن فيكون> مهما اختلفت <كن> التكوينية من الرّب، في المربوبين، فانهم فيهم بأمر الله دون توكيل ولاتخويل، فـ <انما الايات عند الله> دون سواه، فـ <الذى عنده علم من الكتاب> المعرفي في الأسم الأعظم، يأتي به قبل أن يرتد إليه طرفه، فأوتي مَن فوق سليمان و آصفه ما فوقهما من الخوارق، وكما يروى عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام.[٢]

---

[١] . المصدر بصائر الدرجات محمد بن عيسى عن على بن الحكم عن محمد بن الفضيل عن ضريس الوابشى عن جابر عن ابى جعفر عليهما السلام قال قلت: جعلت فداك قول العالم <انا آتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك> فقال: يا جابر ان الله جعل اسمه الأعظم ثلاثة وسبعين حرفاً فكان عند العالم منها حرف فأخسفت الأرض ما بينه وبين السرير التفّت القطعتان وحوّل من هذه على هذه، وعندنا اسم الله الأعظم اثنان وسبعون حرفاً وحرف في علم الغيب.

اقول: وبهذا المعنى استفاضت الأحاديث عنهم عليهم السلام.

[٢] . ومما ورد في علمهم عليهم السلام افضل من آصف ما في عيون الأخبار باسناده إلى عمر بن واقد قال: إن هارون الرشيد لما ضاق صدره مما كان يظهر له من فضل موسى بن جعفر عليهما السلام وما كان يبلغه عنه من قول الشيعة بامامته واختلافهم في السير اليه بالليل والنهار خشية على نفسه وملكه ففكر فيقتله بالسم ـ الى ان قال ـ : ثم ان سيدنا موسىΔ دعى بالمسيب وذلك قبل وفاته بثلاثة ايام وكان موكلاً به فقال له يا مسيب! قال: لبيت يا مولاى، قال: إنى ظاهر عن في هذه الليلة إلى المدينة مدينة جدى رسول الله5 لأعهد إلى ابى وأجعله وصيى وخليفتى وآمره أمرى، قال المسيب: ←

وهذه الحروف المعرفية من الأسم الأعظم يمنحها الله لمن يشاء، فهى الكتاب المعني هنا، فلا يعني الإسم الأعظم مقولة اللفظ، إذ لا إسم لفظياً له ثلاثة وسبعون حرفاً وحتى لوكان فلا أثر لما دون كل حروفه وان نقص حرفاً واحداً فضلاً عن حرف واحد منه، ثم ولاتأثير للعلم بالإسم اللفظى اياً كان، فاسم <الله> و <هو> هما اعظم الاسماء الإلهية على الإطلاق، ولا تأثير لهما بمجرد العلم بهما ولقلقة اللسان فيهما فضلاً عن اسماء سواهما وهي كلها دونهما.

←

فقلت: يا مولاى كيف تأمرنى ان افتح لك الأبواب واقفالها والحرس معى علي الأبواب؟ فقال يا مسيب ضعف يقينك بالله عزوجل وفينا؟ قلت: لا ياسيدى قال فمه؟ قلت: يا سيدى ادع ان يثبتنى، فقال: اللهم ثبته، ثم قال إنى ادعو الله عزوجل باسمه العظيم الذي دعا به آصف حتى جاء بسرير بلقيس ووضعه بين يدي سليمانΔ قبل ارتداد طرفه اليه حتى يجمع بينى و بين ابني علي بالمدينة، قال المسيب فسمعتهΔ يدعوا ففقدته عن مصلاه فلم ازل قائماً على قدمي حتى رأيته قد عاد إلى مكانه واَعاد الحديد إلى رجله فخررت له ساجداً لوجهي شكراً على ما انعم به عليّ من معرفته...

اقول: وما اهم السرعة الهائلة الخارقة لانسان دون تحوّل إلى طاقة فإنها الموت من السرعة في جماد لا حياة له، فلذلك يقول ابوعبداللهΔ في رواية سدير عنه يا سدير الم تقرء القرآن؟ قلت: بلى ـ قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عزوجل <وقال الذى عنده علم من الكتاب...> قال قلت: جعلت فداك قد قرأته، قال فهل عرفت الرجل وهل عرفت ما كان عنده من علم الكتاب؟ قال: قلت اخبرنى به، قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم، قال قلت جعلت فداك ما اقل هذا؟!

وفى الخرائج والجرائح روى ان خارجياً اختصم مع آخر إلى علىΔ فحكم بينهما بحكم الله ورسوله فقال الخارجى: لا عدلت في القضية، فقالΔ اخسأ يا عدوالله، فاستحال كلباً وطارت ثيابه في الهواء فجعل يبصبص وقد دمعت عيناه فرق له فدعا الله فأعاد، إلى حال الإنسانية و تراجعت إليه ثيابه من الهواء، فقال آصف وصي سليمان قصى الله عنه بقوله: <قال الذى عنده علم من الكتاب...> ايهما اكبر على الله؟ نبيكم ام سليمان؟ فقيل: ما حاجتك إلى قتال معاوية إلى الأنصار؟ قال: إنما ادعوا على هؤلاء بثبوت الحجة وكمال المحنة ولو إذن لى في الدعاء لما تأخّر.

وفى البحار ١١٥:١٤ عن الاختصاص للمفيد بسند متصل عن ابان الأحمر، قال قال الصادقΔ يا ابان كيف تنكر الناس قول اميرالمؤمنينΔ لّما قال: لو شئت لرفعت رجلي هذه فضربت بها صدر ابن ابى سفيان بالشام فنكسته عن سريره ولا ينكرون تناول آصف وصىّ سليمان. عرش بلقيس وإتيانه سليمان به قبل أن يرتد اليه طرفه؟ اليس نبينا 5 افضل الأنبياء ووصيه أفضل الأوصياء؟ افلا جعلوه كوصي سليمانΔ حكم الله بيننا وبين من جحد حقنا وانكر فضلنا.

وفى الحق إن الإسم وهو الدال على مسمىً، هو واقعه بدلالة واقعية، والاسم هو المعرفة الممكنة الكاملة بالله وهي الاسم الأعظم معنوياً، فالذي عنده علمٌ من الكتاب منحه الله ما يأتى به العرش من مسافة شهر قبل ارتداد الطرف وطبعاً بدعاءه ربه دونما استقلال، فهل اتى به دون تغيير ولا تحوير فيه ولا في مسيره؟ وموانع الجدران والأتلال والأشجار تمنع! وسرعة السير هكذا تحوِّله، فان لكل عنصر قابلية خاصة لسرعةٍ مّا، لو تجاوزها لتجاوز عن كيانه إلى ما يقبلها!

قد يقال ان ذلك كله بسيط بجنب القدرة الإلٰهية، ما لم يكن محالاً ذاتياً، وكما في السرعة المعراجية فوق الضوئية بملايين الأضعاف لاجتياز تلك السافة الهائلة مرجَّعاً في سويعات؟ ولكن المركبة الفضائية المعدة للسفرة المعراجية كانت تحافظ على الحياة الروحية والبدنية في المعراج دونما تحويل، راجع تفسير سوره النجم في (الفرقان).

وعلى أية حال فلابد لهذه السرعد الهائلة للعرش من خارقة هي مصدَّقةٌ فلسفياً وعلمياً، وقد أثبت علم الفيزياء إمكانية تحول كلٍّ من المادة والطاقة إلى الأخرى،وواقع التحويل معروف على ضوء المحاولات الجادة العلمية المتحضرة الحاضرة.

وقد اثبت العلم إمكانية تحويل المواد إلى طاقات وأمواج بالإمكان إرسالها سريعاً كإرسال الصُوَر التلفزيونية والأصوات الراديوئية أماهيه، مهما لم يقدر العلم حتى الآن على تحقيقه.

فقد يجوز أن عملية الإتيان بالعرش في هذه السرعة الهائلة كانت بتحويلها إلى طاقة وأمواج ثم استجلابها بسرعة تناسب <قبل ان يرتد إليك طرفك> ثم رجعها إلى ما كانت عرشاً كما هو، إذاً فهو مثلث من خوارق العادات دون محاولة علمية تجريبية، وإنما بما أراد ابن برخيا بقدرة الله، دون إرسالية للأمواج المحولة عن العرش في مكانه، بل هو استرسال من مسافة شهر بارادة آصف مزدودة بمشيئة الله!

وقد يعنيه المروي عن أئمتنا عليهم السلام <ان آصف بن برخيا قال لسليمانΔ مدَّ عينيك حتى ينتهى طرفك، فمد عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغار العرش في

مكانه بمأرب ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله قبل ان يرتد طرفه>[١].!

فلايعنى غوره ذهابه في الأرض كما هو مثل الماء الغائر، حيث نبع ولا ينبع العرش بحاله كما لايغور، بل يلمح غوره إلى غيره من طاقة لطيفة، فكما الماء يغور في جانب من الأرض ثم ينبع من جانب آخر، كذلك غار العرش في الجو غور الطاقات الموجية، ثم نبع عند مجلس سليمان كما كان.

وقد يعنيه ايضاً انخساف الأرض وانخراقها بينه وبين العرش تأويلاً له بانخراق جو الأرض، إذ لايكفى في تخطي هذه السرعة الهائلة ـ فقط ـ تحويل العرش إلى الأمواج، فلابد لها من تعبيد المسيرة الجوية خرقاً وخسفاً حتى تتم الخارقة الربانية كما تمت وهذه خارقة رابعة.

والظاهر من ارتداد الطرف هو التقاء الجفنتين بعد افتراقهما، فجفن العين هو دائم الإنطباق والإفتتاح كعملية أوتوماتيكية دون ارادة، كما تلمح لها <يَرتد> دون <يُرتد> وذلك أبلغ ما يوصف به في السرعة، وقد يعنيها <أو هو أقرب> بعد <كلمح البصر> فـ <قبل أن يرتد> أقل من طرفة عينه إلى أن يبلغ إلى واحد الزمان الأم.[٢]

فليكن غور العرش تحولاً له إلى ابسط طاقة موجية كأخفها وزناً وأسرعها قابلية للحركة لكي تجتاز مسيرة شهر في واحد من الزمان أم يزيد لأقل من إرتداد الطرف.

ومهما استطاع العلم في مستقبل ان يحوّل ـ حسب المحاولات والمعادلات الفيزياوية ـ مادة إلى طاقة موجية ولمّا، فليس بمستطاعه ـ وإن بلغ القمة المستطاعة لمن سوى الله ـ ذلك المربع البارع من خرق العادة بمجرد المشيئة ودون محاولة عمليه إلاّ دعاءً[٣] فتلك

---

[١] . نورالثقلين ۴: ۸۷ في جامع الجوامع وروى َصف بن برخيا...

[٢] . نورالثقلين ۴: ۸۸ بصائر الدرجات عن ابي عبدالله∆... ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين...

[٣] . نورالثقلين ۴: ۹۲ عن مهج الدعوات في دعاء العلوى المصري عن على∆: آلهى وأسألك باسمك الذى دعاك به آصف بن برخيا على عرش ملكة سبأ فكان اقل من لحظ الطرف حتى كان مصوراً بين يديه...> وفيه (۹۰) عن الإمام على الهادي∆ كان عند آصف حرف فتكلم بـه فانخرقـت لـه الأرض ←

ـ اذاً ـ هي من آيات الرسالة الربانية، وهي هنا كحجة ثانية لاهتداء الملكة إلى الله كما اهتدت فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

كلام حول تبدل المادة طاقة وموجة

فالذرة هي طاقة متكاثفة معقَّدة كما الطاقة هي ذرة منطلقة متحررة، ولا اختلاف بينهما إلاّ بالتكاثف والإنتشار، والعلم الحديث بدء بمحاورة تبديل المادة إلى طاقة خالصة، أى نزْع الصفة المادية المحسوسة للعنصر بصوره نهائية، وذلك على ضوء جانب من النظرية النسبية لـ <البرت انيشتاين> إذ تُقرر أن كُتلة الجسم نسبية وليست ثابتة، فهى تزيد بزيادة السرعة، كما تؤكد التجارب التي اجراها علماء الفيزياء الذرية على الإلكترونات التي تتحرك في مجال كهربائي قوي، و دقائق(بيتا) المنطلقة من نويّات الأجسام المشعَّة.[١]

ولما كانت كتلة الجسم المتحرك تزداد بازدياد حركته، وليست الحركة إلاّ مظهراً من مظاهر الطاقة، فالكتلة المتزايدة في الجسم هي إذن طاقته المتزايدة.

فلم يك بعُد في الكون عنصران متمايزان أحدهما المادة التي يمكن مسُّها، وتتمثل لنا في كتلة، والآخر الطاقة التي لاتُرى وليست لها كتلة، كما كان يعتقد العلماء سابقاً، بل أصبح العلم يعرف أن الكتلة ليست إلاّ طاقة مركزة.

ويقول انيشتاين في معادلته ان: <الطاقة = كتلة المادة × مربع سرعة الضوء، وسرعة

←
فيما بينه وبين سبأ.. .ومثله في سائر روايات القصة انه دعا، فلم تكن منه المشيَّة دون دعاء، أو عملية علمية تجريبية.

[١] . يقال اولى الإستحالات التي حصلت لعنصر ثابت كانت في ١٩١٩ م بواسطة راذفورد بآلية ساذجة جداً وقد فصل في كتاب الطاقة الذرية من السلسله العلميد: ماذا ادرى ص ٦١.

الضوء = ٨١٦٠٠٠ ميلاً في الثانية> كما ان الكتلة = الطاقة، مربع الضوء، و بذلك ثبت ان الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ليست في الحقيقة إلاّ طاقة متكاثفة، بالإمكان تحليلها وإرجاعها إلى حالتها الأولى.

فهذه الطاقة هي الأصل العميم للعالم في التحليل الحديث وهي التي تظهر في اشكال مختلفة وصور متعددة: صوتية ومغناطيسية وكهربائية وكيماوية وميكانيكية أمّاهيه؟ و على هذا الضوء لم يُعد الإزدواج بين المادة والإشعاع بين الجسمانيات والموجات، أو بين ظهور الكهرب على صورة مادةٍ أحياناً، وظُهوره على صورة كهرباء أحياناً أخرى، لم يعد ذلك غريباً، بل أصبح مفهوماً بمقدار، ما دامت كل هذه المظاهر صوراً لحقيقة واحدة هي الطاقة.

ولقد اثبت التجارب علمياً صحة هذه النظريات، إذ أمكن للعلماء ان يحوِّلوا المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة.

فالمادة تتحول إلى طاقة عن طريق التوحيد بين نواة ذرة الهيدروجين ونواة ذرة اليثيوم فتنتج عن ذلك نواتان من ذرات الهليوم، وطاقة هي في الحقيقة الفارق بين الوزن الذرى لنواتين من الهليوم، والوزن الذرى لنواة هيدروجين ونواة اليثيوم.

والطاقة تتحول إلى المادة عن طريق تحويل أشعة <جاما> وهي أشعة لها طاقة دون وزن، تتحول إلى رقائق مادية من الإلكترونات السالبة والبروتونات الموجبة، التي تتحول بدورها إلى طاقة، إذ اصطدام الموجب منها بالسالب.

ومن اعظم التفجيرات للمادة الذي توصَّل إليها العلم، هو التفجير الذي يمكن للقنبلة الذرية والهيدروجنية أن تُحققه، إذ يتحول بسببها جزءٌ من المادة إلى طاقة هائلة.

وتقوم الفكره في القنبلة الذرية على إمكانية تحطيم نواة ذرة ثقيلة بحيث تنقسم الى نواتين أو اكثر من عناصر أخف، وقد تحقق ذلك بتحطيم النواة في بعض اقسام عنصر اليورانيوم، الذى يطلق عليه اسم اليورانيوم ٢٣٥ نتيجة لاصطدام النيوترون بها.

وتقوم الفكرة في القنبلة الهيدروجينية على ضم نُوى ذرات خفيفة إلى بعضها،

لتكون بعد اتحادها نُوى ذرات اثقل منها، بحيث تكون كتلة النواة الجديدة أقل من كتلة المكونات الأصلية.

وهذا الفرق في الكتلة هو الذي يظهر في صورة طاقة، ومن أساليب ذلك دمج أربع ذرات هيدروجين بتأثير الضغط والحرارة الشديدين، وانتاج ذرة من عنصر الهليوم، مع طاقة هي الفارق الوزنى بين الذرة الناتجة والذرات المندمجة وهو كسر ضئيل جداً في حساب الوزن الذري.

النعمة السابغة لفائقة وسواها مما أنعم الله به علىَّ، ولقد استشعر أن النعمة كهذه الخارقة البارقة ابتلاءٌ مخيف ضخم، أمامها مسئولية هامة خطرة، فالمنعَم بحاجة إلى يقظة ليجتازها سليماً مسلماً شاكراً، فان زهرة الحياة وزهوة النعمة قد تدفع الإنسان إلى الكفران، بل هو طبيعة الحال إلاّ لمن اعتطم بالله فعصمه الله.

<ومن شكر فانما يشكر لنفسه> دون ربه <ومن كفر فإن ربى غنى كريم> غني عن أن يُشكر، وغنى عن ألاّ يُكفر، فإنما الشكران والكفران راجعان إلى الشاكر والكافر.

<قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذينَ لا يَهْتَدُونَ>(٤١)>

<نكروا لها> غيروا معالمه المميزة له بحيث لايُعرف لأوّل وهلة <ننظر اتهتدى> إلى عرشها المستأنس لها طيلَة مُلكتها، وكان من حقها في نظرتها البدائية الاّ تعرفه لتنكُّره واستبعادها الإتيان به بهذه السرعة.

ومن خلال ذلك الهدي <تهتدى> إلى ربها حيث تجوِّز خارقة السرعة، اهتداءً ذا بعدين في ذلك المضمار <ام تكون من الذين لايهتدون> كملإها الذين كانوا معها، إذ لم يهتدوا لا إلى معرفة العرش، ولابمعرفته إلى معرفة الله، وهنا تعرَّف سليمان إلى ذكائها وإسلامها بذلك الإختبار الإعتبار.

<فَلَمّا جاءَتْ قيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنّا مُسْلِمينَ>(٤٢)

هنا ينكَّر السؤال <أهكذا عرشك> دون <أهذا> كما نكِّر عرشها، فهو بين مثلث من

التنكير ثالثه بُعد المسافة وسرعة السير، وأنها مفاجأة ضخمة لاتخطر للملكة على بال، فاين عرشها في سباءٍ وعليها أقفالها؟!

صلاة لطير وتسبيحها صلاة لهن لرب العالمين

<أَ لَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطّيْرُ صَافّاتٍ كُلّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ(٤١) وَ لِلّهِ مُلْكُ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ>(٤٢:١٧)

هنا وفي الأسرى <يسبّح له من...> : <تُسَبِّحُ لَهُ السّماواتُ السّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فيهِنّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا>(٤٤:١٧) و في سائر القرآن <يسبح أو سبح ما...>[١] ففرق بينهما بـ <مَن> و <ما> فهذا يعم تسبيح الكون أجمع بما فيه و من فيه، تكوينياً حيث يدل بكمال صنعه على كمال صانعه وهو للكون كله، واختيارياً وهو يخص بعض الكون، ولكن <مَن> قد تعني ذوي العقول وأضرابهم في شعور التسبيح كالطير أماذا من حيوان سوى الإنسان والملك والجان، أو أنها تعني كما تعنيه <ما> في الأسرى <وإن من شيء...>؟ فـ <إنا سخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير...> (٧٩:٢١)!

وقد يتأيد عموم <مَن> هنا مثل <ما> بأنها لو عنت تسبيح الإختيار القاصد من ذوي العقول الخصوص لما شملت إلاّ المؤمنين، وظاهر <من في السماوات والأرض> إستغراقه للكلّ، والكافر لايسبح باختيار وإيمان، وإضافة الطير قرينة أُخرى أنه الكل، فمؤمنهم العالم <قد علم صلاته وتسبحه> و غيرهم يسبح كمن يعلم، فـ <كل> ممن في السماوات والأرض والطير أمّن ذا <قد علم صلاته وتسبيحه> مهما اختلفت مراتب العلم والصلاة والتسبيح، فالكون محراب شاسع تصلي فيه الكائنات لربّها وتسبح، ولكنما الإنسان الغافل المتجاهل قد يترك تسبيح المختار وصلاته عن إيمان <إنه كان ظلوماً جهولاً>!

---

[١] . سبّح لله ما في السماوات و ما في الأرض ١:٦١ و ١:٥٩ والأرض ١:٥٧ يسبح له ما في السماوات و ما في الأرض ١:٦٢ و ١:٦٤ و الأرض ٢٤:٥٩.

و <ألم تر> قد تعني الرسول5 ومن يعنيه من ذويه، فهم يرون علم اليقين وعينه وحقه أن الكون كله يصلي ويسبح لله، يرون ما سواهم من تسبيح التكوين تدليلاً على المكوِّن، وما لايراه سواهم مما <لاتفقهون تسبيحهم> وكما يرون صنوف الصلاة والتسبيح! ولا تعني الرؤية هنا إلاّ بالغ العلم والمعرفة كلٌّ حسب مستواه ومقتضاه.

فـ <الطير صافات...> من ذا الذي يرى تسبيحها وصلاتها الجماعية في صفيفها ودفيفها إلاّ من يوحى إليه مثل داود: <وسخرنا مع داود الجبال يسبِّحن والطير> (٧٩:٢١) ومن ذا الذي يعلمها أنها تعلم صلاته وتسبيحه؟

و <كلٌّ> هنا تعمّ من في السماوات والأرض ومنهم الطير، حيث تذكر كمثال لكل الحَيَوان، مهما اختلفت صلاتهم وعلمهم لصلاتهم وتسبيحهم!

أترى <علم صلاته وتسبيحه> تشمل من يعلمها ولايصلي كالكفار من الجنة والناس؟ اللهم لا! لمكان <يسبح> فهو إذاً علم العمل ويخص الصلاة والتسبيح عن علم، فلايعم التسبيح التكويني فإنه ليس عن علم.

نفاذ أمره تعالى دون حاجة إلى تدرُّج وتُّهل انه لايريد شيئاً إلا وهو كائن، فقد أراد تكوين المادة الأولية فكانت دون تدرج، ثم خلق منها السموات والأرض بتدرُّج، دون أن يكون ذلك التدرج المقصود فيما فيه التدرج نقصاً في قدرته، بل هو لحكمة عالية ربانية تقضيه، فقد يقول لأي من مراحل التكوين التدرجي <كن> فيكون كما يريد دون تهُّل ضعفاً في القدرة، وهنا يتجلى معنى: <وَ ما أَمْرُنا إِلاّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ>(٥٠) و <إِنّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ>(٨٢:٣٦)

ذلك، وباختصار نجد القول بمجردٍ سوى الله يخالفه العقل والعلم ولاسيما الكتاب والسنَّة، فالعقل إنما يحكم بحدوث المادة والطاقات المادية، وليس المجرد عن المادة بحاجة إلى خالق لتجرده عن الحاجة المُحوجة إلى الخالق.

والكتاب مصرح بأن الروح مُنشأٌ من البدن: <ثُمّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا آخَرَ>(١٤:٢٣) وانه منفوخ في البدن <وَ نَفَخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ>(٩:٣٢)

والسنة كلمة واحدة مصرّحة بمعنى: أن الروح جسم خفيف قد ألبس قالباً كثيفاً، أو أنه كالريح لخفّته.

وبعد كل ذلك نتساءل القائلين بتجرد الروح أليس هو داخلاً في البدن، فمحدوداً بحدود البدن، ولا حد ولا أبعاد و لامكان للمجرد عن المادة، والمادية حيث هي طاقة للمادة وليس النزاع في كيان الروح إلاّ في أصل تجرده أو ماديته، وأما كونه طاقة مادية ـ إن صدقه القائلون بتجرده ـ فموضع وفاق بين الطرفين وليس النزاع لفظياً حيث الفلسفة والبحوث الفلسفية ناحية منحى الواقع دون الألفاظ إلا نظراً إلى مدلولاتها الواقعية.

آيات ربانية في السماوات والأرض

<إِنّ فِي السّماواتِ وَ اْلأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ>(٣)

السماوات هي السبع، والأرض هي السبع، وهما تعبيران عن الكون كله، وفيه ككل <آيات للمؤمنين> فالإيمان هو الذي يفتح البصائر والأبصار لتلقِّي الأضداد والأضواء والأنداد، حيث يخالط القلوب بشاشته ويحركها استجاشة، فتحيا وتلتقط من الكون كله آيات ويصبح الكون كله لدى المؤمن آيات بينات، فلا يواجه طرفاً من الكون إلا وهو آية تزيده إيماناً بالله!

إن آية السماوات والأرض وما فيهما من آيات لاتقتصر على شيء دون شيء ولا على حال دون حال، فانها آيات الله على اية <وفي كل شيء له آية. تدل على أنه صانع>!

ولكن لمن؟ لمن أبصر بها فبصَّرته، دون من أبصر إليها فأعمته، والآية هي هي بنفسها وإنما الإختلاف في شبكات الأبصار، قوم عنها عَمون، وآخرون وهم قلة يبصرون ويتبصَّرون حيث هم مؤمنون أنها آيات الله وكلماته، تحدثِّهم عن الله: <قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِدادًا لِكَلِماتِ رَبّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبّى وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ

مَدَدًا>(١٠٩:١٨)

فإن البحر بمداده ومدَده آية وكلمة لربي بقطراته، إذاً فلاتقِف كلمات الرب لحد تُحصى ونحن فيها غرقى، في بحر ملتطم من كلمات الله وآياته الدالات، ولامدلول في الكون يملك من براهين الآيات ما يملكها الله! لومدَّ الإنسان ببصره، وفتح غشاءَ قلبه وغطاء بصيرته في الأرض والسماوات لتزاحمت الآيات وتراكبت عليه، معلنة عن نفسها، دالة على خالقها «لمن ألقى السمع وهو شهيد».

وكما أن كتاب التدوين فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، كذلك كتاب التكوين، فلنُرجع متشابهاته إلى محكماته، إتضّاحاً لكيانها ودلالتها على بارئها العزيز الحكيم، الرحمن الرحيم!

السماوات والأرض آيتان، وفيهما وما بينهما آيات، آيات فيها آيات ودلالات لاتجد فيها قيدَ شعرة إلاَّ ذات دلالة على العزيز الحكيم الرحمن الرحيم!

وترى إذا كانت آيات الأرض والسماوات خاصة للمؤمنين، فالكافرون قُصَّر لايدركونها، فلماذا يُؤنَّبون ويعذَّبون؟ إنها آيات لكل الناظرين، وحيث لاينتفع بها إلا من يمشى سبيل الإيمان فهى إذاً آيات للمؤمنين، كما القرآن هدىً للناس أجمعين، ولكن لايهتدى به إلاَّ المتقون فـ <هدىً للمتقين> فـ <المؤمنين> كـ <المتقين> هم الذين يفتحون أبصارهم ببصائرهم فهم بآيات الله يهتدون.

فأولَيات درجات الإيمان تحصل بنظرة بسيطة في سائر الكون، ثم توصل إلى يقين الإيمان بنظرة عميقة في مظاهر الحياة فإنها أغمض، ثم نظرة أعمق في موجبات الحياة وهي أغمض وأعمق، فالأولى لقوم يؤمنون والثانية لقوم يوقنون، والثلاثة لقوم يعقلون، خطوات ثلاث يتدرَّجها السالك إلى الله <فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون>؟!

تلك هي سفرة في ساير الكون، شاسعة فيه آيات للمؤمنين، فإلى سفرة أخص منها وألمس، حيث الحَيَويَّة الناطقة بآياته تزيد المؤمن إيقاناً:

<وَ في خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثّ مِنْ دابّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ>(٤)

فآية الدابة وأنتم منها، تزيد على سائر الكون حياة ملموسة، مادية محسوسة مزيجة بلطيفة ملكوتية غير ملموسة، مما يزيد التدبُّر فيه يقين الإيمان وإيمان اليقين.

دابة مبثوثة في بعدين؛ بثٌ أوّل بين السماوات والأرض: <وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلي جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَديرٌ>(٢٩:٤٢)

وبثٌ ثانٍ استمرارية التناسل بين زوجيها في كلٍّ من السماوات والأرضين، كما وأن قَرْن <خلقكم وما يبث> بـ <السماوات والأرض> يلمح بوجود دواب في السماوات كما في الأرضين. الشاملة لكل من يستحق خطاب <كم> ففى السماوات عقلاء الدواب كما في الأرض من جن وإنسان أم أياً كان.

فـ <فى خلقكم> و خلق <ما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون> حيث مجال الإتقان هنا أوسع لمكان الحياة في كل دابة وبثِّها على قَدَر:

هنالك بث في الزمان وبث في المكانة وبث في المكان، لو لم تكن يد ضابطة وممسكة بزمام الدواب في كل بثٍّ لانبثت وتفاوتت وتهافتت.

فالنسور والأسود جارحة وعمرها مديد وبأسها شديد، ولكنها قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرارير في نسلها الكثير الغزير، فلو كانت كما النسور لم يبق لها أثر، فسبحان من خلق كل شيء بقَدَر.

وذبابة واحدة تبيض في كل دورة مئآت الألوف ولكنها لاتعيش إلاَّزهاء أسبوعين، فلو كان فلتٌ في الزمام دون لفتٍ ونظام قاصد حكيم، فعاشت الذبابة أكثر من صالح النظام لغظبَت كلَّ الأجسام ولألحقت الأضرار الجِسام... وهكذا كل دابة في كل بثٍّ بتٍّ لاتنبث إلاَّ على قدَرَ، ففى خلق ما يبث من دابة آياتٌ لقوم يوقنون! تستيقن قلوبهم أن مِن ورائها مدبّر قدير عليم حكيم، سبحان الخلاق العظيم!

ومنهنا نقلة في خطوة أعمق واعرق، حيث التفتيش عن موجبات الحياة في الأرض والسماوات:

<وَ اخْتِلافِ اللّيْلِ وَ النّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السّماءِ مِـنْ رِزْقٍ فَأَحْيـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْريفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ>(٥)

خطوات ثلاث في ساحة الآيات لقوم يؤمنون ويوقنون ويعقلون، وكمال الإيمان هو الإتقان، وكما الإتقان هو عقل الإيمان والإتقان، تنتجها هذه السفرات الثلاث من الخلق إلى خالق الخلق، سبحان العظيم المنان!

إختلاف الليل والنهار لاتعني تفاوتاً بينهما بتضاد وامتداد، فإنه آيـة التضـاد، وإنمـا تعنى مجيئ كل خَلْـف الآخـر كسِـناد وعِتـاد: <إِنّ في خَلْـقِ السّـماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْـتِلافِ اللّيْـلِ وَ النّهـارِ لَآيـاتٍ لِأُولِـي الْأَلْبـابِ>(٣٠:١٩٠) <... لآيـات لقـوم يعقلون>(٢:١٦٤) <لقوم يتقون> (١٠:٦)

فلو كانت هنالك صدفة عمياء لكان الفعل واحداً دون اختلاف! ولو كان الخلق مـن شركاء متشاكسين فيما يخلقون لما تواتر الليل والنهار خلف بعض بهذا النسق والنظام!

فالليل الراحة اللباس، والنهار المعاش، يتعاملان في صالح الإنسان، بمـا فيهمـا مـن ايات كونية أُخرى لأولى الألباب الذين يعقلون ويتقون.

ليس اختلاف الليل والنهار إلاّ نتيجة دورات دائبة للأرض حول نفسـها وشمسـها، عائمة سابحة في الفضاء، دون دعامة ترونها تَدعمها وتُمسكها على فلكها وتديرها في مدارها، إلاَّ قدرة العزيز الجبار، سبحان الخلاق العظيم!

ثم وهذه الدورات لو كانت أسرع أو ابطـأ ممـا هي الآن لاسـتحالت الحيـاة علـى الأرض، أمَّاذا من مخلَّفاتِ ومقدماتِ اختلاف الليل والنهار لقـوم يعقلـون، كلمـا تقـدم العقل تقدمت هذه الآيات في دلالات ودلالات، سبحان الخلاق العظيم!

<وَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها>

ورزقها النازل منها من رازقها إلى مرزوقها في الأرض يعم كـل نـازلٍ منـها ينفـع الأرض وأهلها، من مطر وبَرَدٍ، ومن نور ونار من شمس وقمر ونجوم.

فشمسها بنارها تزجي سحاباً من الأبخرة الحصيلة بإشراقها فترجع ماءً صافياً بقَدَر،

كمِصفاة دائبة الإصفاء كما الأرض تُصفى في خلالها، ثم النارُ النورُ من شمسها تساعدان على إنماء ثمارها ودوابها من إنسانها وسواه، أمَّاذا من عوائد مشرقة بذلك الإشراق، حيث تتعامل نازلات السماء ـ ما ظهر منها وما بطن ـ في إحياء الأرض بعد موتها <فأحيا به الأرض بعد موتها>.

فلو كانت الشمس ناراً دون نور، أم نوراً دون نار، أو انحصر ماء السماء بحارٍّ دونَ بَرَدٍ دون ماء، أمَّاذا غير ما هي الآن. لانحسرت الحياة عن الأرض أو ما حصلت، ومن ثم: <وتصريف الرياح>.. تصريفه الرياح، وتصريف الرياح السحابَ المسخر بين الأرض والسماة، فلو لا هذا التصريف أو ذاك لما انصرفت الرياح إلى حيث يصلح، ولتصريف الرياح علاقة بارزة بدورة الأرض وظاهرتي الليل والنهار والرزق النازل من السماء، وعلاقة أخرى بتدوير وتدبير الأمطار، وتمويج البحار والأنهار، أمَّاذا من رحمات مقصودة لله الواحد القهار، حيث تتعامل في تجاوب عاقل لصالح الحياة على الأرض، لولاها لصعبت أو استحالت: <إِنّ في خَلْقِ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللّيْلِ وَ النّهارِ وَ الْفُلْكِ التي تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثّ فيها مِنْ كُلّ دابّةٍ وَ تَصْريفِ الرِّياحِ وَ السّحابِ الْمُسَخّرِ بَيْنَ السّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ>(٢:١٦٤)

<تِلْكَ آياتُ اللّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقّ فَبِأَىّ حَديثٍ بَعْدَ اللّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ>(٦)

هنالك إيمان بآيات الله فإيقاناً وعقلاً عنها دلالةً على الله، وإيمان بالله مدلولاً عليه بتلكم الآيات، فهل هناك دليلٌ أهدى من آيات الله، أو مدلول أقوى من الله <فبأى حديث بعد الله وآياته يومنون>؟

وترى آيات الله حديثٌ فإنها حادثة بما خلق الله، فهل الله نفسه كذلك حديث؟ هنا حديث في ذاته ودلالته هي آيات الله، وثم حديث في كونه مدلولاً عليه سرمدي في ذاته هو الله، فإذ كان الله ولم يكن معه شيء، فهو الأزلى فوق كل حادث و حديث، وإذ عُرف الله بعد خلقه آياتهِ فالتبصُّر بها فالإيمان به، فهو حديث في الإيمان، به، فبأى

حادث في الكون بعد الله معرفة به وإيماناً وبعد آياته يؤمنون، فالله تعالى مدلولاً بآياته دون ذاته حديث، كما آياته حديث، او ان <بعد الله وآياته> تعنى بعد حديث الله في كتاب التدوين القرآن، و بعد حديث آيات الله في كتاب التكوين، تؤمنون.

فمن الحديث مبصَر ومسموع يُعقل، ومنه غير مسموع يُعقل، ولاثالثَ للحديث، فهل بعد كتاب الله حديث فوقه أو مثله، وهل بعد آيات الله في سائر الكون حديث فوقه أو مثله؟

لسان التدوين يحدثكم بأفصح بيان و أبلغه، ولسان التكوين يحدثكم بأفصح بيان وأبلغه، <ما ترى في خلق الرحمن متفاوت> تدويناً وتكويناً <فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرِي مِنْ فُطُورٍ(٣) ثُمّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ>(٤:٦٧)

فهل في الكون حديث أبلغ من كتابى التدوين والتكوين، والكون كله آيات الله، وكتاب الله يحدثكم عنها و عن شِرعة الله، فإذا لاتؤمنون بحديث اللهِ القرآن، وبحديث آيات الله: الكون، محدِّثان بليغان ما أبلغهما عن الله <فبأى حديث بعد الله وآياته تؤمنون>.

فإما كفر مطلق بكل حديث، أو إيمان مطلق بالله حيث يحدثكم عنه كل حديث، فنفسك حديث، وعالَمك حديث، وكتاب الله حديث، يحدثك بلسان الفطرة والعقل، بلسان الحال والقال، بلسان التدوين والتكوين، وبكل لسان يفهمه أى إنسان، فاذ لا يؤمنون بحديث الله وآياته <فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون>؟

أنت وكل كائن يحمل عقلاً أو أية مرتبة من الإدراك، تعيش كوناً كلُّه آية، وكله لسان، وكله حديث، يحدثكم عن حكمة واحدة بارعة وتصميم فكيف به تكفرون و بكل ما تشتهون تؤمنون: <أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ>(١٨٥) <كُلُوا وَ تَمَتّعُوا قَلِيلاً إِنّكُمْ مُجْرِمُونَ(٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(٤٧) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ(٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(٤٩) فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ>(٧٧:٥٠)

حديثُ الله القرآنُ وهو أحسن حديث <اللّهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللّهِ ذلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ>(٢٣:٣٩)

والكون ـ هو أحسن الحديث ـ كله آيات الله، محدِّثان عن الله ما لهما من مثيل <فبأى حديث بعد الله وآياته يُؤمنون>؟

<ويل ... أليم>.

الإفك هو كل مصروف عن وجه الحق و وجهته، قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً أماذا من صرف عن الحق، فالأفّاك الأثيم هو الذى يسمع آيات الله البينات من تدوينية القرآن و تكوينية الكون، يسمعها تتلى عليه، ثم يصرُّ مستكبراً، في استكبار صارم عارم، دون أن يهتدى بها إلى الله، كأن لم يسمعها، فبشِّره بعذاب أليم.

ويل لفطرته المحجوبة وعقله الغارب، وقلبه المقلوب، وكل كيانه الإنسانى المتغافل عنه، ويلٌ في أُولاه وأُخراه، في مبدأه و منتهاه، فهو ويل في مقاله وفعاله، في حلِّه وترحاله، وى كأنه الويل كله، أو كأن الويل هو هو كله، فهم شياطين و تنزل عليهم الشياطين: <هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلي مَنْ تَنَزّلُ الشّياطينُ(٢٢١) تَنَزّلُ عَلي كُلّ أَفّاكٍ أَثيمٍ(٢٢٢) يُلْقُونَ السّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ>(٢٦:٢٢٣)

<أَ لَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ ما فِي السّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدًى وَ لا كِتابٍ مُنيرٍ>(٢٠)

<الم تروا> خطاب التنبيه لكل راءٍ من المكلفين من الجنة والناس أمَّن سواهما أجمعين، ولا دليل على اختصاصه بالمشركين لمكان اطلاق العموم وعموم الإطلاق، ثم <ومن الناس> حيث تستثنى جماعة من هؤلاء توكّد واقع العموم.

<أَ لَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَي الْأَرْضِ إِلاّ بِإِذْنِهِ إِنّ اللّهَ بِالنّاسِ لَرَؤُفٌ رَحيمٌ>(٦٥) لفتة مكرورة

في الذكر الحكيم، ذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، ورغم تكراها هنا وهناك بمختلف المناسبات ترى جديدة في كل مرة، جادة نحو تذكير الإنسان النسيان.

و <كم> هنا كما في <تروا> هم كافة المكلفين ـ وعلّهم ـ في كل الأرضين، دون هذه فحسب، والتسخير له تعني لمسة من المِلكية وشطرة من الغاية المعنيَّة للخلق كله، مما يقرر لنا إمكانية الإنتفاع من الكون كله، مما في السماوات و ما في الأرض كلَّه.

وهذه الآية لانظيرة لها بهذه الشمولية إلاّ ما في الجاثية: <وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَميعًا مِنْهُ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ>(١٣)[١]

لاتعنى <لكم> أن الله جعلنا مسخِّرين للكائنات، وإنما <سخر لكم> بتسبيل السبل العقلية والعلمية كفاعليات، والسبل القانونية الكونية كقابليات، حتى نتمكن من مختلف الإنتفاعات مما في الأرض وما في السماوات، مهما اختص قسم منها بخوراق العادات الخاصة برسل الله ومن اليهم، ثم:

<وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرة وباطنة> والإِسباغ هو التوفير والإِتمام، فلا تفريط من ربنا فيما انعم علينا من نعمه مهما فرطنا نحن في جنبه!

ثم <ظاهرة وباطنه> حالان من <نعمه> والنعم الظاهرة ككل هي المادية المرئية بمحاولة ودون محاولة، فالباطنة ـ إذاً ـ هي الروحية من فطرية وعقلية وفكرة وشِرعة ربانية.

ثم ومن الظاهرة <ما سوّى من خلقك، وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك مهما كانتا من الظاهرة في التقسيم الشامل.

كما الإِسلام وهو من الباطنة هو من النعم الظاهرة إذ هو ظاهر لكل من يحتورى عنه كما من الباطنة ما ستر من مساوى عملك.[٢]

---

[١] . راجع تفسير الآية في الجاثية من الفرقان يغنيك عما نختصره هنا.

[٢] . المصدر اخرج ابن مردويه والبيهقى والديلمى وابن النجار عن ابن عباس قال سألت رسول الله5 عن الآية قال: اما الظاهرة فالاسلام وما وسوى من خلقك وما اسبغ عليك من رزقه واما الباطنة فما ←

ومن الباطنة الظاهرة ما هي ظاهرة لكل المسلمين كـ <النبي وما جاء به من معرفة الله عزوجل وتوحيده، ومنها ما هي غير ظاهر للكل كولاية أهل البيت (عليهم السلام)>.[١]

ثم ومن الولاية نفسها ما هي ظاهرة كالإمام الظاهر، وما هي باطنة كالإمام الغائب[٢] وعلى أية حال فالظهور والبطون هما من الأمور النسبية وهذه تفاسير بمصاديق من النعم الظاهرة والباطنة، والتفسير بالمفهوم هو كالأول كل ما ظهر لكل ناظر هو الظاهرة، وكل ما هو غير ذلك هو الباطنة، ولكن الثانية ليست بالتى لاتظهر ام لا تعرف مهما لم تظهر، ونعم الله ظاهرةً وباطنةً لاتحصى[٣] <ومن الناس> وهم النسناس منهم <من يجادل

←
ستر من مساوى عملك، يا ابن عباس ان الله تعالى يقول ثلاث جعلتهن للمؤمن صلاة المؤمنين عليه من بعده وجعلت له ثلث ما له اكفِّر عنه من خطاياه وسترت عليه من مساوى عمله فلم افضحه بشيىء منها ولو ابديتها لنبذه اهله فمن سواهم.

[١] . نورالثقلين ۴ : ۲۱۲ في تفسير القمى بسند متصل عن جابر قال: قال رجل عند ابى جعفر عليهما السلام: <واسبغ عليكم..> قال: اما النعمة الظاهرة فالنبى5 وما جاء به من معرفة الله عزوجل وتوحيده، واما النعمة الباطنة فولايتنا اهل البيت وعقد مودتنا فاعتقد والله قوم هذه النعمة الظاهرة والباطنة، واعتقدها قوم ظاهرة ولم يعتقدوها باطنة فانزل الله <يا ايها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم>. ففرح رسول الله5 عند نزولها انه لم يقبل الله تبارك وتعالى ايمانهم إلا بعقد ولايتنا ومحبتنا.

[٢] . المصدر محمد بن مسلم وحماد بن زياد عن الكاظمΔ قال الظاهرة الامام الظاهر والباطنة الامام الغائب.

[٣] . نورالثقلين ۴: ۲۱۳ في امالى الطوسى باسناده، الى أبى جعفر عليهما السلام قال: حدثنى عبدالله بن عباس وجابر بن عبدالله الأنصارى قالوا اتينا رسول الله5 في مسجده في رهط من اصحابه فيهم ابوبكر وابوعبيدة وعمر وعثمان عبدالرحمن ورجلان من قرّاء الصحابة ـ الى قوله حاكياً عن رسول الله5: وقد أوحى الى ربى جل وتعالى ان اذكركم بالنعمة وانذركم بما اقتص عليكم من كتابه وأُملى <واسبغ عليكم نعمة...>. ثم قال لهم: قولوا الآن قولكم ما اوّل نعمة رغبكم الله و بلاكم بها؟ فخاض القوم جميعاً فذكروا نعم الله التي انعم عليهم وأحسن اليهم بها من المعاش والرياش والذرية والأزواج الى ساير ما بلاهم الله عزوجل من انعمه الظاهرة فلما امسك القوم اقبل رسول الله5 على علىٍّΔ فقال يا ابا الحسن قل فقد قال اصحابك، فقال: وكيف بالقول فداك ابى وامى وانما هو انا الله بك؟ قال:و مع ذلك فهات قل ما اوّل نعمة ابلاك الله عزوجل وانعم عليك بها؟ قال: ان خلقنى جل ثناءه ولم اك شيئاً
←

في الله> جدالاً سيئاً نكراناً له أم إشراكاً به أو انكاراً لوحيه و اليوم الآخر <بغير علم> فطرى أو عقلى أو تجريبى أماذا من علم ذاتى <ولا هدى> رسالية أماهيه كحجة ربانية من المكتسب أم واخيراً، <ولا كتاب منير> وهو كتاب الوحى الذي ينير الدرب على السالكين إلى الله إسباغاً لسائر الحجج آفاقية وانفسية، وقد فصلناها في آية الحج: <وَ إِذا قيلَ لَهُمُ اتّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللّهُ قالُوا بَلْ نَتّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السّعيرِ>(٢١)

<ما انزل الله> حيث يصاحبه علم وهدىً وكتاب منير متروك عندهم إلى <ما وجدنا عليه آباءنا> الذى لايحمل أيّة حجة إلاّ التقليد الأعمى <أو لو كان الشيطان يدعوهم> هؤلاء الآباء وإياهم <إلى عذاب السعير> فان أخطر الوسائل الشيطانية وأشرّها والحمل على تقليد الآباء القُدامى ـ فقط ـ بحجة انهم آباء، والمقلَّد الأول في هذه السلسلة هو الشيطان الداعى إلى عذاب السعير، لمسة مُوعظة مخيفة، بعد تلكم الأدلة العظيمة اللطيفة، تأخذ بازمَّة القلوب غير المقلوبة، قارعة للقلوب المقلوبة، حيث يجادل أصحابها في الله دون اى سناد إلى علم أو هدى أو كتاب منير من الله.

<وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَي اللّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقي وَ إِلَي اللّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ>(٢٢)

←

مذكوراً، قال: صدقت فما الثانية؟ قال: أحسن بى إذ خلقنى فجعلنى حياً لامواتاً، قال: صدقت فما الثالثة؟ قال: أن انشأنى فله الحمد في احسن صورة واعدل تركيب، قال: صدقت فما الرابعة؟ قال: ان جعلنى متفكراً راعياً لابلهاً ساهياً، قال: صدقت فما الخامسة؟ قال: ان جعل لى شواعر أدرك ما ابتغيت بها وجعل بى سراجاً منيراً، قال: صدقت فما السادسة؟ قال: ان هدانى الله لدينه ولم يضلنى عن سبيله، قال صدقت فما السابعة؟ قال: ان جعل لى مرداً في حياة لاانقطاع لها، قال: صدقت ـ الى قوله ـ ان سخر لى سماءَه وأرضه وما فيهما وما بينهما من خلقه... قا 5 فما بعدها؟ قال: كثرت نعم الله يا نبى الله فطابت <وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها> فتبسم رسول الله5 وقال ليهنئك الحكمة ليهنئك العلم يا ابا الحسن فانت وارث علمى و المبين لأمتي ما اختلفت فيه من بعدى، من احبك لدينك واخذ بسبيلك فهو ممن هدي الى صراط مستقيم ومن رغب عن هواك وابغضك وتخلاك لقى الله يوم القيامة لا خلاق له..>.

<وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتّبَعَ مِلّةَ إِبْراهيمَ حَنيفًا وَ اتّخَذَ اللّهُ إِبْراهيمَ خَليلاً>(١٢٥:٤) <بَلي مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ>(١١٢:٢)

هذه واضرابها تحمل الإسلام المطلق أو اسلام الوجه لله، وآيتنا <يسلم وجهه الى الله> مما يجعلها يتيمة في آيات الإسلام، وقد يكون إسلام الوجه إلى الله كتقدمة لإسلام الوجه لله.

واشمل الوجه هنا للوجه المسلَم إلى الله هو وجه الفطرة والعقل والعلم فانه الدين القيِّم كما في آية الفطرة، فلما اسلم وجهه إلى الله هكذا يسلم وجهه لله بوجه الشرعة الربانية، وكل ذلك مصحوباً بالإحسان <وهو محسن> في إسلام وجهه، تزويداً لإسلامه في وجوهه المعرفية بالوجوه العلمية <فقد استمسك بالعروة الوثقى> في هذه السبيل <وإلى الله عاقبة الأمور> هنا و يوم يقوم الأشهاد.

فحذار حذار، إن الرحلة شاقة وطويلة، حافلة بالشبكات والأخطار، ولا زاد فيها إلا اسلام الوجه لله، ولا راحلة إلا الإحسان في الله، وليعرف السالك إلى الله أن خطر الوجدان ليس أقل من خطر الحرمان، وخطر السرّاء ليس بأهون من خطر الضرّاء.

<وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنّ اللّهَ عَليمٌ بِذاتِ الصّدُورِ(٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَليلاً ثُمّ نَضْطَرّهُمْ إِلى عَذابٍ غَليظٍ>(٢٤)

ولماذا <لايحزنك كفره>؟ أتاسفاً عليه؟ وقد أديت ما عليك فكذبوك! أم زعم أنهم سابقونا؟ فـ <الينا مرجعهم> لامفلت لهم عنا حين يرجعون <فننبئهم> إنباءَ الإخبار علمياً وواقعياً لما يرون العذاب <بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور> لايعزب عنه مثقال ذرة!.

<نمتعهم> هنا <قليلاً> وكل مُتَع الدنيا قليلة مهما كانت كثيرة غزيرة <ثم نضطرهم> بما عملوا <إلى عذاب غليظ> هو في الحق أعمالهم أنفسها.

<وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنّ اللّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لا يَعْلَمُونَ>(٢٥)

<هم> المسئول عنهم هنا هم المشركون المعترفون أن الله هو خالق السماوات و الأرض، فـ <قل الحمد> كله «لله» الذى يعترف بتوحيد خالقيته المشركون و <الحمد الله> الذى يملك كافة البراهين آفاقية وانفسية على توحيده و <الحمد لله> على وضوح الحق للحق المتعالى عن كل شائبة وشائكلة.

<بل> هم يخالفون اعترافهم هذا بما يشركون، فقليل منهم يعلمون الحق و هم منكرون و <اكثرهم لايعلمون> جهلاً عن تقصير في تقاليد آباءهم وكبرائِهم، فالكل ـ إذاً ـ مقصرون، حيث الإِشراك بالله في العبودية مع الإِعتراف بتوحيد الخالقية مما لايقبل القصور المطلق.

<لِلّهِ ما فِى السّماواتِ وَ ٱلأَرْضِ إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِىّ الْحَمِيدُ>(٢٦)

<الله> لاسواه مِلكا ومُلكاً، علماً وقدرة، بداية ونهاية وعلى أية حال كل <ما في السماوات والأرض> لأنه الخالق لهما دون سواه، و لـ <ان الله هو الغنى الحميد> غنى في ان <لله...> ـ <حميد> في هذه السلطة الملكية والماليكة.

<وَ لَوْ أَنّ ما فِى ٱلأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّهِ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ>(٢٧)

<قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبّى وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً>(١٠٩:١٨)

لقد حدثنا عن الثانية في الأسرى بما قد يكفى تفسيراً للأولى وفيها زيادة عنها كالتصريح بأقلام شجرة الأرض، وسبعة أبحر إضافة إلى البحر، والثانية خلوٌ عنهما إلاّ ضِعف البحر وهنا اربعة اضعاف، مما يؤكد لنا انهما يمثلان الكثرة الكثيرة من الماء المداد، ولم يذكر فيهما كاتب للكمات،وعلّه اشارة إلى انه يحلِّق على الجنة والناس اجمعين ان لو كانوا كلهم كاتبين وبأية سرعة ممكنة.

وكما لم يذكر فيهما الأوراق المكتوب عليها، لمحةً إلى كل بساط الأرض بكل ما يمكن

ان يكتب عليه، مهما كانت رئوس الأقلام كأدقّها، فالكلمات كأنعمها وأرّقها.

ففى ذلك المربع ذى الزوايا الشاسعة الشاملة كلما بالإمكان كونه مواداً من البحر الحِبر وزيادة، وأقلاماً وكاتبين ومكتوباً عليه، يقول الله <ما نفذت كلمات الله> وهناك <لنفذ البحر قبل ان تنفذ كلمات ربى>.

وبالنظر إلى كل قلم في مدى امكانية الكتابة، وكل كاتب كما يمكن ان يكتب، وكل مكتوب عليه من أجزاء الأرض وبسيطها، ومداد الأبحر الثمانية، نعرف سعة كلمات الله حيث لاتنفذ بهذه الكتابات!

فى حين نعلم ان ليتراً واحداً من الحِبر قد يكتب به بقلم واحد وكاتب واحد و كراسات عدة في خمسين سنة ملايين الكلمات التي تشكل مكتبة ضخمة، فضلاً عن ذلك المربّع الشاسع الواسع!

انه ينفد حبر البحار وأقلام الأشجار وأعمار الكُتّاب <قبل ان تنفذ كلمات ربِّى> و <ما نفذت كلمات الله ان الله عزيز حكيم>.

وقد تعنى الزيادتان في آية لقمان أن الكلمات فيها أكثر مما في الأسرى، زيادة كلمات الله على كلمات ربِّى، فانه الله قبل كونه رباً، و الربوبية صفة فعل فكلماتها محدودة طالما لانحيط بها علماًولا إحصاءً، والألوهية تحلِّق عليها بالذات وصفات الذات ولهما كلمات كما لصفات الفعل.

لانقول إن كلمات ربى هي ربع كلمات الله لمكان سبعة أبحر إلى البحر هنا، ومثله هناك، فانهما لا تمثلان إلاّ الكثرة، إلاّ ان الكثرة في كلمات الله اكثر بكثير من كلمات الرب، وهي فيهما لاتنفد مهما اتسعت البحور وكثرت الأقلام، فانها ـ أيضاً ـ كلها من كلمات الرب فكيف تحلق على كل كلمات الرب فضلاً عن كلمات الله!

وكما الأقلام هنا تحلق على كل أشجار الأرض، كذلك البحر يعني كل بحارها ام و الأرضين السبع كلها، وبحار السماء ايضاً.

هنا يروي احباريهود قالوا لرسول الله5 بالمدينة يا محمد أرأيت قولك <وما اوتيتم

من العلم إلاّ قليلاً> إيّانا تريد أم قومك؟ فقال: كلاًّ، فقالوا: ألست تتلوا فيما جاءَك أنا قد أؤتينا التورات وفيها تبيان كل شيء؟ فقال: إنها في علم الله قليل، فانزل الله في ذلك: <ولو ان ما في الأرض...>[1].

فالكلمات ـ إذاً ـ هي علم الله ذاتياً وصفاتياً وواقعياً، لفظياً ومعنوياً، تكوينياً وتشريعياً، وليست لهذه المجموعة ـ ككل ـ حدٌ ولانهاية، مهما كانت نعَمه حسب المُنعَم عليهم محدودة، وهي ايضاً كما الكمات لاتُحصى، وقد تكفى كلمة <كُن> مثالاً لهذه السعة المعجزة، ولاسيما ما بالامكان أن يتلوَّن به،فلا حد لها محدوداً ولاعدَّ معدوداً، فلو أن الأقلام كلها بأضعافٍ من مداد البحر كتبت هذه الكلمات لما نفذت <ان الله عزيز حكيم> و قضية عزته الطليقة وحكمته، هي اللامحدودية في كلماته الإلهية و اللاّمحصورة في كلماته الربانية بحصار الكتابات التي هي ايضاً بوسائلها والكاتبين لها من كلمات الرب.

وعلّ<قبل أن تنفد كلمات ربى> تلمح إلى أنها محدودة ولكنها لاتنفد، ولكن <ما نفدت كلمات الله> لاتلمح إلى نفادها، حيث النفى هنا أعم من ذلك دونما هناك.

---

[1] . الدر المنثور ٥: ١٦٧ ـ اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن ابى حاتم عن ابن عباس ان... وفيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمعت اليهود في بيت فأرسلوا الى النبى5 ان ائتنا فجاء فدخل عليهم فسألوه عن الرجم فقال: اخبرونى بأعملكم فاشاروا الى ابن صوريا الأعور قال: انت اعلمهم؟ قال: انهم يزعمون ذاك قال فنشدتك بالمواثيق التي اخذت عليكم وبالتوراة التي انزل على موسى ما تجدون في التوراة؟ قال: لولا انك نشدتنى بما نشدتنى به ما اخبرتك، اجد فيها الرجم، فقضى عليهم النبى5 فقالوا: صدقت يا محمد عندنا التوراة فيها حكم الله فكانوا في ذلك لايظفرون من النبى5 بشيء قال نفزل على النبى5 <وما اوتيتم من العلم إلاّ قليلاً> فاجتمعوا في ذلك البيت فقال رئيسهم يا معشر اليهود لقد ظفرتم بمحمد فارسلوا الله فجاء فدخل عليهم فقالوا يا محمد، ألست اخبرتنا انه انزل عليك <وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله> ثم تخبرنا انه انزل عليك <وما في الأرض من شجرة اقلام وجميع خلق الله كتاب وهذا البحر يمد فيه سبعة ابحر مثله فمات هولاء الكتاب كلهم وكسرت هذه الأقلام كلها و يبست هذه البحور الثمانية و كلام الله كما هو لاينقص ولكنكم او تيتم التوراة فيها شيءٌ من حكم الله قليل فأرسل النبى5 فأتوه فقرأ عليهم هذه الآية فرجعوا مخصومين بشر>.

اجل، وكما يتوارى كل شيء إلاّ الله، كذلك تتوارى الأشجار والبحار، وتنزوى الأحياء والأشياء ولا تتوارى كلمات الله <ان الله عزيز حكيم> كما لايُغلب في ذاته كذلك لايُغلب في كلماته.

<ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلاّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ>(٢٨)

آية يتيمة بين آي المعاد تجعل خلق الجمع وبعثهم كنفس واحدة في خلقها وبعثها، وعلّها إجابة فيما تعنية عن السؤال: كيف يحشر الجميع وقد خلطت اجزاءهم مع بعض، فضلّت كل نفس في الآخرين، كما قالوا: <إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ(١٠) قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الّذى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ>(٣٢:١١)

فالجواب: <ما خلقكم ولابعثكم إلاّ كنفس واحدة> أمام الحيطة العلمية والقدرة الإلهية، إذ لاتضل نفس في انفس الآخرين عن علم رب العالمين مهما ضلّت عمن سواه، فكما أنه تعالى خلق كل نفس ثم يبعثها كما خلق، وهو أهون عليه، كذلك يبعثكم ليوم الجمع كما خلقكم أول مرة، وذلك أهون عليه، فـ <إن الله سميع> أقوالكم <بصير> بأحوالكم روحية وجسمية، فلا يفلت عنه فالت ولا يعزب عن علمه عازب،فعلمه لازب كل معلوم، وقدرته لازبة كل مقدور.

إنه تعالى لايختلف في خالقيته القليل والكثير، والسهل والعسير،لأنه على كل شيءٍ قدير.

لقد <خلقكم من نفس واحدة> على توالى الدهور والأنسال وفق الحكمة الربانية، ثم يبعثكم جميعاً في ساعة واحدة قضية العدالة في الحكمة[١]، دون رحلات الأجنَّة، ولا إنستالات مترتبة، فانهما لدى الله سيَّان، بل والبدء اياً كان أصعب ـ لو صح التعبير ـ و

[١] . نورالثقلين (٤:٢١٦) عن تفسير القمى في رواية ابى الجارود عن ابى جعفرعليهما السلام في الآية: بلغنا والله اعلم انهم قالوا: يا محمد خلقنا طواراً: نطفاً ثم علقاً ثم أنشأنا خلقاً كما تزعم ونزعم انا نبعث في ساعة واحدة فقال الله: ما خلقكم ولابعثكم الا كنفس واحدة <انما يقول له كن فيكون>.

ليس إلا تنازعاً في التعبير: <وهو أهون عليه>.

<أَ لَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرّةً إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ>(٦٣).

هذه وتسع أخرى عشرةٌ كاملة تحدث عن إيلاج الليل في النهار و إيلاج النهار في الليل، وهي تدل على كروية الأرض، لولاها لكانت الأرض كلها ليلاً ام كلها نهاراً فلا مجال لولوج كلٍّ في الآخر.

ثم <وسخر الشمس> في شروقات و غروبات مختلفة حسب مختلف ايام السنة، في الآفاق الأرضية، بما يتحقق معه الولوجان <كلٌ يجزى إلى أجل مسمى> هو يوم القيامة الكبرى، أو ليس الله الذى يُجريهما مع سائر الجاريات إلى أجل مسمى، ليجرى المكلفين إلى أجلهم المسمى وهم أحق وأحرى؟ إذ <إن الله بما تعلمون خبير> فليجازكم بما عملتم قضيةَ العدل، وإذ لا جزاءَ وافياً هنا فليكن هناك.

<ذلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَ أَنّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيّ الْكَبِيرُ>(٦٢)

<ذلك> العظيم العظيم، الكثير الكثير من البراهين الساطعة من الآيات الآفاقية والأنفسية التي تحلِّق على الكائنات كلها، دالةٌ على وجوده تعالى وتوحيده وكمال ربوبيته <بأن الله هو الحق> بكل ما للحق من معنى: ثبوتاً ضرورياً لابدءَله ولاختام، وثبوتاً لكل شئون الألوهية والربوبية، وثبوتاً لكل استحقاقات واختصاصات المعبودية.

و <ذلك> الصغير الصغير، الجافى الهزيل من كل دليل مما يدعون من دونه، إنه هو الباطل بكل معاني البطلان كوناً وكياناً <وان الله هو العلي> فلا يسامي أو يساوي <الكبير> فلا يوازى.

فكل حق يملك من البرهان ما يحققه قَدَره، وكل باطل هو صفر اليد عن أي برهان يثبته، بل ويبطله، ولأن الله هو الحق المطلق، فحقٌّ للكائنات كلها أن تكون معسكر البراهين الدالة على حقه دون قصور ولافتور.

<أَ لَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ>.

<نعمتٍ الله> هي التي تجري بها فلك على طول الخط، من الرياح التي تجري السفن الشراعية، ومن البترول والكهرباء وسائر الوسائل المكتشفة، حيث الكلُّ نعم الله، والعلم الكاشف لها من نعمت الله <ليريكم من آياته> الدالة على حقه و <إن في ذلك> البعيد الغور <لآيات لكل صبار شكور>.

وعلّ الآيات هنا هي رقة الماء وخفة الفلك الثقيلة على الماء، وسببية الرياح لجريانها فوق الماء، وسائر الأسباب التي تُكشف لكل صبار شكور، ومن الآيات هي الفطرية البارزة <إذا غشيهم موج كالظلل..>.

ثم للبصر والشكر واجهتان، صبر في البأساء وشكر في السرّاء وقد يعنيه قوله5: <الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر>.

<خلق... علق>

علَق لا علَقة، فإنها الحالة الثانية للجنين، الناشئة عن العلَق: جنس الدودات الصغيرة العالقة وجمعها، وهو منّي يمنى، فهذا المني عَلَقٌ مجموعه، إذ يعلق بما يلحقه من ثوب أو بدن أو جدار الرحم، وعَلَقٌ جميعه، إذ هو بحر لُجِّيٌ من ملايين النُطف: الدودات العلقية، العالقة بعضها ببعض، والعالقة كلها بجدار الرحم، وليست الجرثومة الأولى هي العلقة: الحالة الثانية للجنين، ولا العلق: مجموعة الدودات، وإنما واحدة من العلق، إن كانت واحدة، وأكثر إن كانت أكثر، لذلك <خلق الإنسان من علق>: بعض من البحر المنوي السابحة فيه ملايين العلقات: الدودات المنويَّة، لاكله، وهذا البعض هو النطفة من منى يمنى: <أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِىّ يُمْنى(٣٧) ثُمّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّي>(٣٨:٧٥)

فهنا علق، وهنا واحدة من العلق هي النطفة، وهنا علقة خلقت من هذه النطفة، فالعلقة: الدموية العالقة، هي الحالة الثانية الجنينية، والثالثة المنوية، ومن المضحك المبكي ير العلق بالعلقة، خلاف اللغة، وخلاف ترتيب الخلقة، وخلاف كافة الآيات المستعرضة

لخلق الجنين، المبتدأة بالمني طفة والمثنية بالعلقة[١]! ولم يكن هكذا تفسير إلا لقصور العلم مسبقاً عن أن المني مل ملايين الدودات، يخلق من كل واحدة جنين واحد، لا من المنى كله.

ولقد بدر الوحى من الرسول الأمى لأول ما بدر، بهذه المعجزة العلمية، أكتشف أخيراً شيءٌ منها قليل، و بجنبه الكثير الكثير، مما على الإنسان أن ينظر فيه: <فلينظر الإنسان ممَّ خلق>؟

فلقد كان أصل الوحي عليه معجزة، تحمل معجزة علمية خالدة، والرسول كيانه الرسالي معجزة، فكيان الرسالة المحمدية مجذور مكعب من المعجزات!

إن النطفة الأمشاج هي المجموعة من الذكر والأنثى، تتزاوجان فتصبحان واحدة، فكيف الزواج؟ وكيف النطفتان قبل الزواج وبعده؟ لقد أمرنا نحن أن ننظر كيف خلقنا، فنظرنا ووجدنا طرفاً من الخلقة العجيبة الطريفة، ما يزدادنا معرفة بالذي خلق خلق الإنسان من علق.[٢]

---

[١] . كالآيات (٣٧:٧٥) (١٩:٨٠) (٣٧:١٨) (٥:٢٣) (١٠١:٣٥) (٦٧:٤٠) (١١:٣٥)

[٢] . لقد كشف العلم طرفا من هذه المعجزة الأولى: القرآن، والخلق العجيب الطريف الظريف لنزُل القرآن، ولو حظ بالعيون المسلحة ان كيف النطفتان؟ وكيف تتزاجان؟

الجينات بيضات دافقة من ترائب الانثى، كل منها كبيضة الدجاجة، إلا ان قطرها يتراوح بين جزء أو جزئين من عشرة اجزاء من الميليمترات (١٠/١ أو ١٠/٢) ووزنها جزء مليون جزء من الغرام، وفيها مح (cytoplame) وفي المح الحو يصلة الجرثومية (Nuelede) التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة الآف جزء من القيراط، فيها تمكن النطفة الجرثومية (Noyau) التي يبلغ قطرها (٣٠٠٠/١) من القيراط.

هذه البيضة تتكون في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبومينى، فإذا نمت هذه الحويصلة، وازداد السائل الذى في باطنها، يتمدد غشاءها ويرق ثم ينفجر وتخرج البيضة منها و من المبيض كله، فإلى اين تذهب هذه البيضة الصغيرة العزيزة العذراء وحدها في هذا الظلام؟

إنها على موعد مع العشير الذى تحلم به دون معرفة مسبقة بينهما، يتسارعان إلى بعض و يتلاقيان في الطريق، ثم يسيران متعانقين متراوحين إلى بيت الزوجية المهيء لهما، فهل لنا أن نعرف هذا العشير ايضاً كما عرفنا العشيرة، وقبل أن نعرف زواجهما؟

انها الكروموزومات، قطر كل منها لايزيد عن ستين جزء من ألف ميليمتر (١٠٠٠/٦٠) وله عقبات في هذا الزواج: انها اصغر من عشيقتها بكثير، انها بين ملائين الخطاب الآخرين: الدودات المنوية ←

اِ< اقْرَأْ وَ رَبّكَ ٱلأَكْرَمُ(٣) الّذى عَلّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلّمَ ٱلإِنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ>(٥)

إن نعمة العلم بعد الخلق تحتل المنزلة الأولى بين النعم، وكما أنه تعالى أحسن الخالقين في خلق الإنسان، كذلك هو الأكرم في تعليمه، وكما أن الإنسان علق بربه في كيان الخلق، كذلك في انسانيته القائمة على العلم، فكافة علوم الإنسان من الله، من العلوم الغريزية: الفطرية و العقلية، ومن الإكتسابية الناشئة عنهما، النامية بهما، ومن علوم الوحي، فائقة الفطرة والعقل، المتحللة عن الإكتساب المعتاد، وهي أعلاها، الخاصة برجالات الوحى، ولكي يعلّموا الناس ما لم يكونوا يعلمون: <كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون>(١٥١:٢)

←

الكروموزومية، والملتقى ايضاً بوق مظلم مظلم ـ ضيق ضيق ـ رفيع رفيع، قطره كشعرة يختبي، وراء الرحم، ويمتد فيه إلى المبيض، إذا فكيف بالامكان الزواج مع هذه العقبات؟

ليس هناك إلا الخلق العجيب لكل واحدة منها، حيث خلق الله لها رأساً مكوّراً له عنق لولبي و ذنب طويل يضرب به الماء ويقبط، وجعل هذا الذيل معقوداً بأنظوطة لينفك عنه إذ دخل إلى البيضة!

فكل واحد من هؤلاء الذكور الكروموزومية كان اسرع وأقوى في هذا السباق، سبق مناويئه إلى جدار البيضة العذراء، فيضرب برأسه الجدار بغية دخول الدار، من باب الجاذبية (coneduttuaction) فإذا دخل اعلقت العذراء بابها، وقطعت جذبها واحصنت فرجها، وصدت الملائين الآخرين من الخطاب الاخرين ليموتوا حزناً، أو يحيوا خداماً لزميلهم السابق ولكى يخلق جنيناً كاملاً!

فهكذا تتكون النطفة الأمشاج في بداية مشجها، ثم هناك امشاج اخرى نبحث عنها في آية الأمشاج، وإليكم منها اشارة:

ان الرحم ـ البيت الزوجى ـ مضياف كريم، بستعد كل شهر لاستقبال العروسين وايواءهما واطعامهما، فتنفتح خلايا غشاءه المخاطى، وتتسع الشعيرات الدموية، وتنشط الغدد، فإذا تم الزواج استقبل الزوجين على الرحب والسعة، وإن تعرقل الزواج بسبب من الأسباب تميز غيظاً وتمزق أسفاً وبكى على البيضة الميتة دماً غزيراً، إن الزواج بعد لايكاد يتم حتى يبدء العمل المشترك في بناء الانسان الجديد. فيمشج الشريكان، كل ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط: (الكروموزومات)، وما فيها من الخلق المختلقة: (الجينات) التي خطتها وخلقتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المنحدر غير الأجيال، من الجدود والآباء الى الأبناء وابناء الأبناء:

وأقل الأمشاج ثلاثة: مشج النطفتين قبل الزواج، و مشجهما بالزواج في البوق، مشج الشريكين كل ما عندهما، فالنطفة على وحدتها أمشاج، كما الماء الدافق من الصلب والترائب واحد، وسوف نأتى بتفاصيل لخلق الإنسان في طيات الايات المناسبة.

وقيّد العلم بالقلم، لأنه لايقيّد إلا به، وكما عن الرسول الأقدس 5: <قيّدوا العلم بالكتابة> وإنما هذا القيد في غير الوحي، فإنه يقيّد في صفحات قلوب أصحابه دون حاجة إلى قيد القلم: <سنقرءك فلا تنسى> فالله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وما لم يكن يعلم، هو الذى يأمرك بقراءة الوحي، ويعلمك ما لم تكن تعلم: <و علمك ما لم تكن تعلم>.

وتاريخ الحضارات يشهد أن كافة التقدمات العلمية الحضارية مستوحاة من وحى السماء برجالاته الذين بيضوا وجه التاريخ بتعاليهم النيرة.[1]

وهل العلم دون قيد يكفى الإنسان كرماً؟ فكيف هو لم يقيّد به هنا، الجواب: <إنما يخشى الله من عباده العلماء> و <إن العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل>[2]، وإن العلم من الله والعمل من الإنسان، وإن كان هو أيضاً بتوفيق الله.

والقلم ـ أى قلم ـ قلم الحبر، أو الحديد الكاتب على الحجر ومثله، أو قلم الأمواج المستخدمة لمسجلات الأصوات والصور، إنه مما يقيّد العلم كأحسن وأءمن ما يكون، إلا قلم الوحي على قلوب النبيين، فإنه في غنى عن الوسائل العادية والمحاولات البشرية، فكما الوحي المعجزه، كذلك قلمه الذى يقيّده، والأقلام كلها تخطىء إلا قلم الوحي!.

<هَلْ أَتي عَلَي الْإِنسانِ حينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا>(١)

هل الإنسان هنا الإنسان الأول؟ ولم يُخلق من نطفة أمشاج وغير أمشاج! أم جنس الإنسان بما فيه الأول؟ فكذلك الأمر! أم ولده المتناسلون عنه؟ فكيف يخرج الأول عن انه <لم يكن سيئاً مذكوراً>!

الجواب: أنه جنس الإنسان هنا، وغير الأبوين الأوّلين هناك في استعراض من خلقه: <من نطفة أمشاج> وقد خلقهما في محالٍّ اخرى: <من صلصال من حمإٍ مسنون> كما استعرضت بقية المشاهد لخلقهم كذلك.

---

[1] . راجع كتابنا (تاريخ الفكر والحضارة)

[2] . عن علىΔ وكما في روايات كثيرة، تعني العلم الحقيقى

وهل الاستفهام تقريب وتقرير: أن أتى عليه حين: قطعة محدودة ـ من الدهر: مجموعة الزمان غير المحدودة، لم يكن شيئاً مذكوراً: <كان شيئاً ولم يكن مذكوراً>[١]

حيث النفى هنا يوجّه الى الوصف،دون الموصوف كما في <أولَم يرَ الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً> إلا في علم الله، أما في الخلق والتقدير فلا، وإنْ في مبادءه تراباً أم نطفة أم ماذا؟

أم الإستفهام انكارى يعني نفى مدخولة: أنه كان شيئاً مذكوراً طوال الدهر: قبل خلقه في علم الله، وبعده في رحمة الله وعنايته، وعلى حدّ المروى عن الامام الصادقΔ: <هل أتى عليك يا إنسان وقت لم يكن الله ذاكراً لك فيه؟>[٢] كلٌ محتمل، والجمع أجمل، حيث الإستفهام هنا يتحملهما فقد كان شيئاً معلوماً عند الله، مذكوراً عنده في عداد ما أراد خلقه، ثم الله ذاكرٌ له على طول الخط إذ خلق أصله: التراب، ثم منيّه من سلالة التراب، ثم نطفته من سلالة المنى، ثم درج به في خلقه وتصويره وتسويته الى درجة الإنسان، ثم هو ذاكره طول الحياة الى الممات و بعده <فهل أتى عليه وقت لم يكن الله ذاكراً له؟> اللهم لا.

وقد كان شيئاً في علم الله كسائر الأشياء ولم يكن مذكوراً في الخلق: <كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق>[٣] <كان شيئاً مقدّراً مكوّناً>[٤] و بعد ما خلق تراباً كان شيئاً في أصله التراب بشيئية التراب، ولم يكن مذكوراً في عداد الإنسان، ولابمبدءه

---

[١] . تفسير العياشى عن زرارة سأل الباقرΔ عن الآية فقال:... وفيه عن عبدالأعلى مولى آل سام عن الصادقΔ مثله.

[٢] . ج ١٠ ص ٢٥٩ تفسير روح البيان لإسماعيل حقي.

[٣] . تفسير العياشى عن سعيد الحذاء عن الباقرΔ:..

[٤] . الكافى باسناده عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني باسناده عن الإمام الصادقΔ: سئل عن قوله تعالى: اولم ير الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً فقال: <لامقدراً ولامكوناً> وسئل عن قوله تعالى: هل اتى على الانسان... قال: كان مقدراً غير مذكور، و عن حمران عنهΔ <شيئاً مقدراً ولم يكن مكوناً> اقول: التقدير هو تقدير العلم والخلق قبل ان يخلق.

الجرثومي: نطفة وسواها، ثم إذ خلقت نطفته كان شيئاً هو أصله الجرثومى ولم يكن مذكوراً كإنسان، ولا مذكوراً باسم النطفة والمني أيضاً ـ تأدُّباً ـ إذ كان قذراً لحدّ لم يك يذكر إلا لمن اضطر، بحثاً عن أصله فيزيولوجياً، أو خناءً لمن يستحقة، أو تذكيراً بأصله: <لقد كنت نطفة قذرة...> فهذه اولى النعم التي أبلانا الله عزوجل بها أن خلقنا ولم نكن شيئاً مذكوراً، وعلى حدّ تعبير عليΔ وتقرير الرسول5.[1]

فهل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟ اللهم بلى، إذ كان مَنسيّاً في الخلق كإنسان، غير مذكور قبل خلقه إنساناً، ذكرَ الكيان أم ذكر اللسان، ثم اللهم لا! إذ كنتَ ذاكره كل الدهر: قبل خلقه وبعده!

<إِنّا خَلَقْنَا الْإِنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَليهِ فَجَعَلْناهُ سَميعًا بَصيرًا>(٢)

فما هي النطفة الأمشاج؟ النطفة هي واحدة النُطَف: الماء الصافي، فالمني نُطَفٌ يُخلق الانسان من نطفة منها: <ألم يك نطفة من مني يُمنى> وصفاءها هي اصطفاءها من البدن كله، فانها: <ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين> (٨:٣٢) فالمني بحر لجّي من ملائين النُطف: الدودات العقلية، ولماءه صفائه، لانه المصطفى من كل البدن، ثم النطفة التي يخلق منها الإنسان هي سلالة من هذه السلالات، فالإنسان نتيجة نهائية لتسلسل سلالات عدة: يتسلل المني عن البدن كله بما تغذّى، كما الغذاء سلالة من طين، فالمني سلالة من طين: <ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين>(١٢:٢٣) سلالة من طين، وهي المنى، ثم نطفة: سلالة من هذا المنى!.

ومن ثم إذا كانت هذه النطفة واحدة فكيف توصف بالأمشاج؟ فكيف يجمع بين الوحدة والجماعة؟ نقول هنا ما قلناه في <وجعلنا بن مريم وأمه آية>(٥:٢٣) فهما من حيث الوجود اثنان، ومن حيث الآية المعجزة آية واحدة لتلازمهما فيها، كذلك النطفة واحدة في كيانها وِجاهَ سائر النطف، ولكنها حصيلة الأمشاج: الأخلاط، جمع المشيج أو

[1] . الشيخ الطوسى باسناده الى الامام الباقرΔ أن النبي5 قال لعليΔ قل: ما اول نعمة ابلاك الله عزوجل وانعم عليك بها؟ قال: أن خلقنى جل ثناؤه ولم أك شيئاً مذكوراً، قال: صدقت.

المَشج أو المَشَج: الخليط أو الخلط، فهى <محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب>[١] حيث <ماء الرجل والمرأة اختلطا جميعاً>[٢]، وهذا مشج واحدٌ فما هي الأمشاج؟

مشجٌ اوّل هو أصول الغذاء الإنسانى المركبة من عناصر عشرة هي: الأوكسجين، والئدروجين، والكربون، والأزوت، والكبريت، والفوسفور، والبوتاسيوم، والمغنسيوم، والكلسيوم، والحديد، وتلك عشرة كاملة تتبنى غذاء الانسان.

فهذه العناصر الداخلة في كل نبات و حيوان، وأخيراً في الإنسان لأنها غذاءه، فأعصابه وخليّاته تتكوّن وتتقوى منها، وهي كلها دخيلة في خلق المني، ويا لها من اختلافات لونية وعنصرية في المفعول!

ومشجٌ ثان: خلق المنى من مجموعة هذه الأعصاب، ذكراً وأنثى، فهو قطر من بحر الكيان الانساني ككل، طالما تكون خزانته الإحتياطية البيضتين، والأصيلة صلب الرجل وترائب المرأة، ودليلاً حسّياً على هذه الجمعية ارتخاء الأعصاب كلها، بما يشدها ويمدها المركز الرئيسى: الصُلب والترائب.

ومشج ثالث: خلط ماءَى الذكر والأنثى: <خلق من ماءٍ دافق. يخرج من بين الصلب والترائب> (٧:٨٦) اعتبرا ماءً واحداً لمكان المزج والمشج، ولكي يخلق منهما إنسان واحد فيمشجان في الرحم: بيت الزوجية الثانى للزواج الثاني.

ومشج رابع: تزاوج النطفتين ـ خلية الذكر وبويضة الأنثى ـ بعد خلط المائين، فالبحران المنويان هنا يلتقيان، بينهما برزخ لايبغيان، ثم تلتقى من كلٍّ دودة مع الأخرى في الآخر، زواج بعد زواج عجيب.[٣]

ومشج خامس: هو تتمة عملية الزواج الأخير في بناء الإنسان الجديد: أن يمشج الشريكان، كلٌ ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخليط: (الكروموزومات

---

[١] . في نهج البلاغة قولهΔ عالم الغيب من ضمائر المضمرين الى قوله:...

[٢] . القمى: عن الامام الباقرΔ في تفسير الأمشاج.

[٣] . راجع ج ٣٠ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥ من تفسير الفرقان تجد فيه كيفية زواج النفتين.

Chromome) وما فيها من الخلق المخلَّقة: (الجينات Qenes) التي خطَّتها وخلقتها وسوّتها يد القدرة الألّهية بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال من الجدود والآباء الى الأبناء، فالوراثات المتداخلة الكامنة في النطفة، الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً، ولصفات الجنين العائلية أُخرى، هذه الوارثات هي الدور الخامس من النفطة الأمشاج.

ومشج سادس: هو خلط الكامنة في النطفة من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة، وتبتنى البنية الحيوانية المعدّلة الأخلاط منها، التي هي ظروف ومجالات فاسحة لتصرفات الروح: الغضبية والشهوية والعقلية وامثالها، والى أمشاج أُخرى لم تصل اليها أيدي العلم حتى الآن.

وكما الإنسان حين نزول القرآن ما كان يدرى شيئاً من هذه الأمشاج، مما حمل جماعة من المفسِّرين يحاولون في جعل الأمشاج مفرداً، وجماعة أخرى ساكتون عن تفسير الجمع بعد تصديقه، وثالثة يكتفون بمشج ماءى الذكر والأنثى، رغم <ان للقرآن آيات متشابهات يفسّرها الزمن>!

<إِنّا خَلَقْنَا الْإِنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَليهِ فَجَعَلْناهُ سَميعًا بَصيرًا>(٢)

الإبتلاء هو نقل الشيء من حال الى حال، ومن طور الى طور، كابتلاء الذهب من كدر الى صفاء، والإنسان كائن متطور متنقل منذ النطفة حتى الممات، روحياً وجسدانياً، وكافة تطوراته هي من فعل الله وابتلاءه، سواء أكانت من سعيه، كالمختار فيها بعقله وحوله، أم سواها مما لاحيلة له فيها، من التطورات الجنينية وسواها، من نطفة الى علقة والى آخر الأطوار المتعاقبة حتى إنشاءه خلقاً ثم من ولادته الى وفاته من حياة التكليف والإختيار وسواهما، إنما ابتلاءه في حياة العقل والتكليف يتطلب السمع والبصر قلباً وقالباً، ولكي يصدر الإنسان بهما وبسائر وسائل الادراك، من آفاق التكوين والتشريع الى عقله وقلبه، استزادة للوعى واهتداء الى ما يجهله بما هداه الله السبيل وليكون أحسن المخلوقين، فإما شاكراً وإما كفوراً.

فهل إن <نبتليه> هنا حال من الإنسان منذ النطفة حق الممات؟ وابتلاءه من غايات خلقه المهمة: <فجعلناه سميعاً بصيراً> لتكلمة هذا الإبتلاء بإكمال وسائله الإختيارية؟ إذاً <فجعلناه> تفريع على نبتليه: فلكي نكمل ابتلاءه جعلنا له وسائله.

أم إنها حال من الإنسان في التطورات الجنينية <فجعلناه> بعد ابتلاءه هذا <سميعاً بصيراً>؟ وأهم الإبتلاء إنما هو في الحياة ولاسيما حياة التكليف! طالما يعم قبلها منذ النطفة حتى الولادة حتى عقل التكليف!

أم حال منه في حياة التكليف فحسب فابتلاءه إذاً بعد جعل السمع والبصر؟ وهذا يقتضى قلب الجملة <جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه> وهو خلاف الفصيح!

أم غاية لخلقته: <إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعًا بَصِيرًا>(٢) وهذا تكلّف دون دليل! والاول أشمل وأوفق لفظياً ومعنوياً دون تكلف: حال أن <نبتليه> لهذه الحالة التي هي ايضاً غاية: <فجعلناه سميعاً بصيراً> لتحسن حالة الإبتلاء!

والسمع والبصر هما العنصران الأساسيان للإبتلاء ولا يعنيان الجارحتين فحسب، لأن مدار الإبتلاء هو سمع العقل وبصر القلب، ففاقدهما لايبتلى مهما كان قوياً في سمع الطاهر وبصره، فأصل الإبتلاء هو السمع والبصر عقلياً وقلبياً، وكمالُه السمع والبصر قالبياً <وَ قالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّا في أَصْحابِ السَّعِيرِ>(١٠)[1] ولايبتلى ولايكلف من لايجدهما عقلياً، دون العكس.

والسميع والبصير هما مبالغتان في السمع والبصر، ما ذكرا في القرآن إلا وصفين لله، إلا في موضعين ثانيهما: <مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَ فَلا تَذَكَّرُونَ>(١١:٢٤) مما يدل على أهمية التوصيف بها لغير الله.

إنسان الأرض والسماء؟

[1] . راجع الى تفسير هذه الآية في سورة الملك من الفرقان.

< قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فى صُدُوركُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَ يَعْلَمُ ما فِى السّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ اللّهُ عَلي كُلّ شَىْءٍ قَديرٌ>(٢٩:٤٢)

آية غرّة بين الغرر، تأتى بملاحم غيبية لم تسطع البشرية حتى الآن أن تتطلعها فتطّلع عليها، رغم سبرها الأغوار العميقة الواسعة في أرجاء الكون بالأسفار الجوية وسواها من وسائل حديثة، فلم تسطع إلاّ على أشراف مما تحمله هذه الآية القصيرة من غرر:

١ ـ إن في السماوات دواباً كما في الأرض: هذه أم سائر الأرض من السبع، كما في السماوات السبع ـ ٢ ـ و منها عقلاء كإنسان هذه الأرض ـ ٣ ـ والله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض!!!.

أسرار مستسرة لم ينفذ إلى طبيعتها أحد، فضلاً عن التطلُّع إلى إنشاءها و كيفياتها، فكل المحاولات العلمية التي بذلت للبحث عن حياة في السماء حتى النباتية، فضلاً عن أحياءٍ فيها حيوانية أم إنسانية أم ماذا، إنها أُغلقت دونها الأبواب، وانحسرت عنده الأسباب، حيث انقلب البصر إلى أهلها خاسئاً و هو حسير.

إنسان الأرض لم يحط علماً لحد الآن بكاقة دواب الأرض وهو ساكنها وماكنها، فكيف له التطُّلع إلى السماء ليرى ساكنها وماكنها، اللّهم إلاّ أن يعلمه إلّه الأرض والسمآء كما في هذه الآية وأضرابها، حيث تبث فيهما من دابة بعد خلقها، ثم تجمعها هنا، ليوم الجمع في هذه اللمحة اللامعة، فيشهد القلب مشاهد ثلاثة أو أربعة قبل أن ينتهى اللسان من آية واحدة قصيرة من الذكر الحكيم!

وماذا تعني دابة السماوات والأرض؟... إن الدبَّ ـ لغوياً ـ مشي خفيف، والدابة وهي المبالغة فيه، تعني الماشية فوق الخفيف، وأرض مدبوبة: كثيرة ذوات الدبيب فيها، فالدابة ـ إذاً ـ حيوان يمشي على أرض مّا في أرض أم سماء: <وَ اللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشى عَلي بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشى عَلي رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشى عَلي أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ ما يَشاءُ إِنّ اللّهَ عَلي كُلّ شَىْءٍ قَديرٌ>(٤٥:٢٤)

إذاً فكل دابة تمشيء فلا تطير في جو الأرض: <وَ ما مِنْ دَابّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لا

طائِرٍ يَطيرُ بجَناحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أمْثالُكُمْ ما فَرّطْنا فِـى الْكِتـابِ مِـنْ شَـىْءٍ ثُـمّ إلى رَبِّهِـمْ يُحْشَرُونَ>(٣٨:٦) ولا في جو السماء كالملائكة: <وَ لِلّهِ يَسْجُدُ ما فِى السّماواتِ وَ مـا فِى الْأَرْضِ مِنْ دابّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ>(٤٩:١٦) وهذه الآية تكفي نصـاً على أن الدابة لاتشمل الملائكة، وتأخر الملائكة هنـا ذكـراً علـى تقـدمها شـأناً علَّـه للإطاحة باحتمال تخصص الدابة بالأرض.

وفيما تُطلق الدابة في الكون، بَثّاً لها كما هنا، أو أخذاً بناصيتها: <وما مـن دابـة إلاّ هو آخذ بناصيتها> (٥٦:١١) أو خلقاً لها من ماءٍ مشياً على بطـن أو رجلـين أم أربـع (٤٥:٢٤) أم قضاءً عليها كلها لولا أجل مسمى بظلم ناسها: <وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللّـهُ النّـاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دابّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمّي فَـإذا جـاءَ أَجَلُهُـمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ>(٦١:١٦) أم رزقاً لها حيث لا تحمل رزقها: <وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّهُ يَرْزُقُها وَ إيّاكُمْ وَ هُوَ السّميعُ الْعَليمُ>(٦٠:٢٩)

اللّهم إلاّ بقرينة قاطعة تحصرها بالأرض: <ومـا مـن دابـة في الأرض..> (٣٨:٦ و ٦:١١) <فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثّ فيهـا مِـنْ كُـلّ دابّـةٍ وَ تَصْـريفِ الرِّيـاحِ وَ السّحابِ الْمُسَخّرِ بَيْنَ السّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ>(١٦٤:٤) هـذه الأرض أم كل السبع إلاّ بقرينة تخصها: <فَلَمّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مـا دَلّهُـمْ عَلـي مَوْتِـهِ إلاّ دَابّـةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمّا خَرّ تَبَيّنَتِ الْجِنّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُـونَ الْغَيْـبَ مـا لَبِثُـوا فِـى الْعَذابِ الْمُهِينِ>(١٤:٢٢) <وَ إذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنّ النّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ>(٨٢:٢٧)

فـ <ما بث فيهما> هنا و في أضرابها تدلنا على وجود دواب في السماوات كما في الأرض، أترى أن فيها دابة الإنسان حيث يمشي على رجلين أم ماذا كما في الأرض؟

أجل! لمكان <هم> في <جمعهم> هنا، حيث ترجع إلى ذوى العقول دون <ها> فإنها لغير ذوى العقول، وقد يكون مِن <هم> ناسٌ <وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَـرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمّي فَإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ

لا يَسْتَقْدِمُونَ>(٦١:١٦) فحيث لامرجع هنا للضمير: <عليها> فلترجع إلى الدنيا كلها من أرضها و سماءها، كما وهما تذكران بآيات قبلها: وله ما في السماوات والأرض وله الدين واصباً...> (٥٢) فالناس المأخوذون هنا لولا أجل مسمى هم ناس السماوات والأرض، ودليلاً ثانياً أن دواب السماوات لاتؤخذ بما ظلم ناس الأرض، فأخذ الدابة بما يظلم الناس أخذٌ لما ينفع الناس مع الناس.

وقد تعني آية الحج من ثالث الثلاثة في المساجد كثيراً من ناس السماوات والأرضين: <أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشّجَرُ وَ الدّوَابّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللّهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ>(١٨) فـ <من السماوات والأرض> من ملائكة أو إنسان أيّة دابة أم مَن ذا؟ <والشمس والقمر> وغيرهما من نجوم السماء <والجبال والشجر> من الأرض والسماء <والدواب وكثير من الناس> فيهما اختياراً <وكثير حق عليه العذاب> تكوينياً وإضطراراً.

وإذا السجدة هنا تعم ذوي العقول وسواهم، ففي النحل يخصهم دون سواهم: <وَ لِلّهِ يَسْجُدُ ما فِي السّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ(٤٩) يَخافُونَ رَبّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ>(٥٠) حيث تتأخر الملائكة الساجدة لكي تعم الدابة الساجدة السماوات والأرض <وهم لايستكبرون> يخافون...! ثم الدابة العاقلة بين دواب السماء قد تكون إنساناً يمشي على رجلين أم ماذا؟ فلا مشاحة في الأسماء، أم تكون أياً كان من العقلاء من جان أمن ذا، فالعالَمون في آياتهم دليل على فرقة ثالثة بعد الإنس والجان ـ لأقل تقدير ـ قضيةَ أقل الجمع.

ففى(٧٣) موضعاً من آى الذكر الحكيم يأتى العالَمون والعالمين جمع العالَم وهو العاقل ممن سوى الله، نعرف من هذا الجمع عالم الإنس والجن ولانعرف ثالثاً أم زاد إلا إجمالاً من آية البثِّ والبعض من آيات الدابة وآيات العالمين: كـ <رب العالمين> و <إن الله اصطفى آدم و نوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين>(٣٣:٣) مما يدل على

أفضلية هؤلاء المرسلين على مرسلى الجن وسائر العالمين، كما القرآن ورسوله: <إن هو إلا ذكر العالمين>(٦:٩٠) ذكراً ورسالة لعامة المكلفين ورحمة: <وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين> (٢١:١٠٧) ونذارة: <تَبارَكَ الّذى نَزّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمينَ نَذيرًا>(٢٥:١)

وقد تدّلنا روايات عدة على مدن سماوية كما يروى عن الإمام علىΔ: <هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودين من نور، طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتين وخمسين سنة>[١]

وعن الإمام الصادقΔ <في كل واحدة من السماوات السبع خلقاً كثيراً وكذا في ما بينها>[٢].

وكما عن الرسول الأقدس5: <رأيت في السماء السابعة ميادين كميادين أرضكم هذه>[٣] فالميادين كميادين أرضكم والمدائن مثل التي في الأرض والخلق الكثير والبقاع الكثيرة والمساكن الطيبة، كل ذلك تؤيد أن <هم> في آية البث تعنى وجود عقلاء في السماوات كما في الأرض و كما تدلنا متظافر الروايات.[٤]

---

[١] . بحارالأنوار باب المساوات والأرضين.

[٢] . بحارالأنوار عن كتاب مثنّى ابن الوليد الحفاظ عن ابى بصير عنه5.

[٣] . البحار عن الفخر الرازى باسناده عنه 5.

[٤] . وعن الصادق: <ان الله تعالى خلق بقاعاً كثيرة ومساكن طيبة فخلف مغربكم هذا تسعة وثلاثون مغرباً، مدينة تشرق فيها الشمس و تغرب وهي مملؤة من خلق عقلاء يتمتعون بمعرفة الله ونعمته لم يدنس ساحتهم اثم ولاخبرة لهم عنه.

وعن باقر العلومΔ: <ان وراء شمسكم هذا اربعون عين شمس بين كل واحدة اربعون سنة وفي كل منها خلائق كثيرون لايدرون هل خلق الله آدم ام لا، وان وراء قمركم هذا اربعون قمراً وبين كل واحدة اربعون سنة فيها خلائق كثيرون لم يطلعوا على خلق الإنسان ولقد الهمهم الله كمثل النحل غريزة سنن المعيشة (تفسير القمى). وفي مجمع البحرين نقلاً عن الفخر الرازى في جواهر القرآن عن رسول الله5 أن لله ارضاً بيضاء تسير الشمس فيها ثلاثين يوماً وسعتها ثلاثين اضعاف ارضنا.

وروى الشيخ ابو الليث السمرقندى (٣٧٣ هـ) في كتابه عنه5 مثله بزيادة ان هذه الأرض مليئة من الأحياء.

←

وترى ان استعمال <هم> احياناً في غير ذوي العقول بمحسنات مجازية، يهدم صرح دلالتها على ذوي العقول دون قرينة كما قيل.[١]

كلاَّ، وإنها ضابطة لغويّة أن <هم> أياً كان لاتعنى إلاّ ذوى العقول، أو هم مع غيرهم من غير دوى العقول قضيةَ التغليب، اللهم إلاّ بقرينة قاطعة تصرف <هم> عنهم إلى سواهم، ولانجد هذا الأخير إلاّ في <وكل في فلك يسبحون>(٣٦:٤٠) حيث السباحة العاقلة هكذا تسمح إرجاع ضمير العاقل إلى هذه السابحات، إذ تسبح دون فتور ولا

←

و في بحار الانوار و بصائر الدرجات عن الإمام الصادقΔ ان وراء ارضنا هذه ارض بيضاء نورها منا يعيش فيهاخلق يعبدون الله ولايشركون به احداً.

ويروى المفيد في الاختصاص عن الإمام الصادقΔ ان علياًΔ سار الأرضين السبع ثلاث خربة واربع عامرة، وروى مثله في بصائر الدرجات، وعن الإمام الباقرΔ مثله في ذوالقرنين.

ويروى الصفار في البصائر عن الإمام الباقرΔ ان صاحبكم يركب الصعب ويرقى في السماوات السبع والأرضين السبع خمس عوامر واثنتان خربتان.

وفى زيارة العاشور <فلقد عظمت بك الرزية وجلَّت في المؤمنين والمسلمين وفي اهل السماوات واهل الأرضين اجمعين>.

ويروى الصدوق في كتاب التوحيد عن رسول الله5 ان لسائر الأرضين السبع سكنة وقرء: <خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن>.

وفى البحار عن السرائر باسناده عن بريدة الأسلمى عنه5 في حديث المعراج: يا علـى! ان الله اشهدك معى سبع مواطن ـ الى ان قال ـ في الموطن الثانى اتانى جبرئيل فأسرى بى الى السماء... فكشط لى عن السماوات السبع والأرضين السبع حتى رأيت سكّانها وعُمَّارها وموضع كل ملك منها فلم أرشيئاً من ذلك إلاّ وقد رأيته كما رأيته.

اقول: ليس السكان والعمار هنالك من الملائكة فانهم لايمشون في الأرض: <قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً> (١٧:٩٧)

وفى البحار (٦:٥٠٧) عن ابى بصير عن الصادقΔ ان جبرئيل احتمل رسول الله5 ـ الى ان قال في حديث المعراج ـ ثم صعد بى الى السماء السادسة فاذا فيه خلق كثير يموج بعضهم في بعض، ثم صعد بى الى السماء السابعة فاذا فيه خلق كثير وملائكة.. و فيها الكروبيّون.

وفيه عن مثنى بن وليد الخياط عن الصادقΔ قال: في كل من السماوات السبع خلق وبينها خلق، قلت: وكيف الأرض؟ قال: سبع ارضون في خمس منها خلائق وليس في الاخريين.

[١] . القائل هو العلامة الطباطبائى في تفسير الميزان.

اصطدام وأعقل من العقلاء، حيث تسبح بأمر خالق العقلاء!

ثم ونجد الجمع بين العقلاء وسواهم في آيات: < وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی ٱلْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِی الْكِتابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ>(٣٨:٦) فـ <هم> راجع إلى <دابة> إذ تشمل العقلاء وسواهم، و كذلك <من> في آية النور <والله خلق كل دابة من ماء فمنهم مَن... مَن... مَن...> فإن <كل دابة> تشمل الإنسان وسواه من دابة عاقلة وسواها، فليكن موصوله وموصول ذوى العقول.

إذاً ففى السماوات دواب عاقلة وسواها وكما في الأرض <وهو على جمعهم إذا يشاء قدير>:

فهل إن هذا الجمع يعني جمعهم يوم الجمع؟ ويوم الجمع لايخص العقلاء كما تدلنا آية الأنعام <ثم الى ربهم يحشرون> كل دابة، ولم يستحقوا هنا ضمير العاقل إلاّ لأنهم أمم أمثالنا في الأولى ومن ثم يحشرون يوم الأخرى!

أم يخص الجمع يوم الدنيا في أسفار جوية متقابلة بين عقلاء الأرض والسماء؟ فلأنه جمعٌ بعد البث، وأنه جمعٌ للبعض من المجموعين ليوم الجمع[١] فليكن في الأولى، أم نجمع بين الجمعين، في الأولى للعقلاء وفي الأخرى لكل دابة.

فقد جمعت هذه الأية على اختصارها ملاحم غيبية من وجود دواب في السماوات كما في الأرض، ولزامها الماء والكلاء والهواء حيث تتبنى حياة الدواب، ومن عقلاء الدواب إنساناً أم من ذا، وان الله سوف يجمع بين عقلاء السماوات والأرض، هل في تَسافُر إلى بعض بالسفن الفضائية فيجتمعان بين السماوات والأرض، أم يسبق إنسان الأرض إنسانَ السماء أم إنسانُ السماء إلى إنسان الأرض؟ لاندرى!

وترى الأوامر التشريعية خاصة بأرضنا هذه أم تعم كافة العقلاء المكلفين في أرجاء

---

[١] . حيث الجمع هناك يخص الدابة والطير الملائكة وغيرهما من غير الدابة.

الكون؟.. في بحث مسبق عن الآية <لتنذر أم القرى ومن حولها..> عرفنا أن الرسالة الإسلامية تشملهم كلهم كما الرسالات التي قبلها، وفيما يروى عن الإمام الرضاΔ <فأما صاحب الأمر فهو رسول الله5 والوصى بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزّل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضين>[١].

إن وجود الحياة العاقلة وسواها في سائر العوالم قد يكون من الواضح وفي صورة مبهمة قبل أن يدل عليه دليل الوحى أم دليل علمى آخر، فمن البعيد كل البعد انحصار الحياة في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة، ثم لاحياة في بليارات من الكرات!

نظرة ثانية إلى الآية:

<ومن آياته> آيات علمه ورحمته وقدرته، وآياته الدالة على أن هذا القرآن نازل بعلمه، وآياته الدالة على وجوده أم ماذا من دلالات بينات:

<خلق السماوات والأرض> جنس الأرض الشامل لسائر السبع.[٢]

<وما بث فيهما من دابة>: أخلقاً ثم بثاً لما خلق؟ أم بث الخلق أن خلق في كلٍّ ما خَلَق؟.. إن بثه تعالى يعمهما، وقد يشهد الواقع الملموس عندنا أنه بث الخلق، إذ لم نر خلقاً هنا يصعد إلى السماء! ولكنما الآية بمضيِّها تعني ماضي البث <وما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولاخلق أنفسهم...> (٥١:١٨) فضلاً عن أن يلمسوا بث الخلق أم بثاً لما خلق ـ اللهم إلاّ أبا البشر وأمه حيث القرآن يهبطهما إلى الأرض ـ لابثهما بعد خلقهما، أو يقال: اسكتوا عما سكت الله عنه، اللهم إلاّ أن كل دابة تحتاج جواً يناسبها، فإنسان الأرض لايسطع الحياة على القمر ومثله. فأحرى بالبث أن تعني هنا بث الخلق.

---

[١] . رواه على بن ابراهيم القمى عن ابيه عن الحسين بن خالد عن ابى الحسن الرضاΔ حول الآية <الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن> قلت: نحن على ارض واحدة؟ قال: نعم.

[٢] . قد يطلق الأرض ويراد بها الأرض بقرينة تصرفها عن جنسها، او تطلق ويراد بها جنسها الشامل للسبع، كما السماء قد تعني جو الأرض، او السماء الأولى او السماوات السبع كلها، كما السماوات تعني السبع.

<وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْديكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثيرٍ>(٣٠)

المصيبة في الأصل هي الرمية التي تصيب الهدف، ثم اختصت بالنائبة، إعتباراً أنها ليست رميةً من غير رام، وهذه الآية تختص كل نائبة بما كسبت أيديكم، وإن كانت من عند الله، فإنها من أنفسكم، يرميكم بنصلكم الذى كسبتم، إذاً فهى رمية قاصدة برامٍ عادل و أن الله ليس بظلام للعبيد.

هناك فرق بين الحسنة والسيئة أن الحسنة من الله ومن عند الله، ولكنما السيئة هي من أنفسكم ثم من عند الله: <ما أصاب من مصيبة إلاّ بإذن الله>(١١:٦٤) <وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَديثًا(٧٨) ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَ أَرْسَلْناكَ لِلنّاسِ رَسُولاً وَ كَفي بِاللّهِ شَهيدًا>(٧٩:٤)

تلميحات الى أسفار فضائية

(١)

<قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ>(١٠١)

هنا <انظروا> تعم إلى نظر البصر البصيرة، و <ماذا في السماوات والأرض> تعني في نظر البصر إلى النظر من بعيد ـ وهو بعيد عن السماء الأولى بأعماقها فضلاً عن الستة الأخرى ـ تعنى النظر من قريب على ضوء السفر بالصواريخ وأشباهها إلى السماوات ما استطعنا إليه سبيلاً.

فقد نظرت الآية في ذلك النظر إلى مستقبل النظر بصريًّاً مهما شمل كل نظر منذ نزولها إلى يوم الدين، وذلك أمر يحلِّق على أهل كل زمان أن يوسِّعوا نطاقات محاولاتهم

للرحلة الفضائية قدر المقدور، وكما لمحت لذلك المستقبل الزاهر آية يوسف: <وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ>(١٢:١٠٥) فهنا <عنها معرضون> وفي آيتنا <وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون> هما تعريضتان إثنتان بهؤلاء الذين غزووا الفضاء حتى الآن فقال قائلهم من السوگيت الملحد: ما رأينا الله على سطح القمر! وكما قال زميلهم فرعون: <يا هامانُ ابْنِ لي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ(٣٦) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِبًا> (٢٨:٣٨)

و واجب النظر هنا موجَّه إلى المؤمنين بهذا المستطاعة لبني الإنسان هو من الأمور الدينية التي توسع نطاق الآيات المستعرضة للناظرين، توسيعاً للآيات الآفاقيه بمعرض الأنظار على مدار الزمن، توكيداً وتوطيداً لتوحيد الله، سبحانه وتعالى عما يشكرون، مهما <يمّرون عليها وهم عنها معرضون. وما تغني الآيات والنذر عن قوم لامؤمنون>.

فكما الإستعراضات الرسولية والرسالية تهدف <عذراً أو نذراً> كذلك إستعراض سائر الآيات تهدف <عذراً أو نذراً> لتكون كلمة الله وحجته هي البالغة في الخلق أجمعين.

<فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاّ مِثْلَ أَيّامِ الّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرينَ>(١٠٢)

<فهل ينتظرون> هؤلاء المكذبون أن يأتيهم <إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم> من المكذبين! <قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين> مثل أيامهم لكم، وهنا <معكم> تلمح إلى معية ذلك الإنتظار دون أن يكون له5 من الأمر شيءٌ.

<ثُمّ نُنَجّي رُسُلَنا وَ الّذينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنينَ>(١٠٣)

وهل إن بعد محمد5 رسلٌ حتى <ننجى رسلنا والذين آمنوا>؟ وقد ختمت به الرسلالة والنبوة! كلاَّ، حيث لاتعنى <ثم> هنا ما يُنتظر من مستقبل العذاب، بل القصد مجموعة أيام العذاب لمن يستقبل إلى من مضى، <ثم ننجى> في حقول العذاب <رُسلنا والذين آمنوا> معهم <ذلك> كان <حقاً علينا> على مدار الزمن الرسالي <نصر

المؤمنين>.

<قُلْ يا أَيّهَا النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ في شَكّ مِنْ دينى> من الطاعة والعبادة، أهما لله لاشريك له، أم لمن دون الله، أم جمعاً بين الأمرين، <ف> ها أنا أعلن في هذه الإذاعة القرآنية أنني <لا أعبد الذين تعبدون من دون الله> بأى وجه وعلى أية حال <ولكن أعبد <الذى يتوفاكم> أحياءً وأمواتاً ويوم إليه تحشرون، <وأمرت أن أكون من المؤمنين> بالله وحده لاشريك له.

سفار فضائية

(٢)

<وَ ما أَكْثَرُ النّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ>(١٠٤)

هذه هي الشيمة الشنيعة لأكثر الناس لأنهم لايحنون الى ايمان، حال انك <وما تسألهم عليه من أجر> فكيف لو سألتهم من اجر على أعباء الرسالة الذكرى، ولو كانوا يحبونها لكانوا يقتلون اليها ويقبلونها ولو بأجر مهما بلغ به الأمر.

قد كان رسول الهدى5 حريصاً على هداهم منذ البداية حتى اشار له الوحي الحبيب: <إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدى من يضل> (١٦:٣٧) مع العلم أنه لايُضل إلاّ من يَضل على عمد: <فلما زاعوا أزاغ الله قلوبهم> فانحصر حرصه في المؤمنين وانحسر عن الكافرين الذين أضلهم الله بما ضلوا: <لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم>. (٩: ١٢٨٠)

و علّ <لو> في آيتنا تشير الى أنه لن يحرص بعد على هدى أكثر الناس رغم حبّه هداهم، فيسلّيه الوحي الحنون: <وما اكثرالناس ولو حرصت بمؤمنين> مما يدل على أن قصص يوسف كان مما تساءلوه فيه فأجاب عن سؤالهم ولكن اكثر هم لم يعتبروا بها و <لقد كان في قصصهم عبرة الأولى الألباب. ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون> مما يدل على ان هناك فرية الإفتراء في هذه القصص كما في سوا، تعنتاً عن الايمان و تعُّنداً في الكفر بالإيمان <من يكفر بالايمان فقد حبط عمله>!

ثم <إن هو إلا ذكر للعالمين> حصر للقرآن و نبيه في كيان الذكر حيث يذكر الفطر والعقول بما له فيها كل تصديق وقبول، وتعميم لهذا الذكر المتعالى <للعالمين> ونحن نعرف منهم عالم الأنس و الجن، وليكن هناك عالم او عوالم اخرى تشملهم هذا اذكر كتكليف

عام لكى يصدق <للعالمين>: <قل لا اسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين>(٦: ٩٠) <وما ارسلناك إلاّ رحمة للعالمين> (٢١: ١٠٧) <تبارك الذى نزّل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً> (٢٥ : ١)

هذا و <إن هو إلا ذكر للعالمين> نجده في (٨٧:٣٨) و (٨١:٢٧) ثم في (٢٥:٦٨) <و ما هو الا ذكر للعالمين> رسالة عالمية بكتاب عالمي في ذكرى عالمية، لا ـ فقط ـ عالم الانس، بل <للعالمين> مجموعة عوالم التكليف، من الجنة والناس اجمعين أمن هو من العالمين؟

و هذه الأكثرية غير المؤمنة هي المعرضة عن الآيات الآفاقية كما الأنفسية فأنى لها الذكرى بعد هذه التعيمة: <وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ>(١٠٥)

و ترى تلك هي آيات في الأرض يمرون عليها حيث هم ساكنوها وعائشوها، فما هي ايات في السماء يمرون عليها و هم بعيدون عنها، وليست رؤيتها من بعد بعيون مجردة ام مسلحة مروراً عليها، وانما هي نظرة اليها؟

علّ المرور هنا تعنى فيما عنت مرورات على آيات السماء بأسفار مروراً عليها بأبصار وبصائر، و تعرُّفاً اليها بآثارها وخواصها الرائعة، ولكنهم يبصرون اليها فتعميهم،دون ان يبصروا بها فتبصرهم، وذلك هو إعراضهم عنها كآيات تدل على بارعها

فاعل <يمرُّون> هم الاكثرية الذين لايؤمنون، والآيات الأرضية أعم من الظاهرة لكل احد، والباطنية التي يستبطنها ويستنبطها أهلوها من علماء ومخترعين ومكشفين في مثلث الزمان، فتشمل المكتشفات الذرية وما فوق الذرية أمّاهيه مما هي مخبوئة في الأرض ظاهرها وباطنها. وجوّها الذى يخصّها، فكل هذه من آيات الأرض التي <يمرون عليها< كذرائع لحيوانية الحياة ورياحتها <وهم عنها> كآيات تدعلى على بارئها وبارعها <معرضون> والإعراض هنا لمحة لامعة أن هذه الآيات بطبيعة الحال لها

دلالات بارعة، ولكنهم يعرضون عن دلالاتها إلى دلالاتها والحاجيات الحيوانية التي يقصدونها منها.

ثم الآيات الحال لها دلالات بارعة، ولكنهم يعرضون عن دلالاتها إلى دلالاتها والحاجيات الحيوانية التي يقصدونها منها.

ثم الآيات السماوية لهم عليها مرورات ثلاث في مثلث الزمان، مروراً بالعيون المجردة كما كان زمن نزول القرآن وحتى ردح بعيد منن الزمن، ثم مروراً بالعيون المسلحة بالعدسيات القويهالتى تريهم أجراماً سماوية بفواصل هائله في ملايين السنين الضوئية. كما حصل منذ زمن غير بعيد.

ومن ثم مروراً بالاسفار السماوية بالصواريخ والسفن الفضائية التي حلَّقت على كرات كالقمر والزهرة اماهيه، وكما صعدت جماعة كافرة فنزلت على القمر فصَّعدت نكر انها وجود الله في قالة لبعضهم: لم نجد الله هناك فأين هو حين لايرى في أرض ولا في سماء؟

وقد تعنى آية النظر فيما تحتدى ما تعنيه آية المرور: <قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون>(١٠: ١٠١) وأقرب النظر هو الاقرب في المنظر وليس إلا في غزو الفضاء كما غزوا ولكنهم <قوم لايؤمنون> ثم المؤمنين لما يغزوا ليقضوا ما عليهم.[١]

<وَ لا تَأْكُلُوا مِمّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَ إِنّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنّ الشّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنّكُمْ لَمُشْرِكُونَ>(١٢١)

آية فريدة منقطعة النظير في سائر القرآنية تجمع بين الشرك والايمان، وترى كيف يجتمع الشرك مع الايمان ولايجتمع مع الاسلام الذي هو قبل الايمان، ولا سيما الاسلام

[١] . راجع تفسير آية الشورى <ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاة قدير> وآية الرحمن: <ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون الا بسلطان>.

الذى يوافق ولاينافق كما <قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ في قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطيعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئًا إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحيمٌ>(١٤:٤٩)؟

قد يجمع بينهما ان الايمان درجات كما الشرك دركات، فالايمان المطلق الذي لايمازجه اى شرك هو القمة العليا بأعلى عليين، وبَعده مطلق الايمان حيث يمازجه اى شرك، والشرك المطلق حيث يمازجه ايّ ايمان إلاّ الايمان المطلق، فمطلق الايمان ومطلق الشرك هما بدرجات ودركات متوسطات بين الايمان المطلق والشرك المطلق.

<أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسي أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ>(١٨٥)

و إذا لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة <أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللّهُ مِنْ شَيْءٍ> ليعرفوا أنه لا إله إلاّ هو و أن محمداً5 رسوله.

ذلك، ولأن التعرف إلى العقلية الرسالية له بابان إثنتان، التفكر في قالات الرسول و حالاته وفعالاته وكما عناها رسل المسيح رداً على الناكرين: <قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون>(١٦:٣٦) حيث وجهوهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم، ثم النظر في ملكوت السماوات والأرض حيث يوصل إلى معرفة الله، وضرورة الرسالة من الله، والرجوع إلى الله، ثم إذا تفكروا في صاحبهم وجدوه رسولاً من الله يحمل تفاصيل هذه الأصول وسائر الفروع.

ومن ثم <وَ أَنْ عَسي أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ> فليتقوا ربهم قبل فجأة الأجل <فبأى حديث بعده يؤمنون> بعد الله إلّهاً وبعد محمد5 رسول الآله، وبعد القرآن كتاب الله؟ والدلائل القاصعة قاطعة كل شك وريبة عن ساحة هذه الرسالة التوحيدية.

والحديث يعم الحادث الذات والصفات والأفعال، وحادث الذكر الذي يتحدث عنه، فالقرآن ورسول القرآن حديثان ذاتاً وذكراً، والله تعالى حديث يتحدث عنه في كافة الحقول المعرفية فإيماناً أو نكراناً، فكما أن آيات الله حديث يتحدث عنها في الإستدلال

بها على الله، كذلك الله وهو رأس كل حديث: <فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ>(٦:٤٥)

ذلك، والملكوت في حقل النظر المعرفي لها درجات أعلاها هي المختصة بالله، وهي الحيطة العلمية الحقيقية: <فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون>(٨٣:٣٦) وهي العامة لكل السالكين إلى الله على درجاتهم فدرجاتها، وهي المأمور بها هنا وفيما أشبه أن <يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ> فيهما تذرُّعاً بها إلى معرفة الله كما هنا، و أوسطها هي الخاصة بالرعيل الأعلى من السابقين والمقربين المكرمين كمحمد5 والمحمديين من عترته المعصومينΔ، ثم مَن دونهم كإبراهيم الخليل في مثل <أرنى كيف تحيى الموتى> حيث تطلَّب كيفية الإحياء وهي من ملكوت فعل الله، وقد أوتيها قدر ما يمكن لمن سوى الله على قدر المعرفة والكيان الإبراهيميين، وفي قصة رؤية الكوكب والقمر والشمس: <وَ كَذلِكَ نُرِى إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ>(٧٥:٦)

فالخلق كله بمراتبه مجال فاسح للنظر في ملكوته للحصول على معرفة الله بدرجاته، والنظر المأمور به إليه عبارة عن تحديق حديقة العقل والفطرة إليه إبصاراً إلى كيانه أزلية أم حدوثاً، ثم من الحدوث إلى المحدِث وهو الله تعالى شأنه العزيز.[1]

أجل إن كتابى التكوين والتدوين التشريع هما من كاتب واحد، يدل عليه التجاوب التام بينهما، فكما <ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ(٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ>(٤:٦٧) كذلك كتاب التدوين <أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافًا

[1] . للإطلاع الواسع على مراتب الملكوت راجع إلى تفسير آية الأنعام، وفي الدر المنثور ٣: ١٥٠ عن أبى هريرة قال قال رسول الله5 : رأيت ليلة أسرى بى فلما انتهينا إلى السماة السابعة نظرت فوقي فإذا أنا برعد و برق و صواعق قال: وأتيت على قوم بطونم كالبيوت فيها الحيات تُرى من خارج بطونهم، قلت من هؤلاء يا جبرئيل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان و أصوات فقلت ما هذا يا جبرئيل؟ قال: هذه الشياطين يخرجون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض ولو لا ذلك لرأوا العجائب.

كَثيراً>(٨٢:٤) ثم ولا نجد بين الكتابين أنفسهما إختلافاً لو أننا أجدنا النظر اعتبرنا بالعِبَر.

إن التوازن المقصود ملحوظ في خلق الرحمن حين نتفكر في ملكوت السماوات والأرض و ما خلق الله من شيءٍ، ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرّة، ولو اختل قيدَ شعرة لفسد الخلق عن بكرته، حيث ننظر بالقلب المفتوح و البصيرة المتفتحة إلى ملكوته.

ذلك، وأما الملحِدون المصلحيون الجُدد، أصحاب الإشتراكية العلمية، فهم مُسوخ مشوَّهوا الفِطَر، بل هم ناكروها عند ما يلجئون إلى تقبل أحكامها، فعند ما يصعدون إلى الفضاء و ينزلون على القمر فيشهدون مشاهد الكون الرائع أمامهم، ومشهد الكرة الأرضية معلقة في الفضاء هتفت فِطَرهم ما الذى خلقها وعلّقها في فضاءها، ولكنهم حين هبوطهم إلى الأرض أمام إرهاب الدولة، وإرهاب المصلحيات المادية، يقول أحدهم إنه لم يجد الله هناك، كاتماً إلحاح فطرته وإلماع فكرته أمام ظاهرة من ملكوت السماوات والأرض! أجل و:

<مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فى طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ>(١٨٦)

وهو لايُضل إلاّ من ضل على علم و تجاهل، فإضلاله هو إذلاله فيما هو فيه، ومدُّه في ضلاله باستدراج <فلا هادى له> إذاً <ويذرهم في طغيانهم يعمهون> وهذا هو جانب من إضلاله تعالى أنه يكلهم إلى أنفسهم دون مدّ إلى الهدى، وهم ممدودون إلى الردى جزاءً وفاقاً، فإنهم هم الذين غلقوا أبصارهم وبصائرهم، وعطلوا قلوبهم وعقولهم، فغفلوا عن ملكوت السماوات والأرض وأن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم، فيذرهم ـ إذاً ـ في طغيانهم يعمهون، و في غيِّهم يترددون.

<يَسْئَلُونَکَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْساها قُلْ إِنّما عِلْمُها عِنْدَ رَبّى لا يُجَلّيها لِوَقْتِها إِلاّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتيكُمْ إِلاّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَکَ كَأَنّکَ حَفِىّ عَنْها قُلْ إِنّما عِلْمُها عِنْدَ اللّهِ وَ لكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ>(١٨٧)

<يسألونک عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربک منتهاها> (٧٩:٤٤) <يَسْئَلُکَ النّاسُ عَنِ السّاعَةِ قُلْ إِنّما عِلْمُها عِنْدَ اللّهِ وَ ما يُدْريکَ لَعَلّ السّاعَةَ تَکُونُ قَريبًا>(٣٣:٦٣) <الساعة> في هذه الثلاث وفي الأربعين الأخرى هي من أسماء القيامة الكبرى، وأصل الساعة هو الزوال والضياع، ويقال لجزء خاص من الزمان <ساعة> لتصرُّمه وضياعه فهى ـ إذاً ـ حين تضييع الكائنات وتزول عن كينونتها الحالية، فالساعة هي منتهى الحياة الدنيا منذ قيامة الإماتة إلى قيامة الإحياء.

و <مرساها> هي ثباتها، ثباتاً لذلك الضياع والزوال، وبداية ليوم القيامة إماتةً وإحياءً.[١]

وكل هذه الآيات الثلاث والأربعين تؤكد على إختصاص علم الساعة بالله، إجابة عن كافة الأسئولة عنها:

<قل إنما علمها عند ربى> حيث ربّانى بهذه التربية القمة الرسالية، ولكنه ما علمنى إياها لاختصاصها بحضرته تعالى، وليس فقط <إنّما عِلْمُها عِنْدَ رَبّى> بل و <لايجلّيها لوقتها إلاّ هو> تجلية الإعلام عند وقوعها، وتجلية التحقيق لها، فلا حظَّ لى ـ على محتدي الرسالي العظيم والتربوي العميم ـ من هذه الثلاث، فلا علم لي بها أبداً ولا تجلية لها أبداً.

<ثقلت فى السماوات والأرض> علماً وإعلاماً وتحقيقاً، ثقلاً لاتتحمله السماوات والأرض وحتى من شاءَه الله الا يُصعَق عندها: <وَ نُفِخَ فِى الصّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السّماواتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلاّ مَنْ شاءَ>(٣٩:٦٨) و منهم هذا النبى العظيم الذى هو

---

[١] . الدر المنثور ٣: ١٥٠ ـ أخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى قال: سئل رسول الله5 عن الساعة وأنا شاهد فقال: لايعلمها إلا الله ولايجلّيها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما بين يديها من الفتن والهرج فقال رجل: وما الهرج يا رسول الله5 قال بلسان الحبشة: القتل، و ان تجف قلوب الناس و يلقى بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً ويرفع ذو الحجار ويبقى جراحة من الناس لايعرفون معروفاً ولاينكرون منكراً.

وفيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله5: تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه فلا يلوكها ولايسيغها ولايلفظها و على رجلين قد نشرا بينهما ثوباً يتبايعانه فلا يطويانه ولايتبايعانه.

أثقل من السماوات والأرض، فقد <ثقلت> الساعة عليه علماً وإعلاماً وتجليةً بكل أبعادها، وأما غير <من شاء الله> فهم فانون عند الساعة فكيف يعلمون مرساها؟

<أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَي السّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيّنّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ>(٦)

إلفات نظر عريق إلى علم الله وقدرته وحكمته، التي تسهِّل خروج الموتى:

«و نزلنا ...»

إن مياه الأرض كلها من السماء، إستقبلتها حينما ذلت بعد شماس،فاستعدّت لقبول الحياة والأحياء < وَ اللّهُ أَنْزَلَ مِنَ السّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها>(٦٥:١٦) <وَ أَنْزَلْنا مِنَ السّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنّا عَلي ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ>(١٨:٣٢) و هذا الماء النازل من السماء مبارك، وطهور: <وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً> (٤٨:٢٥) مبارك تنبت به <جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد: (أول ما طلع منسقاً بعضه على بعض) رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً (فإنه حياة كل حي: <و جعلنا من الماء كل شيء حي> (٣٠:٢١) <كذلك الخروج> فكما هناك لأرزاقكم الميتة إلى الحياة، كذلك هنا خروج للمرزوقين إلى حياة ليوفّى لهم ما كتب لهم.

و كما نبات كل شيء ميت هو بالماء، رزقاً للعباد في حياتهم الدنيا، كذلك خروج الموتى من أجدائهم أحياءً بنفس القدرة والعلم والحكمة، والخلق الثاني مثل الأول، دون عيٍّ فيه بالخلق الأول، ومشاهد إحياء الميتات النباتية رزقاً للعباد في حياتهم الدنيا، كذلك خروج الموتى من أجدائهم أحياءً بنفس القدرة والعلم والحكمة، والخلق الثانى مثل الأول، دون عيٍّ فيه بالخلق الأول و مشاهد إحياء الميتات النباتية رزقاً للعباد تشهد ـ

أفمن يحيي هذه النباتات رزقاً للعباد في حياة قصيرة هزيلة دنياً، عاجز أو بخيل أن يحيي هؤلاء العباد ليرزقهم في حياة طويلة عُليا، كلا! وإنه أحق وأحرى.

فما الطفه وأعطفه دليلاً نعيشه طول الحياة، وما أغفله من يعيش الدليل ويتغافل عن المدلول، وليس هؤلاء ـ فقط ـ هم المكذبون بالبعث و النشور، بل و :

< كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ(١٢) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ(١٣) وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعيدِ>(١٤)

أقوام ثمان من أنحس المكذبين في التاريخ الرسالى وأشرسهم، فالرسالة واحدة، والكفر أيضاً ملة واحدة، مهما اختلفت شواكله، فلا تغتم بما كذبوك، ولاتهتم بما عذَّبوك، فالسبيل إلى الله شائك ملىء بالدماء، مفروش بالأشلاء، فعليك أن تخوض المعارك بكل صبر وصمود، حتى تخلص إلى المقصود.

وإنها لفتة سريعة دون تفصيل، إيقاعاً على القلوب بمصارع الغابرين الغادرين اذ <كلٌ كذب الرسل فحق وعيد> وترى كلٌ من هؤلاء الثمان كذب كلَّ الرسل، وكما توحي به <كلٌ>؟ و لم يكذب إلا رسالة واحدة أو رسالات، دون كل الرسالات!

أجل ـ ولأن رسالة واحدة نموذج عن كافة الرسالات، تضرب بجذورها فـي أعماق الزمن الرسالى، فالرسل إخوة فـي الدعوة والمدعو له، فمن يكذب برسالة واحدة، فهو مكذب بسائر الرسالات جاهلاً أو متجاهلاً: <وقوم نوح لما كذبوا الرسال أغرقناهم> (٣٧:٢٥) و ما كذبوا إلا نوحاً إذ لم يكن معهم غيره! <وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ> (٥٩:١١) وإنما هم قوم هود!

كما و <كذبت ثمود المرسلين> و ما هو إلا صالح! و <كذب قوم لوط المرسلين> وعلّه ـ فقط ـ لوط ـ أو وإبراهيمΔ و <كذب أصحاب الأيكة المرسلين> (١٧٦:٢٥)

والمجهولون هنا منهم أصحاب الرَّس والأيكة وقوم تبَّع، وهم معروفون في مواردها من آياتها.[1]

[1] . فأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب يأتى ذكرهم في سورة الحجر والشعراء و ص قوم تبع في الدخان وأصحاب الرس في الفرقان.

سلام الإذاعة والاستذاعة الصوتية والصورية

<أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ>(٣٨)

هذه الآية تدلنا على إمكانية استماع الوحي عبر السلاليم، فضلاً عن استماع الأصوات البشرية البعيدة في سلاليم، فما هي الصلة بين السّلم وبين الإستماع فيه؟ والمعروف للسلم هو الصعود به إلى السطوح، أو الاستماع عليه، وأما التحدث به، و أما الإستماع فيه، فلم يك معروفاً مسبقاً، حتى كشف العلم بعد جهود طائلة عن إمكانية الإذاعة والاستذاعة عبر سلاليم خاصة، و كما هي الآن في دور الاذاعات الراديوئية والتلفزيونية.

نقول: هذه الآية تحمل ملاحم غيبية، كشف العلم عن بعضها اليوم، وهو الإسماع والإستماع عبر الأثير بواسطة سلاليم خاصة، وعله مما دفع مخترعي الإذاعات للكشف عنها قد وفِّقوا لحد ما.

ومهما يتوصل الإنسان إلى اختراع سلاليم يستمع فيها، الآخذة للأصوات، وإلى سلاليم يُسمع ويذاع بها، المرسِلة للأصوات، فهو لن يتوصل إلى سلاليم الوحي الرسالى، النورانية الروحانية، فإنها بيد الله، يختص بها من يشاء، ولا إلى سلاليم الوحي غير الرسالية، وان كان الجن المؤمنون ـ و قبل الوحي الأخير ـ كان لهم مقاعد للسمع، ولكن <فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا>(٩) فلو كان استماع الوحي غير الرسالي من الملأعلى، بإمكان الإنسان قبل الآن ـ ان الرسالة المحمدية ـ فليس هو بالامكان بعد هذا الآن وإلى انقراض هذا الزمان.

وهذه الآية تصريحة التبكيت بناكري وحى القرآن، واشارة التأكيد بامكانية اصطناع سلاليم تستمع فيها أصوات بشرية أم ماذا، دون تحميل ولا تأويل، رغم من يفسرون <فى> هنا بـ <على> علَّهم يوجهون الآية إلى وجه مقبول، حيث السلم للإستماع يرقى

عليه حتى يستمع من عل، لافيه.

وعلهم اصطبروا حتى يأتى تفسير الآية علمياً وواقعياً كما أتى بسلاليم الإذاعة والإستذاعة، فالقرآن بنفسه وجيه لايحتاج إلى توجيه العقول والعلوم إلى حقائقه الرقائق <وان للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن> متشابهات علمية كهذه أو عقلية كسواها، أم ماذا.[1]

في الآية السلم ـ وبعد تطور العلم ـ من دلالة واضحة: ان القرآن ليس إلا من وحي الرحمان، اذ لم يخطر بخلد أحد، قبل اربعة عشر قرناً، ان من السلاليم ما يستمع فيه ويسمع به، كما ان منها ما يرقى به الى السطوح.

... فاذ ليس عندهم خزائن الله، فهم بحاجة الى استماع الوحي، فهل لهم سلم يستذيعوا ويسمعوا فيه الوحي؟ <فليأت مستمعهم بسلطان مبين> فان سلطان الوحي مبين، يظهر انه من الله، فهل عندهم هكذا وحي كوحى القرآن؟ الذى يملك كل سلطان على أنه من عند الله!

ومن ثم يناقش البعض من تقوّلاتهم التافهة على الله، اذ يفضلون عليه انفسهم فيما يفترون:

<أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ>(٣٩)

فرغهم انهم كانوا يعتبرون البنات ادنى من البنين، بل ولا اعتبار لهن عندهم في شيءٍ فهم ينسبون الى الملائكة أنهم اناث: <أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثًا> (١٧:٤٠) في حين لهم بنون ونبات : <وَ يَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ>(١٦:٥٧) فهذه اهانة فوق اهانة: ان لله ولداً ـ اياً كان ـ وانه يصطفي

[1] . اننى اذكر اول لقاء برئيس الإشراف الدينى بالمسجد الحرام وزير القضاء، سماحة الشيخ عبدالله بن حميد بمكة المكرمة انه سالنى عن شغلي، فقلت له انا مشتغل بالقرآن، قال: تعني تفسيره؟ قلت: نعم ـ قال وعندك جديد من ملاحم غيبه ـ قلت وكله جديد، وما اذكر هل هو قرء اية السلم ام أنا، ففسرتها كما في المتن، فطلب منى تكراره واعجب به قائلاً: والله لهي اشرف وافضل جلسة اجلسها طول حياتي العلمية مستفيداً، اشكرك يا سماحة الشيخ، فقدم لي عدداً كثيراً من مختلف الكتب.

عباده بالبنين، ويصطفى لنفسه بنات، كما وان آخرين <وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنـاتٍ بِغَيْـرِ عِلْمٍ>(٦:١٠٠) وان الجن هم البنون <وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنّةِ نَسَبًا> (٣٧:١٥٨) مهما كان هذا أهون من ذاك، واقل مهانة.

ومن ثم وبعد أن خفت وطأة الأعذار في الربوبية والرسالة، او زالت، هل هناك ثقل آخر يثقلهم عن تصديق الرسول كسؤال الاجر؟

<أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ>(٤٠)

الغرم ما ينوب الانسان في مالِه او مالَه، من ضرر لغير جناية منه او خيانة، والمغرم مصدر ميمى تعنى الغرم نفسه.

فطالما لم يكن هناك غرم فطري ولافكري ولاعقلـي يثقلـهم عـن تصـديقك، فهـل هنالك غرم مادي لأنك تسألهم أجر الرسالة، فهو يثقلهم فيثاقلوا عنك؟! كـلا: <قُـلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرِي لِلْعالَمِينَ>(٦:٩٠) فـ <اتّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ>(٣٦:٢١) اذ لا عائق معنوياً، ولا مادياً، فما لكم لاتؤمنون!

ولئن سئلنا: <قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاّ الْمَوَدّةَ فِي الْقُرْبى>(٤٢:٢٣) وقد يكلف جلب المودة في قربى الانسان أموالاً طائلة؟ فالجواب: أنه ليس في الواقع أجراً يرجـع لصالح المأجور إن أتى بلفظ الأجر، فانه يرجع لصالح المسـئول دون السـائل: <قُـلْ مـا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلَي اللّهِ> (٣٤:٤٧) فان المودة في القربى مـن السبل الى الله: <قُـلْ مـا أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِـنْ أَجْـرٍ إِلاّ مَـنْ شـاءَ أَنْ يَتّخِـذَ إِلى رَبِّـهِ سَبِيلاً>(٢٥:٥٧) فهؤلاء القربى الذين جعلت مودتهم كانها أجر الرسالة يقربونهم الى الله زلفى، فمودتهم مودة للرسول ومودة لله، وهم استمرارية للرسالة الإسلامية لأنهم السبل الى الله كخلفاء للرسول5، فليس الرسول ممن يدخل مودة قرباه في مصالح رسالته لحـد الأجر لأنهم قرباه، وانما لانهم يمثلونه في رسالته، فمن شاء أن يتخذ الى ربه سبيلاً هي استمراريه السبيل المحمدية الى الله، فالرسول 5 يسألهم المودة في قربـاه فحسـب، لهـذه الغاية الراجعة لصالح المسلمين.

ان هذا الأجر ـ بخلاف الأجور المادية المثقلة المغرمة ـ انه يخفف الوطئة عمن يتخذ الى ربه سبيلاً، ويسهل له الوصول الى درب الحقيقة و مدينة العلم، وكما تواتر عن الرسول5: <أنا مدينة العلم و علي بابها>.

ومن ثم فهل لهم مرجع يرجعون اليه ـ الى الله ـ من غير الرسول؟

<أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ>(٤١)

وليس الغيب كله إلا عند الله <لايظهر على غيبه أحداً> <إلا من ارتضاه من رسول>: <عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلي غَيْبِهِ أَحَدًا(٢٦) إِلاّ مَنِ ارْتَضي مِنْ رَسُولٍ فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا>(٢٧:٧٢) فمن ذا الذي يدعي أن عنده غيب الله كما عند الله، أو أنه ممن ارتضاه الله يظهره الله على غيبه، فليأت بسلطان مبين؟

أو ليس هذا ولا ذاك، فلاحق ولاحقيقة لديهم هنا و لاهناك، وانما:

<أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالّذينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكيدُونَ>(٤٢)

<وَ لا يَحيقُ الْمَكْرُ السّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ> (٤٢:٣٥) فالذي يمكر الله ورسل الله وأهل الله، إنما يمكر بنفسه <وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون>(١٢٣:٦) <وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ>(٤٦:١٤)

فالكافر مكيد بكيده نفسه، ويكيده الله بما كاد <وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللّهُ وَ اللّهُ خَيْرُ الْماكِرينَ>(٣٠:٨) فهما كان مكرهم عن عجز و طغيان، فمكر الله ليس إلا جزاءً وفاقاً، فمكره خير وإلى خير، بخلاف مكرهم.

<أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ>(٤٣)

فهم عندما يعملون هذه الأعمال الماكرة الكافرة، وبعد ما ثبت لهم أن الله هو الحق المبين، فعلى مَ يعتمدون، ام لهم إله غير الله يتولّونه فيرد عنهم عذاب الله؟ <أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنّا يُصْحَبُونَ>(٤٣:٢١)؟ فـ <سبحان الله عما يشركون> وكما تسبحه الفطرة والكون كله يسبحه عن أى ند أو شريك.

ولقد وصلت عما يتهم عن الحق،وغوايتهم لحد يعتبرون كسف العذاب سحاباً.

معراج الرسول5 في غزّ وفضائى عميق:

أسئلة مطروحة حول:

الغزوة المعراجية المحمدية ومركبتها العجيبة، الرحلة الفضائية في نطاق العلم:

في عمق الزمان والمكان:

<سُبْحانَ الّذى أَسْري بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَي الّذى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنّهُ هُوَ السّميعُ الْبَصيرُ>(١)

ترى هل كانت الإسراء بالروح القدسية المحمدية دون جسم؟ كما تقوّلها بعض! أو جسمياً دون روح؟ كما تخرصها آخرون! أو بكليهما كما يقول الله: <سُبْحانَ الّذى أَسْري بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَي الّذى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنّهُ هُوَ السّميعُ الْبَصيرُ>(١) في الاسراء، و <ما زاغ البصر> و <فَأَوْحي إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحي>(١٠) كما هنا في النجم، فيأترى إن الرسول5 صاحبَنا ببعضه؟ أم بروحه وجسمه؟ أو أن <عبده> هو روحه فقط او جسمه؟ ولماذا لم يقل: بروح عبده! او جسمه؟ وانما<بعبده> الشامل كليهما، او ان البصر المنفى عنه الزيغ والطغيان في السدرة، هو بصر الروح؟ وليس إلا بصيرة! او بصر الجسم بلا روح؟ وهو ميت لايبصر! ام كيف راى ربه بنور اليقين عند السدرة التي عندها الجنة المأوى، بجسم بلا روح، او روح بلا جسم! وهي دوماً في سدرة العرفة وقد رأى هناك من آيات ربه الكبرى ببصره وهو في جسمه كما رآه هو ببصيرته وهي قلبه، فانما المعراج.

فما يروى عن عائشة: <ما فقدت جسد رسول الله5 ولكن الله اسري بروحه>[١] يعارض هذه الآيات من عدة جهات، وأنه5 بنى بها بعد الهجرة بزمان، وكان الإسراء

[١] . الدر المنثور: أخرجه ابن اسحاق و ابن جرير عن عائشة قالت:...

بمكة قبل الهجرة بزمان من المسجد الحرام،... كلا لاذا ولاذاك، وانما عرج النبي بكلِّه، وكما كان في الأرض، أُسري به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، ثم عرج به من الأقصى الى اقصى السماوات والى سدرة المنتهى وما فوقها! لو لم تقصد من الأقصى نفسها.[١]

وعلى ما يروى لم يشغل المعراج ذهاباً واياباً ووقفة هناك إلا زهاء ثلث الليل ولنفرضه اربع ساعات، فأين البليارات من السنين الضوئية لاجتياز قطر السماوات، وأَين اربع ساعات، فهل إن العلم يتحمل تصوره فضلاً عن تصديقه؟!

اقول: المعراج، حسب المستفاد من آيات الإسراء والنجم في وجه[٢]، له رحلتان: الرحلة الأرضية، والرحلة الفضائية في العمق، فالأولى هي سري النبي5 من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى، والثانية عروجه من المسجد الأقصى الى اقصى الآفاق، وكما يوحي بهما ايضاً <نُبوئت هَيِّلد> في النص الأنقولسى: <وأريل كشها> <... إن محمداً سوف يذهب ويطير> فذها به سريه، وطيرانه عروجه.

ثم لاريب أن الرحلة الفضائية المعراجية بقدماتها وخلفياتها، إنها من المعجزات، و رغم عجز العلم عن تحقيق عملية الإعجاز وعن تفهمها ايضاً، فمن الثابت أن المعجزة لاتنافي العلم، فقد يفسرها العلم، وقد يعجز عن تفسيرها، إلا أنه لايحيلها، فإن الآية المعجزة ليست لتخرق وتبطل القوانين الكونية ـ ما وصل العلم اليها وما لم يصل ـ وإنما تخترق ـ مطلة عليها ـ اسبابَها الخفيَّة، و مدى تأثيراتها، وزمن الحصول على مفعولاتها،

---

[١] . بحارالانوار ج ١٨ الطبعة الحديثة ص ٣٣٩ من الاحتجاج للطبرسي عن عليΔ قال: <لقد اسرى برسول الله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى في أقل من ثلث ليلة> اقول: لا يعني انه وقت المعراج الأرضى فحسب، وانما المدة التي شغلته حتى رجع الى مكة، وقد يعني من المسجد الاقصى ـ وهو أقصى المساجد وأبعدها الى المسجد الحرام ـ قد يعني المسجد الذي هو في سدرة المنتهى، فليس الذى في القدس هو الأقصى وانما مسجد الكوفة، وان سمي أقصى فعلَّها لكونه مواجهاً للأقصى الذى في السدرة.

[٢] . أن يكون المسجد الأقصى هو الذى في القدس.

لحد يعجز عنها من سوى الله، إلا من يجريها الله على يديه او لسانه ام ماذا.. كآية تدل على انه رسول من الله.

فالآية المعجزة ليست بلا أسباب، او بما تقصر عن التسبب، وانما باسباب خفيه عن العلم، او ظاهرة له بعيدة عن القدرة غير الإلهية، او أنها بارادة مسبب الأسباب، دون أسباب تعودناها، فليس اذاً بامكاننا تحليل عواملها، مهما تمكننا من تحليل كيفية وقوعها، او إمكانيتها علمياً، وقد لانتمكن من الحصول على الإمكانية العلمية، ولكنه ليس ليدل على عدم الإمكانية الواقعية او العقلية.

لقد كانت الهيئة البطليموسية تحيل المعراج الجسمانى لاستلزامه الخرق والإلتيام، اذ كانت تعتبر الأرض مركزاً للكون، والفضاء الخارجى أفلاكاً زجاجية مركبة من طبقات تسع، سبعة منها مدارات خاصة للسيارات السبع التي تنزلق داخلها كما تنزلق الكرة على صفحة الزجاج، واما الفلك الثامن فكان مسرحاً للنجوم الثوابت، بينما كان الفلك التاسع خالياً عن النجوم.

فبحساب هذه الهيئة، تكون الأفلاك التسعة على الشكلية البصلية كالزجاج: لا تقبل الخرق و الإلتيام.

ولقد نُسفت هذه الهيئة بأسطوراتها منذ زمن بعيد، بالناسفات القرآنية والعلمية معاً، ثم خلفتها بعض النظريات في غزو الفضاء، اذ ما كانت تعرف سرعة اكثر من مأة كيلومتراً في الساعة، و غزو الفضاء يتطلب ـ لأقل حدوده ـ١١ ك . م في الثانية، حتى نسفها اختراع الأغلفة المختلفة التي يحافظ على طائرات وصواريخ تسير بسرعة٢١ ك . م في الثانية.

ثم بقيت هناك في السرعة المعراجية مشاكل دون تصديقها علمياً، كمشكلة السرعة والحرارة، فالسرعة ـ ولاسيما الخارقة المعراجية ـ تخلق حرارة تناسبها، لحد تصبح المركبة كأنها الحرارة نفسها، وفي القمة التي لايبقى أي عنصر كنفسه، وكذلك تصطدم بالشهب والنيازك النارية، وبنيازك الهواء نفسها، فالمركبة المعراجية إضافة إلى تبدلها

بحرارة فوق التصور، تُقصف ببلايارات من قاذف النيازك الشهابية، والهوائية، مما تقلل عن حركتها وتعرقل دون سرعتها وتفجرها في طريقها، فهذه من ناحية.

ومن جهة أخرى، فإن النظرية النسبية لأنيشتين تفيد: أن أقصى سرعة ممكنة في الكون هي سرعة الضوء: ٣٠٠٠٠٠ ك . م في الثانية[١] و يبرهن هو وغيره على ذلك ببراهين علمية: أن أي جسم لايستطيع أن يبلغ في سرعته سرعة الضوء، إلا أن يتبدل ضوءً.[٢]

فلنفرض ان جسم النبي في السرعة المعراجية أصبح ضوءً، إلا أن اربع ساعات: التي قدّرت للسفرة المعراجية، لاتكفي إلا لإجتياز ـ ٧٣٢٠٠٠٠٠٠ ك . م التي لاتوصله الى آخر الكواكب من المنظومة الأدني: (الشمسية) للمجرة الأدنى، وهو (بلوتون) حيث تفصل عن الأرض ساعات ضوئية، في حين أن قطر البعض من ملامين المجرات في السماء الأولى ـ فقط ـ ملايين من السنين الضوئية!، و بعض نجومها تبعد عنا أكثر من مأتي ألف مليون سنة ضوئية! فقطر السماء الاولى ـ سماء الانجم ـ بليارات بليارات من السنين الضوئية، فكيف بالسماوات الست الأخرى!

إلا أن النظرية الضوئية ما لبثت كثيراً إلا وقد نسفت، اولاً: بما ياتي من إمكانية تحقق هذه السرعة وأكثر دون تبدل بالضوء، على ضوء تقدم الطاقات في المركبات الفضائية،

---

[١] . يقول انيشتين: <ان كتلة تصور مجموعة من الأجسام يمكن ان يعتبر دليلا على مقدار طاقتها،وعلى ذلك يصبح قانون بقاء كتلة مجموعة ما مطابقاً لقانون بقاء الطاقة للمجموعة نفسها> (النظرية النسبية الخاصة والعامة لألبرت انيشتين ـ ترجمة دكتور رمسيس شحاته ص ٤٨).

و يقول: <ان طاقة الحركة هو لنقطة مادية تتحرك لم يحددها المقدار المعروف ك ع ٧/٧ بل يعبر عنها بالتعبير ك ح ٣/ع ٣/ ح ٢ و هذا المقدار يقترب مما لانهاية له كلما اقتربت السرعة ـ ع ـ من سرعة الضوء ـ ح ـ و على ذلك يجب انتقال السرعة دائماً أقل من ـ ح ـ مهما كبرت العجلة>.

(المصدر ص ٤٦) النتيجة ان: اى جسم مادي لايمكن ان يساوى في سرعته سرعة الضوء.

[٢] . يقول لينكلن بارنت <ان اى جسم يبدو انه يفقد طوله كلما اقتربت سرعته من سرعة الضوء فانه يفقد طوله بمقدرا ٩٠٪ ثم يزداد النقص بشكل أسرع حتى اذا وصل الجسم الى سرعة الضوء فانه لن يبق له جسم طولى بتاتاً.

كما يقول بعض العلماء و إن الفواصل بين النجوم ليس فيها الهواء او تقل، فانها خلأٌ لاتمانع وتعرقل السير هناك، فلا تخلق حرارة زائده كذلك.

وثانياً بأمواج الجاذبية، إذ يعتقد بعض العلماء أن باستطاعة امواج الجاذبيـة أن تقطـع المسافات من دون أن تستغرق أى وقت من الزمان.

يقول <كيوركيو>: بإمكان أمواج الجاذبية قطع المسافات التي تقاس بـآلاف الملايـين من السنين الضوئية في لحظة واحدة، فلو أن مجرة في آخر الكون تبدلت إلى أمواج، فـان الجاذبيات المتعادلة في الكون تغير من مواقفها فوراً، وهكذا يكون رد الفعل للجاذبية بـلا زمان، ولو أن رد الفعل الجاذبى كان يحتاج في قطع المسافات الى الزمـان، لكانـت نتيجـة تبدل المجرّة ـ السابقة الذكر ـ إلى أمواج يؤدي إلى تفجر كافة المجرات ايضاً، والتبـدل الى امواج، وذلك بفعل المصادمات العنيفة التي تقع في الكون بين المجرات.[1]

فهذه السرعة ـ اذاً ـ تنسف السرعة القصـوى الضـوئية، واذا كانـت امـواج الجاذبيـة تتحمل هذه السرعة دون زمان، فهل الجاذبية المحمدية ـ و ف ي معجزة إلٰهية ـــ لاتتحمـل سرعة أقل منها، أن يتم معراجه مرجّعاً في أربع ساعات؟!

ومع الغض عن ذلك أيضاً، لنفرض أن سير المعراج يتطلب أشهراً، أن يتباطـأ النبـــي فـي سيره أقل من الجاذبية بكثير، حتى يتطلب زماناً طويلاً، إلاّ أن الثابت قرآنياً، ومن ثم علميّاً لحدٍ مّا: أن الزمان خارج منظومتنا يختلف تماماً عن زماننا، فقـد يكـون شـهر مـن الزمان نقضيه خارج المنظومة، لايساوى إلا ثانية بالنسبة لتوقيت أرضنا، وذلك لاختلاف الأوضاع والقوانين في مختلف المنظومات والمجرات، كما وأن لكلّ من كرات منظومتنا أيضاً قوانين خاصة.

إذاً فمشكلة السرعة والزمان، وهما أمُّ المشاكل في هذه الرحلة الفضائية، إنهما نسـفتا بأيدى العلم، فضلاً عن مشاكل أُخرى هي دونها فأكثر نسفاً!

---

[1] . محمد نبى يجب معرفته من جديد، ويعتقد العلماء ان سرعة الابتعاد تناسب طرديّاً مع مقدار بعـدها عنا، فكلما كانت المجرة أبعد كانت سرعة ابتعادها أكثر.

مشكلة الحرارة:

اختلاف درجات الحرارة في مختلف طبقات الجوّ، إضافة إلى حرارة فوق التصور تخلّفها السرعة المعراجية[١] بين الضوء و الجاذبية، إنها تشكل خطراً على حياة صاحب المعراج، لافحسب، بل فليتحول طاقة بين النور والجاذبية حتى يتمكن من هذه السرعة الفضائية.

وأوّل ما يخمد هذه الحرارة الخارقة هو القدرة الإلّهية التي تجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، إضافة إلى أن محمداً 5 ركب مركبة مغلفة فيها كل المعدات لتلك السفرة العجيبة ـ علّه: البراق، على حدّ ما سماها، وقد تدل أوصافها المروية على هذه الإعدادات، التي لاتتيسَّر لمن سوى الله، ولأنها معجزة الله وكما أشرنا مسبقاً: أن أهم ما يزيد في درجة حرارة المركبة هو الإصطدام بالفضاء، فوجود الخلأ في مسيرها بإرادة الله، يزيل مشكلة الحرارة، وكما يزيل مشكلة السرعة الخارقة التي تتطلبها الرحلة المعراجية، فعلى فرض الخلأ في مسيرها، وأنها تنجذب بجذبة القدرة الإلّهية، ومعدَّة بجهازات مكافحة، تَنسف كافة العراقيل العشر، المتصورة، دون الرحلة المعراجية.

إن المسير الخلأ يساعد بآلاف الأضعاف على سرعة المركبة، والحفاظ على موقعها الحراري، وهذا الخلأ موجود فعلاً بين الكواكب، وكما يقول بعض العلماء <بأن المركبات الجوية وصواريخها سوف تتمكن أن تسرع زهاء سرعة النور وما فوقها، لحدّ نتمكن أن نجول عمق الفضاء الشاسعة>...[٢]

---

[١] . فإن السرعة من أهم العوامل لايجاد الحرارة، لحد تجعل من لجسم أبسط الذرات (ئيدروجين) لكى تتحمل الحرارة الزائدة.

[٢] . ماذا أعلم ـ تأليف jean palandini ص ١٣١: يقول: وان المفكر الاخصائى الشهير الالمانى (دكتور اوجن سانكر) هكذا يتنبأ، ان مكانيك الطيران لصواريخ(يونى) او (فوتونى) مما يشهد لتغيير مفهوم المسافة والزمان والفضاء والسرعة.

ثم يستمر المؤلف قائلا: ان نظرية النسبية بالنسبة للصواريخ التي سوف تخرق الجو بسرعة الضوء او ما فوق الضوء، انها تجعلنا نفكر في تسخير عوالم جدد، فبموجب هذه النظرية نتأكد اننا سوف نجتاز ←

فإذ يتمكن الإنسان الضعيف الضعيف أن يصنع مركبات هكذا، فماذا تظن بخالق الإنسان القو القوى!

ولابأس هنا باستغراق بقية المشاكل العشر بصووة وجيزة كالتالى:

مشكلة الجاذبية:

هذه المشكلة إنما هي بالنسبة لما يسرع أقل من ثمانية ك . م في الثانية: سرعة دوران الأرض حول محورها، وإذ تتخطا المركبات البشرية هذه المشكلة، بما تسرع أكثر من ٨ ك، م ـ فماذا على المركبة الإلهية التي تسرع كأمواج الجاذبية أو دونها؟ إضافة إلى جاذب آخر بين صاحب المعراج وربه سبحانه وتعالى.

كما و أن مشاكل: انعدام الوزن[١] و تخطي الغلاف الجوى[٢] والتخلص من الشهب[٣] وانعدام الأوكسيجين[٤] والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية[٥] والأشعة الكونية[١] ـ هذه

←
مسافات بعيدة هي بالقياس الى أرضنا لانهاية: بأن نعّد الصاروخ بقدر خاص من المواد المحترقة المحركة، المناسبة للصاروخ، فنصل الى حدود الكون.

[١] . حيث الوزن هنا ليس الا نتيجة الجاذبية الأرضية، فالبعد الكثير عنها يفقد الوزن، ولكن المركبة المعراجية تحل هذه المشكلة واحرى مما حلتها (ابولو) وغيرها.

[٢] . يتشكل الغلاف الجوى من خليط من الغازات المحيطة بالارض، ويحدث فيه خلط مستمر للهواء نتيجة التيارات الصاعدة والهابطة، و يتمدد غلاف الارض فيما وراء ٥ و ٦ ك . م، ويعتبر هذا الغلاف الجوي للأرض المركب من عدة عناصر، بمنزلد مظلة واقية للأض من الشهب و النيازك النارية وسواهما، كما انه من موانع الرحلات الفضائية، لانه يؤدي الى الاحتراق لو لم تكن سرعة المركبة متوازية مكافحة، ولكن مركبة المعراج، فيها كافة المعدات والمكافحات!

[٣] . وكما تكافح هذه المركبة بصلابة غلافها الشهب وما فوقها.

[٤] . والاوكسيجين الضرورى لصاحب المركبة موفرة في داخلها، وحينما يخرج صاحب المعراج فليس من الصعب ان يختصه الله بما يبقى حياته خارجاً عن المركبة، كما وان المركبة ليست ضرورية لهذه وتلك كما قدمناه.

[٥] . وأما الأشعة فوق البنفسجية وهي الاجزاء غير المرئية من أشعة الشمس، البالغة الخطورة، وكذلك الاشعة السينية (X) النابعة من الشمس أيضاً، هاتان الأشعتان مهما كانت أخطارهما، فليستا شيئاً بجنب المركبة المعراجية، بعد أن تكافحهما المراكب الفضائية البشرية.

المشاكل كلها تندحرو تنسف، بعد ما عرفنا المركبة المعراجية وراكبها، وجاذبها، وحركتها، وفوق كل ذلك القدرة اللانهائية الإلآهية.

ومن ثم ننظر هل إن المركبة المعراجية هي الجذبة الإلآهية، دون أية وسائط؟ كما قد توحي بها آية الإسراء: <أسرى بعبدة> و آيات النجم خلوٌ عن التلميح بأيّة مركبة تحمله، وإن لم تعارض ما يدل على مركبة أُخرى.

أو أنه جبرئيل أو ميكائيل وإسرافيل[٢] لحدٍ ما، إلى سدره المنتهى، ثم منها إلى ما فوقها لم تكن إلاّ جذبة واصبة إلآهية، كما لم يكن بينه وبين الله أحد حتى نفسه في مقام التدلّي؟

أو أنه أموج الجاذبية بما قدر الله كما قد يشير اليها الحديثان: <فأتى بالمعراج... فعرج به إلى السماوات سماءً سماءً>[٣] <فوضع له مرقاة من ذهب ومرقاة من فضة وهو المعراج حتى عرج جبرئيل والنبى5 إلى السماء>[٤] فلعل المرقاة الذهبية والفضية هي أمواج الجاذبية أو باب المعراج السماوى: <وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ بابًا مِنَ السّماءِ فَظَلّوا فيهِ يَعْرُجُونَ>(١٤:١٥) الباب التي عرج فيها الرسول5 بالجاذبية التي عرج بها ومعه جبرئيل، فهي مرقاة جبرئيل وأمثاله من عارجي السماء دوماً، لاتفتح لغيرهم من العارجين.

←

[١] . وهي لم تعرف مصدرها، وتكافح في أخطارها بما كافحتها المركبة المعراجية فكل هذه المشاكل الست تنحل بعد ما عرفنا مركبة المعراج وراكبها وجاذبها ومدى سيرها ـ والله أعلم.

[٢] . نورالثقلين ٣: ٩٨ ـ ح ٦ ـ احتجاج الطبرسى عن ابن عباس عنه5: وحملت على جناح جبرئيل.. و فيه عن الصادقΔ ان جبرئيل احتمل رسول الله5 حتى أتى به الى مكان من السماء.. في تفسير العياشى عن أبى عبداللهΔ لما أسرى بالنبى5 أتى بالبراق ومعه جبرئيل و ميكائيل و اسرافيل.. وفي تفسير القمي عنهΔ جاء جبرئيل وميكائيل واسرافيل بالبراق الى رسول الله5.. اقول: والأحاديث في حمل جبرائيل إياه أكثر.

[٣] . الدرالمنثور٤: ١٥٦ ـ أخرجه ابن سعد و ابن عساكر عن الواقدي عن أبى بكر بن عبدالله بن أبي سبرة وغيره من رجاله عن رسول الله5...

[٤] . الدرالمنثور ٤: ١٤ عنه5 <ثم أوتيت بدابة... فحملت عليه فانطلق بى حتى أتى بي السماء..> وفي تفسير البرهان٢ : ٤٠٢ عن الصادقΔ عنه5 فلما صرت عليه(البراق) صعدت الى السماء.. ورئيت الجنة.

أو أنه <البراق> في الرحلة الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم بغيرها إلى السماوات[١] أو أنه الحامل في رحلتيه[٢] الى موقف جبرئيل في السماء، ثم عرج الرسول وحده بما عرج.

ثم ترى ما هي مواصفات البراق، الذى تحمله عشرات الأحاديث؟ ولكي ننسف بها مشاكل المعراج نفسة أخرى:

(براق) اسم لم نعهده لأى حيوان أو أية مركبة من صنع الإنسان؟ مما يلمح أنه مركبة سماوية ومن صنع السماء، و <قد أتى بها جبرئيل من السماء>[٣] <خلقت لأجله5 ولها في جنة عدن ألف سنة>.[٤]

كما ويشير أنه من البرق، تدليلاً على كونه في لمعانه و سرعته كالرعد والبرق.

ومن مواصفاتها التي تقربها إلى أمواج الجاذبية أنه : <أضاءَ له 5 كما تضىءالشمس>[٥] فكان <لها شعاع كشعاع الشمس>[٦] و <لو أن الله تعالى أذن لجالت الدنيا والآخرة فى جرية واحدة>[٧] أو <كلمح البصر>[٨] كإمكانية السرعة القصوى لهذه المركبة المعراجية، وإن <كانت خطاه بمدّ بصره>[٩] فإذا كان مدّ بصر الانسان بالعيون العادية وهو الأنجم التي ترى في السماء الدنيا، آلافاً من السنين الضوئية، فما هو إذاً مد بصر هذه المركبة العجيبة، التي

---

[١] . كالجاذبية الإلهية والمحمدية بما هيأه الله لها أم ماذا؟

[٢] . الدر المنثور ۴: ۱۴۰ عنه5 <ثم أوتيت بدابة... فحملت عليه فانطلق بي حتى أتى بي السماء..>، وفي تفسير البرهان ۲: ۴۰۲ عن الصادقΔ فلما صرت عليه (البراق) صعدت الى السماء... ورؤيت الجنة.

[٣] . الدرالمنثور ۴: ۱۴۰ عنه5: <فأ دنى جبرئيل بدابّة بيضاء...>.

[٤] . تفسير البرهان ج ۴: ۴۰۵ عنه5.

[٥] . الدر المنثور ۴: ۱۵۷ عنه 5...

[٦] . تفسير البرهان ۲ : ۴۰۳ ـ ابن الفارسى عنه5..

[٧] . تفسير البرهان ۲: ۴۰۴ في صحيفة الرضاΔ قال رسول الله5...

[٨] . في ۴۰۵ البرسى عن ابن عباس عنه5 سأل جبرئيل ما سير هذه الدابة فقال: إن شئت أن تجوز بها السماوات السبع والأرضين السبع فتقطع سبعين الف عام وسبعين الف مدة كلمح البصر.

[٩] . روضة الكافى عن الباقرΔ خطاه مد بصره ـ وفي ذلك روايات كثيرة.

كان <له عينان في أسفلها>[١] <يمكن رؤية الأرض منهما واضحة جلية>.[٢]

كما وأنها كانت مزدودة بآليات موجيَّة وضوئية مختلفة الألوان والكيان: إذ <كان فيها أربعون نوعاً من النور>[٣] <وكانت مزمومة بسبعين ألف زمام>[٤]: علّها الأزمّة الموجية والضوئية أم ماذا! دون الأزمة الأخرى التي تزم بها الحيوان! فإن <حجمها كان بين حجم البغل والحمار> فلو أن براق كان حيواناً، فليكن سبعين ألف ضعف حيوان، يحتاج إلى زمان واحد؟

ثم هو <محمل له ألف ألف لون من نور>[٥] و <عليه ألف ألف محفة من نور>.[٦]

و <كانت له مثل وكر الطير>[٧] مما يشير إلى أن النبي دخل فيها ولم يركب عليها، فـ <ركبها> في جملة من أحاديثنا تقر بالدخول فيها، وهكذا يجب أن تكون المركبة المعراجية، محفظة تحافظ على صاحبها من عرقلات واصطدامات هذه السرعة الخارقة الجوية، ومع مليون محظفة من نور!.

وقد تكون المحظات النورية في هذا المحمل هي المعدات الموجية أو الضوئية أم ماذا؟ التي تحافظ على غلافه الخارجي، وتسرع المركبة ـ علَّها ـ ملايين أضعاف سرعة الضوء أم ماذا؟ ففي ساعة واحدة أرضية تسير هذه المركبة ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٨٠ر١ كيلومتراً وإذا كانت الساعة السماوية آلاف أضعاف الساعة الأرضية، فلتكن المسافة التي اجتازتها المركبة لساعة واحدة واحدة أرضية آلاف أضعاف هذا العدد الهائل أم ماذا؟

---

[١] . تفسير البرهان ٢ :٤٠٠ عن العياشي عن الباقرΔ.

[٢] . البحار ج ١٨ ص ٣٥٧ نقلاً عن علل الشرائع.

[٣] . البحار ج ١٨ ص ٣٥٥.

[٤] . البحار ج ١٨ ص ٣٧٨ نقلا عن كتاب الخرائج و عن روضة الكافي عن الباقرΔ.

[٥] . العياشي عن عبدالصمد بن شيبة قال ذكر عند ابي عبداللهΔ بدو الاذان ـ الى أن قال في قصة المعراج ـ : ثم وضع في محمل له الف الف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى الى أبوب السماء..

[٦] . العياشي عن عبدالصمد... سمعت أبا عبداللهΔ يقول جاء جبرئيل رسول الله بالبراق.. عليه الف الف محفة من نور...

[٧] . سعد السعود ص ١٠٠ ـ ١٠١ و بحارالانوار ج ١٨ ص ٣١٧.

وطالما يكون سيرها بين سرعة الضوء وأمواج الجاذبية ليس علينا أن نقدِّر أي تقدير لهذا المسير، فالعلم عند الله العلي القدير.

ومما يساعد على سرعتها أنها <كانت لها جناحان يحفزانها من خلفها>[١] <واذنان مضطربان>[٢] فالجناحان للطيران، والأذنان للحفاظ على توازنها في السير، أم ماذا؟<وفيها حلق وسلاسل كلما ارتفعت زادت>[٣] وعلّهما المعدات المناسبة لمختلف الإرتفاعات والأجواء.

<ولقد كان فيها إذ دخلها النبي5 ملكان سلّما عليه ورَحبّا به فأجاب ودعيا له 5 و دعى لهما>[٤] علَّهما سائقاها أم ماذا؟

فيا لها من مركبة منقطعة النظير، عرجت بالرسول البشير النذير5 إن كان من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أو كان إلى السماوات لِلحدِّ الأقصى في أقصى الإحتمالات، إذ إن بإمكانها طى السماوات، دنياً وعقبىً في جرية واحدة، طالما كانت الرحلة المعراجية مدّ بصرها.

وإئنا لنقضي عجباً من معداتها وآياتها الموجيّة والضوئية ترى أن شعاعاً كشعاع الشمس، وأربعون نوعا من النور، ومليون لون ومحفة من نور، وسبعون ألف زماماً، هذه المعدات العجيبة التي نجهلها، أليس بالامكان أن يعرج بمركبتها صاحب المعراج؟ وهو يملك أقوى من هذه الأنوار! وهو يعرج بارادة الله! أليس هذا بالحق؟ وهذا الإنسان الضعيف الهزيل يعد لنفسه سرعة أقوى من سرعة الضوء!.

ثم لو أغمضنا عن هذه المركبة ومواصفاتها، فهذه الرحلة الفضائية، لو أغمضت على العلم تحليلاً، فالقدرة اللاّنهائية الإلّهية تحلّها، مادامت خارجة عن الإستحالة الذاتية، و

---

[١] . البحار ج ١٨ ص ٣٨٧ نقلا عن الخرائج.
[٢] . روضة الكافى عن أبى جعفرΔ في وصف البراق: مضطرب الاذنين.
[٣] . البحار ج ١٨ ص ٣٥٥.
[٤] . اليقين في امرة أميرالمؤمنين ص ٨٣ ـ٨٧.

كما أن القرآن يذكر طرفاً من السرعات الخارقة للعادة وغيرها من الآيات المعجـزات، التي قد يعجز العلم عن تحليلها، دون أن يحيلها، فقد يحيلهاوقد لايحيلها إذا لايحللها:

من ذلك عرش بلقيس: إذ أحضره الذي عنده علم من الكتاب: <قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣٨) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(٣٩) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي>(٢٧:٤٠) وبما أن ارتداد الطرف يتحقق بأقل من ثانية، فقبل ارتداده قد يكون أقل منها بكثر.

فإذا كان بامكان الذي عنده علم من الكتاب أن يسرع هكذا، فكيف الذى عنده علم الكتاب كله!

ثم وأهم من سير العرش، سير اليوم الربوبى في المعارج، كما شرحناه فيها، فواحد الزمان عند الله يحمل مسيرة خمسين ألف سنة، وهذا الواحد حسب الأرض هو المناسب للحركة الأولى للمادة الأم، ولعلّها أقل من ثانية بمآت المآت، ثم الملايين الملايين من هذه الوحدات في بعض العوالم الأخرى، قد تكون بمقدار الواحد الأرضى، أن تمضي أنت سفرتك عمق الفضاء أشهراً، ولا يكون حسب الأرض إلا ثانية أو أقل، فالرحلة المعراجية التي كانت زهاء أربع ساعات حسب الأرض هي ١٤٤٠٠ ثانية إنها قد تكون ١٤٤٠٠ شهراً أو يزيد حسب السماوات، فإذ تسير المركبة المعراجية في كل آن من هذه الأشهر قدر خمسين ألف سنة، يصبح المعراج أبطأ من سرعة أمواج الجاذبية، بملايين أضعاف ما تتطلبه هذه المسافة.

فالإختلاف بين الزمن الأرضي وبين سواها من العوالم السماوية شيءٌ ثابت، قدر اختلاف موازين الحركات والأوضاع والقوانين المتحكّمة فيها.

وكما أن هناك بين الزمن الأرضي، أو الدنيوي عامة، اختلافاً عكسياً مع الزمن البرزخي، فقد يساوي عمر الحياة الإنسانية هنا ساعة من نهار أو بعض يوم أو يوماً أو

عشرة أيام، حسب الزمن البرزخى، كما نستوحيه من آيات عدة.[١]

وبعد كل ذلك، إذا كانت المركبات الفضائية والصواريخ، تهتدى بقيادات بشرية، من دواخلها أو مركبات أُخرى، أو من الأرض[٢]، فالمركبة تستمر في رحلتها الجوية كما يهديها قائدها في الأرض، وهي مصيبة في أهدافها المخططة المرسومة لها في القيادات الأرضية، إذاً فما ظنك بالمركبة المعراجية التي تقودها قدرة الله، خالق السماوات والأرض، التي تقود البلايين البلايين من المركبات الكوكبية، بمجرّاتها السماوية وبسرعات تفوق الزمان والمكان، كما في أمواج الجاذبية التي تحلِّق على الزمان والمكان؟!

خلاصة عن الرحلة المعراجية:

هذه المركبة المعراجية مزدودة بما يكافح عراقيل السرعة والحرارة والزمان وسواها، إضافة إلى أن مسيرها بإرادة الله، و بالطبع في البعض من أجزائه ـ هذا المسير خلو من الأجزاء الهوائية، فالمصادمة الهوائية التي تقلل من حركة المركبة وتزيد في حرارتها، هي عديمة في مسير هذه المركبة، وقد يكون سيرها بسرعة زهاء سرعة أمواج الجاذبية، إضافة إلى اختلاف مقاييس الزمان بين الأرض والعوالم الأُخرى، التي قد تجعل شهراً من الزمان السماوى ثانية أرضية أو أقل.

فهذه هي مركبة المعراج، وعلّ مسيره كذلك يختلف عن سائر المسير بقدرة الخبير البصير، فقد يكون باباً من السماء تخص هكذا عروج فلا تفتح لغير صاحب المعراج، وقد توحي له: <وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ بابًا مِنَ السَّماءِ فَظَلّوا فيهِ يَعْرُجُونَ(١٤) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ>(١٥:١٥) فإنها الباب التي يفتحها الله <فتحنا> دون الانسان مهما بلغ من العلم ذروته! فالعروج فيه يحير عقول الناكرين

---

[١] . راجع ج ٣٠ ص ١٠٣ من الفرقان<زمن لبث البرزخ>.

[٢] . كالصاروخ الانكليزى الحربى <جيند يويك> jindivick فانها طائرة دون قائد، وهي سرعتها ٨٠٠ ك. م في الساعة.

فيلجأون إلى خرافة السحر إن اجتازوا واقعه.

إذاً فلم تبق مشكلة علمية أم سواها، تعرقل الرحلة المعراجية، فتشكك دون تصديقها، أو تكون حجة لغيره في تكذيبها.

هنا الآيات تركّز على التعليم والرؤيته، وليس لرؤيته 5 جبريلَ، ولا أنه وسيط وحيه، ليست لهما كثير أهمية، ولا أن هناك من ينكر الرؤية والوساطة: أبعَد التصديق أنه نبي؟ أم مع نكران نبوته؟ فلا تصل النوبة ـ إذاً ـ إلى نكران الرؤية!

وكما درسناه مسبقاً في سورة النجم، بشهادة الآيات أنفسها والروايات ـ ليس شديد القوى إلا الله،[1] وإنما رسوله ـ أياً كان ـ هو ذو قوة، لاشديد القوى.

وشديد القوى ـ هنا ـ أوحى إلى عبده ما أوحى، فهل يا ترى أن محمداً تنزّل إلى درجة العبودية لوسيط الوحى المفصّل؟.. ثم جبريل لم يصاحب الرسول إلى عمق المعراج، إلى سدرة المنتهى، فكيف رآه الرسول عند السدرة نزلة أخرى؟

ثم القسمة الضيزى بين رؤية محمد ما رأى، وبين رؤية المشركين اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ليست هذه القسمة الضيزى: <الظالمة> إلا في رؤية الإلٰه إنْ رؤيةً بالبصر كاللات والعزى، أم بالبصيرة كما رأى الرسول ربّه بنور المعرفة واليقين لآخر درجات الإمكان، فنكران في الدنيا رؤيته5 ربه هكذا، في حين يرى المشركون أربابهم، هذا هو القسمة الضيزى، لانكران رؤية جبرائيل!

فقد درج الرسول بكيانه ككل، بجسمه وروحه، درج إلى الأفق الأعلى، ولأنه ذو مرة: (قوة) فاستوى: استوى على الكون أجمع، وإلى أعلى الآفاق: الآفاق الكونية إذ وصل إلى سدرة المنتهى، منتهى الكون وكاهله، واضعاً قدميه عليه فرأى من آيات ربه الكبرى.

وإلى أعلى الآفاق العقلية والمعرفية من الملائكة والمرسلين، فقد عرج الرسول الكريم

---

[1] . في دعاء الندبة <يا شديد القوى يا من على العرش استوى ـ و في دعاء: يا شديد القوى ويا شديد المحال> وفي نهج البلاغة: شديد القوى يعني به الله وكما في تفسير القمى أيضاً.

إلى معراج تلكم الآفاق، خارقاً حجب الظلمات والنور، فما زاغ بصره وبصيرته، وما نقص في معرفة ربه، <وما طغى>: ان يراه ببصر العيان، أم يعرفه بالبصيرة حق المعرفة، وإنما ازدلف إليه وعرفه كما يمكن، خارقاً كافة الحجب إلا حجاب ذات الألوهية، المستحيل خرقه.

إن الرؤية هذه هي رؤية الفؤاد بنور اليقين <ما كذب الفؤاد ما رأى>[١] فللقلوب أبصار كما للقوالب: <قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ(٨) أَبْصارُها خاشِعَةٌ>(٧٩:٩) أبصار القلوب الكليلة أو البصيرة النيرة وكما في العلوى: <وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرُق حُجُبَ النور فتصل إلى معدن العظمة> وعندما يسأل: <هل رأيت ربك؟ يجيب: كيف أعبد رباً لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان>.

وعن الرسول الأقدس 5: <لم أره بعينى ورأيته بفوادى مرَّتين ثم تلا <ثم دنى فتدلّى> <وهذا جواباً عمن سأله هل رأيت ربك> وقال5: توراني أراه وقال <رأيت نوراً>.. كل ذلك إشارة إلى المعني من الرؤية: أنها كمال المعرفة بعد خرق الحجب الممكن خرقها لأفضل الكائنات وأشرف الموجودات.

والرسول الكريم وإن كان عارفاً بربه حق المعرفة طوال حياته الرسالية ـ مهما اختلفت درجاتها طولها ـ إلا أن طبيعة الحال تقضي في معراج هكذا، وإلى الأفق الأعلى، واضعاً قدميه على كاهل الكون، تاركاً ما سوى الله تحت قدميه وبقالبه، بعد أن

---

[١] . في البحار ج ۶ ص ۳۸۰، عن ابن عباس قال: قال النبى5 فيما احتج على اليهود:... حتى انتهيت إلى السماء الرابعة فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى حتى تعلقت بالعرش فنوديت من بساق العرش: إنى أنا الله لا إله لا أنا السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم، فرأيته بقلبى و ما رأيته بعينى.

وفى ۳۹۸ عن انس قال: قال رسول الله5 لما عرج بى إلى السماء دنوت من ربّى حتى كان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى.

وفى ۳۹۹ عن حمران قال: سألت أبا جعفرΔ فقال: أدنى الله محمداً منه فلم يكن بينه و بينه إلا قصص لؤلؤ فيه فراش يتلألأ.

اقول: اللؤلؤ هذا هو نور الذات الأزلية التي لاتظهر إلا له سبحانه لاسواه.

تركها بقلبه المنير، متخلياً متحللاً منقطعاً عما سوى الله وحتى عن نفسه المقدسة، مشتغلاً بربه دون سواه، منعزلاً عمن أرسل إليهم لهذه الفترة، فهذه الحالة تقتضى أن يكون هناك من ربه <قاب قوسين>: ليس بينه وبين الله أحد ولا حجاب <أو أدنى>: ليس وحتى نفسه المقدسة وهي أقدس الحجب النورانية:

بيني وبينك إنيي ينازعني فارفع بلطفك إنيي من البين

فلم يبق آنذاك حجاب عن المعرفة إلا حجاب ذات الألوهية الذى لن يرتفع أبداً، فقد خرق ـ إلى الأفق الأعلى وفيه ـ خرق حجب الظلمة و حجب النور، ناسياً لها وتاركاً إياها مشتغلاً بربه، ولو أن بقيت هذه الحالة التجردية للرسول الكريم لاشتغل عن الكون و عن رسالته و عن نفسه و قضى نحبه، وهذا باب من المعرفة لايعرفها إلا صاحب المعراج، وهي التي استدعاها موسى فأجيب: <لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى> إذ ليس في وسعه العروج إلى هذا الأفق المعرفي كما لا يتسع الجبل فوق ما يتحمل.

<وما هو على الغيب بضنين>: ليس الرب على غيبه بخيلاً: < عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلي غَيْبِهِ أَحَدًا(٢٦) إِلاّ مَنِ ارْتَضي مِنْ رَسُولٍ فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا(٢٧)>(٢٧:٧٢)

ليس الرب ضنيناً برسوله الكريم على غيبه الممكن كشفه على غيره، كما و أن الرسول ليس على غيب ما أوحي إليه بضنين على الناس أجمعين، فلا ضنة لاهنا ولا هناك، فقد كشف الله عن غيب معرفته وعن غيب وحيه لرسوله الكريم ما لم يكشفه لأحد من العالمين، ليس لأنه ضنين على من سواه من المرسلين، وإنما لأن القلوب أوعية المعارف، لاتعي إلا على قدرها، فلو حُملت فوق مستطاعها لتفتت، كما والجبل لم يتحمل لما تجلى ربه له فوق ما يتحمل، مثالاً لموسى إذ سأله منتهى المطاف في المعرفة، أنه لايتحمَّل.

ولكن الرسول محمداً5 كان يؤهل لهكذا كشف عن الغيوب المكنونة الممكن كشفها،

فإذ ليس الله على الغيوب هذه ضنيناً، وقلب محمد يعيها، وإذ ليس محمد(ص) على بلاغ الغيب ضنيناً ولأنه يحمل الشريعة الإلهية كلها، ويتحمل عبء الرسالات كلها ـ لهذا وذاك <رآه بالأفق المبين> <فأوحى إلى عبده ما أوحى>.

<وما هو بقول شيطان رجيم>: فهل الشيطان الرجيم يوحي بهذا المنهج القويم لحدٍّ يفوق سائر الوحي النازل على أنبياء الله من قبل؟

ثم هل الشيطان يعارض نفسه في شيطنة العقائد والتصرفات ـ طوال وحيه ـ و يحافظ على كرامة الله ودين الله كما نلمسه تماماً في وحى القرآن؟

فوحى القرآن ليس صادراً إلا عن الله ـ قضية قياسها معها ـ فليس وحياً نفسياً من كاهن ولامجنون ولاعاقل يتكلم عن وحي نفسه و إن كان عن نقل وصفاء وليس وحياً من كاهن ولاشاعر ولاساحر ولاشيطان ولامؤمن عاقل عبقري إليه، فإننا لانجد أياً من هذا وذاك يُلمح من هذا الوحي العظيم، وهو بنفسه يشهد علمياً وعقلياً أنه وحي الله ألقاه إلى «رسول كريم. ذى قوة عند ذى العرش مكين. مطاع ثم أمين».

<فأين تذهبون>:

أين تذهب بكم المذاهب وتتيه بكم عن هذه المواهب: عن هذا الوحي القويم وهذا الرسول النبي الكريم؟ أين تذهبون وأنى تؤفكون، من حيث لاتعلمون ولاتعقلون؟ أين تذهبون في أقوالكم وادعاءاتكم وأحكامكم، أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم حيثما كنتم، و«ماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تصرفون»؟

< إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمينَ(٢٧) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقيمَ>(٢٨)

إن وحي السماء ورسل السماء ـ وبالأحرى رسول الرسل وأم الكتب ـ إنما لاتأتى بما ينافي العقول والفِطَر أو لايلائمها وإنما كيانها: <ذكر للعالمين> ذكريات تذكرهم بما نسوا أو تناسوا، بما درنت ورانت قلوبهم وكسفت عقولهم ومسخت فِطَرهم.

إن هذه الذكرى الرسالية تتركز على الأحكام الكلية العقلية والمصاديق الجزئية، إزاحة لشبهات العقول، وإنارة الدروب عليها، لتتسابق فيما هو خيرها في الأولى، وإن

كان الإنسان كإنسان الأرض لايستطيع أن يعرف كافة الحِكَم في الأحكام الجزئية اللهم إلا ما يذكِّرنا وحي السماء..

فوحي القرآن ونبيُّ القرآن ليس له كيان إلا <ذكر للعالمين> تذكيراً عن الغفلة والغفوة والجهل والجهالة، ذكراً هو منقوش في كتاب الفطرة، وتعرفه العقول المستقيمة.. <لمن شاء منكم أن يستقيم>.

فكما المقوِّم يجب أن يكون مستقيماً، كذلك المقوَّم، عليه أن يشاء الإستقامة ويعمل لها: <فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفًا فِطْرَتَ اللّهِ التي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ>(٣٠: ٣٠)

فمشيئة الإستقامة تأخذ بالإنسان إليها حيث المقوّمات من وحي السماء ورسل السماء تترى <لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل>.

<وَ ما تَشاؤُنَ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللّهُ رَبّ الْعالَمينَ>(٢٩)

هل إن آية المشيئة هذه تعلّق مشيئة الإنسان بمشيئة الله: أنه مسيرٌ في مشيئته وليس مخيَّراً؟ وهذا خلاف الواقع الملموس، ولا تلائمه الآية المسبقة: <لمن شاء منكم أن يستقيم> إذ توحي باختيار الإنسان في مشيئة الإستقامة وسواها.

نقول إنها ـ على احتمال ظاهر بين محتملاتها[1] ـ تخرج الإنسان عن استقلاله في مشيئته، وتجعله بين أمرين: <لاجبر ولاتفويض بل أمر بين أمرين> فلا هو مخيَّر في

[1] . واحتمال آخر: وما تشاؤون استقامة إلا أن يشاء الله تلك الاستقامة، فليست مشيئة الله لتحقيق الإستقامة والهداية إلا بعد مشيئة العبد وهذا عكس الإحتمال الأول إذ كانت المشيئة الآلهية فيه هي السبب لمشيئة العبد المحققة للإستقامة والهداية.

ومشيئة العبد مشيئتان: مشيئة أولى في البداية، وثانية لتحقيق الغاية، ومشيئة الله كذلك هنا في مرحلتين: تشريعية وتكوينية، فما لم تكن الأولى لم تتحق المشيئة الثانية للعبد لعدم الدلالة، وما لم تكن الثانية لم تتحقق كذلك لأمرين في الخير وأمر واحد في الشر، يزيد الخير على الشر في مشيئة التوفيق ويشتركان في عدم تحق المراد إلا بإرادة الله التي هي آخر المطاف في أسباب تحقق الغاية. (راجع كتابنا حوار بين الآلهيين والماديين باب الأمر بين الأمرين).

مشيئة الإستقامة كمفوَّض إليه أمرُه.[١] ولا هو مسيَّر في أمره، وإنما هو بين مشيئتين: من الله ومن نفسه: فمن نفسه: أنه يختار ويشاء الإستقامة بما جعله الله مختاراً، ومن الله أن وفقه للوصول إلى ما يشاء من الإستقامة، فلو لا توفيق من الله لم تكن مشيئة الإنسان ـ أياً كان ـ لتوصله إلى واقع الإستقامة فالتذكر بذكر القرآن، فـ <إن الله يهدي من يشاء> و <ما أنت بهادِ العمي عن ضلالتهم> ـ <إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم>.

فإذا لم يكن واقع الهداية بمشيئة الرسول، وإنما له الدلالة فحسب، فأولى بمن سواه ألا يقدروا على واقع الهداية لأنفسهم، وإنما يملكون ـ هم ـ مشيئة الإهتداء و الإستقامة فالذكر، ثم الرسول دليلهم في مسير الهداية تشريعياً، ثم الله من وراء القصد يهديهم إلى واقع الهداية تكوينياً، فـ <ما تشاؤون> تحقق الهداية مشيئةَ تحقيق توصلكم إلى حق الهداية إلا <ان يشاء الله> أيضاً لكم إياها تشريعياً وتكوينياً، ولأنه ـ رب العالمين.

إذاً فتحقق الإستقامة والهداية، بحاجة اولاً إلى مشيئة من المستقيم تكوينياً، ثم مشيئة من الله تشريعياً للدلالة على كيفية الإستقامة والهداية، ثم مشيئة منه تعالى تكوينياً أن يوفّقه ويسهل له الوصول إلى واقع الهداية والإستقامة، فلما تحققت المشيئتان اللآهيتان تبعتهما مشيئة العبد الأخيرة الملامسة لواقع الهداية والإستقامة، وكل هذه نجدها في الآيتين: <لمن شاء منكم أن يستقيم>: مشيئة أولى للمستقيم ـ إذاً ـ فلا جبر في الهداية ولاتفويض بل أمر بين الأمرين، أمر من الله وأمر من العبد، لذلك فلتنسب الهداية إلى

---

[١] . ويشهد له ما أخرجه إن أبى حاتم وابن مردوديه عن أبى هريرة قال: لما قلت <لمن شاء منكم أن يستقيم> قالوا:الأمر إلينا إن شئنا، وإن شئنا لم نستقم، فهبط جبريل على رسول الله5 فقال: كذبوا يا محمد! <وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين> ففرح بذلك رسول الله5.
وأخرج عبدالرزاق وابن المنذر عن القاسم بن محيمر قال: لما نزلت <لمن شاء منكم أن يستقيم> قال أبوجهل أرى الأمر إلينا فنزلت الآية، الدر المنثور ٦ ـ ٢٢.
أقول: فالآية كما حققناه تعني نفي تفويض الأمر كما الأولى تدل على نفي الجبر، فليس إلا أمراً بين أمرين.

الله ـ وأحرى له ـ وإلى العبد أيضاً لاختياره، وهذه في الحسنات أن الله يشاءً ويدبِّر ويوفق: <يابن آدم أنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بسيئاتك منى> ذلك لأن الله تعالى لايشاء السيئة لاتشريعياً ولاتكوينياً، وإنما لايجبر العبد على فعل السيئة ولا على تركها، وله المشيئة التشريعية ألا يعصى، فإذا خالف أمر الله وشاة المعصية يذره الله تعالى في طغيانه يعمه وفي غيّه يتردد، إذ لاجبر في ترك المعصية كما لاجبر في فعلها.

وبما أن المخاطبين هنا هم المستقيمون، ومن أصدق مصاديقهم هم الرسل والأئمة المعصومون، لذلك وردت عن الصادقين أنهم المعنّيون، كما بالآية عن أبي الحسن موسى بن جعفرΔ قال: إن الله جعل قلوب الأئمة مورداً لإرادته، فإذا شاء الله شيئاً شاؤوه وهو قوله: <وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين>.[١]

نيازك ناريّة من مدفعيّات سماوية

<إِنّا زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بزينَةٍ الْكَواكِب(٦) وَ حِفْظًا مِنْ كُلّ شَيْطانٍ مارِدٍ(٧) لا يَسّمّعُونَ إِلَي الْمَلإِ الْأَعْلي وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلّ جانبٍ(٨) دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ(٩) إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ>(١٠)

آيات خمس حول النيازك النارية، هي في الملك واحدة[٢] وفي كلٍّ من الجن[٣] والحجر

---

[١] . نورالثقلين ٥: ٥١٩ ح ٣٠ القمى حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن أحمد عن أحمد بن محمد اليسارى عن فلان عنهΔ.

[٢] .<ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين..> راجع ج ٢٩ ص ٢١ الفرقان ففيه تفصيل من الرجوم.

[٣] . <وإنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً. وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً. وانا لاندرى أشرّ اريد بمن في الأرض ام اراد بهم ربهم رشداً> راجع ج ٩ ص ١٧٧ الفرقان، ففيه بحث يخص الحرس الشديد والشهب، وأنها هناك خاصة بمَطلع الوحي المحمدى.

ثلاث[١] اثنتا عشرة آية في ساير القرآن تتحدث عن الشهب الثاقبة والنيازك النارية المقذوفة من مدفعيات الكواكب بالحرس الشديد، وآيات الجن تختص بالحرس الشديد والشهب منذ الوحي الأخير، والأخرى تعم تأريخ الرسالات وماقبلها منذ خلقت الكواكب.

<إنّا زَيّنّا السّماءَ الدّنيا بزينَةٍ الْكَواكِبِ>(٦)

الكواكب تأتي في الملك وفي فصلت <مصابيح>: <ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح> وفي الحجر <بروج> و في <ق> فقط تزيين السماء بها <أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَي السّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيّنّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ>(٦) تعبيرات ثلاث عن زينة السماء، كلٌ يعني معنىً في موقفه الخاص، وعلَّ اشملها لمدن السماء وبروجها مدفعياتها: <الكواكب>.

و <السماء الدنيا> صفة بموصوفها تعني أدنى السماوات السبع إلينا ساكني هذه الأرض، أم وساير الارضين وكما فُصلت في الطلاق وفصِّلت، فـ <الدنيا> هنا مؤنث الدانى من الدنو دون الدَّنى الدنائة، فليست <سماء الدنيا> ـ مضافة ـ دون الآخرة، إذ للدنيا سماوات سبع لاواحدة، فهى سماوات الدنيا دون <السماء الدنيا>!

<بزنية> لافقط لأهل هذه الأرض، بل ولكلِّ الناظرين أياً كانوا، <وزيَّناها للناظرين> وهم كل مَن له أن ينظر من ساكني هذه المعمورة أم سواها من مدن السماء.

و <زينة> : <مصابيح> و <بروجاً> مواصفات ثلاث لـ <الكواكب> وهي تستغرق الكرات السماوية كلها، ولو كانت <كواكب> لأبقت مجالاً لكواكب أُخرى في سماوات أُخرى، ولكنها <الكواكب> جمعاً محلّىً باللام يفيد الإستغراق المطلق المطبَق لكلِّ ما يسمى كوكباً، ثم <وحفظاً> مواصفة أخيرة لهذه الكواكب.

وقلد خيِّل الى بعض القاصرين قصر <الكواكب> على التي يراها أهل هذه الأرض

[١] . <ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين، وحفظناها من كل شيطان رجيم، إلاّ من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين>.

بعيون مجردة أم ومسلحة، ودون قصرها خرط القتاد!.

و <الناظرين> يعم النظر بالعيون المسلحة كما يعم كل الناظرين هنا وفي سائر العالم، فهى ـإذاً ـ كل الكواكب في كل العالم وقد زينت بها السماء الدنيا، فهي إذاً كلها في السماء الدنيا و كما تنتشر كلها في الآية، <إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ(١) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ>(٢:٨٢) فكما السماء تعم السماوات كلها، كذلك الكواكب تعمُّها كلها، <زينة الكواكب> تعمُّها على سواء.

<وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ>(٧)

وهو منذ تكوينها والشياطين، وأما غير الشياطين من الجن فقد كانوا يتسمَّعون ويسمعون حتى الوحى الأخير <وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا>(٩)

و <كل شيطان مارد> لايخص شياطين الجن فإنهم بعضهم لاكلهم، فليست لغُزاة الجوِّ من شياطين الإنس حَظوة من الملإ الأعلى على أيَّة حال، مهما عُزِل المؤمنون من الجن والإنس عن السمع منذ الوحي الأخير، ولم يكونوا قبله من المعزولين.

<لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ>(٨) لايسمَّعون إلى الملأ الأعلى» مهما حاولوا: < وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطينُ(٢١٠) وَ ما يَنْبَغى لَهُمْ وَ ما يَسْتَطيعُونَ(٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ(٢١٢:٢٦) <ويُقذفون> بالنيازك النارية <من كل جانب> إذا تدنَّوا تَسمُّعاً، ولايقذف إلا من تسمَّع قذفاً لدحره دون ثقب بالثواقب.

<دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ>(٩)

قذف ودحرٌ لمن تسمَّع لكيلا يسمع، أترى <دحوراً> هي جمع الدحر بمعنى المصدر؟ أو إسم المفعول؟ أم هو المصدر مفرداً؟ مفعولاً له أو مفعولاً مطلقاً؟

معنى الدحر مفرداً بعيد فإن لفظه لفظه لادحوراً، فقد تعني جمع الدَّحر بمعني المفعول مبالغة كأنهم نفس الدحور، ليس لهم إلا اندحار وفرار، هو حالهم إذ يسمعون فلا تتاح

لهم فرصة وما يستطيعون <إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ>(٢١٢) <ولهم عذاب واصب>: خالص دائب يوم الدنيا إذ يعيشون اندحاراً في ترذلٍّ عما كانوا يشتهون، وبأحرى يوم الأُخرى فهم في جهنم خالدون.

<إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ>(١٠)

يقذفون من كل جانب لدحرهم دون ثقبهم حيث الجريمة هي التسمُّع في سمع ولَّما تقع، يقذفون دحوراً <إلا من خطف الخطفة> إختلاساً واستراقاً <إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ>(١٨:١٥)

ذلك الشهاب والنيزك الناري يتبع الخاطف المسترق ويثقبه، مبيناً في الجو لكل مستبين، ومبيناً أن هناك خطفة واستراقاً، ومبيناً أنهم <لايسَّمَّعون> و <إنهم عن السمع لمعزولون>.

و <شهاب ثاقب> يثقب بنوره الظلام، ويثقب خاطف الخطفة فلا يدعه يرجع إلى ناظريه بسلام، فلا يُخطىء ثاقُبه هذفَه كما يُرام.

ويا لهذه الكواكب البروج المصابيح الزينة كيف أصبحت من واجهة أُخرى غيبية رجوماً ثاقبة للشياطين، كوزارة الدفاع السماوية، حاوية تلك المدفعيات والمقاذف الجبارة، تقذف المتسمعين من الشياطين دحراً، وتتبع الخاطفين المستقرّين ثقباً، فلا تبقي متسمعاً إلاَّ دحرته ولاخاطفاً إلاَّ ثقبته.

فالملأ الأعلى في حفاظ دائب مكاناً ومكانة، فالمحادثات الغيبية لهم لاتعدوهم إلى مردة الشياطين، مهما تحَّرصوا ولكي يتخرَّسوا على الغيب بخليطات من الملإ الأعلى وخيالات وهُرائات من الأدنى، فيخيِّلوا إلى البسطاء أنها كلها من صلب الغيب.

إذاً فـ <الكواكب> داخلة في عسكر <الصافات صفّاً. فالزاجرات زجراً. فالتاليات ذكراً> في معسكر سماوي حارس، وبالأحرى للملأ الأعلى في الأرض وهم الأنبياء ومن يحذون حذوهم، بأحرى لهم يُحفظوا عن استراق مردة الشياطين ومَسِّهم وجَسِّهم، حيث الملأ الأعلى في الأرض هم الأصلاء في مشارقهم، والأعلى في السماء هم

الوسائط الفروع!

هذه من أهداف الشهب الثاقبة والنيازك النارية، يكشف الوحي عن وجهها القناع، ثم هناك أهداف أُخرى كشف العلم عنها أم لم يكشف، دون مطاردة مناحرة بينها، فالناكر لهذه الملحمة الغيبية لايرمي إلاَّ في الظلام خرساً بالغيب.

وترى من هم الملأ الأعلى المحظور التسمُّع إليهم وأين هم؟

الملأ هو الجماعة التي تملأ العين، و في المكانة بين أدنى وأوسط وأعلى، والأدنى هم أكثرما جيء بهم في القرآن، ثم الأوسط كملإ سليمان: <قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتينى بعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونى مُسْلِمينَ>(٣٨:٢٧) وليس الأعلى إلاَّ هنا و في: <ما كان لى من علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون. إن يوحى إلى إلاَّ أنما نذير مبين> فالملأ الأعلى هم أعلى مكاناً مطلقاً، ومكانة بالنسبة لمن سوى النبيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وليس اختصام الملإ الأعلى إلاَّ حواراً في أنباء الغيب، وأنباءهم غيب عن أهل الشهود والغيب، وحتى النبى5 إلاَّ ما علمه الله، فـ <ما كان> تضرب إلى ماضيه قبل أن يوحى إليه بما أوحي <إن يوحى إلىَّ إلاَّ أنما أنا نذير مبين>.

ولأن الكواكب <حفظاً من كل شيطان مارد> فهي إذاً أمكنة الملإ الأعلى فيها وبينها في أجوائها، فليس لأي شيطان مارد التسمع إليهم إقتراباً إلى أمكنتهم.

ومن ثم كيف يواصل الشياطين في تصعُّدهم إلى الملإ الأعلى يَسَّمَّعونهم، وهم عارفون تجربة وتكراراً أنهم يدحرون ويقذفون من كل جانب، أو يُتبعهم شاهب ثاقب؟

من الجواب ـ إضافة إلى واقع ذلك التصعُّد المكرور ـ أن الإستماع إلى الملإ الأعلى مِن أهم غاياتهم ليتنزلوا على كل أفّاكٍ أثيم: <هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلي مَنْ تَنَزّلُ الشّياطينُ(٢٢١) تَنَزّلُ عَلي كُلّ أَفّاكٍ أَثيم>(٢٢٢) يُلْقُونَ السّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ(٢٢٣:٢٦) وكلما كان الهدف أسمى فالهادف إليه أسعى ولحد إحداق الخطر أو إطباقه، وكلما يعاكسهم في الشرف المناضلون في سبيل الله، فحتى إذ علم المخلصون

منهم أنهم يقتلون لايبالون بِداراً إليه بكل إصرار.

ثم الشيطان هو من الجان <وَ الْجَانّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السّمُومِ> (٢٧:١٥) فكيف يصطدم بالنيزك الناري، المخلوق من نار السموم؟

الشيطان مخلوق من نار وليس هو بعد خلقه ناراً، كما الإنسان المخلوق من تراب فلم يظل تراباً، فكما يُصدم الإنسان من تراب جامد وسواه من تراب، كذلك الشيطان بشهاب ثاقب وسواه من نار، ولا سيما أن في السرعة حتى إذا كان المرمي أرخى من المرمي إليه!

وهل المدحورون بقذف أو شهاب هم ـ فقط ـ كل شيطان مارد يروم التسمُّع فيُرمى؟ أم وكل غاز للفضاء وإن لم يتسمع، في إمكانية السمع كالجن المؤمنين او عدمها كغزاةٍ من الإنس؟

آيات الرجوم والشهب والمقاذف تختص بكل شيطان رجيم: اللّهم إلاّ آيات الجن حيث تعمُّ الجان المؤمنين، فإذا هم لم يقعدوا مقاعد للسمع لايُدحرون، وبأحرى غيرهم من الإنس إذ لايستطيعون.

وأخيراً ترى أن السماوات الست ـ الباقية فوق الأولى ـ هي كلها خلوٌ عن كواكب أماذا، حيث <الكواكب> استغرقتها في السماء الدنيا؟

علَّ الكواكب الزينة للناظرين تختص السماء الدنيا، وكما تكون في سائر السماوات كواكب أُخرى ليس لها ناظرون بأيَّة عيون مجردة أو مسلحة، أم ان ناظري أرضنا وهم المحور الرئيسى انهم لن يستطيعوا أن ينظروا إلى الكواكب في غير السماء الدنيا بأية عيون، كيف وهم عاجزون لحد الآن أن يتعمَّقوا بأقوى المسلحة المجرات الفوقية لسمائهم؟

وعلى أية حال ليس لنا نفي وجود كواكب أُخرى، ولا التعرف إليها إن كانت، كيف ونحن حائرون في سمائنا وأرضنا، سبحان الخلاق العظيم.

شهب سماوية نيازك نارية

<وَ أَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا>(٩)

هنا رسل الجن يستعرضون لمسهم السماء للإستماع الى الملإ الأعلى، أنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع دون حرج ولاحظر ولا خَطَر، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً، فهل إن الحرس الشديد والشهاب الرصد شيء جديد؟ آيات الشهب تقول إنها كانت منذ خلقت سماء الأنجم والشياطين الذين كانوا يسّمعون الى الملإ الأعلى!

أم أنما حصل جديداً هو ملءُ السماء حرساً شديداً أو شهباً، مهما كانوا موجودين قبلذاك دون شدة وكثرة؟ آيات الشهب لاتنفى الكثرة السابقة، بل وقد تلوح اليها: <وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلّ جانِب(٨) دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ>(٩)

إذاً فهل الجديد منعُ الجن عن السماء بعد ما كانوا يلمسونها؟ آيات الشهب تصرح ان السماء بالملإ الأعلى كانت ممنوعة قبلذاك أيضاً! فما هو التوفيق؟

الجواب في كل الأطراف المعنية واضح وضح النهار، من الآيات أنفسها: فآيات الشهب الثاقبة، انما تختصها بدحر الشياطين المتسمعين للملإ الأعلى، المسترقين السمع وليس لهم، وأما الجن المؤمنون ولاسيما رسلهم الكرام فلا تمنعهم: <إِنّا زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ(٦) وَ حِفْظًا مِنْ كُلّ شَيْطانٍ مارِدٍ(٧) لا يَسّمّعُونَ إِلَي الْمَلإِ الْأَعْلي وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلّ جانِب(٨) دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ(٩) إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ>(٣٧:١٠)

<وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السّماءِ بُرُوجًا وَ زَيّنّاها لِلنّاظِرِينَ(١٦) وَ حَفِظْناها مِنْ كُلّ شَيْطانٍ رَجِيم(١٧) إِلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ>(١٨:١٥).

<وَ لَقَدْ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُومًا لِلشّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السّعِيرِ>(٥)

فلا الجن المؤمنون المتسمّعون للملإ الأعلى، ولا الإنس الذين لايقدرون التسمّع، لم يكونوا ممنوعين ومدحورين، وقد كان لرسل الجن هؤلآء مقاعد خاصة في السماء عند الملإ الأعلى فيها يسمعون، وكان حقاً لهم بما هم رسل يستمعون الوحي ثم يولّون الى

قومهم منذرين، فلما ابتعث خاتم الرسلين محمد5 مُلئت السماء كل السماء حرساً شديداً وشهباً تدحر الجن كافرين ومؤمنين.

فالذى حصل جديداً زمن النبى الجديد أن السماء مُلِئت حرساً شديداً، وفي مقاعد الجن المؤمنين ايضاً، بعد ما كانت خالية عنهم آمنة من دحرهم، وشهاباً رصداً لهم يمنعهم عن التسمُّع الى الملإ الأعلى منعاً، دون مسٍّ من كرامتهم، أو عذاب لهم واصب، أو شهاب ثاقب يثقبهم كما كانت لمردة الجن الشياطين، إنما حرسٌ شديد و شهاب رصد لصدّهم عن التسمُّع الى أسرار الملإ الأعلى إذ عوِّضوا عنها بوحي أعلى يصدرونه عن الرسول الخاتم محمد5.

هنا الجن يقرّون أن الرسالة المحمدية منذ بزوغها هي التي ملأت السماء حرساً شديداً وشهباً، لامنذ ولادته 5 إذ قالوا: <وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ> : قبل الآن <فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا> والآن هو آن استماعهم للقرآن لا آن ولادة نبى القرآن.

هذا ـ ومن الجائزكون تجنيد الحرس الشديد والشهاب الرصد، منذ ولادة الرسول، كذلك وملؤ السماء وفي مقاعد الجن المؤمنين أخذوا في تنفيذ الأوامر الباتة لدحر المتسمعين من الجن كافرين ومؤمنين سواء.

فالنيازك النارية الراصدة بحرسها الشديد، تحرق مردة الجن المسترقين للسمع دائماً، وتنبه المؤمنين منهم، ولاريب أنهم تركوا لمس السماء بعد إذ عرفوا أنهم ممنوعون، تركوه بدافع الايمان ولاسيما أنهم مرسلون ثم سائر المؤمنين منهم مهما اخطؤوا في لمس السماء لاستماع اخبارها، فعلهم لايثقبون بالنيازك الشهب كما تثقب مردة الشياطين، وإنما يدحرون دحراً أو ينبهون مرة تلو الأُخرى، ولكي يختص الوحي وأخبار السماء بالرسول الختم، ثم لاخبر ولاوحى بعد ارتحاله5 والى القيامة الكبرى.

فحرىٌّ بهؤلاء الرسل الكرام أن يحتاروا في أمرهم: <وَ أَنَّا لا نَدْرى أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ> إذ نقطع عنهم خبر السماء و وحيه، كانوا ـ كرسل ـ يصدرونه الى أهل

الأرض من الجن، أشرٌّ أريد بهم؟ فظلوا في فتور الوحى أو فترته؟ <أم أراد بهم ربهم رَشداً>: بما علّه يعوّضهم عنه بما فيه رشدهم وأكثر مما كان، فليس انقطاع خبر السماء رشداً لأهل الأرض إلا إذا عوّض عنها بما هو أرشد وأحرى، وكما قالوا: <سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبًا> فلم تكن أخبار السماء عجباً كما القرآن عجب، فقد أراد ربهم بهم فيه رشداً.

فما روته الرواة خلاف النص أو الظاهر من هذه الآيات نضرب بها عرض الحائط، كما يروى انه <حيل بين الشياطين وبين خبر السماء>[1]، وكما اختلق على علي Δ أن الشياطين ما كانوا محجوبين عن السماء وإنما حجبوا عنها لما ولد الرسول محمد5[2] غلطاً على غلط حيث المنع كان منذ الرسالة لاالولادة، والممنوعون هم مؤمنوا الجن بعد ما كان لهم مقاعد للسمع، وأما كفّارهم فقد منعوا منذ كانوا وكان الملأ الأعلى! وعجيب من أصحاب الحديث كيف يسجِّلون هذه الاحاديث المخالفة للآيات كأنها وحي نزل، وكأن القرآن فرع بها يؤوّل، ونحن لانذكرها إلا ردّاً لها على كتاب الله وليذكر أُولوا الالباب!

نكات على ضوء هذه الآيات

---

[1] . رواه الواحدى باسناه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله5 على الجن و ما رآهم، انطلق رسول الله في طائفة من اصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا: ما لكم؟ حيل بيننا وبين خبر السماء وارسلت علينا الشهب، قالوا: وما ذاك الا من شيئ حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين اخذوا نحو تهامة بالنبي وهووا بنخل عامدين الى سوق عكاظ و هو يصلى باصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا وقالوا: هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء فرجعا الى قومهم وقالوا: <انا سمعنا قرآناً عجباً يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احداً> فاوحى الله5 <قل اوحى الى انه استمع نفر من الجن> ورواه البخارى ومسلم ايضاً في الصحيح.

اقول مهما رويت هذه الرواية في الصحيح و سواه فهى غلط اذ تنافى نصوص القرآن ـ تأمل.

[2] . نورالثقلين ٥: ۴۳۶ ح ۲۴ عن احتجاج الطبرسى عن اميرالمؤمنينΔ ولقد رأيت الملائكة ليلة وُلِدَ تصعد تنزل وتسبح وتقدس و تضطرب النجوم وتتساقط علامة لميلاده، ولقد هم ابليس بالظعن في السماء لما راى من الاعاجيب في تلك الليلة، وكان له مقعد في السماء الثالثة والشياطين يسترقون السمع، فلما رأوا العجائب ارادوا ان يسترقوا السمع فاذا هم قد حجبوا عن السماوات كلها وقد رموا بالشهب جلالة لنبوة محمد5.

١ ـ هناك من السماء ملأٌ أعلى هم أعلى محتداً ومنزلة، من سواهم من الخليقة، مُلِؤا من أسرار السماء ويتحدثون دوماً عنها، كا الجن المؤمنون، أو رسلهم بوجه خاص، يستمعون اليهم فيرجعون الى قومهم منذرين، دون الجن الشياطين الذين لايرجعون بما يسرقون إلا بكل تدجيل وتضليل.

٢ ـ إن في الجن رسلاً كما في الإنس، ولكنما الرسالة الأصيلة هي لَرُسل الإنس، كما يوحي به انقطاع وحيهم منذ الرسالة الإسلامية، فلو كانوا مستقلين فيها لكان منهم خاتم يحمل الوحي الخالد كما منا خاتم.

٣ ـ في حرمان رسل الجن عن الوحي مع الأبد، منذ بزوغ وحي القرآن، دلالة ناصعة أنه خاتمة الوحي، لاكتاب بعده ولانبوة بعد نبوته، وختم الوحي والرسالة هو الذي أراده الله بمنع التسمُّع الى الملأ الأعلى عن رسل الجن: <أم أراد بهم ربهم رشداً>.

٤ ـ السماء الملموسة لرسل الجن هي سماء الانجم وهي الاولى من السبع، حيث تُرى الشهب الثاقبة والنيازك النارية، ولاريب أنها في الاولى، إذ ليس غيرها مرئية لنا حتى الآن ولابالعيون المسلحة، ومن لمسهم السماء ودحرهم عنها نعرف أن سكنى الجن هي الأرض بجوِّها، بخلاف الملائكة.

٥ ـ يوحى التنديد بالعائذين بالجن، كما تفرضه حكمة الله وعدله: أن لا سلطان للجن على الانس ولا من شياطينهم إلا كيداً: <إِنّ كَيْدَ الشّيْطانِ كانَ ضَعيفًا> فمن الظلم أن يفسح المجال للجن ان يؤذوا الإنس وهم لايرونهم، ولاحيلة لهم في الدفع عن أنفسهم وأعراضهم، وليست فكرة تدخّل الجن في البعض من أمور الناس وحالاتهم وتخيّلهم بهم إلا خرافة أسطورية قضى القرآن على أمثالها.

٦ ـ الحرس الشديد الجن عند بعث النبي الجديد، يوحي بأن الحراسة ما كانت قبلئذٍ بتلك الشدة، إذ كان الجن المؤمنون يستَّمعون الى الملأ الأعلى في مقاعد لهم خاصة، وكانت مردة الشياطين منهم يسترقون شيئاً مّا مهما لاقوا من دحر وعذاب، لكنما الرسالة المحمدية الختمية اوجبت حصر الوحي به ودحر من سواه. سواء أكان استماعاً

حُرّاً كما كان للمؤمنين، أم استراقاً كما للشياطين، فالكل محرومون عن كل أسرار السماء إلا من طريق الرسالة المحمدية، حيث الجن الرسل يُصدون عنه.

فالأجهزة الدفاعية السماوية من الشهب والنيازك النارية والحرس الشديد، تنفِّذ أمر الله تعالى وإلى يوم القيامة الكبرى، فمن ادعى بعد الوحى المحمدى وحياً و بعد رسالته رسالة وبعد كتابه كتاباً فهو دجّال كذاب.

٧ ـ لاندعي أن أهداف الشهب تختص بدحر الجن، وإنما هو من اهدافها التي كان تجهلها الجن، وكما يجهل العلماء حتى الآن اهداف هذه الشهب، فهل من العقل انكار المجهول من أسرار الكون وأكثره مجهول؟!

إن المتفلسفين الذين يحاولون تفسير هذا الكون وارتباطاته في كافة زواياه ومجالاته، إنهم ظلّوا يتعثرون كالاطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لاغاية لقمته، محاولة حل لغز الوجود، وهم لم يتقنوا بعدُ أبجدية الهجاء من كتاب التكوين الغامض الفائق العقول.

لقد ظلوا مرتكسين في تصورات لهم مضحكة حين نقرنها الى التصورات الواضحة البديعة الجميلة التي ينشئها القرآن، فتلك منهم مضحكة بعثراتها ومفارقاتها وتخلخلها وقزامتها الى عظمة الوجود، وهذه عريقة عميقة لى غير الحدود، فانها من خالق الكائنات، سبحان الخلاق العظيم.

السماء الدنيا بمصابيحها الرجوم:

<وَ لَقَدْ زَيّنّا السّماءَ الدّنيا بِمَصابيحَ وَ جَعَلْناها رُجُومًا لِلشّياطين>

هنا تتحدث الآية <ولقد زينا السماء الدنيا> عن سمائنا التي نواجهها، وهي الأولى، دون الستة الباقية البعيدة عن أنظارنا، وإن كانت بالعيون المسلحة، فضلاً عن غزو الفضاء، فإننا حتى الآن لم نسبر غور السماء الأولى، فضلاً عن سواها!

هنا <السماء الدنيا> الموصوفة بأنها الدنيا: أدنى السبع إلينا، لا <سماء الدنيا>! مقابل سماء الآخرة؟ فليس الآن مخلوقة! والآية تحدثنا عما مضى، فهذه الآية مع نظيراتها، تدلنا أن المصابيح السماوية التي نشاهدها، والكواكب التي نراها: <إِنّا زَيّنّا السّماءَ الدّنيا بِزينَةٍ الْكَواكِب>(٣٧:٦) أنها ـ كلها ـ في السماء الأولى، فما هي الكائنات في سواها، من الستة الباقية؟ لاندرى، وكيف لنا أن ندريها وما ندري ما في سمائنا الدنيا!

رجوم الشياطين؟

هل إن المصابيح هنا هي النجوم كلها، أو الكواكب كلها، أم قسم خاص منها؟ وهل الشياطين هم شياطين الجن فقط؟ أو و الإنس أيضاً؟ ثم كيف تكون المصابيح رجوماً على أية حال؟

المصابيح هي الكواكب ونجومها الطالعة وسواها، فهي مدرعات جوية ومقاذيف تقذف <إِنّا زَيّنّا السّماءَ الدّنيا بِزينَةٍ الْكَواكِب(٦) وَ حِفْظًا مِنْ كُلّ شَيْطانٍ مارِدٍ(٧) لا يَسّمّعُونَ إِلَي الْمَلإِ الْأَعْلي وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلّ جانب(٨) دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ(٩) إِلاّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ>(٣٧:١٠) هذه الكواكب هي كلها رجوم، ولاسيما بروجها: <وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السّماءِ بُرُوجًا وَ زَيّنّاها لِلنّاظِرِينَ(١٦) وَ حَفِظْناها مِنْ كُلّ شَيْطانٍ رَجيم(١٧) إِلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبينٌ>(١٥:١٨)

فموقع الكواكب ـ بين مواقعها أنها حفظ من مردة الشياطين، بعضها قذائف وشهب بحرسها: <وَ أَنّا لَمَسْنَا السّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَديدًا وَ شُهُبًا> (٧٢:٨) بين

منفصلة عن بروجها ومدنها: عن وزارت الدفاع ومراكز الأسلحة، انفصلت شهاباً رصداً، ترصد وترقب مسترقى السمع <وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا>(٩:٧٢) وبين ما هو كرة سماوية، مهما كبرت أو صغرت، تدفع من قاذفاتها شهباً ونيازك نارية، تعقدف أهدافاً مقصودة، يدفعها الحرس الملائكى، أو تندفع دون حرس.

إن قذف الكواكب حتم لا مردّ له، ولكنه ليس من نوع واحد، فقد تكون رجوماً، وقد تكون شهباً: الأحجار السماوية ونيازكها النارية.

فالرجوم هي الأحجار التي تحمل النار، أو تتبدل ناراً باصطكاكها الجوى، والمصابيح الرجوم ليست هي الكرات، إذ لايرجم بها الشياطين، وإنما يرجمون منها، من قذائفها المنفصلة عنها، فـ <جعلناها رجوماً للشياطين> لاتعنى في الكرات إلا أنها مقاذيف، طالما تعنى في الأحجار المنفصله الحائرة في الجو، تعنى منها أنفسها.

والشهب هي النيازك النارية[1] فالرجوم التي تخترق في الجو وتندثر بعد نفاذ أمرها، هي الشهب، والتى تصل إلى الأرض، هي الأحجار السماوية التي تمطر أحياناً على شياطين الأرض، فـ <جعلنا رجوماً للشياطين> تعم شياطين الجن بالشهب، وشياطين

[1] . يقول (ماكسو رايد) العالم الفلكى في كتابه (النجوم للكل): في ليلة نوفمبر ١٨٣٣ـ اصبحت السماء مليئة من الشهب، وكأنها الكواكب، جلعت السماء ميدان النضال، وادعى بعض انها كانت على كثرة ذرات البرد، فالشهب ـ هذه ـ كانت تنتشر، وكأنها من دورات النار، من النقطة التي فيها الصورة الفلكية <لنوى>: اسد، لقد خيّل الى بعض الناظرين كأن الدنيا انتهت، وبعد قليل سوف تنفجر الأرض بهذه الشهب الساقطة عليها، وقد دامت هذه الحملة الناريه طول الليل، مخيلة أنها تمطر من ثقبة وتنشر، وتصاحبها في نضالها الكواكب حولها نقل احد الشاهدين هذه الحرب الجوية في <كارولينا الجنوبى>: سمعت صوتا خشنا خارقا ايقظنى من نومى، صرخة من ثمانمائة من العمال السود في المزارع، حاولت الكشف عن السبب، فاذا بصوت ضعيف من وراء الباب يطلبنى، اخذت سيفى واتبعت صاحب الصوت، فسمعت ثانية يسترحمنى قائلا: قم فقد احترقت الدنيا، فتحت الباب، ولست ادرى هل كانت الصرخات المسترحمة ادهش،ام المنظرة الرهبية من الحرب الجوية، رأيت مائة من العمال ساقطين على الأرض، حادثة عديمة النظير، وأن كانت لها اشباه في التاريخ.

الإنس بالأحجار، ومن رجوم شياطين الأرض سجِّيل أصحاب الفيل وسواه، كالتي أرسلت إلى سدوم، وعلى قوم لوط: ﴿قالُوا إِنّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ(٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ(٣٣) مُسَوّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾(١٥:٣٤) ﴿فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾(١١:٨٢)

ثم كيف تقذف الرجوم والشهب إلى شياطين السماء؟ ولماذا؟ فهل يسمح للجن المؤمنين اختراق السماء إلى الملإ الأعلى للاستماع إليه؟ وهل يمنع الإنسان أيضاً من اختراق السماء وهو لايستطيع التسمُّع إلى الملإ الأعلى؟ ثم الشهب والنيازك النارية والأحجار، هل إنها على كثرتها وتوافرها لاتهدف إلا قذف شياطين السماء والأرض؟ وكيف ذلك؟ تجد الجواب عنها في محالها الأنسب.[1]

﴿وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسّاعَةِ سَعِيرًا﴾

عذاباً فوق العذاب بخبره الحاضر الحذر عن مستقبل شديد، ورجومهم يوم الدنيا ـ بواقعه ـ عليهم شهيد، فهم بين عذاب حاضر و آخر معتدٍ عتيد، عذاب فوق العذاب وبعد العذاب وبئس للظالمين بدلاً.

عذاب معتد: لم يأت وقته، ولم يعد عدتَّه ولأنهم وقوده ولما يدخلوه، فإذا ألقوا فيه كمل العذاب بذلك اللقاء، كما يقرب البترول النار، فشهيق وفوار.

لافحسب الشياطين: بناة الضلالة وأصولها من الجنة والناس أجمعين، بل الحكم يعمهم والكافرين أجمع:

﴿وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٦)

فالذين لايرجمون ـ منهم ـ يوم الدنيا، هم شركاؤهم في عذاب جهنم يوم الدين: ﴿وَ لا تَحْسَبَنَّ اللّهَ غافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ﴾(٤٢)

---

[1] . كما في سورة الحجر وفصلت والصافات والجن.

<إذا أُلْقُوا فيها سَمِعُوا لَها شَهيقًا وَ هِيَ تَفُورُ>(٧)

يلقون فيها مهانة لهم، وإلقاء للصلاءِ الوَقود، لكى يُصطلون بأنفسهم، فلقد كانت كاظمة غيظها، باطنة فورتها وميزها، وأما الآن وهي تعيش وقودها، فحق لها شهقتها وفورتها وثورتها على الكافرين.

الشهيق هو الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد والكمد الطويل، وهو صوت مكروه سماعه، شديد إيقاعه.

أما إنها خائفة من وقدها الشديد، متضايقة القلب الحزين، من ورود هؤلاء الأرجاس الأوغاد، رغم تصبُّرها لورودهم، في كمد طويل!

تشهق فائرة: مرتفعة الغليان، تجذبهم إلى داخلها جذب الهواء بشهيق النفس إلى داخل الصدر.

<تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذيرٌ>(٨)

من قولهم تميزت القِدر، إذا اشتد غليانها، ثم صارت الصفة خاصة الإنسان المغضب، وهنا وصفت النار بصفة المغيظ الغضبان الذى من شأنه ـ إذا بلغ ذلك الحد ـ أن يبالغ في الإنتقام، ويتجاوز الغايات.

صيِّبات سماوية

<أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحيطٌ بِالْكافِرينَ>(١٩)

فـ <او> هنا للتقسيم حيث هذا القسم يختلف عن الأوّل تمثيلاً، فانه مَثَلُهم أنفسهم فيما يفعلون، وهذا مثلهم وِجاه صيِّب الدعوة السماوية الإسلامية، مثلٌ يبدء بهذه الدعوة الصارمة: <او كصيب...> وينتهى إلى: كيف يعاملونها ويتأثرون بها! ويتطلعون اليها!

و<صيّب من السماء> هو غزير المطر حيث يُصَبُّ من السماء في ثورة الأمطار، طوفانية المصدر، بحرية المورد، حاوية ـ رغم حياتها المائية ـ مثلث الإرهاب: <ظلمات

ورعد برق>: ظلمات السحاب والغيوم المتراكبة التي تحول دون ضوء الشمس نهاراً، ودون أنوار نجوم السماء وقمرها ليلاً، ويواكبها <رعد و برق> رعدٌ هو صوت قوى تحدث عن اصطكاك السحاب، وبرق: هو نور يذهب بالأبصار نتيجةَ الإصطكاك، والصواعق هي نوازل الرعد و البرق: قصف رعد ينقص منها شعلة من نار لطيفة لاتمر بشيء إلاَّ أتت عليه وهي مع قوتها سريعة الخمود!

وهكذا تمثل الرسالة القرآنية أنها <صيّب من السمآء> مطرٌ غزير تسقي أراضي القلوب لتحييها، نازلة من سماء الوحى الأخير، ساترة على كافة الأنوار، فانها نور الأنوار، وشمس مضيئة لاقِبَل لها، وهذا من ظلماتها، وأُخرى أنها تُظلم على القلوب الخاوية الظالمه الخاسرة: <وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلاّ خَساراً>(٨٢) ومنها القلوب المقلوبة المنافقة! وثالثة أنها تصاحبها ظلمات العرقلات ممن يقفون لها بالمرصاد، ورابعة أنها هطلت ونزلت في أُجواء مظلمة من أضغاث أحلام وخرافات أوهام!

ومن ثم رعدها هو صوتها الجلى العالى، الواصل إلى آذان مَن لهم آذان، الصارخ فيها صرخة الحق النافذة في الآفاق والأنفس <وَ قُلْ لَهُمْ في أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا>(٤:٦٣) فهذه آذان الناس، وأما النسناس: فـ <يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ>(١٩) حيث <يحسبون كل صيحة عليهم>: فيجعلون أصابعهم في آذانهم من صيحة الحق وصرخته حذر الموت: وهي التي تحييهم، وهذه الحيطة الإلهية حيطة عذاب بعلم محيط وقدرة محيطة، فرغم نفاقهم العارم، ليس الله بغافل عما يعملون: <بَلِ الّذِينَ كَفَرُوا في تَكْذِيبٍ(١٩) وَ اللّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ>(٨٥:٢٠) فهنا الله يحيط بهم حيطةَ عذاب عن علم وقدرة، وللمؤمنين حيطة رحمة عن علم وقدرة: <أَلا إِنَّهُمْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ>(٤١:٥٤) مهما اختلفت الحيطة نقمة ورحمة، فإنها من مصدر علم وقدرة!

ومن ثمَّ برقها: نورها الشامل كالشمس في رابعة النهار، النافذ إلى الأعماق، حيث

إن نور البرق تختلف عن سائر النور، ولأن أبصارهم كليلة وأنفسهم عليلة <يكاد البرق يخطف أبصارهم> هذا البرق المنير، الهادى لكل بصير في الظلمات، يكاد يخطف أبصارهم: ياخذها بسرعة حسداً منهم وخوفاً <كلما أضاءَ لهم> إضاءَةً في ظل إسلامهم الظاهر، وإفادةً من ميِّزاته في حال او مال او منال <مشوا فيه> منتفعين كأنهم من المسلمين <وإذا أظلم عليهم> ببلايا او رزايا للمسلمين، في حروب دامية فنقص من الأموال والأنفس والثمرات ـ <قاموا>: وقفوا عن كل حراك، وتنّحوا عن العِراك فراراً دون قرار، زحفاً عن معتركات الحروب.

فالإِسلام مطر غزير دائم، إلاّ ان فيه ظلمات العقبات في حروب ومعاركات سِجال: غالبين أحياناً فبرق، ومغلوبين أُخرى فظلمات، كما فيه نور الخيرات وكلها خيرات!

هؤلآء المنافقون هكذا يعاملون مطر الإِسلام الغزير بظلماته ورعده وبرقه، فبرقه لهم خاطف الأبصار. ورعد الصاعقة منه صامة الأسماع، أترى هذه أبصار وأسماع الإِنسان!

وإذ لاينتفعون بها <وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنّ اللّهَ عَلي كُلّ شَىْءٍ قَديرٌ>(٢٠) ولكنه يبقيها لدوامة الحجة عليهم.

وإنه مشهد عجيب رهيب، حافل بالحركة الثورة، مشيج باضطراب، فيه أضواء وأصداء، وفيه ظلمات وعماءٌ.

فهناك ظلمات طامة عامة كانت شاملة للعالم أجمع قبل بزوغ الإسلام، وفي هذه الظلمات المتراكمة هطلت غيزيرة أمطار وحى القرآن <كصيب من السماء> لتسقي أراضى القلوب الواعية، فمن خلال هذه الظلمات أرعد القرآن وأبرق، فتجاوبا في صاعقة نورانية روحانية، وتتفتح الآذان الصاغية، وتتصدع بها القلوب الواعية وتتصدى لها، وهي القلوب المؤمنة.

ولكنما المنافقين <يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللّهُ مُحيطٌ بِالْكافِرينَ(١٩) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ> إذ لايريدون إبصاره ولايحبون

قراره فـ <كلما أضاء لهم> إضاءة خاصة للمتاجرين بالدين، المتظاهرين بالإسلام مغَّبة الإنتفاع <مشوا فيه> مستفيدين، كما في حالات الصلح او الحرب الإسلامية الغالبة، وفي سائر الميزات الإسلامية ـ <و> أما <إذا أظلم عليهم> في حرب مغلوبة، او فضيحة لهم بما يعرِّفهم الله <قاموا> وقفة عن كل حِراك اللهم إلاّ ضد الدعوة!

فهذا الصيِّب البرق الصاعقة للمؤمنين به ضوء دائب، ونور واصب، في الصلح والحرب، غالبين ومغلوبين، في الأفراح والأتراح، ولكنه بالنسبة للمنافقين ضوء أحيانى وظلمة أُخرى، حسب مختلف الحالات <كُلّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قاموا>!

حيث الإضاءة، والإظلام هي فقط بالنسبة لهم، فانه للمؤمنين إضاءَة على طول الخط وفي كافة الأحوال.

مشهد حسى واقعي يمثِّل حالة نفسية عن المنافقين كأنها محسوسة، تجسيماً لأحوال هذه النفوس البئيسة في كافة حالاتها وتصرفاتها ومواجهاتها للصيِّب الهاطل القرآنى، الراعد البارق الصاعق! <يكاد البرق يخطف أبصارهم> من قوة إيماضه وشدة التماعه: <يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار>.

هنا يتم استعراض الصور الثلاث: المتَّقين ـ الكافرين ـ المنافقين ـ ومن ثَمَّ خطاب عام للناس اجمعين لكى يصبحوا من المتقين.

<أَ لَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوانُهُ ثُمّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّا ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطامًا إِنّ في ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِى الْأَلْبابِ>(٢١)

<أنزل> هنا دون <ينزِّل> تدل على نزول سابق، فهو نصيب الأرض من ماء السماء حينما كانت يابسة عطشى، فروِّيت بما السماء <وَ أَنْزَلْنا مِنَ السّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ>(١٨:٢٣)

ورؤية ذلك الإنزال هي علمية كشهود، تخص حضرة صاحب الرسالة العظمى5 ثم

تعم كل من يعلم أن ماءَ الأرض كله من السماء على ضوء الوحى، أم الكشوف العلمية التي أثبتته.

<أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ> والسلوك هو النفوذ في الطريق، وقد نفذ الماء في الأرض فأصبح ينابيع تنبع من تحتها ماءً صافياً ضافياً بلا كَدر ولاضرر، بعد ما أخذ من الأرض بفضاءها كل ضرر و كدر، فالأرض مَصفاةٌ لمياهها.

وهذه الينابيع بين فوّارة أرتزية، وفائرة فوق الأرض، أم تتكشف آباراً تحت الأرضية، ويد الله تمسكه فلا يضيع ويذهب في الأغوار البعيدة بحيث لاتنال الأيدى البشريَّة!

<ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوانُهُ> بذلك الماء المنزل من السماء[1] من عيونه وآباره وأنهاره وأمطاره، دون خصوص الينابيع حيث لاتكفي ولاتتوفر في كل أكناف الأرض ومناكبها.

أم إنه الينابيع للأغلبية الساحقة من تروية الأرض بها، ولاحصر هنا ينافى ترويِّها بالأمطار، ولكنه يناسب إفراد الضمير إلاّ بتأويل ماء الينابيع وهو عليلٌ.

وهل إن <زرعاً> يخص نبتاً على غير ساق؟ وهو يُخرج كلَّ ساق ودون ساق!

والزرع لغوياً هو مطلق الإنبات! إلاَّ أن في مقابلته بالأشجار دليلاً على اختصاصه بغير الأشجار كما في آيات عدة[2] ولكنه دون مقابل قد يعم الأشجار، كالظرف والمجرور إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا إجتمعا، اللهم إلاَّ الاشجار حيث لاتعم النبت دون ساق، وعلى أيةحال فلا ريب في أغلبية استعمال الزرع في غير الأشجار، ولكن قرينة الموقع هنا وعدم اختصاص اللغةبغير الأشجار يعمّانه للأشجار، ولكنما الموقع يخصصه مهما

---

[1] . رجوعاً لضمير المفرد الى <ماءً> دون <ينابيع>.

[2] . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب <١١:١٦> وجنات من اعناب وزرع ونخيل> (٤:١٣) <جنات مشعروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً اكله>(١٤١:٦) <وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً> (٣٢:١٨) <وزروع ونخل طلعها هضيم> <١٤٦:٢٦>.

عمَّت اللغةلمكان الهَيْج والإصفرار والحطام المتواصل ولايناسب إلاَّ غير الاشجار <زرعاً مختلفاً ألوانه> بماء واحد وتراب واحد مهما اختلف الحب والنوى، أفلا يدل ذلك على تصميم قاصد من إلّه واحد؟<ثم يهيج> يجف لحد النهاية في اليبوسة <فتراه مصفرّاً> بعد اخضرار <ثم يجعله حطاماً> من تبن وحشيش: <فَأَصْبَحَ هَشيمًا تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللّهُ عَلي كُلّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا>(١٨:٤٥)

<ان في ذلك لذكرى لأولى الألباب> تذكرهم بحكمة وإقتدار ورحمة متواصلة، وأن الدنيا دار بلاء وامتحان وممرٍّ الى مقر فخذوا من ممركم لمقركم، وان الموت هو النهاية، ومن ثم حياة، كما الزرع يموت ثم يحيى.

كروية الأرض

(١)

<أَ فَلَمْ يَرَوْا إلى ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السّماءِ إِنّ في ذلِكَ لَآيَةً لِكُلّ عَبْدٍ مُنيب>(٩)

أترى :< ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السّماءِ وَ الْأَرْضِ> هو افق السماء والأرض؟ وصحيح التعبير عنه <ما تحت ارجلهم من الأرض وما فوقهم من السماء>!

ام <ما بين ايديهم وماخلقهم> من كلٍّ من السماء والأرض أماماً وخلفاً؟ وتبقى الجهتان الأخريتان يميناً وشمالاً، حيث الأربع هي الأفق المشهود من السماء والأرض!

ام لاهذا ولاذاك، وانما هي تلميحة لطيفة عميقة الجذور، بطيئة الظهور لكروية الأرض ودورية السماء، فـ <مابين ايديهم> من الأرض هو الافق المشهود الدائري لكل شاهد في أكناف الأرض، ثم <وما خلفهم> هو الأفق والآفاق غير المشهودة، فليس <خلفهم> إلا خلف الأرض، وراء الافق الظاهر، اذاً فليست الأرض مسطحة، بل هي مدوَّرة مكورة لها من كل جانب منها ظهر وجاه خلف.

ثم و <ما بين ايديهم> من السماء هو الأفق الظاهر منها لكل ناظر اليها في آفاق

الأرض، فـ <وما خلفهم> هو الأفق غير الظاهر فليكن خلف الأرض ـ اياً كان ـ ارض وسماء، أرض تحيط بها السماء من كافة مناكبها، فهى ـ اذاً ـ في السماء معلَّقة كسائر نجومها ومصابيحها!

وترى كيف استفهام الإنكار التنديد بمن كانوا يعيشون الزمن الذى كانت كروية الأرض فيه كفراً وخلافاً للاحساس والعلم[1]؟! <اوَلم يروا...> اجل لم يروا، وكان لهم أن يروا، والعلم قاصر، والجهل قاهر، والوحى عنهم به منقطع؟

علَّه لان وحى الكتاب كان يشير الى هذه الملحمة العلمية، ومهما كانوا هم مشركين، ولكنما الاختلاط بالكتابيين يجعلهم يعرفون امثال هذه الملاحم التي تهمهم علمياً مهماً لاتهمهم عقائدياً، ثم وهذه تحريضة علمية للأجيال ان يروا رؤية عينية او علمية <ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السّماءِ وَ الْأَرْض> فمثلها كمثل قوله تعالى:

<قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ>(١٠:١٠١)

---

[1] . في زوايا التاريخ ليست الأرض كروية فقد كان اول تصور للانسان في شكل الأرض انها بساط عظيم هائل لانهايه لعمقة يعتمد عليها قبو السماء كالسقف المرفوع، ولما تقدم في الملاحة وقطع البحار الواسعة اخذ يتصور ان الأرض سابحة في اوقيانوس من الماء لانهاية له وكان ذلك خطوة لتصور ان الأرض محوطة بدائرة وترتكز على جذور طويلة مثل الشجرة، وساد كذلك اعتقاد قديم بان الأرض بساط مستدير يقوم على اثنى عشر عموداً، ولكن على اى شيءٍ تقوم هذه العمد؟ فيجيب قساوسة في اوروبا في القرون الوسطى بانها تقوم على الضحايا البريئة من اهل الفضيلة والتقوى الذين لولا وجودهم هنالك لدكَّت الأرض وذهبت هباءً في الفضاء، وقد كان (انا كسيماندر) الاغريقى في القرن السادس قبل الميلاد يرى ان الأرض كالاسطوانة وان قطرها يساوى ثلاثة اميال ارتفاعها، وأنها سابحة في مركز القبو السماوى وانه لم يسكن منها إلاّ وجهها الأعلى، وتوجد اروبا في النصف الشمالى وليبيا او افريقيا وآسيا الجنوبى، ثم جاء من بعده بقليل الفيلسوف افلاطون وقال: ان الأرض مكعبه، لانه كان يعتقد ان المكعب اكمل الاشكال الهندسية فيجب ان يكون موطناً لافضل الكائنات وهو الانسان، وانه قبل انى قول علماء الغرب بكروية الأرض سبقهم الى ذلك من عهد بعيد علماء الشرق حيث تخيَّلوا ان الأرض كرويه وتنتهى شمالاً وجنوباً بجبال عظيمة الأرتفاع، ومنذ ١٥٠٠ سادت في الغرب نظرية تقول: ان الأرض بيضاوية انها سابحة في الأثير.

ثم وكان لهم قبل وحيه او اكتشافه علمياً ان يروه تاملاً وتعمّلاً للضرورة الملموسة لهم أن الأرض ليست مسطحة دون خلف كظهرها، لاختلاف الآفاق ليلاً ونهاراً!

وهناك آيات اخرى تشير الى دوران الأرض وكرويتها نأتى على تفسيراتها بطيّاتها، وآيتنا هذه <فلم يروا...> هي الوحيدة بين رِفاقها تدليلاً كالصريح على كروية الأرض وقد تزاملتها آية التكوير.[١]

وقال الادريسى وهو واحد الجغرافيين من العرب في القرن الحادى عشر للميلاد: ان نصف هذه الأرض البيضاوية مغمور في الماء وذلك ليحل مشكلة النصف المجهول، وكان بطلميوس في القرن الثانى للميلاد وهو من اشهر الفلكيين يرى ان الأرض مثل كرة مفرطحة من جانبيها كحبَّة القوطة، وجاء (ابيانوس) في ١٥٢٠ فقال: انها تشبه القلب، وصادفت نظريته ميلاً في قلوب قساوسة الدين في اوروبا فأيَّدوه قائلين انها قلب الله، وان هذه الكرة القلبية تشبه ارض المكتشف العظيم (كولمبوس) حيث تصوّرها مثل الكمثرى، فالنصف الكروى هو الشرقى والنصف المستطيل هو الغربى، والتمدد الذى اوجده فيه هو (العلم الجديد) الذى اكتشفه، واما (دانت) فقد تصوَّرها قبل ذلك بقرن في مثل هذا الشكل جاعلاً هذا التمدد لحجمه الذى صوَّره فكانت جبال المطهر تحت خط الاستواء بثلاثين درجة، بينما جعل (اورشليم) او (ريون) في الجهة المقابلة ليحفظ التوازن.

وظهر في ١٨١٩ في (سنت لويز) بالولايات المتحدة القبطان (جون كليفزسيمس) بنظرية عجيبة تعرف باسمه او بنظرية الكرات المتداخلة وهي أن الأرض او اى كوكب يتكون من عدة من الكرات المتلابسة والمشتركة في مركز واحد، وبين كل كرة والتي تليها فاصل مملوء بالهواء وعند القطبيين فتحة كبيرة في جميع هذه الكرات، ويرى ان الارض تتركب من خمس طبقات او كرات متداخلة وان فيها فتحتين كبيرتين عند

---

[١] . وهي <يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَي النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّي أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ>(٥:٣٩)

القطبين، يبلغ قطر الشمالية اربعة آلاف ميل وقطر الجنوبية ستة الآف ميل وان سطحي كل كرة او طبقة مسكونان فتوجد سكان في الأرض على السطوح المحدودية و السطوح المقعرَّة، وطلب الى المجلس النيابى بالولايات المتحدة ان يجهزه بسفينتين ليسافر إلى احد القطبين ويدخل من الفتحة الموجودة هنالك ليدخل الى سكان السطح المقعر الذى نعيش فوقه، وطبع المارشال (جاردنر) في ١٩١٣ م كتاباً في الولايات المتحدة عنوانه: سياحة الى داخل الأرض ـ ذهب فيه ان الأرض مجوَّفة ويبلغ سمك طبقتها التي نعيش عليها ثمانمائة ميل و أنها مفتوحة عند القطبين ويوجد في داخلها شمس ويبلغ قطر كل فتحة قطبية ألفاً وأربعمائة ميل.

وقال (مورية) في كتابه (علم الفلك اليوم) إن الأرض على شكل هِرَم، وهو يروى أن نظر تبين اختلاف أنصاف اقطارها وتحلّ كثيراً من النقط المعضلة في هذا الصدد التي لايمكن ان تفسرها أية نظرية أخرى، وهذه النظرية التي نشرها (تيوفيل مورية العالم الطبيعى الفرنسى إن هي إلا شرح وتأييد لنظرية (لوثيان جرين) العالم الانكليزى التي كانت مثاراً لجدال كبير في سنة ١٨٧٥ وهو يذهب الى ان الأرض هو ميِّتة الشكل، وان البحار تشغل بطوناً في سطوحه الأربعة بينما اركان هذا الهرم عبارة عن القارات الخمس، وقد بعث (مورية) هذه النظرية الهرمية للوجود بعد رفضها في ذاك العهد ليحللها العلماء من جديد في نور ما استكشف من العلم الحديث، والجدال قائم الآن في كل مكان على قدم وساق... (تفسير الجواهر ١٦: ١٣٧ ـ ١٤٠)

وبعد ان يروا ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والأرض، لهم بطبيعة الحال ان تأخذهم روعة من خسف الأرض ام سقوط السماء، حيث الأرض المعلَّقة في جو السماء غير مأمونة من أية حادثة هائلة، خسفاً في نفسها، ام سقوطاً لها في اعماق السماء، ام سقوط السماء كسفاً عليها لولا المُسكة الإلهية الرحيمة و <... إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ> في نفسها ام عن مكانها <أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ في ذٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ>(٩)!

ولقد سبق على مدار الزمن هذه التجربة المرة <وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ>(٢٩:٤٠) <أَ فَأَمِنَ الَّذينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ>(١٦:٤٥) <أم أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ>(٦٧:١٦)؟! سبحان الخلاق العظيم.

كرويَّة الأرض

٢

<خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَي النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّي أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفّارُ>(٥)

آية فريدة في تكوير الليل والنهار على بعض، قد تعنى معنىً فريداً من الملاحم الغيبية هو كروية الأرض ودَوَرانها.

تُكوير الشيء إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، فتكويره على شيءٍ ادارته عليه منضَّماً إليه، فكلٌ من الليل والنهار دائر على زميله منضّم إليه، فالكرة الأرضية تنقسم دائباً إلى أفقى الليل والنهار، متصلَين ببعض، وكلٌّ رَكْب الآخر دورياً، وكما هو الثابت علمياً والمشاهَد عينياً، فلا وقت من الأوقات إلاّ أن نصف الكرة ليل والنصف الآخر المقابل له نهار، فكلٌ مكوَّر على الآخر، وهما حسب الفصول والأيام في تبادل التناقص والتزايد: <يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ>(٢٢:٦١) وهما متلاحقان حثيثاً: <يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا>(٧:٥٤)

فكما تُدبِر الشمس عن أفق يقبل فيه الليل فيَغشى النهار في طلبه الحثيث، وكلما تُقبل يدبر فيه الليل فيَغْشَاه النهار! فلو لاكروية الأرض لاستحال تكوير كلٍّ من الليل والنهار على الآخر، فإما ليل فقط أم نهار فقط! ولولا دوران الأرض لاستحال إيلاج كل في الآخر، وغشيانه الآخر هو الآخر!

كَوْر الليل من ناحية وكور النهار من أُخرى يقتضيان دورين للكرة الأرضية، فلـولا كور السطح نهاراً! لم يكوَّر النهار على الليل، ولولا كور السطح المقابل ليلاً لم يكوَّر على النهار، حيث التقابل المسطح ليس كوراً، فإنما هو التقابل نصف الدائري لمكان الكورين.

فهذه الآية ترسم أنسق تعبير وأدقّه لكور الأرض ودورهـا حـول نفسـها وحـول شمسها، لانجده في الصلاحات الجغرافية طول التاريخ الجغرافي!

ثم في الآية ثلاثه مواضع تدلنا على إمكانية ولزوم المعاد الحساب:

<خَلَقَ السّماواتِ وَ ٱلأَرْضَ بِالْحَقّ>

فعلى حق الخلق فيهما يحق المعاد، ولو كان باطلاً لبطل المعاد: <وَ ما خَلَقْنَا السّماءَ وَ ٱلأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنّ الّذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلّذينَ كَفَرُوا مِنَ النّار>(٢٧:٣٨)

<ما خَلَقْناهُما إلاّ بِالْحَقّ وَ لكِنّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ>(٣٩:٤٤) فلو كانت الحيـاة هي الدنيا لحقَّ فيها الحساب، وإذ لاحساب هنا على الظلم الوفير فخلق العالم باطـل لـولا عالم الحساب.

ثم في تكوير كلٍّ من الليل والنهار على بعض تقريب لإمكانية الحيـاة بعـد المـوت وهما لإحياء الإنسان حياة لائقة كما أن الليل والنهار حياة في الأولى سُباتاً وإبصاراً.[1]

و أخيراً في جرى الشمس والقمر لأجل مسمّى دليل ثالث على أجل مسمّى.

<خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس واحِدَةٍ ثُمّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلأَنْعام ثَمانِيَةَ أَزْواج يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمّهاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْق في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللّـهُ رَبّكُـمْ لَـهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إلاّ هُوَ فَأَنّي تُصْرَفُونَ>(٦)

<خلقكم> نوعَ الإنسان الحالى في طوله التاريخى وعرضه الجغرافى، دون المخاطَبين فقط زمن النزول حيث الخطاب من زمرة القضايا الحقيقة، لاالواقعية الفعلية، فهى كآيـة النساء: <يا أَيّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمُ الّذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ

[1] . راجع تفسير الآية ٣٩ من الدخان ففيه تفصيل الدليل على البعث على ضوءِ حق الخلق.

بَثّ مِنْهُما رِجالاً كَثيرًا وَ نِساءً وَ اتّقُوا اللّهَ الّذى تَسائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنّ اللّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقيبًا>(١)

<من نفس واحدة> بادىء الخلق آدم ابوالبشر، دون ثانية وما يتلوه فإنه من نفسين اثنتين لاواحدة <ثم جعل منها زوجها> بعد ما خلق النفس الواحدة وفيها خلقكم جملة كبداية، جعل منها زوجها وفيه خلْقُكم تفصيلاً، ثم لا ثالث لتفصيل الخلق كما لاثانى لجملته، إذاً فمبدأ النسل الإنساني ككل في تفصيله ليس إلاَّ لتفصيل الخلق كما لاثانى لجملته، إذاً فمبدأ النسل الإنسانى ككل في تفصيله ليس إلاّ نفسين، وأسطورة الحورية والجنية، على تضارب الروايات فيها، لاتُوافق القرآن هنا ولاسيما آية النساء <وَ بَثّ مِنْهُما رِجالاً كَثيرًا وَ نِساءً> وهم <الناس> المخاطبون أجمع، فلوكان هنالك لبثٍّ الناس، رجالاً كَثيراً ونساءً، مدخل من ثالث ورابع لكذب القول <منهما> والآية في مقام العرض لواقع التناسل أولاً وأخيراً!

و <جعل منها زوجها> هنا و <خلق منها زوجها> هناك تعبيران عن خلق الزوج الأول المجعول لنفس واحدة و <منها> جنسية ونشوية، فهما متجانسان، لافى البداية فحسب، بل على طول الخط كما تلمح له <ثم> الدالة على التراخى، وليس خلقكم إلاّ بعد ما جعل منها وخلق زوجها، وهذه دلالة ثانية ترفض ثالثاً ورابعاً من حورية وجنية وهما ليستا <منها> ثم <زوجها> ناشئة منها في البداية ولاتنشأ الحورية والجنية من الإنسان على أية حال، كدلالة ثالثة على إبطال هذه الأسطورة، وتفصيل البحث عنه تجده في آية النساء مما يشي ككل بوحدة التصميم الأساسى لهذا الكائن الإنسانى مبدأً <نفس واحدة> و تناسلاً <جعل منها زوجها> دون تدخُّل لكائن آخر أوّلاً وأخيراً.

<وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمّهاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ فَأَنّي تُصْرَفُونَ>(٦) انزولاً من السماء إلى الأرض؟ وليس الله إلّه السماء فقط أو ما كان في السماء حتى يعني إنزاله لنا رحمةً إنزالاً من السماء <وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلاّ

بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ>(٢١:١٥) ومعلوم أن العِندية هنا ليست مكانية إذ ليس له مكان، وإنما عندية العلم والقدرة والرحمة، فتنزيله ككل، وإنزال ثمانية أزواج، إنزال لرحمته من عنده، نزولاً من عليائه إلى دنيا البشر <فإنزاله ذلك خلقه إياه>[١] كما <وأنزلنا الحديد...>.

هذا، ولايعنى الإنزال من السماء إلاَّ في تصريحة بالسماء <وَ ما أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السّماءِ مِنْ ماءٍ...>(١٦٣:٣) و <ثمانية أزواج> مفسَّرة في آية الأنعام <وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشًا كُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَ لا تَتّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(١٤٢) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ(١٤٣) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصّاكُمُ اللّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ>(١٤٤:١٤٢)

<يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ>

فلنا في بطون أمهاتكم خلق بعد خلق في ظلمات ثلاث، فهما الخلقان، وما هي الثلاث؟ <خلقاً بعد خلق> تشير إلى التطور الخِلقى الجنينى منذ النطفة إلى إنشائه خلقاً آخر: <وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظامًا فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ>(١٤:٢٣)

فـ <سلالة من طين> هي المنى الذى جعل في قرار مكين <أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى>(٣٧:٧٥) فـ <خلقاً بعد خلق> لاتعنى اثنين، وإنما تطور الخلق في مراحله السبع هذه.[٢]

---

[١] . نورالثقلين ۴: ۴۷۶ عن الاحتجاج للطبرسى عن اميرالمؤمنينΔ قال في الآية: فإنزاله..

[٢] . راجع آية العلق في سورتها من تفسير الفرقان ج ٣٠ ص ٣٦٣ ـ ٣٦، تجد فيه كيفية انعقاد النطفة ومايليها من الخلق بعد الخلق.

والظلمات الثلاث هي <ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة>[١].

وهى الكيس الذى يغلف الجنين، وهو يستقر في الرحم المستقر في البطن، ويدالله تخلق هذه الخليَّة الصغيرة في مراحلها وظلماتها الثلاث، وعين الله ترعاها، وهل للعلماء مع كشوفهم العلمية المتقدمة وجهودهم المتواصلة واحدة من هذه المراحل في الأضواء، فضلا عن السبع وفي ظلمات ثلاث.

وإنها رحلة قصيرة الزمن بعيدة الآماد، غريبة الأبعاد في مختلف التطورات لخليَّة هزيلة في تلك الظلمات إلى إنسان كامل الأعضاء! وهو محجوب في ظلمات ثلاثك ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، حيث لاحيلة عنده في طلب غذاء ولادفع أذىً ولااستجلاب منفعة ولادفع مضر، يجرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماءُ النباتَ فلا يزال ذلك غذائه حتى إذا كمل خلقه، واستحكم بدنه، وقى أديمه على مباشرة الهواء. وبصره على ملاقاة الضياء، هاج هذا الطَّلق بأمِّه فأزعجها أشد إزعاج ذا عنفة حتى يولد!

سبحان الخلاق العظيم!

رب إنك <ابتدعت خلقى من مني يمنى ثم أسكنتى في ظلمات ثلاث بين لحم وجلد ودم، لم تشهر بخلقى ولم تجل إلىَّ شيئاً من أمرى ثم أخرجتنى الى الدنيا تامَّاً سوياً>[٢] فـ <ذلكم الله له الملك لا إله إلاَّ هو فأنَّى تصرفون>؟ أفتعبدون ما لايضركم ولاينفعكم ولايخلق شيئا؟ <أم هذا الذى انشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار نطفة دهاقاً وعلقة محاقاً وجنيناً راضعاً ووليداً يافعاً>[٣]!

---

[١] . نورالثقلين ۴: ۴۷۷ في المجمع هو المروى عن ابى جعفرΔ وفي كتاب التوحيد للمفضل بن عمر المنقول عن ابى عبداللهΔ في الرد على الدهريَّة قال: سنبتدىء يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به، فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم.

[٢] . من دعاء الامام الحسينΔ يوم عرفه: وابتدعت خلقى...

[٣] . نهج البلاغة عن الامام أميرالمؤمنين علىΔ.

حركات الأرض الأرض الراجفة

(١)

<يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ(٦) تَتْبَعُهَا الرّادِفَةُ>(٧)

آخر المطاف في هذه النزعات والنشاطات والسبحات، وفي سبقها وتدبيرها أمر الله، آخره هو يوم الرجفة والردفة.

<ترجف الراجفة>: توحي أن الأرض راجفة قبل قيامتها، وراجفة عندها: مرة رجفة الإماتة، وأُخرى رجفة الإحياء وهي الرادفة، فهذه رجفات ثلاث وتسبقها رجفة مجنونة قبل أن تُجعل ذلولاً <هُوَ الّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً> (١٥:٦٧).. رجفات شاملة مجنونة مرة، ومعمرة أُخرى تحافظ على الحياة والأحياء، ومدمرة ثالثة، وراجعة الأموات من أجدائهم أخيراً <فإذا هم بالساهرة> رجفات أربع تتلاحق!

تتسمى الأرض راجفة لحركاتها المتداخلة المعتدلة المعدِّلة، حيث الرجفة تعبير بليغ عن الحركات المتداخلة، فما هي حركات أرضنا التي كنا نحسبها جامدة؟

إن أرضنا من السابحات في بحر الجو في فلكها كزملائها السابحات: <وَ آيَةٌ لَهُمُ اللّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ(٣٧) وَ الشّمْسُ تَجْرى لِمُسْتَقَرّ لَها ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ (٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدّرْناهُ مَنازِلَ حَتّي عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَديمِ(٣٩) لاَ الشّمْسُ يَنْبَغى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللّيْلُ سابِقُ النّهارِ وَ كُلّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ>(٣٦: ٣٧-٤٠) سبّاحة في أعماق الفضاء، حول نفسها وعلى جادَّتها الفضائية كأنها تعقل كيف تسبح: <يسبحون>.

تسيّرها على مداراتها القوة الجاذبية العمومية، فهى تسير وتطير دون انزلاق عن أفلاكها ولاانفلات وتناثر عنها، بعمد لاترونها: <رَفَعَ السّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها>(٢:١٣) فثمَّ ـ في السماوات المرفوعة بأنجمها ـ ثم عَمَدٌ ولكن لاترونها، وعلها ـ أو منها ـ القوة الجاذبية العمومية.

وتكفينا آية الكفات إحياءً صريحاً لطيران الأرض وحركاتها: <أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتًا(٢٥) أَحْياءً وَ أَمْواتًا>(٧٧:٢٦) حيث الكِفات هو سرعة الطيران على تقبُّض فيه.[١]

فأرضنا هذه مسرعة في طرانها متقبِّضة ـ على ظهرها و في حضنها ـ أطفالها: أحياءً وأمواتاً، لولا انضباط حركاتها والقوة الجاذبية المتحكِّمة عليها لانفلتت أطفالها وتساقطت إلى أعماق الأجواء النازلة.. ولكنها كفات ويا لها من بركات في حركات، وعلى حد تعبير على أميرالمؤمنينΔ حين يعطف إلى عطف الأرض على أولادها: <وعدّل حركاتها بالرّاسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشمِّ من صياخيدها فسكنت من الميدان برسوّ الجبال في قطع أديمها> <... فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحِملها أو تزول عن مواضعها ا فسبحان مَن أمسكها بعد مَوجان مياهها، وأجمدها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً...>.

<وعدّل حركاتها>: إن لأرضنا هذه حركات متداخلة استحقت بها إسم الراجفة، أنهى علماء معرفة الأرض حركاتها الى أربعة عشر، وعلَّها أزيد.

.. هذه هي الرجفة المعمِّرة، ثم ترجف رجفتها المدمِّرة، رجفة الإماتة، ثم الرجفة الرادفة هي رجفة الإحياة <فإذا هم بالساهرة>.

أجل إن الراجفة هي التي ترجف، لا الجامدة، وما أحلى وأجلى هذا الإسم فيما كانت البشرية تنكره من حركات الأرض، فللقرآن متشابهات يفسرها الزمن.

إن للأرض ـعند قيامتها ومَن عليها ـ نفختان وصيحتان ورجفتان، كلٌّ رجفة إثر نفخة وصيحة ما لها من فواق، ونتاجها زجرة إلى الساهرة: أرض العرض والحساب.

<قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ(٨) أَبْصارُها خاشِعَةٌ>(٩)

وجفةً لقلوب مقلوبة تَتْبَعُ رجفة الأرض: حين الإماتة وحين الإحياء، والرجفة هي سرعة السير والحركة، فهى حِراك في اضطراب القلوب، تلي رجفتي الأرض.

---

[١] . تفصيل البحث عن الكفات إلى سورة المرسلات.

جوٌّ راجف وقلب واجف مبهور مذعور، وجفة من الرجفة التي تنقلهم إلى الساهرة: أرض الحساب والعقاب، وهناك ترى:

<أبصارها خاشعة>: أبصار القلوب وهي البصائر، تتبعها أبصار العيون: <وَ لا تَحْسَبَنّ اللّهَ غافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فيهِ الْأَبْصارُ(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعى رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ>(٤٣:١٤)

هذه هي القلوب المقلوبة المذعورة تتقلب يومذاك بأبصارها: <يوماً تتقلب فيه القلوب الأبصار> (٣٧:٣٤) <رب هب لى كمال الإنقطاع إليك وأنِر أبصار قلوبنا بضياء نظرها أليك>(على عليه السلام).

وهناك تخشع الأصوات <وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاّ هَمْسًا>(١٠٨:٢٠) وتخشع أبصار القلوب.. وتخشع من الإنسان ما لم تكن تخشع يوم الدنيا، فيوم القيامة تخشع خشوع الذل عن تقصير <وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعينَ مِنَ الذّلّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِىّ> (٤٥:٤٢) <خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الّذى كانُوا يُوعَدُونَ>(٤٤:٧٠) <وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ(٢) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ(٣) تَصْلى نارًا حامِيَةً>(٨٨:٢ ـ ٤)

قلوب و وجوده وأبصار هناك خاشعة من الذل ينظرون من طرف خفى: <يَقُولُونَ أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحافِرَةِ(١٠) أَ إِذا كُنّا عِظامًا نَخِرَةً(١١) قالُوا تِلْكَ إِذًا كَرّةٌ خاسِرَةٌ>(١٢) فيما هي شديدة الإضطراب، بادية الذل، يجتمع عليها الخوف والإنكسار، والوجفة والإنهيار، وهذا هو الذي يتناوله القسم بالنازعات إلى السابقات سبقاً والمدبرات أمراً.

<يَقُولُونَ أَ إِنّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحافِرَةِ>(١٠)

متحدثين عن وهلتهم وانبارهم إذ يقومون من أجداثهم خُشّعاً كأنهم جراد منتشر، يقولونها في خبال وذهول، متسائلين سؤال الوحشة والدهشة، عن رجوعهم إلى الحياة بعد نكرانها في حيونة الحياة الدنيا، ويقولون ـ هذه ـعلّها جواب الأقسام الماضية.

فما هي الحافرة التي يخافونها؟ أهى القبر؟ ولاترجع الأحياء يوم الإحياء إلى القبر! وليس في هكذا رجوع خوف، بل هو ما يتمناه الكافر إذ يقول: <يا لَيْتَنى كُنْتُ تُرابًا>.

أم هي القيامة، وليس ورودها ردّاً إليها إلاّ مرة واحدة؟

أم هي الحياة كما كانت: <الخلق الجديد> كما عن باقر العلومΔ:[1]

الأرض مهد ومهاد (٢)

فلقد كانت الأرض قبلكم ولم تكن مهداً، ثم الله جعلها لكم مهداً: متحركة بحراك دائب، فكما مهْد الطفل يحركه لإراحته، وهو مربوط بربطتين تربطانه والسفط عن السقوط والتبعثر، كذلك مهد الأرض فانها مربوطة برباطات منها القوة الجاذبية العامة، تربطان اطفالها عن السقوط في هُوَّات الأجواء البعيدة، وهي متحركة بحركات عدَّة متداخلة لطيفة حنونة، لحد لاندرك منها إلا كلَّ رياحة.

ومن ثم هي مهد المهاد <أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهادًا(٦) وَ الْجِبالَ أَوْتادًا>(٧:٧٨) حيث مهدت لحياة الانسان بسائر الأحياء المستخدَمة لصالح الانسان، فمهدت للانسان كل حاجيات حياته، مهداً حانياً على طفولة الانسان يضمه ويرعاه، ويمهده ـ ان سلك فيها سبيل ربِّه ـ للحياة الاخرى، وهي احرى من الأولى وأرقى.

فـ <سلك لكم فيها سبلاً> لاتختص بالسبل الحيوانية لحياته، بل وانسانية الحياة هي الأهم الأحرى، <وَ أَنَّ هذا صِراطي مُسْتَقيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ> (٦:١٣)

وكذلك الامر في <وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجًا مِنْ نَباتٍ شَتَّى>(٥٣) نابتات نباتية وحيوانية وانسانية اماهيه <وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتًا>(٧١:١٧)

و <ازواجاً> هنا تعم الذكورة والأنوثة كظاهرة مطردة في كافة الأحياء الثلاثة الأرضية، والنبات يحمل في الغالب خلايا التذكير والتأنيث معاً في نبتةٍ واحدة، وأحياناً

[1] . نورالثقلين ٥: ٤٧٩ عن القمى عن الباقرΔ.

يكون اللقاح في نبتة ذكر منفردة كما هو الحال في الفصائل الحيوانية، وبذلك يتم التناسق في نواميس الحياة ويطرد في كل الفصائل والانواع.

وقد جمعت الآية عطية الخلق والهدى، الناحية منحى هدى الإنسان الى غايته القصوى، اعطى الأرض خلقها ثم هداها بتمهيدها لطفولتها التي تحتضنها بمدها، وسلك سبلها ثم هداها ان سبَّلها لإنسانها في مختلف سؤله روحية ومادية، وانزل من السماء ماءً ثم هداه وهدى الأض ان اخرج منها ازواجاً من نبات شتى.

<كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النَّهي>(٥٤)

<كلوا> من نباته الشتى <وارعوا أنعامكم> منها، ان في ذلك الإنعام لكم وللأنعام <لآيات> تدل على توحيد الله والحياة الأُخرى وما بينهما <لأولى النُهى>.

و<النُّهى> جمع النُّهيَة وهي العقل الناهي عن القبائح كلها، حيث التاء هنا للمبالغة كما في العلاَّمة، فلم يقل <اولى العقول> حيث العقل منه مدخولا يَنهى بل ويُنهى بناهية النفس ومن ناحيتها، ام لايَنهى ولايُنهى، بتْلة كأن لاكون لها ولاكيان، فلاتستعمل لصالح الحياة ولاطالحها، كالعقول المجنونة، او المحجوبة عن فاعلياتها.

وهذه الآيات انما هي <لأولى النهى> تلك العقول الناضجة الناتجة عن تعقّلات وتنهيات عن الهوى، فالعقل ما به الرحمن واكتسب به الجنان، فالذى في معاوية وكل طاغية هو النكراء والشيطنة، حيث تستخدمه الهوى وتربطه بنفسها فيصبح صاحبه كله هوىً دون أيَّة نُهىً، ورسل الله وائمة الهدى هم أفضل اولى النهى.[1]

<أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً>(٦)

إنها كانت أَرضاً ولم تكن مهداً ولامهاداً: <الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ>(١٠) ولاذلولاً: <هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ>(١٥:٦٧) كانت شماساً لاتذل لراكب ولاتحنّ

[1] . نورالثقلين ٣: ٣٨٢ في تفسير القمى حدثنى ابى عن الحسن بن محبوب عن علي∆.

لعائش.[١]

إن جعل الأرض مهداً ومهاداً وذلولاً يوحي بحقائق عدة كانت مجهولة لدى الإنسان حتى زمن نزول القرآن، وبعدها منها حراك الأض دائباً منذ خلقت إلا أنها كانت شماساً مجنونة الحراك، فجعل الجبال أوتاداً لهذا المهد لكى تسكن من المَيدان: والجبال أوتاداً

فإنها كان جبالاً ولم تكن أوتاداً، فأرساها الله تعالى في قطع أديمها: <وعدل حركاتها بالرَّاسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشُّمِّ من صياخيدها فسكنت من المَيدان برُسوّ الجبال في قطع أديمها> <فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بجملها أو تزول من مواضعها، فسبحان من أمسككها بعد موجانها وأجمدها بعد رطوبة أكنافها فجعلها لخلقه مهاداً وبسطها لهم فراشاً فوق بحر لجّى لايجرى وقائم لايسرى، تكر كره الرياح العواصِف، وتمخضه الغام الذوراف، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى>.[٢]

فهنا مسألتان هامّتان من أهم المسائل التكوينية: الأرض المهاد المتحركة، والجبال الأوتاد. ومن الضرورى لهذه المهاد المضطربة الشموس أن توتَّد لكى تسكُنَ عن الاضطراب على حركاتها، فإن بها مساك الأرض وقوامها واعتدالها وثباتها كما يثبت البيت بأوتاده والخباء على أعماده، مساكاً عن اضطرابها ومَيَدانها لاعن حركاتها <أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال وأرسالها على غير قرار وأقامها بغير قوائم ورفعها بغير دعائم وحصّنها من الأود والإعوجاج ومنعها من التهافت والإنفراج، أرسى أوتادها...>[٣]

فالارض المهاد، هي مهاد للحياد عامة، وللحياة الإنسانية بصورة خاصة، تمهِّد الحياة للانسان بسهلها وجبلها ومائها وفضائها وحركاتها، مهاد كالمهد، ومهد تريح الإنسان عن

---

[١] . <جعل> المتعدى إلى مفعولين، يفيد الجعل المركب، أى جعل الشيء شيئاً آخر لاجعله بمعنى خلقه ـ فـ <جعل لكم الأرض ذلولاً>، أى جعل حالة التذلل لها بعد ما كانت شماساً.

[٢] . نهج البلاغة في مواضيع عدة عن اميرالمؤمنين علي Δ.

[٣] . من خطب أميرالمؤمنين علىΔ، وسوف نأتى على بحث فصل حول حركات الأرض في سورة المرسلات وسواها، وحول أوتاد الجبال في أنسب مواضيعها.

أعباء الحياة بحركاتها المعتدلة المتناسقة المتلائمة.

فاختلال تسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض وخلق الحياة على الأرض، هذا الاختلال يخرجها عن الأرض المهاد إلى الأرض الشموس العتاد.

وجبال الأرض ـ الأوتاد ـ هي أشبه شيءٍ بأوتاد مهد الطفل، تحفظ توازنها في حراكها، وتعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال، وتعادل بين التقلُّصات الجوفية للأرض وتقلصاتها السطحية، ولأسباب أُخرى نجهلها، أشار القرآن الكريم إليها، ثم عرف الإنسان طرفاً منها يسيراً، على جهوده العلمية المتواصلة، وبعد مئآت السنين.

هذه الأرض المهاد والجبال الأوتاد، هي من البراهين الساطعة على وجود مدبِّر واحد عظيم عليم قدير حكيم، وإنها من أدلة النبإ الأول من الأنباء العظيمة: <نبأ التوحيد> إذ ليس بالإمكان أن يحصل هذا التدبير دون مدبِّر، أو يدبره أرباب متشاكسون.

خلق الأزواج

﴿وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجًا﴾(٨)

الزوج هو المماثل الملائم، فكما خلق الله الأرض والجبال متلائمين مع بعض، كذلك الإنسان خلقه الله أزواجاً: أزواجاً مع الأرض التي يعيشون عليها، ملائمة طباعهم معها؛ وأزواجاً بعضهم مع بعض في كافة النواحي الجسدانية والحيوية، دون منافرة ذاتية هنا وهناك.. أجل: <ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ>: منافرة ذاتية، اللهم إلا أن يتنافروا بينهم بسوء الإختيار.. ثم أزواجاً مع نبات الأرض وحيوانها إذ يعيش معها مفيداً لها مستفيداً منها.. فالكون كله أزواج رغم اختلاف الأشكال: فـ <سُبْحانَ الَّذى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ﴾(٣٦:٣٦) <وَ الَّذى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ﴾(٤٣:١٢) فهنا تزويج بين الإنسان والفلك والأنعام، وهناك بين الكون كله، وإن كان الإنسان هو من

أهم الأزواج، وله خلقت سائر الأزواج.

وهذه الملاءمة الذاتية بين أجزاء الكون، والإزدواجية الخلقية بينهما، إنها برهان آخر على نبإ التوحيد، توحى لنا وحدانية الخالق المدبِّر، لاسيما زوجية الذكورة والأنوثة الكافلة لرغد العيش، ولبقاء النسل وكثرته.

فقد خلق الله الإنسان ذكراً وأنثى: <يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثًا وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرانًا وَ إِناثًا وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقيمًا>(٤٢:٥٠)

وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقائهما، وكل إنسان يدرك ما وراءها من لذة راحة ومتعة وتجدد، ولأهمية ازدواجية الحياة نرى الآيات تترى في المنّ والتذكير بها.

فهل يا ترى أنها الفوضى: أن تصبح النطفة ذكراً، وأخرى مثلها أنثى ـ على وحدتهما في الصورة والمنشأ؟ سبحان الخلاق العظيم.

النوم السبات:

<وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتًا>(٩)

إن مهاد الأرض وأوتاد الجبال وازدواجية الكون بأنساله ـ على كونها من أهم النعم الدالة على نبإ التوحيد ـ إنها تبقى منفيَّة الأثر عديمة الثمر لولا أن الإنسان ينام، فكما أن حراك الإنسان في الحياة من النعم، كذلك سُباته: (قطعه) عن الحراك نعمة، لولاها لما استامت للإنسان حياة، واندثر كيانه قبل قيامه بصالح الحياة...

الأرض القرار

<اللّهُ الّذى خَلَقَ السّماواتِ وَ الْأَرْضَ في سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوي عَلَي الْعَرْش يُغْشِى اللّيْلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثًا وَ الشّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النّجُومَ مُسَخّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللّهُ رَبّ الْعالَمينَ>(٥٤)

أترى الأرض قراراً ساكنةً لاحِراك لها؟ فماذا نصنع بآيات حِراكها كالدحو والطحو والذلول والكفات والراجفة ويسبحون وأضرابها؟!

القرار من القَرِّ: البرد، مايلمح أن الأرض كانت حارة سريعة الحراك ومجنونة، لاقرٌّ ولاتحنٌّ لراكب كما دلَّت آية الذلول، ثم ذلت بعد شِماس وقرَّت بعد ارتكاس.

فالأرض القرار هي الباردة نسبياً بعد حرارتها البالغة، دون برودة مطلقة يسكن فيها الجسم عن أى حراك وهو موته وانعدامه، إذ لابد للمادة ـ على أية حال ـ من حركةٍ مَّا، ذرِّية وفوق الذرية أم دونها، حيث المادة هي الحركة، فقرار الأرض وغيرها نسبية جانبية، وهو هنا في بعدين، قرُّ البرودة وقرُّ الإستقرار الراحة لساكنيها، ومجرد جعل الأرض قراراً دليل أنها كانت غير قرار، حارة شموساً ثم قرَّت وذلَّت بعد شِماس <أَمَّنْ جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرارًا وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهارًا>(٦١:٢٧) فأنهار الأرض هي مجعولة بعد قرارها، فلم يكن قبله ماءٌ كلاءٌ لشدة الحرِّ الشِماس.

ثم و<لكم> تدلُّنا على قرارها النسبي لساكنيها، دون سكون أصلى لها، وعلى حد المروى عن الإمام علىΔ في شأنها <فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تَسيخ بحِملها أو تزول عن مواضعها...> <وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيت الشُّمِّ من صياخيدها فسكنت من المَيَدان برسوب الجبال في قطع أديمها>[1].. فقد عبِّر عن حركتها المعدَّلة بالسكون، سكوناً عن المَيدان والإضطراب لحد لايحس ساكنوها حركاتها! ثم وفي بناء السماء بعد قرار الأرض لمحة ثالثة لمعنى القرار، أنه السكن الراحة، وكما يستريح الإنسان في الطائرة دون صوت ولااضطراب، يعلم حِراكها ولايلمسه إلاَّ أن ينظر إلى السحاب حولها والأرض تحتها! وليس قرار الأرض لاستقرار الحياة ـ فقط ـ من خلفيات البرودة وتعديل الحركات، فهنا لك موافقات كثيرة خلَّفت ذلك القرار الراحة، المُمكِّن للحياة الناضجة المرتاحة.

---

[1] . نهج البلاغة عنهΔ في خطبتين.

فلو دارت الأرض حول نفسها أو شمسها أسرع ما تدور الآن لاندثرت هى، وتناثر ما عليها،وقضت نحبها بمن عليها!

ولو دارت أبطأ مما هي لبطلبت الحياة عليها أو صعبت، ولولا دورانها حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها، وتحولت الفصول إلى فصل واحد.

ولو كان الأوكسجين بدلاً عن ٢١٪ خمسين بالمائة تعرَّضت كافة المواد القابلة للاشتغال

ولو كان الأوكسجين بدلاً عن ٢١٪ خمسين بالمائة تعرَّضت كافة المواد القابلة للاشتغال لحرقها، ولو هبطت عن قدرها كعشرة بالمائة أو أقل لابتليت الحياة بقلَّة الحرارة اللازمة لتدوامها ونضجها.

<وهناك آلاف الموافقات المتشابكة لانعلمها، خلَّفت قرار الأرض كما نعيشها، لولاها لبطلت الحياة أم صعبت على ظهرها>.[١]

ونعمة ثالثة بعد قرار الأرض وبناء السماء <وصوركم فأحسن صُوَركم> لاكسائر الحسن في سائر الخلق، بل الأحسن المطلق الذى ليس فوقه. حسن <لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسانَ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ>(٣) مهما كان يساوى ويسامى في حسن بإنسان السماء <وَفَضّلْناهُمْ عَلي كَثيرٍ مِمّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً> حيث يبقى القليل غير المفضَّل ولا المفضَّل عليه، ولو وقفنا أمامَ صورة الإنسان: الجسمية ـ فضلاً عن صورته الروحية ـ وقفة دقيقة، بل وأمام كل عضو من أعضائه أو خليَّة من خلَّياته لقضينا عجباً على عجب، حيث يرجع إلينا البصر خاسئاً وهو حسير!

---

[١] . نهج البلاغة عنه Δ في خطبتين.

الأرض الكفات

<أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً(٦) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً(٧) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً(٨) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً(٩) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً(١٠) وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً(١١) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً(١٢) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً(١٣) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَ نَباتاً>(١٥)

هذا الإستفهام التقريرى في مقام تعداد النعم السابقة يوحي بأن كفات الأرض نعمةغالية فيها، تُشابه قرار الرحم المكين، لولاه لم تُكنْ أو لم تسغ للإنسان حياة، كما أن لقرار الرحم دورَه الهام في بداية المطاف، وهذه هي الحقيقة التي تساعدها اللغة والواقع، مهما تغافلت عنها قرون خلت، فتخيَّلت أن الأرض جامدة على قرنى الثور أو ظهر الحوت.[1]

إن آية الكفات هذه تُظهر الأرض بمظهر الطير المسرعة في طرانها، المنقبضة جناحيها، حيث الكفات هي <الإسراع في العدو و الطيران مع تقبُّض فيه>.[2]

وأوفق الوجوه في <كفاتاً> أدبياً ومعنوياً: أنها مصدرٌ، مفعولاً ثانياً لـ <نعجل> فقد كانت أرضاً ولم تكن كفاتاً، لاأموات فيها ولاأحياءَ، فلا تقبُّض لها لاللأحياء ولا للأموات، إذ كانت مجنونة الحراك محترقة، لاتحنّ لعايش: <هُوَ الّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

---

[1] . انها ليست ظهر الحوت أو على قرنى الثور، إنما هي كسائر الكواكب تسبح في جو السماء، وحديث الثور مقطوع في أوله، يعني غير ما عنوه، فقد سأل احد الزارعين الامام الصادقΔ ان لى ثورين أزرع بها الأرض، وانا كبير أريد ان أبيعهما فأعيش في عزلة العبادة بثمنهما؟ قالΔ: <لاتفعل فان الأرض على قرنى الثور> يعني زراعة الأرض في تلك الزمن، كما في زمننا على قرنى التراكتور.

[2] . كما في لسان العرب وتاج العروس وغريب القرآن وأمثالها، ففى التاج عن الزهرى: <كفت الطائر وغيره يكفت كفتاً وكفاتاً ككتاب وكفيتاً كأمير وكفتاتا>: اسرع في الطيران، والكفتان من العدو والطيران كالحيوان في شدة، ويقال: كفت الطائر اذا طار وتقبض فيه، والكفت في عدو ذى الحافر سرعة قبض اليد.

وفيه عن الصحاح: الكفت السوق الشديد، ورجل كفت وكفيت سرعى دقيق، وفرس كفيت وقنيض وعدو كفيت أى: سريع، وكذلك في اللسان وغيره.

ذُلُولاً>(١٥:٦٧)[١] فذلت بعد شماس، واعتدلت بعد ارتكاس.

كذلك الله جعلها كفاتاً: سريعة الطيران في جو السماء، شديدة التقبض حالته: أحياءً وأمواتاً، طائرة متقبضة كأنها الطيران نفسه، والتقبض نفسه، كما يوحى به المصدر <كفاتاً> نفسه.

وما أهمهما من أصيلن أصيلين في كيان الأرض، طالما غفل عنهما ساكنوها عبر قرون خلت قبل القرآن، وقرون بعده، بين مستند الى الحسِّ فمؤوِّلٍ لآيات حركات الأرض، وساكتٍ عنها شاكٍّ فيها حتى فسَّرها العلم، فليس العلماءُ بعد القرآن هم الكاشفين عن حركاتها، ولا ان (كبرنيك ونيوتن) هما اللذان أبديا نظرية القوة الجاذبية، رغم ما يزعمه الزاعمون.[٢] <وإن للقرآن آيات متشابهات تفسِّرها الزمن>.

---

[١] . راجع سورة الملك الجزء ٢٩ في تفسير آية الذلول.

[٢] . مضت قرون والبشر تزعم الأرض جامدة على قرنى الثور أو الحوت أم ماذا؟ وأول من تجرءَ على خلاف هذا المحسوس! (فيثاغورث الحكيم ٥ ق م) ثم تبعه (فلوترجوس وارشميدس) ثم أيدها بعد قرنين (ارسترجوس) وأبدى نظرية حركة الأرض حول الشمس، ولذلك كفَّروه، وبعد نصف قرن أوضح (كليانتوس) ان الأرض محكومة بحركتين الوضعية والإنتقالية، فألحقوه بزملاءه الكفرة، وبعد قليل قام (بطلميوس) ضد هذه البدعة! ولذلك سمى بعلامة القرون ومحيى العلوم.
إن الهيئة البطلميوسية أخذت من الشهرة والاعتماد مبلغاً وافقها جماعة من المسلمين كأنها وحى السماء، فأولوا آيات وروايات تدل على حركات الأرض، كأن كتاب بطلميوس هو كتاب الوحى الأصيل، يحق تأويل القرآن لأجل الحفاظ عليه! طاما النبهاء منهم كانوا بين مخالف أو ساكت.
ثم بعد الألف من الهجرة أخذ (غاليلة) يبحث بصراحة عن حركتى الأرض، ولذلك سجن وأحرقت كتبه في المجتمع الأوروبى، ولقد كان القرآن أصدق شاهد لهذه النظرية المسجونة المهانة.
ان القوة الجاذبيه التي توحى بها آيات بينات، ليست هي القوة المغناطيسية، إنما هي قوة مرموزة تستفيد منها كافة الجاذبات في الكون، ولو ان ارضنا ما كانت كفاتاً أحياء وأمواتاً، فلم تملك القوة الجاذبية، لم يكن لها قرار عليها، ولا امكانية التنفس فيها، فمن فضل هذه القوة ترى الكواكب السيارة تسير حول مداراتها الخاصة دون انفلات عنها كأنها تسير على جادة حديدية ثابتة.
هذه القوة توجد في أبعد الكواكب والمجرات التي تسير في مسايرها كل ثانية مآت الأميال.
السماوات تسير حول فلكها كل ساعة مائة الف كيلومتراً، ولايستطيع أى إنسان مواجهة الرياح بهكذا سرعة، ورغم ذلك يعيش على هذه السفينة الفضائية في كمال الطمأنينة والارتياح، وحسه ينكر حراكها.

فأرضنا هذه محكومة بحركات عدة أنهاها العلماء الى أربعة عشر[١] وكما توحى بها: <يوم ترجف الراجفة>[٢] حركات متداخلة يعبّر عنها بالرَّجفة، وقانون الفرار عن المركز يقتضى فرار ما عليها متناثرة الى أعماق الأجواء، وكذلك تفسُّح الأرض نفسها، ولكنها كفات تقتبض الأحياء والأموات، بقانون مكافح قانونَ الفرار، تبديلاً له بالقرار: <اللّهُ الّذى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ قَرارًا>(٦٤:٤٠) وهو الجاذبية المعمومية التي اعتبرت كجناحين لهذه العجيبة: <كفاتاً. أحياء و أمواتاً> تقبض على ظهرها ما عليها، بهذه الأجنحة غير المرئية: <الجاذبية> وكما أن السماء بكواكبها مرفوعة بها: <اللّهُ الّذى رَفَعَ السّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها>(٢:١٣) <فثمَّ عَمدٌ ولكن لاترونها>[٣] وهي أو منها الجاذبية العمومية التي تقبض بها الأرض الكفات الأحياءَ والأموات.

كما وان الرواسى الشامخات عدّلت حركاتها ومنعتها عن التهافت والانفراج: <و عدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها. فسكنت من المَيَدان برسوب الجبال في قطع أديمها> ـ <فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحِملها أو تزول عن مواضعها>.[٤]

ولقد تُجاوب آيةَ الكفات آياتٌ أخرى بيّنات في حركات الأرض، تتجلى لكم في طيات الكتاب، كآية المهد والمهاد والقرار والذلول ويسبحون[٥] فانها تتجاوب في أن كُرَتنا الأرضيه طائرة قوية، وسفينة جوية، تسبح في البحر المحيط كبحّارة دائبة الحراك

---

[١] . كما عن (فلاماريون) و (فيلكس) قبله كان يقول باحدى عشر حركة، وبالامكان تستكشف حركات لها أُخرى في المستقبل.

[٢] . راجع ج ٣٠ ص ٧١ حول آية الراجفة.

[٣] . كما عن الامام بن محمد على الباقرΔ.

[٤] . نهج البلاغة عن أميرالمؤمنين علىΔ وعن الامام الصادقΔ <ان حركات الأرض وسكانها من جملة أدلة حدوث العالم> (الاحتجاج الطبرسى).

[٥] . وهي على الترتيب <الذى جعل لكم الأرض مهداً>(٥٣:٢٠) <ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال اوتاداً>(٧:٧٨) <هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً> (١٥:٦٧) <وآية لهم الأرض الميتة.. والشمس تجرى.. والقمر قدَّرناه .. و كل في فلك يسبحون> (٣٦: ٣٣ ـ ٤٠)

والمَيدان، مهداً لأطفالها، ومهاداً للحياة عليها، وذلولاً لركبها دون شماس وشراس وانطماس، وإنما حنونة رئوفة لايحس أولادها بحركاتها السريعة لحد نكرانها فيا لها من أمان رغم المَيدان!

<أحياءً وأمواتاً>: علّ الأحياء هنا تشمل أصول الحياة كالأوكسيجين، فَكُرة الفضاء المحيطة بسفينتنا الأرضية، تبعد عنها قرابة مائة كيلومتراً، وهي مركبة من أو كسيجين وأزوت وأرجون، وكافة نباتات الأرض وحيوانها و إنسانها بحاجة حيوية الى هذه الكرة التي تعتبر حياةً للأرض وما عليها.

ففى حالة نقصان الأوكسيجين أو فقدانها لاواقع للحياة على وجه الأرض، فإنها مادة ضرورية للتنفس أولاً، ولتركيب الماء منها ثانياً، وقد جعل منه كل شيء حيّ، فالأوكسيجين بأصلها وتراكيبها هي أصل الحياة، لا للنبات والحيوان والإنسان فحسب، بل لمثل النار كذلك فانها تخمد لولم تستمد بأوكسيجين الفضاء.

فلو لم تكن الأرض كفاتاً، تتقبض بالجاذبية كرةَ الأوكسيجين، لتكافح قانون الفرار عن المركز وخفّة الأوكسيجين، في فرارها وانهيارها عن الكرة الأرضية، لماتت الأرض وما عليها!

ومن جهة أخرى: إن كرة الفضاء الحائلة حول الأرض التي قطرها ثمانمائة كيلومتراً، إنها تعتبر مدرَّعة مجنزرة تحافظ على الأرض من عشرين مليوناً من الأحجار السماوية التي تقصدها بسرعة ٥٠ كيلومتراً في كل ثانية يومياً، فلو لم تكن الأرض كفاتاً لانصدمت بهذه النيازك النارية والقاذفات الجوية، فتدكدكت.

إن هذا الجو المدرع ـ إضافة الى هذه المكافحة الخارجية، ـ يعدّل درجة الحرارة على سطح الأرض، وينقل الذخائر اللازمة من الماء وبخاره، من البحار الى البرارى والقفار، فلو لم تكن الأرض كفاتاً لأصبحت القارات كلها قاحلة يابسة.

ثم بقية الأحياء من حيوان وإنسان، تعيش على طمأنينة تامة، وتمشى على مناكبها، فلولا جاذبية الأرض الكفات، لانفلتت الى اعماق الأجواء، ولولا كفات الحركات

المنتظمة المعدّلة لاستحالت عليها الحياة في الحركات الراجفة، ولكنها كفات ويا لها من بركات!

ومن ثمَّ الأموات التي لامُسكة لها في قرارها على وجه الأرض، فلولا كفات الأرض لانفلتت الى غيرها، فيا لها من كفات كافية للحافظ على الأحياء والأموات!

ومن أهم ما يحافظ على طمأنينة الأرض وما عليها، لحدّ لاتُحسّ حركاتها، أنها تتحرك مع كرة الفضاء المحيطة بها فلا يُحسُّ حراكها، كمن يقفز من طائرة، فإنه يرجع الى مكانه الأول، لأن الطائرة تطير بفضاءها، خلاف ما إذا لم تكن مسقَّفة، إذ لاتطير بفضاءها، كذلك الأرض تطير بكرة الفضاء، المدرّعة حولها، فلذلك لاتبدوا حركاتها لركابها.

هذا هو المعنى الشامل لكفات الأحياء والأموات، وقد يشمل قبور الأموات وبيوت الأحياء دون اختصاص بهما، فإنهما ليسا من ضمنيات جعل الأرض، وإنما من فعل المخلوقين، والآية في مقام الإمتنان بما خلق الله، لابما فعل الناس.[1]

فيا لكفات الأرض من بركات في جاذبيتها وحركاتها، للأحياء وللأموات! ويا لرواسيها الشامخات ومياهها الفرات من خيرات، لولاها لم تكن لأهلها حياة، سبحان الخلاق العظيم!

<وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ>(١٥)

<انطلقوا>: تخلّوا وتحلّوا من وَثاق التكذيب وأسره، الى حرية التصديق: بما كنتم به تكذبون، في تأنيب مرير وإيلام عسير، <انطلقوا> متحللين عن رهانة ثالوث التكذيب: بالله ورسوله واليوم الآخر، بثالوث ترك التصديق والإقرار والعمل الى ثالوث العذاب: <ظل ذى ثلاث شعب>: سرادقات ثلاث تحيط بكم: <إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظّالِمِينَ نارًا أَحاطَ

[1] . القمى: نظر أميرالمؤمنينΔ في رجوعه من صفين الى المقابر فقال: هذه كفات الأموات أى مساكنهم، ثم نظر الى بيوت الكوفة فقال: هذه كفات الأحياء ثم تلا قوله: <ألم نجعل الأرض كفاتاً، أحياء وأمواتاً> وفي معانى الأخبار للصدوق مثله عن ابى عبدالله الصادق>، (نورالثقلين ٥: ٤٨٩) أقول وهذا من باب الجرى والتطبيق لاالتفسير، وإنما بياناً كما كان يفهمه الناس في تلك الزمن، ولقد فسر العلم كفات الأرض كما تصدقه اللغة أيضاً.

بِهِمْ سُرادِقُها>(٢٩:١٨) <لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ> (١٦:٣٩) اِنطلقوا الى ظلٍّ <لاظليل ولايغنى من اللهب> رغم أن من فوائد الظل أنه ظليل عن وهج النور والنار، ولكنه ظل حار لافح خانق، أشد حروراً من النار: <وظل من يحموم>(٤٣:٥٦) يزيد أهلها تغلغلاً في زبانيتها وشرَرها القصر، وانه ظلٌ نارها بدخانها دون نور، <إنها ترمى بشرر كالقصر> كما أنهم طول حياتهم الشريرة النكدة كانوا يرمون بشرر من قصورهم، كذلك ثالوث ظلهم في النار <ترمى بشرر كالقصر. كأنه جمالة صفر>: جمالة صفر ترتع هنا وهناك، وتحرق القصر بأصحابه..

<هو الذى .. وإليه النشور>.

نستوحي من جعل الأرض ذلولاً أنها كانت قبلئذٍ شماساً غير ذلول، وبما أن الذِلَّ ما كان بعد تصعُّب وشِماس، والذلول هي الدابة التي ذللت بعد شماس، نتأكد أن أرضنا هذه تحكمها حركات متلائمة كالدابة الذلول، لحدٍّ كأنها دابة، وقد ذكرت لها مناكب كما للدابة: <فامشوا في مناكبها>!

فمن رحمته تعالى أنه جعل أرضنا الشموس، المحترقة المجنونة، التي ما كانت تذل لراكب، ولاتحنّ لعايش، جعلها لنا كالمركوب الذلول، ممكِّنة من الاستقرار عليها، والتصرف فيها، طائعة غير مانعة، ومذعنة غير مدافعة، <فامشوا في مناكبها>: في ظهورها وأعاليها، <وكلوا من رزقه وإليه النشور>.

فيالحركات الأرض من نعمة في ليونتها ونعومتها، لحدٍّ ما كانت البشرية تحسّها ولمّا، ولاتصدقها حتى برهن لها العلم، وقبله صرَّحت بها آيات بينات، منها آية الذلول، مهما أوّلها المفسرون الأُوَل خلاف نصه زعمَ سكون الأرض، وحتى الآن لايكاد يصدقها المؤمنون غير المثقفين!.

هذه الوالدة الحنونة، تُنوِّم وتُعيِّش أولادها، وأفلاذ كبدها، بحركاتها الناعمة الليِّنة، حركات لولاها لانصدمت الأرض ومَن عليها، بما لم يكن ليجبرها أىُّ جابر.

فالأرض جعلت ذلولاً في حركاتها وحرارتها وجرمها وكل ما يصلح للحياة فيها،

وهذه هي غاية الذل ومبالغته المستفادة من صيغة المبالغة <ذلول>.

وآية القرار: <اللّهُ الّذى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ قَـرارًا>(٦٤:٤٠) ليسـت بـالّتى تُسـكن الأرض عن حراكها، بل تُقر الأرض في حركاتها، إذ <القرّ> أصله البرد، إيحاءاً بسـابق حرارة الأرض وشماسها في حركاتها المجنونة، فجعلها ذلولاً، ومن ذِلِّها قرارُها: برودتهـا لحدّ تحنُّ لعائشيها وراكبيها أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

ثم نجد آيات: <الكفات>، و <المهاد>، <والراجفة (التي) تتبعها الرادفة> و <كـل في فلك يسبحون> نجدها تصريحات في حركات الأرض، كما درسنا وندرسها في طيّاتها.

فمن أسباب جعل الأرض ذلولاً جبالها الرواسى وكما في خطبة لعلـىΔ: <وعـدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها> ومنها تبريدها عن حرارتها الزائدة <اللّهُ الّذى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ قَرارًا>(٦٤:٤٠)

إن هذه الجبال الشاهقة الخُشن الملامس، الصعبة المسالك، التي جعلت للأرض أثقالاً وأوتاداً، وللخلق معقلاً، إنها مع سائر المرتفعات هي مناكب الأرض، وقد ذللها الله تعالى على شموخها أن نمشي عليها ونستثمرها لصالحنا، أو نفجِّرها أو نستفجرها لصالحنا، ثم الأرض ذلول لنا، لاليِّنة لانتماسك عليها، ولاصعبة لانقدر على حفرها وزرعها، ولـولا أن الله تعالى جعلها ذلولاً لما أمكنت من التصرف على ظهرها، ولامَثبـت قـدم عليهـا، ولامسرح نعم فيها، سبحان الخلاق العظيم!

<جعل لكم>: أما كانت الأرض قبلنا ذلولاً؟ وولادتنا نحن الأناسى من آدم ليسـت إلا زهاء قرون، والأرض تعيش وتعيِّش العائشين عليها منذ ملايين السنين!؟

الجواب: أن <لكم> لايخصنا نحن الإنسان من ولد آدم الأخير، بـل تعـم كـل مـن يستأهل الخطاب بـ <كم> ممن عاش على وجهها منذ الملايين من السـنين، وكمـا عـن الإمام الصادقΔ: إن الله تعالى خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنت في آخرهم.

فـ <كم> هنا، تعنى عامة المكلفين العائشين على وجه الأرض، منذ جعلت ذلولاً، أو ان الخطاب هنا تختصُّنا تشريفاً وتكريماً لنا، كأنما الأرض ذللت لنا، وقد كانت مذللة لمن

سبقنا. فقد أخذت الأرض ـ بجوِّها ـ تقبل بخار المياه وتُبد لها ماءً، وتقبل مياه السماء واختباءها في عيونها، وإنبات الأرض نباتها، فإعاشة حيوانها وإنسانها، وكما نجد عرض التكامل الأرضى في الآيات من فصلت.

إننا ـ لطول ألفتنا بالحياة على هذه الذلول، وسهولة استقرارنا عليها، وسيرنا فيها، واستغلالنا لتربتها ومائها وكلاءِها وهوائها ـ نحن ننسى نعمة الله في تذليل لنا، والله تعالى يذكرنا إياها ويبصرنا بها في هذا التعبير العبير، عديم النظير، الذى كله علم وحكمة وموعظة وذكرى: يوحي ان هذه التي نراها مستقره ثابتة، هي كدابة دائبة الحركة متحركة، رامحة راكضة مهطعة، لاتبعثر راكبها، ولاتتعثر خطاها، ثم هي حلوب: <فَامْشُوا في مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النّشُورُ>.

فيها لها من إشارة عابرة في الذكر الحكيم عن مركوبنا، تحمل ما لم يتحمله العلم على تقدمه البارع، مدى التأريخ وحتى الآن.

فالأرض ذلول في حركاتها حول نفسها وحول شمسها، وهي معها حول فلك جماعي تحول حولها المنظومة الشمسية، بسرعه على ترتيب: ألف ـ خمسة وستين ألف، وب: عشرين ألف: ميلاً في الساعة، ومع هذه الركضات المسرعة يعيش عليها الإنسان آمناً دون اضطراب فيها، ولا انفلات عنها، ولادوخة وارتجاع في مخِّه، وفي كل هذه الدورانات حِكَم لايحصيها العلم، وإن وصل إلى بعضها.

والله تعالى جعلها ذلولاً بآلاف من هذه المواقف الحكيمة الضرورية، التي لولاها، أو واحدة منها، لاستحالت الحياة عليها أو صعبت.

وهل لنا أن نأمن على هذه الأرض، ولأنها ذلول؟ و أن ذلتها ليست إلا بما جعلها تعالى لنا، فإذا شاء يخسف بنا الأرض فإذا هي تمور، أو يرسل علينا حاصباً!

<ءَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ>(١٦)

هل يا ترى أن الله ساكن السماء وما كنها حتى يخسف بنا الأرض منها! كلا! <وَ هُوَ الّذى فِى السّماءِ إِلَهٌ وَ فِى ٱلأَرْضِ إِلَهٌ>(٨٤:٤٣) ليس له مكان، لأنه الذى مكَّن المكان!

والإلٰهيته تشمل السماوات والأض، لاذاته، وإنما قدرته وعلمه وقيوميته!

الجواب: أن من في السماء إنما هم المدبرات أمراً بإذن الله، لاذات الله، سبحانه وتعالى عما يصفون، ومنهم ملائكة يصدرون عن أمره ويفعلون ما يؤمرون.

<أن يخسف بكم الأرض>: يشقّها بكم ويغيِّبكم فيها، فإذا هي تمور: تتردد ذهاباً وإياباً كالموج: أن يهزها هزّاً ويزجها رجّاً، فهى تمور وتفور، فتفرقكم في مورها من فورها، فالذى جعلها ذلولاً بعد شماسها، هو القادر على أن يرجعها شموساً ماردةً مائرةً.

<أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذيرِ>(١٧)

الحاصب: الريح التي تأتي بالحصى والحجارة، وكما أرسلها على قوم لوط المجرمين: <إِنّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِبًا إِلاّ آلَ لُوطٍ>(٣٤:٥٤) <فستعلمون كيف نذيرِ>: نذيري؟ كيف حال المنذَرين، المؤمنين منهم والكافرين، وكيف المنذِرون، فهل هم كما قلتم: في ضلال كبير؟ أم أنتم الأوغاد المناكيد!

وإذ لم نَرَ حتى الآن مور الأرض وحاصب السماء، فقد رأينا الزلازل والبراكين التي تكشف عن الوحش الجامع الكامن في الدابة الذلول، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر، ولاتجمع إلا ثوانى عدة، يتحطم فيها ما شيدناه، أو يغوص فيها إذ تفتح أحد أفواهها وتخسف قطعة منها وهي تمور!

«أأمنتم» أمان الغافل الناكر مكر الله <فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ>(٧:٩٩)

<أَ فَأَمِنَ الّذينَ مَكَرُوا السّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ(٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزينَ(٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوّفٍ فَإِنّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحيمٌ>(١٦:٤٧)

هذا! أما إذا أمنتم إلى الله ورعايته ورحمته، فهذا من صفة المؤمنين، لايقودهم إلى الغفلة والإنغمار في غمرة الأرض ومتاعها، وإنما يدفعهم إلى الحياء من الله، وأن يرقبوا أعمالهم، ويربطوا بها أمنهم وآمالهم.

<وَ لَقَدْ كَذّبَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكيرِ>(١٨)

نكيري عليهم بما أنكرت موقفهم كنا أنكروني وعاشوا حياتهم نكيراً لي.. فنكيرهم كان انكار نعمة الله بعد ما عرفواها، وإنكار طاعة الله وعبادته، وإنكار نُذُره ورسله، ونكير الله عليهم أنه ينساهم كما نسوه ونسوا سوء الحساب، جهنم يصلونها وبئس المآب.

فنكير الله هنا هو الإنكار وما يتبعه من آثار الخراب والدمار، تصف لهم كيف كان هذا النكير وما أعقبه من تدمير خطير.

فهل بإمكان الإنسان أيّاً كان أن يكافح نكير الرحمان ويدافع عن نفسه مور الأرض وحاصب السماء، أو رجفة موضعية بسيطة، أو حسباناً؟ قد يخيَّل إلى البعض من العميان المناكيد أن الإنسان هو سيد الكائنات، وسوف يتمكن من كفاح الحوادث بقوة العلم، وهذا تكذيب لوعود الله: <أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَي الطّيْرِ فَوْقَهُمْ صافّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنّ إِلاّ الرّحْمنُ إِنّهُ بِكُلّ شَيْءٍ بَصيرٌ>١٩)

طير فوقنا حين الطيران، صافات مبدئياً، لأن الصفيف هو الباعث الأكثرى الأصيل للمُسكة والسير في الفضاء، ويقبضن، كعملية هامشية في الطيران، قبضاً للتهيؤ والإمداد للطيران، وللراحة، وللطيران في بعض الأحيان.

<أولم يروا> ـ فيمايرون ـ من عجائب الخلقة والقدرة الإلهية، مما يسبح في الفضاء دون عَمَد كسائر الأنجم بسمائها: <رَفَعَ السّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها> ومن طائرتنا الأرضية الذلول الكفات السريعة السير والدوران، كيف تسبح في فلكها مع رفيقاتها السابحات، <وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ(٣٣) وَ جَعَلْنا فيها جَنّاتٍ مِنْ نَخيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجّرْنا فيها مِنَ الْعُيُونِ(٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْديهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ(٣٥) سُبْحانَ الّذى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلّها مِمّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّا لا يَعْلَمُونَ(٣٦) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ(٣٧) وَ الشّمْسُ تَجْرى لِمُسْتَقَرّ لَها ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ(٣٨) وَ الْقَمَرَ قَدّرْناهُ

مَنازِلَ حَتّي عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣٩) لاَ الشّمْسُ يَنْبَغى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللّيْلُ سابِقُ النّهارِ وَ كُلّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ>.(٣٦:٤٠)

أولم يروا إلى أمثال هذه الطائرات السابحات؟ فمن هذا الذى يمسكهن إلا الرحمان؟ لانقول: إنه يمسكها عن السقوط دون سبب طبيعى، وإنما الأسباب الطبيعية هي أيضاً منه وهو يمسكها ويسببها، كانت ظاهرة لنا بمسبباتها، أم خفيَّة: سوف تظهر أم لا.

ولقد أخذت البشرية مثال الطير، واختلق رمز مسكتها وطيراتها في الطائرات بعد أن سقطت ضحايا في دراسة الطيران من الطير[١]، ابتدأت الخطوة الناجحة في صناعة الطائرات سنة ١٨٩١ م ـ إذ قام (ليليانتال) وراقب الطيور في حركاتها عشرين سنة متوالية، وقال: إنى درست من هذه الطيور أن سير الطيران يتم للإنسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض، وحينئذ يمكنه أن يحوم في الفضاء كما يشاء، ولكنه مع نجاحه المبدئى أيضاً سقط من طائرته فمات سنة ١٨٩٦، وبعده ـ وعلى أساس فكرته وتجربته ـ قام شابَّان أمريكيان هما الاخوان (ويلبور) و (اورفيل رايت) واستكملا ما تبنَّاه المخترع الأول، شيئاً مَّا، فطار أحدهما في الهواء أربعة وعشرين ميلاً في ثمانية وثلاثين دقيقة، وهذا مبدأ فتح مملكة الفضاء، وهكذا إلى أن وصلت الطائرات في سيرها سرعة الصوت!

أفلم يروا ـ فيما رأوا ـ إلى طائراتهم صافات في جو السماء، ما يمسكهن إلا الرحمان، لأنه الخالق أسباب المسكة والطيران، وخلق عقل الإنسان الذى استطاع به أن يكشف البعض عن رمز المسكة الجوية، فهل تطير الطائرات وتمسك إلا بالبترول؟ وقد خلقها الرحمان! أو هل بإمكانها الطيران لو لم يخلق الفلز الخفيف المناسب لغزو الفضاء، أو هل كان بمستطاعه هذا الاختراع لو لم يخلق له مثاله: الطير فوقه صافّات ويقبضنى!

---

[١] . منهم رجل ايطالى في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكندى في بداية القرن ١٦ م، وبعد قرن راهب المآنى، ثم مركيز فرنسى في اواسط القرن ١٨ م، ثم عباس بن فرناس صاحب صحاج الجوهرى، حاولوا الطيران بأَجنحة من ريش تقليدا ناقصا عن الطير فأخفقوا جميعا.

سبحان الخلاّق العظيم.

ثم كم من فرق بين طير الرحمان وطير الإنسان، فطير الرحمان يطير بشعوره الذاتى المتصل، بروح عاقلة فاهمة دون طيار غيره، وطير الإنسان يطير بشعور منفصل، بطيار الإنسان فيه، أم في الأرض بسياقته المنفصلة و هذا ليس بإمكانه ـ عادياً ـ أخذ البترول في الجو ـ وبإمكان ذلك ـ ولو أحياناً ـ أخذ الغذاء والماء في جو السماء! طالما الإثنان من صنع الرحمان، ولكنما الضعف في طير الإنسان ناشىء عن صنعه وقلة علمه: <وَ ما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَليلاً>!

إن تلكم الخوارق نعيشها في كل لحظة، مهما أنسانا وقوعها المتكرر، فالطير في جو السماء، حالة الصف الغالبة، والقبض العارضة، يظل في الهواء، مشهد رائع، ومنظر فائق لايُمِّله النظر ولاتُمليه الفِكَر، وما يمسكهن إلا الرحمان، برحمته التي وسعت كل شيء.

لاننكر أن ذلك كله ـ على الأكثر ـ لأسباب طبيعته، ولكن مَن ذا الذي خلقها وسبّبها؟ ومَن الذى رتَّبها؟ النواميس التي تكفل آلاف الموافقات، وتكلف آلاف المناسبات، في الأرض والجو و خلقة الطير، لتتم هذه الخارقة، وتعمّ بانتظام دائب.

إنه ليس مَسك الكون فقط من خالقه، فمُسكة الكون، وترتيب الكون، وتركيب الكون، وآثار الكون وخواصه، وما إلى ذلك من مُسَك ليست ذلا من الرحمان: <إنه بكل شيء بصير>.

ليست هنا وهناك فوضى، دون بصيرة ولاهدف مقصود، وإلا لانخرط نظام الكون، وبطلت قوانينه، وبطل اكتشاف العلل من المعلولات، وبطلت العلوم بأسرها!

هل تظن أن إمساك الدواب على الأرض الطائرة، إنه أسهل من إمساك الطير في جوّ السماء؟ فهل ياترى أيهما أصعب وأعجب؟ إمساك الطير، أو إمساكه بما يحمله؟ والأرض طير تحمل البليارات من راكبيها، أحياءاً وأمواتاً: <أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتًا(٢٥) أَحْياءً وَ أَمْواتًا>(٢٦:٧٧) كفاتاً: تسرع في طيرانها متقبضة فيها أحياء ما عليها وأمواتها، مكافحة قانون الفرار عن المركز.

علك تسأل: لماذا القرآن لايصرح بطيران الأرض ومُسكتها في الجوّ، فيمثل الطير؟ الجواب: انه يمن ـ فيما يمن علينا ـ بكفات الأرض، منة عابرة، كيلا تفاجأ بالتكذيب، لأنه خلاف الحس العام، فيخص التصريح، والأمر بالنظر، بما لاينكره أى ذى بصر: <أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَي الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ> <أَ لَمْ يَرَوْا إِلَي الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ في جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ>(١٦:٧٩) <وَ الطَّيْرُ صَافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ>(٢٤:٤١)

جلنا جولات عاطفة عابرة، كلها عبرة، مع الأرض الذلول، والطير الممسَك، ومع الخسف والحاصب، ولم نجد لنا منها جنوداً منفصلة من دون الرحمان، بل هي والكون كله من جنود الرحمان:

<أَمَّنْ هذَا الَّذى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ في غُرُورٍ>(٢٠)

إنهم غرَّتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغَرور، فظنُّوا أن ما نعتهم من الله آلهتهم التي ألهتهم عما يهمهم من متطلبات الحياة، وجمدتهم على ما غرتهم، فهل يجدون واقع النصر من جنودهم المزعومة من آلهة مفتقرة إلى الله الواحد القهار؟

ثم رزق الله، المحيط بهم في آفاقهم وأنفسهم، المرسل من عند الرحمان بقدر معلوم، فهل من مرسل لهم دونه، إن أمسك رزقه؟

<أَمَّنْ هذَا الَّذى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا في عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ>(٢١)

واللجاج في العتو والنفور رغم لزوم الطاعة بوفور ـإنه عادة كلٍ كفور <يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها> (١٦:٨٣) <أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللّهِ يَكْفُرُونَ>(١٦:٧١)؟

ياليتهم ظلوا دون سلب أو إيجاب، ولم يضلوا هكذا في عتو ونفور، في طغيان عاتٍ، وإعراض نافر، كأنهم يكافحون ألد أعدائهم، وينفرون عمن يخاصمهم حياتَهم! فيا لهم من حالة مزرية وقحة حمقاء، فما لهم كيف يحكمون! وهذه هي مشيَة المكب على وجهه

لايعرف إلا هواه، ولا يمشى إلى هداه:

<أَ فَمَنْ يَمْشى مُكِبّا عَلي وَجْهِهِ أَهْدي أَمّنْ يَمْشى سَوِيّا عَلي صِراطٍ مُسْتَقيم>(٢٢)

إنها صفة من يخبط في الضلال، أو يخرط الظلمات إلى النور، أهما على سواء؟

الضال الخابط الهابط حياتَه، كمن يمشي مكباً على وجهه، إذ لاينتفع بمواقع بصره وهو في وجهه، وإذا كان الوجه مكبوباً على الأرض، كان ماشيه كالأعمى وأضل سبيلاً، لايسلك جَدداً، ولايقصد سَدداً، فهو أبداً في بَدد، يعثر كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة لاختلال قواه وانقلاب مشيه.

الأعمى الماشى برجليه، قد يمشي على على صراط مستقيم، أو يُمشى عليه، إذ لو فقد البصر، لم يفقد البصيرة، فهو يمشي بما به يمشّى: برجله، لاعلى وجهه.

ولكنما العاتى النفور الكفور يمشي مكبَّاً على وجهه، أفبإمكانه أن يمشي أو أن يُمشَّى؟ كلا ـ وإنه يظل مرتكساً في حمأة الضلال!

إنه مثل ما ألطفه وأمثله، لمن لايعرف إلا نفسه بهواه، فليست مشيَّته في الحياة، في حركاته وتصرفاته، في تطوراته وتفكيراته، ليست إلا بغية الهوى وشهواتها، فلا يبصر إلا هواه، ولا يتبصَّر لهداه، فهو في خوضه يلعب، وفي غيِّه على عيِّه يتردد، يمشي دوماً إلى نفسه، فهى غايته القصوى، دون أن يمشي إلى صراط مستقيم: إلى الله ومعرفته، وإلى صالح مجتمعه لمرضاة الله، فهو كدودة القز، ينسج حوله في كد، ويحبس نفسه لصالحه، ثم يخرقه لكى ينجوا عن الخلق، ولايستفاد من نسجه لصالح غيره، إلا أن يبتدره صاحبه، فيقتله بماءٍ ساخن رغماً عليه، فينتفع من نسوجه غير المخروقة!

هذا الذى يمشى مكبَّاً على وجهه، حياته مركوسة <وقلبه منكوس>[١] وهو منحوس،

---

[١] . معانى الاخبار للصدوق، والكافى بالاسناد الى سعد الخفاف عن الباقرΔ قال: القلوب اربعة: قلب فيه نفاق وايمان، وقلب منكوس، وقطب مطبوع، وقلب ازهر انور ـ قلت: ما الأزهر؟ قال: فيه كهيئة السراج، فاما المطبوع فقلب المنافق، واما الأزهر فقلب المؤمن، إن اعطاه الله عزوجل شكَر، وإن ابتلاه صبر، واما المنكوس فقلب المشرك، ثم قرأ هذه الآية <افمن يمشى مكبا على وجهه اهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم>.

لايأتى حياته إلا بركسة ونكسة <قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً(١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا>(١٠٤:١٨)

الرواسى الملقاة على الأرض والرياح اللواقح

<الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا> (١٠٤)

<وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ> مذكورة في (٧:٥٠) ثم <وَ هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً>(٣:١٣) آيات ثلاث تمد الأرض حين تكميلها وتُلقي فهيا رواسى، وفي فصلت <وَ جَعَلَ فيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها>.[1]

وما هو كل شيء موزون انبتها في الأرض؟ علّه، <كل زوج بهيج> كما في <ق>: < وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ>(٧) بل ما هو إلاّ هو فان خلق الله كله زوج وكلّه بهيج، فلا زوج إلاّ وهو بهيج ولابهيج إلا وهو زوج: <سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ>(٣٦:٣٦) <ما تَرى في خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ(٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئًا وَ هُوَ حَسِيرٌ>(٤:٣٧) وعدم التفاوت والتهافت ذاتياً وخلقياً في خلق الرحمن هو أبهج بهجة فيه.

وكل زوج بهيج موزون نابت في الأرض قد تشمل كل نابتات الأرض، من نبات وحيوان وانسان: <وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتًا>(١٧:٧١) بل و المعادن حيث تنبت من مختلف المواد المتحوّلة تدريجياً اليها.

وعلَّ <من كل شيء موزون> هنا هو <من كل زوج بهيج> هناك، فان كل شيءٍ سوى الله زوج، وكل زوج هو شيءٌ خلقه الله، وقد تلمح <من> التبعيض هنا أن منها ما هي مخلوقة في غير هذه الأرض، من سائر الأرضين السبع، وسائر الكرات المعمورة، وإلاّ فلماذا <من كل شيء> لا <كل شيء> فهذه الأرض واضرابها فيها امَّهات النابتات

[1] . قد فصلنا حول مدّ الأرض وجعْلَ الرواسى وإلقاءها في فصلت وق والرعد فراجع.

الوليدات وكلها زوج بهيج موزون.[١]

ثم و <موزون> يدل على عامة الوزن في كل شيء سوى الله، وكلٌ زوج، فما هو الوزن كله؟

هذه الآية هي الوحيدة في حمل الوزن لكل شيء وزوج، وقد تدُّلنا عى لزام الوزن لكل شيء لانه زوج، فللمركب وزن اياً كان، وزناً هندسياً كالبعدين والأبعاد ووزناً فيزيائياً وهما لكافة المواد دونما استثناء.

ولاَن <فيها> تعم الأرض ورواسيها، ام اذا خصَّت فالرواسى ايضاً منها ومن نابتاتها، حيث حصلت من الأمواج سطحاً وعمقاً حينما كانت ذائبة ومتحركة شَموساً، فالدَوَران خلَّف المَوَج وخروج شيء من اثقالها المائعة المائجة منها وبرودتها على اثر الإصطكاك بالفضاء المجاور البارد، اذاً فرواسيها كسائر مواليدها هي من نابتاتها، ثم رواس أُخرى هي الأحجار السماوية الملقاة عليها، وثالثة هي الملقاة عليها من دوخلها على اثر التفجرات البركانية في براكينها، فهذه رواس ثلاث ملقاة فيها مهما اختلفت حجماً ورخوة وصلابة.

فكل شيء في الأرض موزون نابتاً منها، وبأحرى الأرض نفسها منبتاً لنابتاتها، حيث الموزون لاينبت إلاّ عن موزون قضيةَ الولادة، ولكنه يُخلق من غير موزون وهو الله قضيةَ الخالقية.

ثم الموزون يعم فيما يعنيه وزن الحكمة العالية في الخلق كله، و وزن الحاجة اليه المقصودة من كل خلق، كما <وكل شيء عنده بمقدار> (٨:١٣) <وَ ما نُنَزِّلُهُ إلاّ بقَدَرٍ مَعْلُومٍ> ـ <وَ السّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْميزانَ>(٧:٥٥) اذاً فكل شيء موزون في نفسه، وبالنسبة لبعض، ونسبة الى الحكمة المتعالية كما <السماء رفعها ووضع الميزان> وضعاً

[١] . نورالثقلين ٢: ٦ في رواية ابى الجارود عن ابى جعفرΔ في قوله: <وانبتنا فيها من كل شيء موزون> فان الله تبارك و تعالى انبت في الجبال الذهب والفضة والجوهر والصفر والنحاس والحديد والرصاص والكحل والزرنيخ واشباه هذه لايباع الا وزناً.

شاملاً كافلاً في كافة الموازين لكل زوج بهيج، دونما خفّة خلقية أماهية إلاّ ما نستخفُّه نحن بخفة العقل والدراية.

كما ويعنى الوزن المادى لكل شيء، فالهواء لها وزن كما النور وسائر الطاقات والأجسام ذَرية وجزيئية وما فوقها وما دونها، ومنها الأرواح فان لها اوزاناً مادية كما الروحية وان كنا لم نسطع حتى الآن ان نزنها مادياً، فليس لزام واقع الوزن ان تستطيع القدرات المحدودة باسبابها وموازينها المحددة ان نزنها كالقوة الجاذبية العامة، كما ليس لزام الوجود في كل موجود ان نعرفه او نحيط به علماً.

ثم هنا وزن باطن لايظهر إلاّ تحت ضغوط الجواذب المختلفة الجاذبة، فالشيء الكائن في جو دون جواذب ـ ان صح واقعه ـ لايظهر وزنه، والكائن بين جواذب متعادلة كذلك يظل في اوساطها دونما ميل الى واحدة قضيةَ المكافئة، والكائن بين جواذب غيرمتعادله يميل الى الجاذبة الاقوى، ككل شيء في الأرض من ماءٍ وهواءٍ، وسواهما من زوج، فانها تميل الى الأرض، حيث الجاذبية فيها بالنسبة لها اقوى من جواذب السماء، فاذا تصعّدت بجاذبة أقوى الى الجو، تصل الى جو متعادلة الجواذب فتبقى بلا ميل صاعد ام هابط، واذا تجاوزه الى جو أعلى حيث الجاذبية السماوية بالنسبة لها اقوى من الأرضية ـ تتصاعد اليها دونما حامل آخر، وكما شوهد في الهابطين على القمر.

ومثلثة الحالات في الاجسام دليل لواقع الوزن فيها، الظاهر احياناً والكامن اخرى، فهو على اية حال كائن لامرية فيه، فلو لم يكن لها وزن ذاتى لما انجذبت بالجواذب عند عدم تعادلها قوة وضعفاً، حيث الجاذبة لاتجذب إلاّ ثقلاً، والكائن دون ثقل ذاتى لاينجذب بأية جاذبة، كما الله تعالى شأنه!

فالكائن إمّا له وزن دائب كسائر الكون، ام ليس له وزنٌ كما الله تعالى، وأما أن يكون له وزن أحياناً وليس له أُخرى، فهذه قولة لاوزن لها، إلاّ بروزاً للوزن احياناً، وعدمه أُخرى، كما للكائنات المخلوقة كلها حسب مختلف اجواء الجاذبية.

والسرّ في ذلك ان الوزن هو قضية المادية والتركب وهو لزام المادة، وكذلك الطاقة المنبثقة عن المادة، كالجاذبية العامة، فان لها وزناً كما لسائر الكون، وكالنور وامثالها، والروح واضرابها، وكل كائنات العالم كالجن والملائكة.

وكما <وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ> فلتكن الأرض نفسها ايضاً نابتة من غيرها وموزونة، اذ لايولد وليد إلاّ من مجانسه، والأرض وليدة المادة الام <الماء> كما السماء، <وهو الذى خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء>(٧:١١)

حيث الماء المبني عليه عرش الخلق للأرض والسماء ليس هو الماء المولود فيهما، كمامضى مراراً وتكراراً.

<وَ جَعَلْنا لَكُمْ فيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ>(٢٠)

إن في الأرض معائش لكل عائش فيها، سواء فيها <لكم> كافة المكلّفين العائشين على وجهها، ام <من لستم له برازقين> كوسائط لرزقه، فان الله هو الرزاق ـ ككل ـ ذو القوة المتين.

وهذه المعايش هي ما انبتها الله فيها من كل شيء موزون وبهيج حيث وزنها وقدّرها لكل العائشين عليها دون انتقاص، فتعم هذه المعايش المآكل والمشارب والملابس والمناكح والاماكن وكل ما يحتاجه اى عائش، من جماد ونبات وحيوان وانس وجان ام اياً كان، عيشة شاملة كاملة كافلة <لكم>: <وَ لَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فيها مَعايِشَ قَليلاً ما تَشْكُرُونَ>(١٠:٧) ـ <ومن لستم له برازقين>.

ولا في الارض فقط ولمن عليها، بل <وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاّ عَلَي اللّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ في كِتابٍ مُبينٍ>(٦:١١).

والمعايش جمع معيشة وهي ما يعيش به اى عائش حيواناً وسواه، فمن عائش يرزقه الانسان كالحيوانات الأهلية، ومنه ما يعيش بنفسه من دون الانسان كغير الأهلية، مهما يرزقها الانسان حين يملكها كالطير واضرابها، ومنه ما لايرزقه وليس ليرزقه، سواء ما

يستفيد منه كالمعادن، او ما لايستفيد ككل الاشياء التي لايناالها الإنسان، كل ذلك داخلة في <من لستم له برازقين> و <لكم فيها معايش> تعم رزق الانسان نفسه وما يرزقه غيره من حيوان وسواه، اذاً فـ <معايش> تشمل كافة الارزاق الأرضية لكافة مرزوقيها دونما استثناء.

واحتمال ثان في <من لستم له برازقين> انه مجعول ثان لـ <لكم> فمن المعايش ما يرزقه الانسان من جماد ونبات وحيوان، حيث يسعى في تسويته او تنميته، ومنها ما لا صنع فيه للانسان، اذاً فللانسان رزقان مما له فيه صنع وما ليس له، وكل ذلك جعله الله تعالى من معايشه فـ <هُوَ الّذى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلأَرْضِ جَميعًا>(٢:٣٩)

واحتمال ثالث فيه المعنيان معاً معنيّان، ففى الأرض معايش لكل عائش، والكل بمعائشها هي من معايش الانس والجان؛ <فبای آلاء ربكما تكذبان>؟

ولاضير على الأول في العطف على الضمير المجرور دون اعادة الجار، حيث القرآن هو محور الادب دون ان يحور حول سائر الأدب كما في سائر الإرَب، ثم الجمع بين الاحتمالين يرفع المحظور ادبياً لو كان.

<وإن... معلوم>.

<إن من شيء> استغراق مؤكد يشمل كل شيء دون ابقاء[1] اللهم إلاّ شيء الذات المقدسة الإلهية بصفاته الذاتية لمكان <عندنا> ومن ثم إلاّ مشيئته تعالى حيث يتنزّل كل شيء بقدر معلوم لمكان <وما ننزله> ثم <عندنا> في جمعية الصفات تعنى عندية العلم والقدرة والرحمة رحمانية ورحيمية، وكل شيء بحاجة جوهرية الى هذه العنديات الإلهية، قبل تكوّنه، وبعده، في ذاته ام صفاته او حالاته، وكذا الذى لايصلح للتكون مهما كان ممكن الذات.

فـ <شيء> هنا تعنى الكائن او الذى يمكن تكوينه وفقاً للمصلحة الراجحة، ام

[1] . فـ <ان> النافية قبل النكرة تفيد العلوم و <من> تؤكده، فهذه مبالغة في الاستغراق ذات بعدين.

صفات او حالات لهما، ام إعدام الكائن عن بكرته او في صفة له او حالته.

دون الشيء الممكن غير الصالح للتكوين فانه مستحيل التكوين مصلحياً، فلا خزائن له عند الله كما لا إمكانية لها وقوعية.

واما المستحيل الذاتي فليس شيئاً حتى تشمله لفظة <شيء> فلا تتعلق به القدرة فانها تتعلق بشيء كائن ام الممكن تكوينه، وبصيغة اخرى كضابطة شاملة، هنا شيءٌ مطلق بحقيقته الشيئية واطلاقها، المستحيل عليه اللاّشيئية ام ايّ تحول، وهو شيء الذات المقدسة الإلٰهية، فانه شيءٌ لاكالاشياء، سرمدّية الذات ازلياً وابدياً، وهو الذى شيَّأ الأشياء.

ثم مطلق الشيء، بنسبيته الشيئية ومجازها، فعلية كالكائن، ام شأنية كالذى يمكن تكوينه، واقفته المصلحة الكونية ام لم توافقه، بفارق ان الثانية لن تكوَّن لانه خلاف المصلحة.

ومن ثم لا شيءٌ مطلق ليس بالامكان ان يكون اياً كان وايان، وهو المستحيل ذاتياً كاجتماع النقيضين وارتفاعهما.

والشيءُ غير الصالح تكوينه في هذا البين هو شيءٌ لأصل امكانيته ولاشيءٌ لاستحالة وقوعه، ومصلحياً الذى <عندنا خزائنه> هو الممكن الصالح تكوينه، كائناً ام سوف يكوَّن.

والخزائن جميع الخزينة وهي المحفظة، يحفظ فيها الشيء عن الضياع، او مادة الشيء التي تولِّده، ام يحفظ فيها ما به الشيءُ شيءٌ، تكويناً بلا ولادة، وهي الخزانة التكوينية كما الإرادة الإلٰهية بعلمه المحيط على رحمته: <قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبّى إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلإِنْفاق>(١٧:١٠٠) <قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدى خَزائِنُ اللّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ>(٦:٥٠) <وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدى خَزائِنُ اللّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ>(١١:٣١) <أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزيزِ الْوَهّاب>(٣٨:٩) <وَ لِلّهِ خَزائِنُ السّماواتِ وَ ٱلأَرْضِ وَ لكِنّ الْمُنافِقينَ لا يَفْقَهُونَ>(٦٣:٧) فخزائن الله رحمة وعلماً وقدرة خاصةٌ بالله،

لايحوِّلها لاحد من خلقه حتى الرسول الاعظم5 فضلاً عمن سواه : فـ <ليس لك من الأمر شيء؟>.

اذاً فـ <خزائن الله الكلام فاذا اراد شيئاً قال لهُ كن فكان>[1] و هو الكلمة التكوينية: <إِنّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ>(٨٢:٣٦) و <قوله فعله>.

ولماذا <خزائنه> و <إن من شيء> تختزن كل شيءٍ بحاله وبمفرده؟ لان كل شيء بحاجة الى جمعية خزائن العلم والقدرة والرحمة رحمانية ورحيمية! وهذه الخزائن هي الصفات الذاتية الإلٰهية بما هي المنشأ للصفات الفعلية خلقاً وتقديراً وتغييراً وتطويراً اماهيه من شيء الذات، خلقاً لامن شيء، ام خلقاً من شيء، ومن شيء الأفعال والصفات والحالات.

فالعندية هنا هي الصفاتية الفعلية الحاضرة للذات المقدسة بمبدء الصفات الذاتية.

فكما الأشياء ليست عند الله كمظروف في ظرف، او وليد في والد، كذلك خزائنها مهما بان البون بينها وبين خزائنها، حيث الخزائن هي الكلمة التكوينية الصادرة عن مصدر الذات مُنشأةً من الصفات الذاتية، والأشياء مخلوقة في البداية لامن شيء، ثم شيء من شيء.

وليست الإرادة الإلٰهية والدة لها كما الذات، اذ <لم يلد ولم يولد> وانما هي سبب الإيجاد لامن شيء الذات، وانما لا من شيء أو من شيء مخلوق من قبل.

ثم وهذه لاخزائن وهي الصفات الفعلية الإلٰهية، هي خزينة العلم والقدرة والحياة الصادرة عنها كلُّ شيء، المنتهية إلى الإرادة تكوينية وتشريعية.

فلا افتراق في خزائن التكوين والتشريع أن له ـ مثلاً ـ خزينة الخلق ولغيره تقدير الخلق، ام له الخلق والتدبير ولغيره تطويره وتغييره، بل الخزائن كلها لكل شيء عنده لاسواه، حتى اقرب المقربين محمد5 والمحمديين من عترته الطاهرين(ع).

---

[1] . الدر المنثور ۴: ۹۵ ـ اخرج البزاز وابن مردويه في العظمة عن ابى هريرة قال قال رسول الله5:..

و <شيء> هنا يعم الشيء الكائن، والذى يصح ان يكوَّن، فكما لتكوين كل شيءٍ خزائن، كذلك لكل كائن خزائنه بعد تكونه استقبالاً لكونه، واستكمالاً.

فالشيء أيَّاً كان، هو الآن كما كان قبل كونه، افتقاراً الى الله، اذ لا يكسب بتكوُّنه استقلالاً واستغناءً عن الله.

ولأن <نا> حيث تعني الذات بجمعية الصفات، ليس له مكانٌ، كذلك <عندنا> بعيداً عن اي زمان ومكان وأي <كان> إلاّ الذات المقدسة المكوّنة لكل الأكوان.

لذلك، فلا يعني التنزيل نزولاً من علٍ في مكان، وانما نزولاً عن المشيئة الإلهية ايـاً كان ذلك الشيء، وكما <أنزل معهم الكتابَ بالحق>(٢١٣:٢) و <ثُمّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاسًا>(١٥٤:٣) <أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ>(٦:٣٩) <وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فيهِ بَأْسٌ شَديدٌ>(٢٥:٥٧).. كل ذلك واضرابها تشمله <وما ننزِّله الا بقدر معلوم> مهما كان من الاشياء السماوية تنزُّل من علٍ <الم تر ان الله انزل من السماء ماءً>(٢١:٣٩) ام ومن الأرضية كما انزل الحديد والأنعام.

وذلك التنزيل في اى شيءٍ ليس جزافاً، ام يتم اعتباطاً <وانما ننزله بقدر معلوم>: <قدر> في العلم والقدرة والحكمة العالية الربانية، قدراً في الكون وقدراً في الكيان وقدراً في الميزان <وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْميزانَ(٧) أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْميزانِ(٨) وَ أَقيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْميزانَ>(٩) ـ < إِنّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ>(٤٩:٥٤) <وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِي الْأَرْضِ>(١٨:٣٢)... فهو قدر ذاتياً ومصلحياً، شخصياً وجماعياً، فحتى نصيب الأرض من ماء السماء بقَدَر، لايزيد عنه ولاينقص، وعلّه يشمل قَدَر المطر في كل سنة، فـ <ليس أحد بأكسب من أحد ولا عام بأمطر من عام ولكن الله يصرفه حيث شاء>.[١]

فالشيء الأوّل خلقاً وهو المادة الأم، هو منزَّل ايجاداً بقَدَر، ثم منَزَّل في تطوراته

[١] . الدر المنثور ٤: ٩٦ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى5 قال:.. وفي نقل آخر وما نزلت قطرة من السماء ولاخرجت من ريح الا بمكيال او بميزان.

بقدر، وكافة التطورات الجوهرية والعرضية، كيماوية وفيزيائية ام هندسية امّاهيه كلها منزلة بقدر، لامنزّل لها ولا مقدِّر إلاّ الله الواحد القهار، حيث الخزائن كلها عند الله لاسواه.

وكل قَدَر من هذه الأقدار مُهندسة في العلم والقدرة والحكمة الربانية على ضوء الرحمة رحمانية ورحيمية، وهذه هي خزائن التنزيل لكل شيء بقدر، مجموعة في كلمة <كن> التكوينية، وقد يعنيها العرش فيما يروى أن <في العرش تمثال جميع ما خلق الله من البر والبحر>[1] و هو عرش العلم والتكوين.

و من خزائن كل شيء ملكوت كل شيءٍ وناصيته، فلا شيءَ منفصلاً في كونه وكيانه عن ارادة الله.

<وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ>(٢٢)

رياح لواقح تلقح سحاباً الى سحاب سحباً ركاماً: <أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ>(٤٣:٢٤) <وَ هُوَ الَّذي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتّي إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ>(٥٧:٧) وهكذا نرى الرياح لواقح تأليفاً بين منفصلات السحاب، فإقلاً لها ثقالاً.[2]

---

[1] . نورالثقلين ٣: ٧ في روضة الواعظين و روى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده∆ انه قال: في العرش... وهذا تأويل قوله: وان من شئ الا عندنا خزائنه.

[2] . تفسير البرهان ٢: ٣٢٨ عن الكافي بسند عن ابي بصير عن ابي جعفر∆ حين سأله عن الرياح قال عز ذكره رياح رحمة لواقح وغير ذلك ينشرها بين يدى رحمته، منها ما يهيج السحاب للمطر ومنها رياح تحبس السحاب ما بين السماء والأرض ورياح تعصر السحاب فتمطر باذن الله.

كما وانها تلقح الأشجار[١] بعضها البعض عملية الفحولة، من ذكر الى انثى لتحمل فتحبل فتثمر، وقد تعنيهما الآية باطلاق وعموم <لواقح> مهما تقدمت إنزال الماء وهو من مخلّفات لقاح السحاب.

فهنالك حبالى السحاب الثقال بما تلقحها الرياح لقحاً عن فصل ولقحاً في وصل لكى تكون ركاماً، وهناك حبالى الأشجار تلقح أُنثاها بذكورها بفارق ان اللقح هنا حمل نطفة الذكورة الى الانثى لتحبل بالثمر كما في النخل واضرابها، وهناك الجمع بين متفرقات السحاب لتحبل بركامها واندغامها ماءً، وهذه هي الرياح المبشِّرة، ومن ثم منذرة كريح صرصر في ايام نحسات.

ثم لواقح الرياح لحمل السحاب، هي قبل لواقحها لحمل الأشجار، فلولا إنزال الماء عن السماء نتيجةَ اللقح الأول، لم يكن مجالٌ للثانى إذ لا اشجارَ بلا أمطار.

وهنا <فانزلنا> تفريعة ظاهرة على <ارسلنا الرياح لواقح> فاللقاح الاول هو الاول ذِكراً كما هو الاول واقعاً، ومن ثم الثاني على هامشه ومن مخلفاته.

وقد تلمح <لواقح> جمعاً بديلاً عن <لاقحة> الى جمعية اللقاح، فقد تكون هناك في الكون لقاحات اخرى للرياح غير هاتين، وعلّ التصريح بلقاح السحاب لأنه أمُّ اللقاحات ومصدرها، وكماهو مصدر لقاح الأشحار، كلقاح المعادن واضرابها.

وعلى أية حال فهناك رياح لواقح حاملة السحاب، ثم لواقح تجعل السحاب حاملة المياه، ثم لواقح تجعل الأشجار حاملة النبات، ثم لواقح ولواقح علَّ العلم يكشف عن وجهها النقاب.

وهنا لولا لواقح الرياح للسحاب بصورة مستمرة دائبة لاَصبحتم عطاشى <فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ>(٢٢)

---

[١] . نورالثقلين ٣: ٧ في تفسير القمى قوله: وارسلنا الرياح لواقح قال: التي تلقح الاشجار، وفيه عن تفسير العياشى عن ابن وكيع عن رجل عن اميرالمؤمنينΔ قال قال رسول الله5: لاتسبّوا الريح فانها بُشر وانها نُذر وانها لواقح فاسألوا الله من خيرها و تعوَّذوا من شرها.

فلولا ارسال ارياح لواقح وإنزال الماء من السماء <وما انتم له بخازنين> لظلتم عطاشاً! وكيف تخزنون الماء، أماء الأرض وهو صاعد أبخرةً الى السماء، أم ماء السماء وهو نفسه ماء الأرض النازل منها و هو صاعدٌ على طول الخلط، عملية اتوماتيكية بارادةالله فهنا الاحتزان؟ <قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ>(٦٧: ٣٠) غوراً في الأرض ام غوراً في السماء، فانتم دائبون في رحمة الله المتواترة المتواصلة، لو انقطعت عنكم لفترة لكان فترة في حياتكم على قدرها.

وهذه الاية اليتيمة المنقطعة النظير في لاقحات الرياح تحمل ملاحم غيبية ما كانت البشرية لتعرفها في سالف الزمن وعلى طول الخط، اللهم إلا شطراً منها خيراً، وعلّه على ضوء آيةاللقاح! نرى الزهور ـ على الختلاف اجناسها ـ بحاجة ماسة بعضها الى بعض، فمنها ما خلق الله فيها الطّلع ومنها ما يقبله، وكما النخل فان لها ذكوراً واناثاً، فطلع الذكور يلقح الأناث، وهكذا الأشجار تتزاوج بلقاح، ومهما كان الورد والرمان يُلقحان بواسطة الحشرات، نرى كبار الاشجار ـ كما النخل ـ والصنوبر والغار، ان لها تدبيراً آخر، حيث الرياح مسخرة لعملية اللقاح بين ذكر انها وأناثها.

وقد شوهد في بلاد (استكلندة) غبار من طلع بعض الاشجار يمرّ في الهواء كأنه سُحُب تزجيها الرياح، ثم يؤلَّف بينها ثم تصير ركاماً ويراها الناس بأعينهم المجردة تلقح أناث تلك الاشجار!

<وَ إِنّا لَنَحْنُ نُحْيى وَ نُميتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ>(٢٣)

تأكيدات أربع: <ان ـ ل> وجمعيتى الصفات <نا ـ نحن> حصراً للإحياء واللإماتة في ذاتة المقدسة وحسراً عمن سواه، وصلة الإحياء والإماتة تذييلاً بما قدم من مظاهر الإحياء لكل الأحياء متواترةً تمثيلياً بالأولوية القطعية، حيث الإحياء يوم الآخرة أعدل وأحيى منه يوم الدنيا، فالدنيا هي من فضل الله متعة امتحان، والآخرة من عدله وفضله بغية الجزاء العدل الوفاق. ترى وماذا تعني <ونحن الوارثون> وطبعاً بعد الإماتة جملة وتفصيلاً؟ وهو المالك يوم الدنيا كما هو المالك يوم الدين؟

علّه اشارة الى زوال الملكية العرضية التي جعلنا الله مستخلفين فيها يوم الدنيا، فانها تزول بالموت وتتم لله راجعة إليه كما له الملك حقيقياً:

<لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ>(١٦:٤) < ميراثُ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّـهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ>(١٨٠:٣)

علم يحيط بكل مستقدم ومستأخر، بكل مصاديقهما كوناً وكياناً وزمناً، دوان ان نستقدم منها شطراً ونستأخر شطراً آخر، فانه تضييق لكلام الله.

فلوا اختص بمن تقدم في الخلق ومن تأخر، لكان <المستقدمين عليكم والمستأخرين عنكم> اسمي المفعول، دون الفاعل مع الظرفين، حيث التقدم والتأخر في الولادة ليس من فعل المواليد! وإن كان ضمن المعني من اسمي الفاعل تلمحياً من العلم المحيط.

ثم المحور الاول والقدر المتقين من الخطاب في <منكم> هم الموجودون زمن الخطاب فلا مستقدم فيهم ولامستأخر، ثم الحشر عام في تاليتها <وإنَّ ربك هو يحشرهم> دون اختصاص بالسابقين واللاحقين، بل هو جمع بين المكلفين اجمعين ليوم الدين.

اذاً فهما طلب التقدم والتأخر، سعياً وكدحاً ام دونهما، عقلياً وعلمياً وايمانياً وعملياً، حيث الطلب ـ على اية حال ـ هو قضية الفطرة الانسانية، وأعمال الانسان ومساعيه هي بين ما يُقدِّمه إنسانياً ام يؤخره شاء أم ابى، عالماً ام جاهلاً او متجاهلاً.

ومن الناس من يستقدم احياناً ويستأخر اخرى <وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا>(١٠٢:٩) اذاً فهما تشملان عامة المكلفين في مثلثة الحالات دونما استثناء <وَ إِنّ رَبّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنّهُ حَكيمٌ عَليمٌ>(٢٥)

فالسمتقدمون هم الذين يقدِّمون أنفسهم بما يقدمون لانفسهم ابتغاء ما عندالله، تقديماً لإيمان وعمل الايمان، وكل ما يتطلبه تقدّم الايمان بعلمه الصالح، <وقدموا لأنفسكم> (٢٢٣:٢) ومن <هم المؤمنون من هذه الأمة>[١] كافضلهم، كما المؤمنون من سائر الامم،

[١] . نورالثقلين ٣: ٧ عن تفسير العياشى عن ابى بصير عن ابى جعفرΔ في الآية قال: هم المؤمنون من هذه الامة.

فالمستقدمون ـ اذاً ـ يعم المستقدمين والمستأخرين والحاضرين زمنياً، مهما كانت الأمة الأخيرة افضلهم.

والمستقدم في معنى خاص هو من يقدم لحياته الأخرة، والمستأخر من لايقدم إلا شائكة الحياة بل يؤخرها انسانياً فهو ـ اذاً ـ رجعي عما تتطلبه الانسانية وعلى ضوء الوحى، كما المستقدم تقدمي يتقدم اليها ويقدمها: <وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(۴) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ>(۵:۸۲)

ثم المستقدم في وجه عام ـ قضيةَ استطارة الكتب واستنساخ الاعمال خيّرة وشريرة ـ يعم كل تقدمي ورجعي. حيث الأعمال كلها تُقَدَّم إلى الحياة الأخرى، مهما كانت الصالحات تقدِّم الانسان والطالحات تؤخره.

ويقابله المستأخر كالذين يظنون إلاَّ واستطارةً للاعمال خيرة وشريرة، <وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتابًا يَلْقاهُ مَنْشُورًا>(۱۳:۱۷)

وهكذا مستأخرٍ قد يعبر عنه بالمستقدم، <ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيدِ>(۱۰)

ثم هناك مستقدم ومستأخر خيراً او شراً حسب مختلف الاعمال، بقاءً بآثارها فمستأخرة باقية، ام دون بقاء فمستقدمة غير باقية، فكل سنَّة حسنة او سيئة مستأخرة، وهما في غير سنة مستقدمة <فمن سنَّ سنة حسنة كان له مثل اجر من عمل بها الى يوم القيامة، ولم ينقص اولاء من اجورهم شيئٌ، ومن سن سنة سيئة كان عليه مثل وزر من عمل بها الى يوم القيامة ولم ينقص اولئك من اوزارهم شيء>.[1]

وقد تستقدم الآية هنا في مسرح العلم المحيط الربانى كافة المستقدمين والمستأخرين بكل المعانى المسرودة، استقداماً لصالحات الاعمال او طالحاتها ومستأخرين طالحات الاعمال وصالحاتها، حيث الاعمال كلها تستقدم بما يستنسخها الله، ويبرزها: <يَوْمَ تَجِدُ

[1] . عن النبى5 متواتراً.

كُلّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدّ لَوْ أَنّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعيدًا وَ يُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَ اللّهُ رَؤُفٌ بالْعِبادِ>(٣:٣٠) ولكنما المؤخرة منها لحياة الجنة مستأخرة في استقدامها، كما المقدمة منها لحياة الجنة مستقدمة في استقدامها، وكل من المستقدمة والمستأخرة، الصالحة والطالحة، بين <ما قدّموا وآثارهم> حيث تعم الباقية بآثارها بعد الموت وغير الباقية، مهما كانت كلها باقية بذواتها ليوم يقوم الأشهاد.

اذاً فـ <المستقدمين والمستأخرين> تعمّان كافةالحالات والمقالات في مسجلات متنوعة، كما تدل عليه آيات انعكاس الاعمال.

الرواسى المانعة عن مَيَدان الأرض

<وَ أَلْقى فِى الْأَرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَ أَنْهارًا وَ سُبُلاً لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ>(١٥)

هنا وفي القمان < وَ أَلْقي فِى الْأَرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ> (١٥) وفي فصلت <وجعل فيها رواسى من فوقها>.

<في> في هذه الاربع دون <على> تلمح انها راسية في اعماق الأرض، منذغمة بعضها في بعض في الاعماق، اضافة الى علوِّرئوسها في الفضاء، وهذه قسم من الجبال تحفظ الأرض عن الميدان: <و وتّد بالصخور ميدان أرضه>.

وهذه الرواسى اللمقاة في الأرض منها ما القيت من سائر الكرات وعلّها أنسب بالالقاء ولكنها ليست كبيرة شاهقة حتى تسمى <رواسى> اللهم إلا في رسُوِّها نتيجةَ الإلقاء ولكن الإلقاء لايخص الملقاة من السماء، فانما يشير الى جعل معمّق في باطن الأرض ليس كما يجعل غير الرواسى! ومن الرواسي الصغار ما القيت عليها إثر البركانات في تفجرات هائلة حيث ترجع المواد المذابة الى الأرض حافرة لها الى الاعماق، وثالثة حصلت فيهما نتيجة الامواج حين كانت شَموساً بحركات مضطربة <وكما يروى عن الامام علىΔ في جواب السائل: مما خلقت الاجبال؟ قال: من الامواج> فان امواج الأرض الملتهبة اخذت في البرودة والانكماش، فتقلصت القشره الخارجية من فوقها وتجمدَّت فتكونت الجبال وسائر لمرتفعات.

من اهم الفوائد لرواسيها ـ المغفول عنها في العلم الحديث ـ ان تميد بكم القى... عن عن ان تميدبكم، حفظاً لتوازن الأرض، هذه السفينة الفضائية في خضّم بحر الفضاء، المبتلاة بجواذب عدة وحركات ودورانات، وحفظاً لتوازن مَن على الأرض من انسان وحيوان>.

فمَيَدان الأرض، وعلى اثره ميدان من على الأرض قد وُتِّد بالصخور الراسية في الأرض.

وهكذا جعلت الأرض لنا ذلولاً: <هُوَ الّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا في مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النّشُورُ>(١٥:٦٧) حيث ذلّت بالرواسي بعد شماس، واستقرَّت بعد ارتكاس: <وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم من صياخيدها فسكنت من الميدان برسوب الجبال في قطع اديمها> ـ <فسكنت على حركاتها من ان تميد باهلها او تسيخ بحِملها او تزول عن مواضعها...>.[١]

وكما أن للأرض ميداً مادياً لولا أوتادها وحركاتها المعتدلة المعدّلة لها، كذلك لها ميد معنوياً لولا الاوتاد الروحية كالرسل والائمة والعلماء الربانيين، وهذا هو المعني من <بنا يمسك الأرض ان تميد بأهلها>[٢]. <ولاتخلوا الأرض من قائم منا ظاهر او خاف ولو خلت يوماً بغير حجة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله>[٣] و <كان اميرالمؤمنينΔ باب الله الذى لايؤتى الا منه وسبيله الذى من سلك في غيره هلك، وكذلك يجري لأئمة

---

[١] . نهج البلاغة عن الامام اميرالمؤمنين علىΔ وفي نور الثقلين ٣: ٤٣ عن كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده(عليهم السلام) ان النبى5 قال: الى ان قال: فخلق الله تعالى الجبال فاثبتها في ظهرها اوتاداً منها من ان تميد بما عليها فذلّت الأرض واستقرَّت.

[٢] . نورالثقلين ٣: ٤٤ عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سليمان بن مهران الاعمش عن الصادق جعفر بن محمد عن ابيه محمد بن على بن ابيه على بن الحسين(عليهم السلام) حديث طويل يقول فيه...

[٣] . المصدر باسناده الى ابراهيم بن ابى محمود قال الرضاΔ....

الهدى واحداً بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بأهلها>.[١]

فى الحق هم أوتاد الأرض و رواسيها الملقاة عليها من سماء الرحمة الروحية.

<وَ أَلْقي فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَ أَنْهارًا وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ>(١٥) فكما الرواسى ملقاة في الأرض او مجعولة عليها، كذلك <انهاراً وسبلاً> قضيةَ العطف على الرواسى، ولان مياه الأرض جلها ملقاة من السماء منذ البداية وعلى طول الخط، والجبال هي في الغالب منابع الانهار حيث هي مساقط الثلوج والأمطار، ثم السبل هي ذات علاقة بالرواسي والانهار.

<وسبلاً> علّها هنا هي <فجاجاً سبلاً> في الانبياء، فقد سبل الله هذه السبل بين الرواسي <لعلكم تهتدون> الى مخازنها المائية ومعادنها الظاهرة والباطنة امّاهيه من نعم فيها مخبّوة.

ثم و <لعلكم تهتدون> الى سبيل ربكم بعد ما تعرفون نعمتة عليكم ولعلكم تشكرون، وكما الرواسي وانهاراً وسبلاً تعمّ الظاهرة والباطنة، كذلك الاهتداء يعمها كلها كما:

<وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ>(١٦)

<أَلقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَ أَنْهارًا وَ سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ> (١٥) <وَ عَلاماتٍ> وهذه من نعم الأرض فيها <وبالنجم هم يهتدون> نعمة سماوية إنسان الأرض، وهذه سبيل ضمن قصد السبيل فـ <على الله قصد السبيل> ظاهرية وباطنية <ومنها جائر> ينهى عنها.

فهنالك اهتدائات بعلامة أرضية وأخرى سماوية، ظاهرية هي ظاهرة لاهل الظاهر، وروحية هي باهرة لغير اهل الظاهر، فرسول الله5 هو أنجَم نجم به يهتدى، والأئمة هم

[١] . المصدر عن اصول الكافى بسند متصل عن ابى عبدالله∆ قال: كان اميرالمؤمنين∆...

بعده اعلم العلامات، المهتدون به5 الهادون لغيره.[١]

اذاً فنجم الهدى وعلاماتها هم باطن الاية، والعلامات الظاهرة والنجم هي ظاهرها، وكماكانت رواسي الأرض وانهارها.[٢]

ارتقاء في الاسباب السماوية

<أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السّماواتِ وَ ٱلأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي ٱلأَسْبابِ>(١٠)

هنا ـ في الكون ـ أسباب عادية معتدَّة لكل متسبب بها تقتضيه لحاجات، وهناك أسباب علمية لاتنال إلاَّ بالكشوف العلمية بمختلف درجاتها، وهنالك ثالثة لاتنال الاّ بالوحي إلى رجالاته، ثم رابعة بمن له ملك السماوات والأرض.

فذوا القرنين يتبع سبباً وسبباً من القسم الثالث بما سببها الله له في مسيرته الأرضية الكبرى، والرسول محمد5 يتبع سبباً سماوياً يحلَّق على الافق الاعلى عند سدرة المنتهى، عندها جنة الماوى.

وأما اسباب التكوين الخاصة بمن له ملك السماوات والأرض وبيده ملكوت كلى شيء فلا تُمَّلك لاحد او تخوَّل.

فرعون يطلب من هامان بناءَ صرح <لعلى أبلغ الاسباب أسباب السماوات لعلى أطلع الى آله موسى> بكل غباوة وتخرُّف!

وهنا المشركون يُتحدَّون بارتقاء الاسباب الخاصة بالله، لمكان <ام لهم ملك السماوات والأرض> ام والخاصة بتسبيب الله، ولكى يستملكوا خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب، ويختصوا وحيه بمن يشاؤون.

---

[١] . نورالثقلين ٣: ٤٥ عن اصول الكافى عن داود الجصاص قال سمعت ابا عبدالله∆ يقول: وعلامات وبالنجم هم يهتدون ـ قال: النجم رسول الله5 و العلاماتت الأئمة عليهم السلام.
وفيه عن محمد عن الوشا قل سألت الرضا∆ عن الآية <فقال: رسول الله5 قال: نحن العلامات وانجم رسول الله5 > أقول قد وردت امثالها بطرق عدة عن ائمة اهل البيت (عليهم السلام).

[٢] . تفسير البرهان ٢: ٣٦٢ عن تفسير العياشى عن اسماعيل بن ابى زياد عن ابى عبدالله∆ في الآية قال: ظهر وباطن، الجدى عليه تبنى القبلة وبه تهتدى.

أو يمنعوه عمن يشاؤون <فليرتقوا في الاسباب> أسباب السماوات حيطة على الوحي في الملاء الأعلى، وأسباب الأرض حيطة على قلوب الموحى اليهم، وليحدَّد وحي الله كما يحدِّدون، ويهبط الى اى مهبط يحبّون. فهذه الآية وأشباهها من آيات الأسباب ترمز الى أسباب غيبية لم تكشف البشرية عنها النقاب، وسوف يكشف عن بعضها، الخاصة بغير الوحي، وغير الخاصة بالله، على ضوء الكشوف العلمية المتواصلة.

وهناك أسباب لاسبيل إليها باى سبب من الأسباب، ولن يكشف العلم عنها النقاب مهما تقدم وتصدى! فانها <أدق من الشعر وأحدَّ من الحديد وهو بكل مكان الا أنه لايرى>.[1]

<جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلأَحْزاب>(١١)

<جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلأَحْزاب> ايِّ الاحزاب <هنالك> ارتقاءً في الأسباب <مهزوم> في عز الفضاء، مهما هزمت الجنود العلمية الجبارة اسباباً تنهزم في الأرض والسماء.

إنَّ كافة الجنود بكل الامكانيات والطاقات، هي <هنالك> أمام الإرتقاء في الأسباب، إنها ليست إلاَّ <جند مّا> في كل هزالة وبذالة امام مُلك السماوات والأرض ومِلكها وأسبابها الغبيبة الخاصة!

كما و <جند ما هنالك> أمام حجة الوحي محجوج: <مهزوم> من اى حزب <من الأحزاب> مهما أبرقوا وأرعدوا، فان للحق دولة وللباطل جولة!

إن صرح الوحى لايساوى أو يسامى بـ <جند مَّا> وكل الاجناد في تلك الساحة العانية هي <جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ>!

---

[1] . الدر المنثور.

إزجاء سحاب من الأرض الى السماء

<أَ لَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُزْجى سَحابًا ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكامًا فَتَرَي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السّماءِ مِنْ جبال فيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ>(٤٣)

هنالك نخطوا خطوات معرفية الى بارىء الكون من إزجاء سحاب إلى تاليفه إلى جعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، أم برداً ينزل منه، صورتان تختلفان بسيرة واحدة من مختلف السحاب! <ألم تَرَ> أيها الرسول ثم كل من يرى <أن الله يزجى سحاباً> فالإزجاء هو الدفع للإنسياق، والقلع شيئاً فشيئاً[1] كما <يزجى لكم الفلك> والسحاب فعال من السحب: الجرّ، فالسحاب المزجي هو أبخرة المياه الأرضية المزجاة الى جو السماء.

إن حرارة الشمس ـ وأية حرارة ـ تُبخِّر المياه فوق الأرضية، ولأن الأبخرة خفيفة تزجى وتسحب بجاذبية السماء، وهذه العلمية الفزيائية تعني إزجاء السحاب، ولأن الله هو المحوِّل في كل تحويل والمحوِّر في كل تحوير، فهو الذي يزجي سحابا، ليس كصدقه عمياء غير قاصدة، بل هو سحب وإزجاء قاصد!

أترى أن مجرد إزجاء السحاب من مختلف الأبخرة يكفى لتكوُّن سحاب يمطر ودقاً او مطراً أو برداً؟ كلا! فهناك التأليف بينه لينشىء <هُوَ الّذى يُريكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِيُ السّحابَ الثِّقالَ>(١٣:١٢)

هنالك الرياح تجمع بين كُتَل البخار المسحبة المزجاة، فتجعله ركاماً: <وَ هُوَ الّذى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتّي إذا أَقَلّتْ سَحابًا ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلّ الثّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتي لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ>(٧:٥٧)

---

[1] . إزجاء السير في الإبل هو الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً، وكذلك أبخرة الماء الصاعدة المزجاة الى السماء، ومنه <بضاعة مزجاة>: قليلة.

والسحاب الثقال هي التي تحمل الماء لركامها، إزجاءً ثم تأليفاً <ثم يجعله ركاماً> سحاباً ثقالاً! وكل هذه عمليات قاصدة هادفة، ونحن نرى الأفعال ولانرى الفواعل الطبيعية فصلاً عن الفاعل الإلهي أو ملكوتاً من فعله.

وهناك ثقل اول للسحاب وتحت صعوط الرياح وبرودة الهواء أماذا من معدات، ينتج نزول الأمطار: <فترى الودق يخرج من خلاله> كأنها غرابيل تغربل ودق المطر، كما يترائى لرائي الأرض! والودق هو بداية المطر، اول ما ينزل من غرابيل السحاب كأنه غبار المطر براعة استهلاله، ثم المطر، فالودق هو بدايه المطر ومناديـة، ثم إذ تكاثفت السحاب بركام واندغام أكثر، وفي برودة أوفر، أصبحت كجبال البرد: <وَ يُنَزِّلُ مِنَ السّماءِ مِنْ جبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ...>.

إن مشهد السحاب الضخمة الكثيفة التي تغربل ثلجاً وبرداً هو مشهد الجبال حقاً، فمهما كانت تترائى لناظر الأرض جبالاً، فانها ترى لراكب الطائرة التي تحلق فوقها أو تسير بينها، ترى جبالاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها، صورة هائلة لهذه لم يكد يراها الناس إلا بعد ركوب الطائرات.

ولكنما الطائر القدسى المحمدى حلَّق على الكون كله ليلة المعراج ببصره، وأحاط به علماً ببصيرته، إنه كان يراها دون طائرة: <ولقد راى من آيات ربه اكبرى...>!

إن نازل السماء من هذه السحاب ودقٌ ومطر وثلج وبَرَد كلها من الأبخرة المزجاة المسحبة من المياه فوق الأرضية، وقد يعم البَرد الثلج وليس في القرآن بعد الودق والمطر إلا البرد!

فـ <من جبال فيها> هي تلك التي تحمل البرد وهي السحاب الثقال تشبيهاً بالجبال بتكاثف اوتادها ومشارف هضابها، والضمير في <فيها> عائد إلى السماء دون الجبال،

و<من برد> تتعلق بـ <وينزل>.[١]

أنه ينزل من السماء ـ من جبال فيها هي السحاب البَرَدية ـ ينزل من بَـرَد: بعضه لاكلّه، فلو نزل كله لكانت الاصابة أخطر والفادحة أكثر، ولكن <يُنَزِّلُ مِنَ السّماءِ مِنْ جبال فيها مِنْ بَرَدٍ> جنسه، ثلجاً أماذا، وبعضه لاكله! <فيصيب به> البرد <من يشاء> إصابته غذاباً أو تاديباً، إمتهاناً او امتحاناً.. <و يصرفه عمن نشاء> صرفه عنه فلا امتهان ولاإمتحان، فالبرد ـ إذاً ـ كعذاب قلَّ اوكثر، يصيب الاشجار والأثمار والأبنية وأصحابها، وقد تصبح كرصاص تجرح أوً تقتل لكبرها وشدة وقعتها!

<يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ> والسنا هو الضوء الساطع، فساطع الضوء من برق السحاب[٢] الودق، والمطر والبَرَد، يكاد يذهب بالأبصار، لشدة الإلتماع وسرعة الإيقاع!

أترى <من جبال فيها> هي المستكنة في السماء المختلفة عن سحاب الودق المطر؟ والبرد يتحول في الأرض ماءً! وليس نازل السماء إلاّ صاعد الأرض دون زيادة أو نقيصة اللّهم إلاّ في طوفان نوح! <يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعي...>(٤٤:١١) فللأرض ماءُها المخصوص بها، ما يتبخر منها ويرجع وما يتبقّى: <وَ أَنْزَلْنا مِنَ السّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنّا عَلي ذَهاب بِهِ لَقادِرُونَ>(١٨:٢٣) <والسماء ذات الرَّجع>(٩:٨٦) حيث ترجع أماناتها الأبخرة دونً إبقاء ودقاً ومطراً وبردا![٣]

وصيغة الإصابة والصرف في البرد دليل أنه نقمة دون رحمة. ولكنما الثلج الرخو في

---

[١] . فليس من برد تعنى ـ فقط ـ جنس الجبال: فانها ليست برداً كما السحاب الممطرة ليست مطراً ثم لامتعلق ـ اذاً ـ لـ: <ينزل> فماذا ينزل من جبال فيها من برد، والاولى الجمع بينهما: ان من برد تتعلق بـ: <ينزل> كما تتعلق بكائن حيث توضح جنس الجبال.

[٢] . الضمير الغائب في برقه لايصلح رجوعاً الا الى محور الكلام(السحاب) واما الودق والبرد اماذا فلا، والسحاب اسم جنس جمعى واحده سحابة فقد يرجع اليه ـ كما هنا ـ ضمير الواحد باعتبار اللفظ، او الجمع باعتبار المعنى كالسحاب الثقال.

[٣] . لم يات الودق والبرد في القرآن الا هنا، والمطر فى(٨) مواضع والذى يعني مطر الماء في موضعين <ان كان بكم اذىً من مطر> (٤: ١٠٤) <قالوا هذا عارض ممطرنا> (٢٧:٤٦) و لم يكن ممطراً! وانزال الماء من السماء نجده في آيات كثيرة وهو يشمل الثلاثة.

الأكثر رحمة إذ لاإصابة فيه وقعاً ولا واقعاً إلا سترة على أشجار ومخازن فوق الأرضية للمياه. فمهما يشمله البرد في أصله ليس ليشمله في إصابته وفصله أو أنه لا يشمل الثلج الرخو أصلا.

ويا للبَرد: ـ بندقية العذاب ـ من أشكال هندسية عجيبة هي تحير العقول، يرتفع البخار في الجو فيصبح كالبهاء ثم تتجمع أجزاءه لما فيه من نداوة فينزل كالعهن المنفوش أحياناً، او تتجمع باندغام أكثر في ضغط الرياح فينزل بَرَداً أخرى اذ تروج أجزاءه بمصاكة الرياح، أو ينزل ماءً ثالثة حيث البرودة في الجو أقل من هذه وتلك، والرطوبة أكثر، أو عمود النزول أطول، فهذه إضبارة مثلث نازل السماء حسب مختلف الظروف، والأصل واحد هو البخار دون أن تكون هناك في السماء مياه غير هذه الأبخرة الأرضية، أم جبالٌ من برد!

<يُقَلِّبُ اللّهُ اللّيْلَ وَ النّهارَ إِنّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِى الْأَبْصارِ>(٤٤)

آية التقليب هذه يتيمة لامثيل لها في القرآن، ففى آيات الليل والنهار قد ياتي اختلافهما(١٦٤:٢) وأُخرى خلفتهما (٦٢:٢٥) وثالثة إيلاج كل في الآخر(٢٧:٣) <يُغْشِى اللّيْلَ النّهارَ يَطْلُبُهُ حَثيثًا>(٥٤:٧) و رابعة <اللّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النّهارَ>(٣٧:٣٦) <الله يقدِّر الليل والنهار> (٢٠:٧٣) ثم لانجد تقليباً لهما الا هنا، فماذا يعني تقليبهما؟

قلب الشيء هو صرفه عن وجه إلى وجه، زماناً أو مكاناً، صوريّا أو ماهوّياً أما ماذا من وجه، فتقليبه هو كثرة قلبه عِدّة وعُدّة بمختلف الوجوه، من تقليب في مكان حيث الليل يسلخ منه النهار كما النهار يسلخ منه الليل، فكل ياتي مكان الآخر خلفة واختلافاً، وهذا من خلفيات تقليب الكرة الأرضية، ومن تقليب زمني إذ <يُولِجُ اللّيْلَ فِى النّهارِ وَ يُولِجُ النّهارَ فِى اللّيْلِ> تقصيراً من أحدهما فتطويلاً في صاحبه، وهو من خلفيات الحركة البيضوية اللأرض فتحصل منها الفصول الأربعة حيث يقتضى مختلف الودق والامطار، وفي الشتاء الثلج والبرَد، فكل من هذه الأربع فصل، فالأخيران شتويان، ومهما عم الاوّلان كل الفصول، ولكنهما في الصيف قليل، ثم يكثر ان خريفاً ثم

ربيعاً وفي الشتاء غزير كثير، وهذا مما يربط آية التقليب بآية الودق والبرد! فآية التقليب تعني ما تعينه سائر الآيات وزيادة تعم كل تغيير وتحوير في الليل والنهار بما يحملها من أرضهما، تقليب من قاصد دون هرج و مرج وفوضى <إنّ في ذلك> التقليب الحكيم الهادف <لعبرة> يعبر بها الى القدرة لمقلبهما <لأولي الأبصار> الذين يبصرون بهما فيبصِّرانهم، لا إليهما فيعميانهم كما الدنيا كلها: <من أبصر بها بصرّته ومن أبصر اليها أعمته>!

<وَ اللّهُ عَلي كُلّ شَىْءٍ قَديرٌ>.

هنا خلق كل دابة من ماء ولاتشمل كل حى، وفي الأنبياء <وجعلنا من الماء كل شىء حى> شاملة غير الدواب، من سابح البحر وطائر الجو طيراً، وطائر السماء ملائكة آمَّن ذامن كائن حي، بحياة نباتية أو حيوانية أو إنسانية أو ملكية، وكل حي أيا كان وأيان، إلاّ الميت كالجمادات مهما كانت لها حياة التسبيح بحمد ربهم، ثم وفي هود يعتبر الماء ـ وهو الماة الأم وهي تهمّ الماء وسواه من كائن ـ يعتبره مادةً لخلق الكون أجمع: <هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عشه على الماء...> ولا تصريحة في القرآن بخصوص خلق دابة او حيّ من ماء الاّ الإنسان: <وَ هُوَ الّذى خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا>(٥٤:٢٥) ولكنه ـ كما الماء المادة الأولى ـ ليس الماء المعروف، بل <ماةٌ دافق> (٦:٨٦) و <ماءٍ مهين>(٨:٣٢).

فماء الكون أجمع يشمل ماء كل حى وسواه، وماء الحياة يشمل كل دابة وسواها من حي، مياة ثلاثة اولاها المادة الأم، وثانيتها مادة الحياة، وثالثتها مادة الدواب، أترى أن الأخيرين واحدٌ هو الماء، فلماذا خصت هنا كل دابة دون كل حي كما هناك؟ علّه لأن ماء الدواب هو المني مهما كان أصله الماء، وأما الملائكة فلا منى في خلقهم إذ لاتناسل بينهم، وأما الطير فهى وإن كانت من ماء المني، ولكنها ـ إلاّ ماشذ ـ تخلق من بيض مهما حصلت من مني، وأما الدواب فلا بيض في خلقها إلا توالداً من مني يمنى!

فأحياء الكون من دابة وسواها مخلوقة من ماء ككلٍّ، كما أن الدواب تخلق من ماء

المني مهما كان أصله الماء، دون غير الدواب إلاّ نذراً.

وقد تلمح التنكر في <من ماء> أنه غير الماء الذى جعل منه كل حيٍّ أو يعمه، كما التعريف في <من الماء> لمحة الى أنه الماء المعروف، أن جعل كل حي منه، كما أن بقاءه به!

ثم <خلق> هنا و <جعلنا> هناك لمحة ثانية الى الفرق بين المائين، فالخلق هو التقدير، والجعل البسيط كما هنا هو الإيجاد، فقد قدر كل دابة ولادة من ماء، كما جعل كل حي ـ تكويناً يعم الولادة ـ من الماء!

فالأحياء ذات أصل واحد هو الماء، والدواب ذات أصل واحد من ماءٍ، والكل مع سائر الكون ذو أصل واحد سمى ماءً هو المادة الأم، فلا أصل للكون أياً كان الا مثلث الماء، فلا مجرد عن المادة الا خالق الكون! ولكون بروحه وجسمه ينتهى الى الماء إذ <كان عرشه> في خلق السماوات والأرض بما هما الكون المخلوق أجمع، كان <على الماء> الماده الأم، فكل شيءٍ سوى الله، من جماد ونبات وحيوان وإنسان وجان وملائكة أمّن ذا وماذا، إنها مخلوقة من <الماء> دونما استثناء، فأين التجرُّد في روح و سواه والكل من مواليد الماء.

إذاً فآيات الخلق والجعل من الماء هي من دلالات المادية الشاملة لما سوى الله من جسم وروح، وكما آيات أُخرى وروايات وأدلة عقلية تدلنا على مادية الروح أياً كان، وبحثه الفصل تجده في آية الروح <قل الروح من أمر ربّى>.[1]

ولماذا <منهم> هنا ثلاث مرات راجعاً إلى <كل دابَّة> و <هم> يعني ذوي العقول؟ إنه لتغليب ذوي العقول من إنس وجن أمَّن ذا؟ تشملهم <كلّ دابة>.

تُذكر هنا من صنوف الدواب أقسامٍ ثلاثة <على بطنه ـ على رجلين ـ على أربع> ثم يُشار إلى سائرها الزائد على أربع < يخلق الله ما يشاء> معللاً بالقدرة المطلقة الإلٰهية

[1] . وكما في آية الزوجين والأزواج وامثالها وآية الإنشاء في سوره الحج.

<إن الله على كل شيءٍ قدير>. ابتداءً بـ <من يمشي على بطنه> كالزواحف، لأنها أعجب مشياً إذ تمشي دون أرجل. ثم <مَن يمشي على رجلين> وسطاً في العُجاب مع أنه أمتن المشي، ثم <من يمشي على أربع> وهو أمَكُنه وأركَنُه، وكلما ازدادت الأرجل نقص العجاب من ناحية وازداد من أخرى، كالتي تمشي على ألوف الأرجل!

<لقد... صراط مستقيم>

هذه الآيات المبينات هي المُنزلة هنا وفي ساير القرآن، فإن آياته كلها مبينات تبين الحق كما يحق، فمن شاء اهتدى بها <والله يهدي> إيصالاً إلى الحق بعد اهتداء الدلالة <من يشاء> وهو من يشاء الهدى فيشرها الله بآياته البينات <إلى صراط مستقيم>.

<هُوَ الّذى يُريكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِيُ السّحابَ الثِّقالَ>(١٢).

البرق ظاهرة كونية باهرة مبشرة أحياناً وقاهرة أخرى، قد تخافونها لانها بنفسها ورعدها تهز الأعصاب وترعد الأسماع، فقد يتحول الى صاعقة العذاب الهون، ام تنذر بسيل مدمَّر ام طوفان مزمجر، وأخرى مبشرة بها طول المدرار المجري للأنهار، ام تجمع بين التبشير والإنذار حيث تبشر جماعة يحتاجون المطر وينذر من يتضرون بالمطر فانتم تعيشونها خوفاً وطمعاً، كما <وينشيء الحساب الثقال> محمَّلة حمل الماء ليُرسل عليكم مدراراً وغير مدرار.

والسحاب تأتي جمعاً كما هنا وفي الأعراف: <حَتّي إذا أَقَلّتْ سَحابًا ثِقالاً...>(٥٧) وواحدها سَحابة، ام مفرداً اسم جنس كما في سائر القرآن.[١]

ثم <يريكم> يلمح بوجود البرق قبل إرائته في كمون الكائنات، ومنها السحاب المسخّرة في جو السماء، فتعم البرق المصطنع لامخترع، فالبرق كامن في كل كائن، قد يريه الله إيانا دون وسيط كما في سائر البرق، واخرى بوسيط كما في الكهارب

[١] . <السحاب المسخَّر بين السماء والأرض>(١٦٢:٢) و <سحاب مركوم>(٤٤:٥٢) <يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه> (٤٣:٢٤) <تثير سحاباً فيبسطه في السماء>(٤٨:٣٠) <فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت> (٩:٣٥).

المخترعة، فهنا إراءَة بما نسعى، وهناك نراه ولانسعى، وتجمعها إرادة الله كما وهو من خلق الله.

فليس البرق ـ اياً كان ـ باصطكاك وسواه، وانما يَظهر بعد خفاءِه بما يظهره إلهّياً باسبابه غير الشاعره، كالسحاب وسواه، ام باسباب شاعرة كالإنسان وسواه، فكله من ارادة الله كما الكل من خلق الله.

وكذلك السحاب ثقالاً وغير ثقال كلها مما انشأها الله، بما يسحبه هو من أبخرة أرضية، ولذلك يسمى السحاب،ام يسحبه انسانه ام سواه فيصطنع سحاباً موضعية لحاجة شخصية أماهيه.

فمن السحاب ثقال هي ركام مؤلفة من خفافها المزجاة من الابخرة: <أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُزْجى سَحابًا ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكامًا فَتَرَي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السّماءِ مِنْ جبال فيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصار>(٢٤:٤٣)

ومنها خفاف لاتحمل ماءً حاضراً إلاّ بعد ما تؤلَّف فتصبح ركاماً، وعلى أية حال فإنشاء السحاب الثقال هو من فعل الله سواءً دون وسيط عاقل محسوس كما في سائر السحاب،ام بوسيط الإنسان وسواه كما حصل اخيراً بتعملات علمية جاهزة.

ومن غريب التكوين اللاّمح الى قريب المكوِّن الحكيم، اِراءة البرق باصطكاك السحاب خفافاً وثقالاً، فانها أبخرة الماء، والماء يناحر النار فكيف تطلع منه نارٌ، سبحان الواحد القهار، أفلا يدل ذلك الصنع العجاب على تقصُّد وارادة حكيمة وراء الكائنات كلها؟!

إنه يريكم البرق من أبخرة الماء، كما النار من الشجر الاخضر <الّذى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشّجَرِ الْأَخْضَرِ نارًا فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ>(٣٦:٨٠)

وقد تلمح <وينشىء السحاب الثقال> بعد <يريكم البرق> أن إنشاء السحاب الثقال من موارد إراءة البرق، ففي تأليف خفاف السحاب إصطكاك بينها تلاحقاً وتجمّعاً

ركاماً، كما في اصطكاكها ركاماً برق و برق، وأَينَ برق من برق؟ فكلما اشتد الإِصطكاك بشدة الوقع وثقل السحاب اشتد البرق ولِحدِّ الصاعقة.

قد يحصل البرق من تقارب سحابتين مختلفى الكهربائية حتى يصير مثل الكهربائية الواحدة للإِقتراب من كهربائية الأُخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما، فتهجم كلٌ على الأخرى بنور وزاهر قاهر وصوت قوي، فالنورهو البرق والصوت هو الرعد.

فقد تصدق الرواية القائلة: <البرق مخاريق من نار بأيدى الملائكة السحاب يزجرون به السحاب>[1] والقائلة: <أن مَلكاً موكل بالسحاب يلمّ القاصية ويلحِّم الدانية، في يده مخراق فاذا رفع برقت واذا زجر رعدت واذا ضرب صعقت>.[2]

<وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ>(١٣)

التسبيح بالحمد هو سلب بالايجاب، وهو الصحيح الفصيح في حمده سبحانه أن يسبَّح في حمده بصفاته العليا واسماءه الحسنى، يسبَّح تنزيهاً عما لا يليق به من صفات المخلوقين مهما تشابهت صفات بصفات في ألفاظها، فحمده بأنه عليم حي قديرٌ يفصحه تسبيحه عن علم مَن سواه وحياته وقدرته: <إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...>.

فكما الملائكة يسبِّحونه بحمده من خيفته، كذلك الرعد وسائر الكائنات والحادثات الكونية حيث تثبت له صفات الربوبية، تنزيهاً عن سائر الكائنات المربوبين، وهذا من تسبيحها بحمد الله.

ولانجد رعداً إلاّ هنا في الرعد مسبِّحاً بحمده، وفي البقرة بصيِّبة: <أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ

---

[1] . الدر المنثور ۴: ۴۹ ـاخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر و ابن ابى حاتم وابوالشيخ و الخرائطى في مكارم الاخلاق و البيهقى في سننه من طرق عن على بن ابى طالب∆ قال: البرق مخاريق...

[2] . المصدر اخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله ان خزيمة بن ثابت سأل رسول الله5 عن منشأ السحاب فقال: ان ملكاً...

السّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ>(١٩) فالبرق هو النور البارق، والرعد هو الصوت الخارق، وهما من حصائل الإصطكاك السحابية والتفريغات الكهربائية.

وفيما يروى عن الرسول5 هو <ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب، بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله...>[١] و التعبير عن القوات الكونية وحادثاتها بالمَلَك، علّه للإشارة إلى أنها مقصودة مدبّرة دون فوضى جزاف.

ولماذا يتقدم تسبيح الرعد بحمده على تسبيح الملائكة من خيفته واين تسبيح من تسبيح؟ علّه للتأشير الى ان الكون كله يسبِّح الرب بحمده، دون عقل و ادراك كما يزعمون، ام بعقل فائق كما الملائكة الكرام يعقلون، فالكل له يسبِّحون ويسجدون طوعاً او كرهاً، والرعد من الطائعين مهما كان الكافر من المكرَهين، فانه يسجد بحمده بكونه، مهما تخلف عنه في كيانه، ولان الرعد ـ كما البرق والصاعقة ـ هو من اصطكاك أجرام السحاب اللطيفة، إذاً فأصواته الصريخة تقوى بها الدلالة على عظيم قدرة الله المقدَّرة وبُعد عن شبه الخليقة المقدَّرة، وصفات البرية المدبَّرة، حيث الرعد إنما تغلظ أصواته، وتعظم هزّاته باصطكاك السحاب الخفيفة ـ على كونها ثقالاً بالمياه ـ معلقة بالهواء الرقيق، فأين الرعد المرعد من خفيف وخفيف، سبحان القدير اللطيف! فلولا دعائم القدرة وسماكها، وعلائق الجبريَّة ومساكها لما حمل عشر معاشرها ولااستقل ببعض اجزاءها.

ثم نرى انه على تثاقل أردافه وتعاظل التفافه ينفشُّ انفشاشَ المتداعي، والغثاء المتلاشي، إن في ذلك لعبرة لاولى النهى، حيث الرعد يسبح ـ هكذا ـ بحمده، ويحمل المرتعدين أن يسبحوه بحمده، حيث يضطرهم الى تسبيحه عند سماعه، مهما تغافلوا عنه

---

[١] . الدر المنثور ٤: ٥٠ ـ اخرج احمد والترمذى وصححه والنسائى وابن المنذر وابن ابى حاتم وابوالشيخ في العظمة وابن مردويه وابونعيم في الدلائل والضياء المختارة عن ابن عباس(رضى الله عنه) قال: اقبلت يهود الى رسول الله5 فقالوا يا ابا القاسم انا نسألك عن خمسة اشياء فان انبأتنا بهن عرفنا انك نبي واتبعناك فاخذ عليهم ما اخذ اسرائيل على نبيه اذ قال: <والله على ما نقول وكيل> قال: هاتوا قالوا اخبرنا ـ الى ان قالوا ـ : اخبرنا ما هذا الرعد، قال: ملك...

قبل سماعه!

ثم الصاعقة وهي البرق الراعد الذي يصعق من يصيبه، هي اشتداد البرق، والرعد لحد يتجاوز جو السماء إلى ساكن الأرض، كما الأحجار السماوية، فانها شهب قوية ونيازك نارية تقوى فتصيب شياطين الأرض، كما تهدف شياطين السماء، وكذلك الصاعقة: <فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ>(١٧:٤١) <يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ في آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحيطٌ بِالْكافِرِينَ>(١٩:٢)

وهكذا نرى في ساير القرآن أن الصواعق لاتصيب إلاّ الظالمين(١٥٢:٤) المعرضين عن الله وآياته(١٣:٤١) والعاتِين (٤٤:٦١) والمتعنتين في الايمان(٥٥:٢) دون سواهم، فلا يعني <من يشاء> هنا إلاّ هؤلآء دون سواهم، فقد <يموت المؤمن بكل ميتة إلاّ الصاعقة، وهو يذكر الله عزوجل>.[١]

ان مثلث البرق الرعد الصاعقة هي حصيلة مختلف الحركات في الهواء والسحاب، فالسحاب قد تبسم بالبرق، ثم تتكلم بالرعد ثم تحرق بالصاعقة، والكل بين الماء والهواء، سبحان العزيز الجبّار.

ومن تسبيح الرعد بحمده انه يخوِّف حينما يُطمع، فيحمده الطامعون ربهم، وليسبحوه عما يخافون أنه ظلمٌ منه وسبحانه! فكل شيء صادر من الله فيه نفع وضرّ يتطلب تسبيحاً بالحمد، نحمده بنفعه ونسبّحه في ضره، أنه ليس مقصوداً بذاته، أم يُقصد عقاباً لمن يستحقه.

ومن أعجب العُجاب أنه في أهوال نور البرق وصوت الرعد ونار الصواعق، وفي تجاوب بارع لتسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف عن غضبه، في

---

[١] . نورالثقلين ٣: ٤٩٠ ح ٦٣ في اصول الكافي باسناد عن ابى الصباح الكتابى عن ابى عبدالله∆ قال: ... وفيه باسناده عن بريد قال قال ابو عبدالله∆ ان الصواعق لاتصيب ذكراً، قال قلت: وما الذكر؟ قال: من قرء مائة آية، وفيه عن ابى بصير قال سألت ابا عبدالله∆ عن ميتة المؤمن قال: يموت المؤمن بكل ميتة غرقاً ويموت بالهدم ويبتلى بالسبع ويموت بالصاعقة ولاتصيب ذاكراً لله، اقول موته بالصاعقة ليس الا عند إعراضه عن الله.

هذه الهولة المزمجرة والتسبيحة الشاملة، هؤلاء الحماقى الطغاة يرعدون ويبرقون ويصعقون بنعرات وغوغائيات الجدال في الله وهو يريهم نفسه بقدرته البارعة وحكمته في خلقه <و هم يجادلون في الله وهو شديد المحال>: المماكرة، فانهم يماكرونه وهو ماكِرهم وهو أشد مكراً إن كانوا يشعرون.

فهمها أبرقوا وارعدوا تضيع اصواتهم الجهنمية الهزيلة الرذيلة بالله.

إن الصاعقة وهي من حصائل الصِّدامات السحابية واصطكاكاتها، هي أقوى نار تُعرف، رغم أنها من ولائِد الأبخرة السحابية المضادة للحرارة، ولربَّما تغوص في البحر وتحرق حيوانه في لجَّته، سبحان القدير المتعال.

تؤمض في الجو بروق، وتعقبها رعود، وتذهب بذلك من القوة الكهربائية ما قد تكفي لإِنارة عشرات من المدن، أتراها تذهب ضياعاً، وأن الله يسرف او يبذر في هذه الومضات البارقة المرعدة؟! وهي قد تجتاح الكرة الأرضية على نطاق واسع، وتُحدث اضراراً بليغة وكما نرى ـ مثلاً ـ في الولايات الامريكية اراضي كثيرة كانت بالامس مكسوَّة بالغابات والأحراش وآبار البترول وكثير امثالها، وهي اليوم بلقع قفر على أثر الصواعق التي اجتاحت كل ما فيها.

وقد تصحبها اعاصير تحدث من الأضرار ما لا تقل عن إضرارها نفسها ولاسيما في البحار، وفي الجو حيث تنتاب الطائرات فتصعقها.

وقد تعترض امواج الكهربائية اللاّسلكية فتعطِّلها او توقفها عن اعمالها، وقد يظلَم الجو بسببها فتضطر الآلات المولدة للنور الكهربائى الى مضاعفة جهدها.

وقد قدر العلماء الأضرار النسبية السنوية الناجمة عن عواصف الرعود و البروق، فاذا هي لاتقل عن مأتي مليون دولار.

ولكنها بجنب اضرارها تحوي منافع كبيرة وكثيرة جداً، حيث تسبب هطل الأمطار الغزيرة، وتساعد على نترجة الهواء إشباعاً لها بالنتروجين فيصبح سماداً للتربة، وقد قدر المساد النتروجينى الناشئة عن عواصف البروق والرعود في بلاد الهند الصينية وحدها

بزهاء مليون دولار، فكيف إذا يتضرر العالم بهذه العواصف فالنفع اكثر، بل وإصابة الكفار هو النفع الاكثر ثم ساير النفع إذاً <ويسبح الرعد بحمده> حمداً في نفعه، وتسبيحاً عن ضره أن يكون ظلماً او اسرافاً، سبحان العزيز الجبار!

<لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ وَ الّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَي الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرينَ إِلاّ في ضَلال>(١٤)

<له> دون سواه <دعوة الحق> علّها حق الدعوة والدعوة الحقَّة، فمن يدعوه كان حقاً في دعوته وهو المدعو، حقٌ في اجابته، ثم لسواه باطل الدعوة والدعوة الباطلة فانك <إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير>(١٤:٣٥) <لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنّ مَرَدّنا إِلَي اللّهِ وَ أَنّ الْمُسْرِفينَ هُمْ أَصْحابُ النّار>(٤٣:٤٠)

فالدعوة داعيةً ومدعوةً لاحق فيها إلاّ له، وهي هي الباطلة لسواه، فليس لمن سوى الله دعوة حقة هدياً إلى صراط مستقيم، أم إجابة لمن دعاه لافي الدنيا ولا في الآخرة، ولله لاسواه يهدي إلى صراط مستقيم، واستجابة لمن دعاه على شروط الدعاء الحقة المقررة المسرودة في الذكر الحكيم.

وأما <الّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ> فـ <إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ> فهم <لايستجيون لهم بشيء> على أية حال إلا كاستجابة <كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَي الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ> فبلوغ الماء إلى فيه بحاجة إلى سبب مستقيم، وهو استقامة الدعاء والمدعو إليه، فمهما استقام الدعاء ببسط الكفين الى الماء فليس بمجرد بسطه ليبلغ فاه، حيث ضل المدعو في وصوله إليه مهما توسَّط ببسط يديه إليه.

تسخيرات في الكائنات

<وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النَّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ>(١٢)

<سخَّر لكم> وهو جعل الليل والنهار والشمس والقمر ملبِّية لحاجيات إنسان الأرض، مهما كان فيها منافع لما في السماء ومَن فيها، وهذه الأربع ذوات آثار حماسة في الحياة الأرضية، فكلٌ دون قرينه لاتلبّى الحاجة كما تجب، ام وتعسِّر الحياه او تحيلها.

ولماذا <سخر لكم> دون النجوم فانها <مسخَّرات بأَمره> هنا و في الاعراف(٥٤)؟ بفارق ان <مسخرات> هنا مرفوعة وهناك منصوبة؟ علّه لأَن غالبية انتفاعات النجوم ككل هي لسائر الخلق، مهما كانت لنا نافعة، كما <جَعَلَ لَكُمُ النَّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها في ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ>(٩٧:٦) فـ <النجوم مسخرات> معطوفةٌ جملةً على الجملة السابقة.

فمن النجوم ما لاتنالها العيون المسلحة فضلاً عن المجردة، فضلاً عن ان نهتدي بها في ظلمات البر والبحر ام آية عائدة منهما، اللهم إلاّ بعيدة غير مشهودة.

ولأَنها كلها مع الاربع الاولى، مسخَّرات بأمره وتدبيره، كما هي كائنات بخلقه <أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ> فليست لتتفلّت عن أمره او تتلفت الى غير امره، فهى منضَّده منظَّمة كما امر الله، منساقة الى ما ساقها الله، فهى اذاً من آيات الله كوناً وكياناً وتوحيداً لله <إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ>.

<وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوانُهُ إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ>(١٣)

الذرءُ هو اظهار المُبدَء: <وَ هُوَ الَّذى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ>(٧٩:٢٣)

<جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجًا يَذْرَؤُكُمْ فيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّميعُ الْبَصيرُ>(١١:٤٢)

وسخر لكم <ماذرأ> واَظهر <لكم في الأرض مختلفاً الوانه> ذراً للزرع والضرع وسواهما من الوان المعادن وسائر المركبات العنصرية، واَصلها واحد كما عرفه العلم اليوم

فهو ذرء لمختلف الالوان ذرياً وجزيئيّاً وعنصرياً والواناً اخـرى: <وَ فِـى ٱلأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجاوراتٌ وَ جَنّاتٌ مِنْ أَعْناب وَ زَرْعٌ وَ نَخيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقي بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلي بَعْض فِـى ٱلأُكُـل>(۴:۱۳) <ان في ذلـك لآيـة لقـوم يـذكرون> <يذكرون> بذكريات علميةٍ وعقلية، فمختلف الألوان لايُذرأ من اصل واحد ولون فارد إلاّ بمختلف الوان الذرء بختلف القصد والاختيار.

فالاَصل واحدٌ في الظاهر وهو المادة الأرضـية، وواحـد في الواقـع علميـاً حيـث العناصر والجزيآت والذرات المختلفة ترجع الى شحنة موجبة (بروتون) واخرى سـالبة (الكترون) ام وثالثة او رابعة خنثى (نيوترون) (بوزيترون) اماذا؟ وهذه ايضاً ترجـع الى المادة الفردة الأم!

عجائب الأرض

واليكم مثالاً دقيقاً لمختلف الألوان في خلـق واحـد: فراشـة ابي دقيـق: فأجنحـة الواحدة منها تبلغ مساحتها(١٥) بوصة وقد رسمت في هـذه السـاحة الصـغيرة بيـوت متجاورة صغيرة بشكل هندسي منتظم، وتلك البيوت تبلغ في بوصة واحدة مربعة(٩٩) الف بيت، لانها (١٦٥) صفاً وكل صف فيه (٦٠٠) بيت، اذاً فجيمع البيوت المنظمـة في أجنحة الفراشة تبلغ ١٥٠٠٠٠٠ بيتاً وهي عبارة عن مخازن كل مخزن فيه كيس مختوم، وهو إما مملوءٌ هواءً مادة ملوَّنة ومتى وقعت عليها الشمس ظهرت لنا بصورة بديعة تسر الناظرين، والهواء المحبوس في الكيس هو الذى عكس ما تراه في الحشرة اذترى زرقة وبياضاً بانتظام، سبحان الخالق الملك العلام![1]

وترى لماذا ذلك النظام الهام وتلك المواد الملوَّنة والهواء، الذى ملئت به تلك الحقائب البالغة ١٥٠٠٠٠٠؟ كل ذلك لامور منها حفظ الفراشة من اعـدائها، فـاذا رأت مهاجمـاً عليها ضمت اجنحتها ووقفت على زهرة فصارت تشبهها فتلتبس بها فتحفظ من العدو!

[1] . للعالم الامريكى (فرنن كلوح) البيولوجى ـ لألوان حشرة ابى دقيق.

ولماذا ذلك الحفظ البالغ؟ لأُمور منها أن تعيش على ورق قطننا وتمتع في قصور ونور فيخسر الزارعون وهي الجانية الكاسبة!

فما اعجب ذلك الصنع البارع البديع، هواء محبوس يعكس الضوء، ومادة ملونة تظهر بنور الشمس، سبحان الخلاق العليم الحكيم.

كما وانت ترى هذه البيوت على نوعين، بيوت فيها مادة ملونة، واخرى هواء تقوم مقام الزجاج، وفراشتها كذلك نوعان، قسم يعيش في البرازيل زاهي اللون وبديعه، قد اعطي مادةبشعة الطعم منتنة الريح تفرزها الفراشة على مهاجميها فترتد عنها، وقسم آخر لم يُعطَ هذه المادة، يسمى الاول الملك والثانى نائب الملك، فالاول تخافه اعداءُه لتلك المادة، والثانى لمشابهته الاول في لونه، فتظن الطيور أنهاهيه.

فاذ قد نرى بعيون مسلَّحة في فراشة واحدة صنوف الالوان والوان الصنوف، فكيف ترى ـ اذاً ـ ذلك الكون الشاسع العظيم، سبحان الخلاق العظيم!

وفي مختلف الالوان اضافة الى الوان من هذهِ الحِكَم، ونضارة المنظر، الوان اخرى من فوائد طبية وسواها.

فهل خطر ببالك يوماً مَّا ان لون الزرقة كلون السماء والبحر الملح يقويك اذا كنت نحيف الجسم اوفى دور النقاهة؟!

او ان اللون البنفسجى يمنع عنك الأرق والسهر فتنام! او ان لون الصفرة مُنَشِّط منبِّه كما <انها بقرة صفراً فاقع لونها تسر الناظرين>.

وهو يفيد اصحاب الماليخوليا، ويهدىء الأعصاب ويلطِّف ثورتها ما لم يكثر استعماله فيعاكس الاثر!

او ان لون الحمرة يحدث تخديراً بتكرار النظر كما تفعل المواد المخدرة.

وأنها تزيد المجنون جِنة ويهيِّجه كايحصل لثيران اسبانيا في صراعها!

او ان المجنون اذا كان في غرفة زرقاء، هدأت اعصابه! او ان البائس اليائس اذا دام النظر الى حمرة زالت علته!

او ان الزكمة والشلل وبعض الامراض المزمنة تخفف آلامها بالنظر الى الصفرة! وان المحموم ينضربها! وان اللون البرتقالى منبِّه! والخضرة تهدىء الأعصاب.

ان الأطباء في بضع السنين الماضية قاموا بتجارب لاختيار تأثير العلاج بالألوان، واوّل من اشار بمعالجة الالوان الدكتور (ادوين دابت) من اطباء (نيوجرسى) بامريكا، وقد الف كتاباً بشأنه طبع في اواخر القرن(١٩) وما فيه: ان اللون كالموسيقا يؤثر في المجموع العصبي تأثيراً عظيماً يظهر اثره جليَّاً في علاج الإِصطدامات العصبية والنور والسوداء، كذلك يؤثر في العقل ثم ينشأ عنه ردة فعل في المجموع العصبي على سبيل اشبه بالاستهواء او الإِيحاء، والثابت الآن ان اللون الازرق يفيد في تقوية الضعاف في طَور النقاهة، والبنفسجي خاصَّته الشفاء ويفيد في علاج الأرق.

إن الافراط في النظر الى اللون الاحمر قد يفسد التوازن العقلى كما ذكر الدكتور رابت إن المجانين والمصابين بامراض عقلية اذا وضعوا في غرفة حمراء ساءت حالهم بسرعة، وبالعكس اذا وضعوا في غرفة زرقاء هدأت حالهم، وقد استعمل الدكتور(بونزا) مدير مستشفى المجانين بمدينة (اليساندريا بيدمونتى) غرفة حمراء لبعض المصابين بحالات اليأس فكانت النتيجة مدعاة الى الارتياح.

واستعمل اللون الأصفر في معالجة الزكام والشلل وبعض الأمراض المزمنة فخفت كثيراً، وقد ثبت انه مضر بالحميات وقد يؤدى لهم الى الالتهاب والبحران، واما المصابون بالجنون فقد افادهم كثيراً خلاف الأحمر.

واللون البرتقالى هو من الالوان المنبّهة، واللونان: القانى والبنفسجى الفاتح هما من الالوان الملطّفة للأعصاب، والاخضر مهدىءٌ للاضطراب العصبية كالمخدِّرات، وذكر الدكتور (بونزا) تجارب أجراها بغرف ملوَّنه فقال: انه وضع رجلاً مصاباً بالماليخوليا و العبوسة وقلة الكلام في غرفة حمراء، فبعد ثلاث ساعات اصبح الرجل طَروباً ضحوكاً، و وضع عليلاً آخر كان يرفض الأكل وقد نحل جسمه، فبعد اربع وعشرين ساعة نشأت فيه شهوة الطعام ورجع الى حالة طبيعية.

ويؤخذ من تقارير مستشفى (لندن) أن العلاج بالألوان قد جاءت بفائدة عظيمة جسمية في الأمراض المختلفة، وان الالوان: الاصفر ـ القرنفلى ـ الوردى ـ الأزرق السماوى ـ الخضر ـ والبنفسجى بنوعيه القاتم والفاتح، هي أهَمّ الالوان العلاجية.

وذكر الدكتور (رابت) ان الأزرق هو اهم الالوان في علاج اضطرابات العقل والاعصاب، وان عامة الالوان تؤثر في الرجال اكثر ن النساء، وان الحيوانات تتأثر كثيراً باللون القرمزى، والأصفر الفاتح، والأخضر الطبيعى، وان الطيور تتأثر باللون الاخضر والحيِّات باللون الأصفر لحد يستهويها ويسقطها في شبه سبات مغناطيسى، وان اللونين: الارزق البهت والاخضر الباهت يلطِّفان أعصاب الطفل المتهيج، وان تسعة وتسعين في المائة من الناس بحاجة الى اللون الوردى.[1]

وترى ما هو الفارق بين هذه الصنوف الثلاثة من الآيات حيث فرق بين اقوامها؛ <يتفكرون ويعقلون ويذكرون>؟

علّه لان الحجة الاولى تحملما يكفى في انتاجها مطلق التفكر، دون إمعان زائد إلاّ نضد المبادىء ومن المبادىء الى المراد، والفكر حركة من المبادىء ومن المبادء الى المراد.

ولكنما الحجة الثانية الى تفكير زائدو عقل ومقدَّمات علميه‌سائدة، غوراً في أغوار العلويات، في تسخُّر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم المسخَّرات.

والحجة الثالثة بحاجة الى مقدمات علميه واخرى فلسفية، استبطاناً لمختلف الوان الكائنات انها ترجه الى لون واحد وامادة فردة اولى، فاستنباطاً من اختلاف الألوان ان هناك تصميماً واختياراً، فليكن الخالق مريداً حكيماً مختراً، ومن وحدة النضج وتلائم النسج أن المصمِّم واحد لاشريك له، وفي هذه الثلاث إستجاشة لإعمال الفكر والعقل والعلم، ويكى نعرف.

<وَ السّماءِ وَ الطّارِقِ(١) وَ ما أَدْراكَ مَا الطّارِقُ(٢) النّجْمُ الثّاقِبُ>(٣)

[1] . كل ذلك ينقله الشيخ الطنطاوى في جواهره: ٨ : ١١٠ ـ١١٤ عمن ذكرناهم، اختصرنا منه ما يهمنا.

قسماً بالسماء: الأجواء الواسعة الحاملة لمواكيد الكواكب، وقسماً بالطارق: النجم الثاقب، فما هو الطارق؟ وما هو النجم الثاقب؟ وما هو الرباط بين السماء والطارق، وبين الحفاظ الإلهى على كل نفس؟

الطارق هو الإنسان الذى يطرق ليلاً فيدقّ الباب، فإن الطرق هو الدَّق، كما المطرقة هي المدقَّة، ويسمى الآتى ليلاً طارقاً لأنه يأتى في وقت يحتاج فيه إلى الدق أو ما يقوم مقامه، للتبيه على طروقه والإيذان بوروده.

والنجم هو الكوكب الطالع بنوره ـ وعله بطولع التمدن فيه أيضاً ـ والثاقب: هو النافذ بنوره وبطرقه يثقب ظلام الليل بنوره، ويظلم الحياة على مسترقى السمع الشياطين، بوقعه: <إِلاّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ>(١٨)

فالسماء حفيظة لأولادها الكواكب، وطوراقها الثواقب، حفيظه للملاءِ الأعلى أن يُسَّمع إليهم: <لا يَسَّمّعُونَ إِلَي الْمَلإِ الْأَعْلي وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلّ جانِبٍ>(٨): المدرعات الجويّة التي تثقب بنيازكها النارية النورية سُرَّاق السمع.

فالنجوم الثاقبة الطارقة ليلاً هي نور حياة للمتهدين، وظلمة على حياة المعتدين كما و أن آيات الوحى تثقب بأنوارها ظلمات الظلالات، وتثقب بوقعها كيان الشياطين، ومن أثقب النجوم في سماء الوحى هو الرسول الأقدس محمد5.[١]

قسماً بهذه النيازك النارية و الطوارق النورية، الثاقبات الحفاظات للكيان السماوى، إن واقع الحفاظ لايختصها، وإنما يعم كل نفس: بشرى و ملائكي وجني وحيواني وسوها، حفظاً عن الأخطار الموجهة إليها، ومن أخطارها الموجهة إلى غيرها:

<إِنْ كُلّ نَفْس لَمّا عَلَيْها حافِظٌ>(٤)

إن كل نفس إلاّ[٢] عليها حافظ إلهى، أو ملائكي! وبشري بأمر الله، أو كوني كذلك:

---

[١] . كما في نور الثقلين ٥: ٥٥٠ ح ٣ عن تفسير القمى عن الصادق5.

[٢] . تجيء <لما> بمعنى <إلا> في موضعين: أن والقسم كفولك سألتك بالله لما فعلت، ويحتمل أنها محففة، فاللام للتأكيد و<ما> صلة مؤكدة، والأول أصح والثانى مشوّه.

<فَاللّهُ خَيْرٌ حافِظًا وَ هُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ>(١٢:٦٤) وهذه مقتضى ربوبيته: <وَ رَبّكَ عَلي كُلّ شَيْءٍ حَفيظٌ>(٢١) هو حفيظ: <وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً>(٦:٦١) حفظة يحفظونهم في حياتهم، صادرين من أمر الله: <لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ> (١٣:١١) يحفظون نفوسهم بأبدانهم طوال الحياة وبعد الممات، فلا تذهب سدىً: <قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الّذى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ>(١١) ويحفظون أعمالهم ويكتبون: <وَ إِنّ عَلَيْكُمْ لَحافِظينَ(١٠) كِرامًا كاتِبينَ(١١) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ>(١٢).

إن كل نفس لمّا عليها حافظ، عليها دنياً وعقبى، عليها روحاً وجسماً، عليها أعمالاً وأقوالاً، وعليها ديناً ودنياً، فإن نجوم الإهتداء تثقب القلوب المقلوبة المظلمة ببوارق الهداية: من عقله وفطرته: رسولان هما لزام الإنسان، ومن آفاقه المحيطة به: رسالة الكون، ومن رجالات الوحى: رسالة السماء، فيا قبحاً لمن لايحسب لهذه الحفظة حساباً، فينفلت من حزب الرحمان إلى حزب الشيطان، وإلى حرب الرحمان!

وهذه النجوم تثقب الضالين بحيلهم فينهزمون: <وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ وَ لا يَزيدُ الظّالِمينَ إِلاّ خَسارًا>(١٧:٨٢)

فليست هنالك ـ إذاً ـ هيصة وفوضى، دون حراسة إلهية ولاحفيظ، إنما هو الحافظ الدقيق المباشر وغير المباشر، وسوف يظهر يوم تقوم الأشهاد.

ولكى يعلم الذنسان أنه محفوظ بعلمه ليوم تقوم الأشهاد فلا ينكر البعث والمعاد، فلينظر.

<وَ السّماءِ ذاتِ الرّجْعِ>(١١)[1]

إن الكائنات كلها رجعيات، ترجع إلى ما كانت، وترجع أماناتها كما أخذت: فالسماء سوف ترجع دخاناً كما كانت: <يَوْمَ تَأْتِى السّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ>(١٠) وهي

[1] . الرجع الستعمل لازماً ومتعدياً <لن رجعت إلى المدينة> <لئن رجعك الله إلى طائفة وهما المقصودان هنا معاً.

تُرجع أماناتها إلى الأرض دوماً: من أبخرة المياة الصاعدة إليها، إذ تتحول ثلوجاً ومياهاً، ثم توزع في أكناف الأرض حقاً وعدلاً، هذه السماء لاتتأبى عن رجوعها لقيامتها، ولا عن رجعها أماناتها، على عظمتها وسعتها! فهل إن هذا الإنسان الصغير الصغير يتأبّى عن رجعه؟ أو يقدر أن يخبيء أعماله وأفكاره في نفسه وفي الأشهاد؟

<وَ ٱلْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ>(١٢)

تتصدع لقيامتها، وتتصدع عن مواليدها، كأم تلد مواليدها بنطف المياه السماوية: ماءٍ دافق يخرج من صلب السماءِ وبالبذور المخبئة في ترائب الأرض، فتلد مواليد النباتات، ومن ثمَّ الحيوانات.

أفلا تدل السماء برجعها، والأرض بصدعها، والطارق بثقبها، على إمكانية رجع الإنسان شاء أم أبى، وعدل الله ورحمته يفرضان هذا الرجع، ولتجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى!

ثم قسماً بسماء الرسالات الإلهية، التي ترجع أمانات الوحي إلى أصحابها، وقسماً بأراضى القلوب المتصدعة بآيات الوحي النازلة لها:

<إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ(١٣) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ>(١٤)

الهزل هو كل كلام لاتحصيل فيه تشبيهاً بالهزال، فللقرآن تحصيل قولاً ومصداقاً، فهو فصل مقالة وخبراً، يفصل بين الغث والسمين والخائن والأمين، فهو مقالةً يدل بحكمته على أنه كلام الله جداً، وليس هزلاً، وهو خبراً ـ ومن بين أخباره ـ خبر صدق: أن الإنسان سوف يرجع لفصل القضاء، كما السماء والأرض راجعتان، فالكائنات كلها راجعة إلى ربها، مؤدية أماناتها! فليكيدوا ـ إذاً ـ كيدهم، فماذا يؤثر كيدهم، فما كيد الكافرين إلا في ثبات:

<إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا>(١٥)

كيدٌ بكيد، جزاءً وفاقاً، وأين كيدمن كيد؟ فهم يكيدون جهالاً عَجَزة خَوَنة، يظنوهم ألا حراسة عليهم ولاحول لاقوة! والله يكيد بتسجيل أعمالهم، وإملائهم <أُمْلى لَهُمْ إِنّ

كَيْدى مَتينٌ> (١٨٣:٧) وبالختم على قلوبهم، وعدم تأييدهم للخير إذ تركوه عمداً، وعدم الفصل بينهم وبين شرهم إذ اقترفوه عمدا، ثم يفاجئهم يوم تقوم الأشهاد بالأشهاد، فما له من قوة ولاناصر! <أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ>(٤٢:٥٢)

فأنا <الله> إذ أمهلهم، ليس عن عجز وقصور، أو جهل وفتور: <وَ لا يَحْسَبَنّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ>(١٧٨:٣) <وَ لا تَحْسَبَنّ اللّهَ غافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فيهِ الْأَبْصارُ>(٤٢) أنا أمهلهم هكذا، فأنت أيضاً:

<فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا>(١٧) فقد يكفيهم كيدي رغم إمهالهم، فمهِّلهم مدى حياة التكليف دون جزاءٍ وفاق، فاليوم عمل ولاحساب، وغداً حساب ولاعمل.

<وامهلهم رويداً> قليلاً: أترك كفاحهم إلى حين، وحتى تؤمر به، إذ كان الأمر في مكة تركاً، ولعدم الإمكانات الحربية، وفي المدينة حرباً، دفاعاً وانتقاماً.

ثم ـ ولجزاء أشدّ وأنكى ـ أمهلهم إلى القيامة الوسطى: قيام القائم المهدىΔ الذي يدمِّرهم تدميراً.[1]

ثم أمهلهم للقيامة الأولى: الموت، إلى العذاب ـ شيئاً ما ـ في البرزخ.

ثم للقيامة الكبرى، إذ يلاقون فيها جزاءهم الوفاق، ولايظلمون فتيلاً.

فهنا تمهيل إلى يوم الدين، وهناك إمهال رويداً رويداً، إلى الحرب وإلى دولة القائم، وإلى نار البرزخ، ثم إلى آخر المطاف في التمهيل.[2]

---

[1] . نورالثقلين ٥ ٥٥٣ ح ١٩ في رواية القمى عن المعصوم في الآية: <لو قد بعث القائمΔ فينتقم لى من الجبارين والطواغيت من قريش وبنى أمية وسائر الناس> أقول وهذا من التفسير ببعض المصاديق.

[2] . بناء على ما فسرناه يختلف التمهيل عن الإمهال دون أن يكون تكراراً، وقد يوحى إلى ذلك نفس صيغة التفصيل وهي للتكثير وهو يعني هنا المهلة الكثيرة، وصيغة الإفعال وهي للدفعة، وهي تعني المهلة القليلة.

المشرق والمغرب...

المشرقين و المغربين...

المشارق وال١غارب....

<رَبّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبّ الْمَغْرِبَيْنِ(١٧) فَبِأَىّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ(١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ(١٩) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ(٢٠) فَبِأَىّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ>(٥٥:٢١)

فمن آلاء الرحمان ربوبيته الوحيدة للمشرقين والمغربين، فإن كثرتها فوضى: <لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا> كما أن ثبات الشارقات والغاربات دمار للكائنات.

ثم المشرقان والمغربان هنا تجمعان مشرق الشمس والقمر ومغربهما: <رَبّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما>(٢٨:٢٦) ومشرقها ومغربها، مع مشارق سائر الشوارق ومغاربها، ومشرق كلٍّ مع زميله: الجهة الفرعية شمالاً وجنوباً، ومغرب كلٍّ كذلك، وأعلى المشارق والمغارب صيفاً وأدناهما شتاء، في غاية ارتفاع الشمس وانخفاضها: <فَلا أُقْسِمُ بِرَبّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ>(٧٠:٤٠)[1] فآيات المشرق والمغرب تتجاوب، إفراداً وتثنية وجمعاً، دون تنافر وتناحر.

ثم من آلاء الرب في مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما أن الفصول الأربعة مترتبة عليهما، وتتبعه تقلب الهواء وتنوعها، وما يليها من مطر وشجر ونبات.

كما وأن من الآلاء الأربع رباعية التدبير، وما اليها من آلاء في المشرقين والمغربين نحن نجهلها، لو اختل شيء منها لاختلت الحياة أو استحالت أو حوِّلت مماتاً.

<مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ(١٩) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ(٢٠) فَبِأَىّ آلاءِ رَبِّكُما

---

[1] . في كتاب الاحتجاج عن أميرالمؤمنينΔ حديث طويل وفيه: وأما قوله <رب المشرقين ورب المغربين> فان مشرق الشتاء على حده ومشرق الصيف على حدة. أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها، وأما قوله: <رب المشارق والمغارب> فان لها ثلاثة وستين برجاً تطلع كل يوم من برج وتغيب في برج تعود اليه إلا من قابل في ذلك اليوم.

تُكَذِّبانِ>(٢١:٥٠)

المرج هو القلق وهو الإرسال، وهو المزج[١] فلو كان أحدهما المقصود لجيء به، لاالمرج الجامع لهما،مرج الإرسال التقاءً دون مزج وتداخل، ومرج اللقاء دونهما، اللهم إلا في غير بغي.

ومن البحرين الممزوجين بحر الأبحر وبحر السماء، إذ يمزج من أبخرة الأرض بمياه السماء وبخاراتها، كما يمزج من مياه السماء ببحار الأرض، وقد يروى عن علي∆[٢] كما ومنهما بحر العذب والملح الأرضيين، وقد يجمعهما: <وَ هُوَ الَّذى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخًا وَ حِجْرًا مَحْجُورًا>(٥٣:٢٥) حجر محجور عن بصر العين وبصيرة العلم وحتى الآن، حجر حاجز بينهما عن التباغى رغم التلاقى: <وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزًا>(٦١:٢٧).

وترى ما هو هذا الحجر الحاجز البرزخ في البحرين الأرضيين؟ ليس لنا أن نهرف بما لانعرف! إلا أن البرزخ توحي بأنه ليس من العذاب الفرات ولاالملح الأُجاج، وإنما برزخ بين المائين، فهل هو ماءٌ بعد؟ قد يكون! ولكنه محجور عن الرؤية، فليكن أخف من المياه التي نعرفها، مختلفة عنها تراكيبه، بجزئياته، فَرِقَّته ودقّته بحيث لاتُرى!

ثم الحاجز بين الأرضي والسماوي أن يبغيا هو تقدير الرحمان، المحجور عن الإنس والجان! وما الحاجز بين البحر الأرضى والأنهار فليس محجوراً لاعن البصائر ولا الأبصار، فإنه علو الأنهار على البحار واختلاف أماكنها.

فقد مرج البحرين: أرسلهما طاميين، وأمارهما مايعين، فهما يلتقيان بمقاربة مقارفة

---

[١] . الإرسال من معانيها الثانوية كما يقال: مرج الدابة يمرجها اذا أرسلها ترعى في المرج:المرعى، والمرج هو معناها الأصيل وليس هنا القلق، من المكسور العين، وهنا هي من المفتوح العين، إضافة الى كونه لازماً والمرج هنا متعد.

[٢] . الإرسال من معانيها الثانوية كما يقال: مرج الدابة يمرجها اذا أرسلها ترعى في المرج: المرعى. والمزج هو معناها الأصيل وكل منها القلق، من المكسور العين، وهنا هي من المفتوح العين، إضافة الى كونه لازماً والمرج هنا متعد.

المرج المزج، وليس بالمزج، وإنما ضُمّن المرج هنا معين المزج لأنهما ارسلا رسلهما الرامي إلى مزجهما، الواقع بدوافعه تماماً لو لا الحجر المحجور، والبرزخ الحاجز، الذى يمنعهما عن الانخراط، ويصد كلاّ منهما عن الانفراط، فلا بيغى أحدهما على الآخر فيقلبه إلى صفته، أو ينقصه عن حدَته، لا الملح الأجاج على العذب الفرات، والا العذب على الملح الأجاج، اللهم إلا في مرج المزج غير الباغى، كما يمزج ماء البحار بمياه الأنهار، بعدما يصبح بخاراً وأمطاراً، ويمزج مياه العيون والأنهار بمياه البحار إذ تصب فيها، ولكنه مرج و مزج بحساب وميزان، إذ يأخذ كلٌ قدر ما يعطي دون بخس في المكيال ولا إخسار في الميزان، وهذا أيضاً من الحاجز بين مياه البحر والأنهار، إلا أنه حجر غير محجور.

ولو لا الحاجز بين البحرين: بين العذاب والمالح في البحر، وبين البحار المالحة والأنهار العذبة، وبين التفاعلات عبر التبدلات، لبحر الأرض والسماء، لولاه لتعطَّلت الحياة أو استحالت، فالملح الاجاج الذي يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضيه ضرورة لتطهيرها بجوِّها وإفساحها المجال للحياة من حيوان البحر وسواه، والعذاب المدخر في مخازن الأرض، والساري في مساريها، والكائن في البحار أيضاً كعروق أو أنهار[1] ضرورة للشرب والإنبات، كلٌ على قدره.

والبحران ـ كما أشرنا ـ يعمّان ماءَي الأرض جمعاً، سواء مياه البحار بعضهما مع بعض أو ماءَى بحر واحد، أو البحار والأنهار في الأرض، أو ما يتبدل بخاراً من البحار فإلى الأنهار، ومن الأنهار تسيل إلى البحار، إلا أن الحجر المحجور لايساعد بحري البحار والأنهار أرضاً، فإن الحاجز بينهما محسوس هو علو الأنهار واختلاف أمكنتها عن أماكن البحار، وأما البحر الواحد المتواجد فيه الماآن دون مزج فلا حاجز بينهما ملموساً، ويتلوه الحاجز المانع عن تغلب أحدهما على الآخر في غير الواحد، كما منه

[1] . كدجلة تدخل البحر فتشقُّه فتجرى خلاله فراسخ لايتغير طعمها،وكما تجعل دجلة البحر بحرين، كذلك هو وسائر البحر بحران، الأولان ملحان، والآخران مالح هو المالحان، وعذب هو دجلة.

البخار، والأنهار السائلة في البحار، فرغم المرج والمزج لاتغلّب للبعض على البعض.

وترى كيف يعبر عن البحر الحاوي للماءين بالبحرين؟ لأن أهم شروط التعدد اختلاف المائين، وقد يكون بحران في مكانين وماءهما من سنخ واحد، فأحرى أن يكون بحر او وهناك ماآن وإن في مكان واحد.

ففى مرج البحرين، أى بحرين، وبأى مرْج، إرسالاً ومزجاً، وفي جعل برزخ بينهما، أي برزخ، إن فيهما آلاء من الرحمان <فبأى آلاء ربكما تكذبان>.

<يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ(٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ>(٢٣:٥٠)

ترى أن اللؤلؤ والمرجان تجمعهما الحلية البحرية، هما يخرجان من العذب الفرات كما من الملح الاجاج؟ والمعروف خروج اللؤلؤ من المالح!

تجيبك الآية نفسها: <يخرج منهما> واخرى نظيرتها: <وَ ما يَسْتَوِى الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَي الْفُلْكَ فيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ>(١٢:٣٥) وما هي قيمة العرف الهارف غير العارف، بجنب الخلاّق العليم! ولقد عرف العلم أخيراً نكر ذلك العرف الخاطىء مصدقاً القرآن في خروج اللؤلؤ والمرجان من البحرين: عذباً ومالحاً[١] وكما يخرج من أحدهما: المالح، بسبب العذب: بحر السماء.

وهما، ولاسيما اللؤلؤ أفخر حلية تلبس، وهي من لباس الجنة: <يُحَلَّوْنَ فيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَب وَ لُؤْلُؤًا>(٣٣:٣٥) وهي من أجمل الجمال إذ الغلمان المخلدون بها يشبّهون: <إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا>(١٩:٧٦)

<وترى ما هو أصل اللؤلؤ والمرجان وكيف يخرجان؟ انهما أعجب حيوانين بحريين

---

[١] . تفسير الجواهر ج ٢٤ ص ٢٦ ينقل عن مجلة <السياسة الاسبوعية> المصرية ٢٧ رمضان ١٣٤٤ هـ أبريل ١٩٢٦ ما يلى: <يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحارية التي تعيش في الماء العذب أو في الماء الملح، وكانت لآلىء الماء العذب شهيرية الرومانيين، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أمير كاو الصين وغيرها...>.

وأجملهما! فاللؤلؤ حيوان صغير، يهبط إلى أعماق البحر، لتقيه من الأخطار، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية، ويختلف عن سائر الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد، عجيبة النسج، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء الى جوفه، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها، وتحت الشبكة أفواه الحيوان، ولكل فم أربع شفاه، فإذا دخلت ذرة رمل، أو قطعة حصى، أو حيوان ضار عنوة الى الصدفة، سارع الحيوان الى إفراز مادة لزجة يغطيها بها، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة! و على حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة>.[١]

<ولها صنوف عدة، فأجمل نوع منها ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما، ويوجد منها نحو ثلاثين نوعاً... واللؤلؤ اللطيف الشكل، الجميل الماء هو ما يسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي، ذو قيمة تجارية هائلة، وأغلاه ما كان جميل الماء، كروي الشكل، وتختلف ألوانه من: أبيض ورمادي و وردي وأخضر وأصفر وأسود وأزرق>.[٢]

ومن أروع ألوان تكون اللؤلؤ ما يروى عن علىΔ البحران هما: <من السماء ومن ماء البحر، فاذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها في البحر فيقع فيها من ماء المطر فتخلق اللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة، واللؤلؤة الكبيرة من القطرة الكبيرة>[٣] إذاً فـ <يخرج منهما> تعم الخروج من كل واحد منهما كما في بحري الأرض، والخروج من أحدهما بسبب الآخر كما من ماء البحر بسبب ماء السماء، فـ <من> هنا تعم السببية والنشوية التبعيضية.

ثم اللؤلؤ لؤلؤان، ما يصنعه الرحمن دون صنع من الإنسان وما يصنعه أو يولده

---

[١] . نقلاً عن كتاب <الله يتجلّى في عصر العلم>.
[٢] . ينقله الطنطاوى عن مجلة السياسة الاسبوعية.
[٣] . قرب الاسناد للحميرى عنهΔ في الآية <يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان>.

الإنسان بفضل العلم الذى منحه الله[١] فهذه أيضاً من مننن الرحمان أن أخرج لـه اللؤلـؤ في مختلف الألوان <فبأى آلاء ربكما تكذبان>.

<والمرجان يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتـار وثلاثمائـة متـر، وهو حيوان صغير يبني مع الآلاف من رفاقه مساكن هي أشبه بأغصـان الأشـجار، ثم تتكامل حتى تكون منها جزائر، وإذا اجتمعت جزائـر عاشـت فيهـا المرجانـات آمنـة مطمئنة، ولو رأيت شجر المرجان لرأيته كظباء الصحراء، له فـروع غـبراء، أو برتقاليـة صفراء، أو قرنفلية حمراء أو رزقاء تتلاعب بها الأمواج، وتعبث الريح بأغصانها، فكيف إذا تصبح صخرات مكوّنا للجزائر المرجانية؟ سبحان الخلاق العظيم!

وجزيرة واحدة منه تلك الجزائر المرجانية تبلغ فراسخ عدة، تتكسر علـى جوانبـها الناصعة البيضاء، أمواج المحيط.[٢]

<إن حيوانة المرجانة تثبت نفسها بطرفها الأسفل بصخر أو عشب، وتفتح فمها الذي في أعلى جسمها، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذاءها، فإذا لمست هذه الزوائد فريسة ـ و كثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ـ اصيبت بالشـلل حـالاً، والتصقت بها، فتنكمس الزوائد وتنحي نحو الفم، حيث تدخل الفريسة الى الداخل بقناة

---

[١] . فاللؤلؤ المولد أن يدخل في كل من الحار من صغيرة كالتي تدخل في الخلفية، ولكنـه بحاجـة الى زمان طويل كالذى تقتضيه الخلقى، لذلك يدخلون في جوف المحار منها كبيرة تتكـون حولهـا اللؤلـؤ سريعاً على مقدار كبر حجمها.

<واللؤلؤ الصناعى اكتشفه رجل فرنسى(١٦٥ م): جان كون، كان يغسل نوعـاً مـن السـمك في مـاء عذب فرأى في غسالته لمعاناً كلمعان اللؤلؤ حين يجف، فخطر له أن يطلى به خرزاً من الزجـاج بعـد مزجه بشيء من الشمع حتى يلصق بالزجاج، ففعل وصنع أول لؤلؤة صناعية في التـاريخ، فاشـتهرت لآليه وأقبلت عليها الغوانى في ذلك العصر، ومصدر هذه المادة نـوع مـن السـمك يسـمى (البينـوس لوسيدوس) وفي انكلترا يستخرجونه من قشر سمك (الرنكة) فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسـلاً لطيفاً حتى تنظف من الملح والقذر ثم تحك الحراشف التي على بطنها بقفا سكين فترسب المادة اللؤلـؤة في الماء، واذا اريد حفظها في الماء اضيف له شيء من (الامونيا) حتى لاتيطرق الفساد اليها سريعاً...> (تفسير الجواهر ج ٢٤ ص ٧٠ ـ ٧٢).

[٢] . تفسير الجواهر ٣٤ ص ٢٦، عن بعض المصادر.

ضيقة تشبه مرىء الانسان... و يتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسيلة منه، يتم بها إخصاب البويضات، حيث يتكون الجنين الذى يلجأ الى صخرة أو عشب يلتصق به ويكوّن حياة منفردة، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلى.

ويتكاثر أيضاً بطريقة أخرى هي التزرّر، وتبقى الأزرار الناتجة متَّحدة مع الأفراد التي تزررت منها، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غايةالدقة في نهايتها، ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتميتراً، ثم الجزر المرجانية ـ المسبق ذكرها ـ بتعاون المرجانات>.[1]

هكذا يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحرين، وهما أفخر ما يتزين به الإنس والجان: <فبأى آلاء ربكما تكذبان>!

فلولا الجان يشارك الإنسان في التزين باللؤلؤ والمرجان، لم يصح هكذا امتنان.

ومن باب الجري والتأويل، قد يشمل البحران واللؤلؤ والمرجان، بحري النبوة والإمامة، بحري عذب فرات، لاملح ولا أجاج[2] <فبأي آلاء ربكما تكذبان>.

---

[1] . في كتاب: <الله يتجلّى في عصر العلم>.

[2] . الدر المنثور ۶: ۱۴۲، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: <مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لايبغيان> قال: على وفاطمة <بينهما برزخ لايبغيان> قال: النبى5 يلتقيان. <يخرج منهما اللولو والمرجان> قال: الحسن والحسين، أخرجه أيضاً عن انس بن مالك.

أقول: فقد اتصل بحر النبوة بفاطمة الصديقة بنت النبى5، ببحر الامامة على∆، بحر ان ملتئمان متلاقيان، بينهما برزخ الرسالة القدسية المحمدية، اذا اتصل بحر الامامة والنبوة روحانياً مسبقاً، ان تربِّي علي في حجر النبى وفي جو الوحى والتنزيل، ثم اكتمل الاتصال الروحانى بوصلة جسمانية في زواج على بفاطمة هي بضعة النبوة، دون الرسالة والامامة، والخارج منهما: اللولو والمرجان: الحسنان هما مجمع الولاية روحانياً، والنبوة نسبياً.

حركات الشمس والقمر...

<لاَ الشّمْسُ يَنْبَغى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللّيْلُ سابِقُ النّهارِ وَ كُلّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ>(٤٠:٥٠)

فى تقدير العزيز الحكيم نظام دائب حَيَوى دونما فوضى جزاف فـ <لاَ الشّمْسُ يَنْبَغي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ> في جريها لمستقراتها الحيوانية، وهي أكبر منها وأقدر بملائين الأضعاف، لاختلاف الفلك المجرى، المقدر لكلٍّ منها، واختلافهما في جريهما كمًّاً وكيفاً، فلو أدركته في سيره بمسيره لكان في شهر واحد صيف وشتاء أمَّاذا من فوضويات التكوين! فإذا كان القمر على أفق المشرق أيام الإستقبال كانت الشمس على أُفق المغرب تقابله، ويطلع القمر عند غروبها ويغرب عند طلوعها، فلا ينبغى للشمس أن تدرك القمر، ولو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولاتدركه، وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عنه ولاتدركه، لبقيا لمدة مديدة في مكان واحد، لأن حركة الشمس كل يوم درجة، فقدر العزيز العليم في السيارات حركاتٍ أُخرى دون حركة الشهر والسنة هي الدورة اليومية، فلاتسبق ـ إذاً ـ سيارةٌ أُخرى إذ تطلع كلٌّ وتغرب مقابلها، وفي ذلك النظام <لاَ الشّمْسُ يَنْبَغى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لاَ اللّيْلُ سابِقُ النّهارِ وَ كُلّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ>(٤٠:٥٠)

كما ولاينبغى لها أن تدركه في ميزاته الذاتية و تأثيراته الخاصة فضلاً عن أن يدركها القمر في ميِّزاتها وخواصها، فلا درك هنا ولا هناك ولا تدارك إلاّ درك التلاقي الجمع يوم التلاقِ الجمع: <وجمع الشمس والقمر> <إِذَا الشّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَ إِذَا النّجُومُ انْكَدَرَتْ>(٢)

<ولا الليل سابق النهار> كما لايسبق النهارُ الليل ـ إذاً ـ يجتمع ليلان أو نهاران فيختل بذلك النظام، فـ <الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل، لاينبغى للشمس أن تكون مع ضوء القمر ولايسبق الليل النهار فلا يذهب الليل حتى يدركها النهار و كلٌ

في فلك يسبحون يجيء وراء فلك الإستدارة>.[١]

ولأن الليل والنهار متضايفان، فلا ليلَ إلاَّ بعد نهار حيث الليل يحصل بغروب الشمس عن الأفق، فليس الليل ـ إذاً ـ سابق النهار منذ البداية، كما لايسبقه حتى النهاية وكما وردت به الرواية.[٢]

فى سبق الليل النهار تأخير طلوع الشمس قدر الليل فيقوم ـ إذاً ـ مقام النهار وهذا ينبغي في نظام الكون.

إذاً فللنظر في رد الشمس وأضرابه مجالات هذه منها في حقل النظام المقدر الحيوي و <ذلك تقدير العزيز العليم>!

ومن سبق الليل النهار أن يمانع ظهور النهار والجو الحامل لهما واحد، كذلك لاينبغي ان يكون الموت سابق الحياة ان يمنع لحقوقها بعده في الدار الحَيَوان، كما الحياة لم تمنع الموت قبل الحياة الحَيَوان.

وكيف ينبغي الفوضى ـ إذاً ـ في درك او سبق <و> في ذلك التقدير <كلٌ> من الأرض والشمس والقمر <فى فلك> يخصّه، وجادة معبَّدة فضائية تخصه <يسبحون>؟!

---

[١] . نورالثقلين ۴: ۳۷۸ ج ۵۲ تفسير القمى في رواية ابى الجارودد عن ابى جعفرΔ في الآية.

[٢] . نورالثقلين ۴: ۲۷۸ ح ۵۳ عن الجمع العياشى في تفسيره بالاسناد عن الاشعث بن حاتم قال: كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا والفضل به سهل والمأمون في الايوان بمرو فوضعت المائدة قال الرضاΔ ان رجلاً من بنى اسرائيل سألنى بالمدينة فقال: النهار خلق قبل ام الليل فما عندكم؟ قال: واداروا الكلام فلم يكن عندهم من ذلك شيء، فقال الفضل للرضاΔ اخبرنا بها اصلحك الله قال: نعم من القرآن ام من الحساب؟ قال له الفضل من جهة الحساب فقالΔ قد علمت يا فضل ان طالع الدنيا السرطان والكواكب في موضع شرقها فزحل في الميزان والمشترى في السرطان والشمس في الحمل والقمر في الثور فذلك يدل على كينونة الشمس في الحمل في العاشر من الطالع في وسط الدنيا فالنهار خلق قبل الليل، وفي قوله تعالى <ولا الليل سابق النهار> اى قد سبقه النهار.

وفيه عن روضة الكافى ابن محبوب عن ابى جعفر الباقرΔ قال: ان الله خلق الشمس قبل القمر وخلق النور قبل الظلمة.

وفى الاحتجاج للطبرسى عن ابى عبداللهΔ حديث طويل وفيه قال السائل: فخلق النهار قبل الليل؟ قال: نعم خلق النهار قبل الليل والشمس والقمر والارض قبل السماء.

كلٌ من هذه الثلاث عمالٌ للدرك والسبق سلباً وإيجاباً دونما استغلال لليل أو نهار، فانما هو الأرض والشمس والقمر السابقة الذكر، العاملة لحادث الليل والنهار، ولإمكانية السبق والدرك لولا <تقدير العزيز العليم> فلا سبح لليل ولانهار ولافلك يسبحان، اللهم إلاَّ سبحاً بالأرض في فلكها.

إن لكلٍّ من سابحات اليمِّ الفضاء فلكاً تسبح فيه، وجادّةً فضائية جادّة لاتنزلق عنها، وإلاَّ لاصطدمت وتساقطت وتناثرت وقامت قيامتها!

<كلٌ> هنا دون ريب تعم لأقل تقدير هذه الثلاث، ومما يرهن له <يسبحون> دون <يسبحان>.

ولماذا السابحات هذه وهي غير العاقلة <يسبحون> وهي للعقلاء؟

لأن سبحها في أفلاكها هو سبح العقلاء، إذ لاتغرق في يمِّ الفضاء ولاتنزلق عن أفلاكها، ولاتتغير عن حراكها المقدرة لها،فللأرض فلكها وحراكها، وللشمس فلكها وحراكها، وللقمر فلكه وحراكه دون تبادل واصطدام، ولاتعارك فانهزام، اللهم إلاَّ في حرب قاصدة هادفة يوم القيام.

هذه الثلاث كأضرابها من سابحات السيارات تسبح دائبة في خِضِمِّ الفضاء الفسيح، وهي على ضخاماتها الهائلة لاتعدوا أن تكون نُقَطاً وسِماكاً صغيرة في ذلك اليمِّ دون خرق أو غرق، وكم من خارقة وغارقة في خِضِمِّ الحياة من إنسان وسواه وهو من أعقل العقلاء.

وحقيق للإنسان أن يتضاءل أمام هذه السابحات ويتساءل العزيز العليم، ما هذه القدرة الشاملة التي انتظمت هذه الملائين لملائين من سابحات السيارات التي لاتُحصى؟.. والجواب <ذلك تقدير العزيز العليم> فهل بعدُ من ريبة في إحياءه الموتى وهو أهون عليه من ذلك التنظيم القويم!

ولتعلموا عدد السنين والحساب

<وَ جَعَلْنَا اللّيْلَ وَ النّهارَ آيَتَيْن فَمَحَوْنا آيَةَ اللّيْل وَ جَعَلْنا آيَةَ النّهار مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَ الْحِسابَ وَ كُلّ شَيْءٍ فَصّلْناهُ تَفْصيلاً>(١٢)

الليل والنهار آيتان من آيات الله: <وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذى خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ>(٣٧:٤١) حيث يدلاّن بتخالفهما واختلافهما تلوَ بعض دائباً دون تخلف، يدلان على أن خلقهما مدبر باختيار وحكمة قاصدة، كما وأن الليل في تحوله الى نهار آية للحياة بعد الموت: <وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ>(٣٧:٣٦) فان سلخ النهار من الليل يواطي سلخ الروح من البدن، ثم رجع النهار خلفه كرجع الروح الى البدن حذو النعل بالنعل، اذاً فالليل والنهار آيتان تدلان على المبدءِ والمعاد، وفي كل حكمة تقتضيه الحياة سكناً وابتغاءً من فضل الله، فالليل للراحة والسكون الجمام، والنهار للسعي والكسب والقيام.[١]

وترى ان آية الليل الممحوَّة وآية النهار المبصرة هما الشمس والقمر، فانهما آيتان في الآيتين: <وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ>(٣٧:٤١) كما وأن اضافة الآية إليهما تقتضي اختلافها عنهما وأنهما آيتان فيهما؟ فالمذكور هنا كالمذكور هناك آيات أربع!

أم ترى انهما الليل والنهار انفسهما، فان آيه الليل القمر ليست ممحوّة دائباً، وانما عند الخسوف المطلق وآخر الشهر، وآية النهار الشمس هي مبصرة بجعلها شمساً لا أن الشمس جعلت مبصرة: <هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ>(٥:١٠) على أن الشمس ايضاً تكسف كما القمر يخسف، فلا يختصه المحو ويختصها الأبصار، وان المذكور في الآية: <الليل والنهار آيتين> آية الليل هي الليل وآية النهار هي النهار!

---

[١] . راجع ج ٣٠ : ١٨ من الفرقان تفسير الآية ٩ ـ ١١ من سورة النبأ.

او يقال إن آية الليل كلا القمر والليل، وآية النهار كلا الشمس والنهار[١] فالليل ممحو مظلم، وقمره لايكفى نوراً وان كان نوراً، على أن نوراً إلا زهاء ثلث الشهر مع ما يمحوه خسفاً مطلقاً.

ولكن آية النهار بشمسها ونفس النهار مبصرة وإن اظلّته السحاب فانمحى قرصها، فالنهار لايمنحى، إلا إذا كسفت وما أقله الخسف للقمر فليعن ـ اذاً ـ من كل آية مجموع الآيتين: الليل والقمر ـ الشمس والنهار.

او يقال: لأن الآية هي العلامة، فالمراد بمحو آية الليل جعل ظلمتها مشكلة لايفهم معناها ولايعلم فحواها لما استأثر الله تعالى بعلمه عن المصلحة المستسرة في ذلك، وحقيقة المحو طمس اثر الشيء من قولهم: مَحوت الكتاب اذا طمست سطوره حتى يشكل على القارىء ويخفى على الرائى.

ثم وإبصار آية النهار أن جعلها مكشوفة القناع مبينة الابصار على خلاف آية الليل إذ جعلها مشرجة الغلاف بهيمة الأطراف.

وقد يعني الجميع بتأويل ان القمر جعل ممحواً بالنسبة للشمس لامطلقاً، فالشمس تبصَر وهي ايضاً تبصِر بضوءها، والقمر يبصَر ولايبصِر فانه نور وليس ضوءً وقد يعنيه ما تظافر في الاخبار[٢] ثم الليل ممحو بظلامه وعدم ضوء الشمس، والنهار مبصر

---

[١] . فالمراد ـ اذا ـ من الآية جنسها ليلاً ونهاراً حتى تشمل الآيتين في كل منهما، او ان آية الليل تعنى كلاً على حدة واستعمال اللفظ في اكثر من معنى واحد سائع في القرآن حيث المشكلة الفعلية فيه ليس لله الذى له مقام جمع الجمع: العلم والقدرة.

[٢] . تفسير البرهان ٣: ٤١٠ ـ العلل ابن بابويه باسناد متصل الى يزيد بن سلام انه سئل رسول الله5... فما بال الشمس والقمر لاسستويان في الضوء والنور؟ قال: لما خلقهما الله عزوجل اطاعا ولم يعصيا شيئاً فأمر الله عزوجل جبرئيل ان يمحو القمر فمحاه فأثر المحو في القمر خطوطاً سوداء ولو ان القمر ترك على حاله بمنزلة الشمس لم يمح ولما عرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ولا علم الصائم كم يصوم ولاعرف الناس عدد السنين والحساب وذلك قول الله عزوجل <وجعلنا الليل والنهار...>.

←

بضوئها: <وجعل شمسها آية مبصرة...>.

<إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّا(۴) وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسّا(۵) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثّا>(۶)

... نموذج من مواصفات الواقعة في الأرض والجبال، فرجرجة الأرض واضطرابها، وانبساس الجبال وهباءها، هذا وذاك من مئآت المئآت من واقعات الواقعة التي تشمل الأرض السماوات، فلاتبقي ولاتذر.

إن للأرض رجفات أربع ورجرجات: دائبة هي حركاتها المتداخلة المعدِّلة، وموضعية هي زلازلها قبل الواقعة، ومدمرة هي رجة الإماتة كما هنا، ومعمرة هي رجة الإحياء بعدها، ورجة الإماتة هي الهائلة المخوفة، كما توحي لها <رجاً> تعني عظيماً مهولاً،

←

وفى تفسير العياشى عن ابى بصير عن ابى عبدالله∆ فمحونا آية الليل قال هو السود الذى في جوف القمر ورواه مثله عن ابى الطفيل عن الامام على∆ فقال له ابن الكوا فما هذا السواد في القمر؟ قال: اعمى سأل عن عمياء اما سمعت الله يقول <فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة> فذلك محوها.

وفى الاحتجاج للطبرسى رواه عن الاصبغ بن بناتة قال قال ابو الكوا لاميرالمؤمنين: وفي الدر المنثور ٣: ١۶۶ ـ اخرج ابن حاتم وابن مردويه بسند ـ واه عن ابن عباس(رضى الله عنه) عن النبى5 في حديث فارسل جبرئيل فامر جناحه على وجه القمر وهو يومئذٍ ثلاث شمس ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور فذلك قوله <وجعلنا الليل والنهار آيتين> اقول: نتفهَّم هذا الحديث الا ـ وهو يومئذٍ شمس ثلاث مرات ـ وفيه اخرج البيهقى في دلائل النبوة وابن عساكر عن سعيد المقبرى ان عبدالله بن سلام(رضى الله عنه) سأل رسول الله5 عن السواد الذى في القمر فقال: قال الله <...لافمحونا آية الليل...> فالسواد الذى رأيت هو المحو، واخرج مثله ابن ابى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم وابن الأنبارى في المصاحف عن على∆ في الآية: قال: هو السواد الذى في القمر، واخرج ابن مردوية عن على∆ في الآية قال: كان الليل والنهار سواء فمحى الله آية الليل فجمعلها مظلمة وترك آية النهار كما هى، واخرج ابن عساكر عن على بن زيد(رضى الله عنه) قال: سأل ابن الكوا عليّاً (رضى الله عنه) عن السواد الذى في القمر قال: هو قول الله تعالى: <فمحونا آية الليل>.

اقول: حاصل ما قد يصدق من هذه المجموعة ان الشمس والقمر في بادية خلقهما كانا نيِّرين كبعض مع اختلافهما في الحجم ـ حيث الممحو هو النورالنوم لاالجرم ـ فمحى الله القمر من ضوءه حتى اصبح نوراً وجعل الشمس ضياءً: <هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً>(۵:۱۰) فقد كانت شمساً دون الضياء وكان قمراً دون هذا النور، فضياء الشمس ونور القمر مجعولان.

وقد ينافى محو القمر هكذا ان نوره مكتسب من ضوء الشمس ولانور له من نفسه.

محولاً للأرض إلى غير الأرض: <يَوْمَ تُبَدّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السّماواتُ>.[١]

وبسّ الجبال إرساءها وتسييرها ـ <فكانت هباء>: ذرات في الهواء[٢] ـ وتفتيتها وبثُّها فكانت <منبثاً> كالعهن المنفوش، أفهذه الجبال الراسية تتحول هباءً، بعد ما رست قواعدها في الأرض، وعلت رؤوسها في الهواء؟ أجل ومع الأرض والجبال والسماء. ترى ثم ماذا بعد قيامة التدمير؟ انها قيامة الإحياء والتعمير، وانقسام المكلفين الى أزواج ثلاث، حسب الأعمال والقابليات:

<وَ كُنْتُمْ أَزْواجًا ثَلاثَةً>(٧): أقراناً تحشرون إلى الساهرة جنبَ بعض، وإنما تثلثكم سيرة مفارقات الأعمال والنيات، دون أن ينظر إلى صورة الأشكال أو مقارفات الأعمال ولمّا.

<فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ(٩) وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ(١٠) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ>(١١).

<فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ>(٨): وهم الذين عاشوا يمين الحياة ويمنها، إيماناً بالله، يميناً في سبيل الله، فيمناً في مرضات الله: <وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعامٌ في يَوْمٍ ذى مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتيمًا ذا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكينًا ذا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمّ كانَ مِنَ الّذينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ(١٧) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ>(٩٠:١٨)

والميمنة هي ناحية اليمن واليمين.. يمناً وبركة في حياتهم كل الحياة، ويميناً في اتجاهات الحياة الى الدين، ويميناً الى الدين، ويميناً يوم القيامة إذ يؤتون كتبهم بأيمانهم.

<وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة> <وَ الّذينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ(١٩) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ>(٩٠:٢٠) شؤماً في الحياة حيث انحازوا والى شمالها،

---

[١] . راجع تفسير سورة الزلزال ج ٣ ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

[٢] . الدر المنثور٦: ١٦ أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن على بن أبى طالبΔ قال: الهباء المنبث رهج الذرات، والهباء المنثور غبار الشمس الذى تراه في شعاع الكرة.

ولؤماً في العقائد والأعمال والتصرفات إذ جدّوا في إهمالها، فالمشأمة هي ناحية الشؤم واللؤم قبال اليمين.

والسؤال في أصحاب الميمنة سؤال تبجيل وتجليل، كما أنها في أصحاب المشأمة سؤال تذليل وتهويل، ومن ثم السابقون يؤتى بذكرهم دون سؤال، علّه لأنهم سبقوا السؤال والجواب، واجتازوا كل حساب، لأنهم مقرَّبون! وهم ورثة الكتاب لأنهم مصطفون: <ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبيرُ>(٣٢:٣٥)

<والسابقون السابقون. اولئك المقربون> هل هم السابقون زماناً؟ وليس لسبق الزمن دور في القرب والزلفى! ثم وهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين! أترى أن القلة الآخرة كالثلة الاولى سابقة زمناً؟ أم هم السابقون شرفاً وإيماناً فلماذا التكرار؟

قيامة الكائنات...

سورة التكوير مكّية وآياتها تسع وعشرون

<بِسْمِ اللّهِ الرّحْمنِ الرّحيمِ. إِذَا الشّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَ إِذَا النّجُومُ انْكَدَرَتْ(٢) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ(٣) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ(٤) وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(٥) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ(٦) وَ إِذَا النّفُوسُ زُوِّجَتْ(٧) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَىّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(٩) وَ إِذَا الصّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَ إِذَا السّماءُ كُشِطَتْ(١١) وَ إِذَا الْجَحيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَ إِذَا الْجَنّةُ أُزْلِفَتْ(١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ>(١٤)

<إِذَا الشّمْسُ كُوِّرَتْ>:

أحداث كونية ضخام جسام تشير إلى أن هذه الكتائنات المنسَّقة في نظامها وحركاتها سوف ينفرط عقد نظامها وتتناثر اجزاؤها.

فهذه الشمس التي هي نور كل ظلام، وحياة الأحياء مع الماء، هذه النبعة الحيوية النورية الحرارية سوف تموت وتنقرض، تكوَّر وتدوَّر، فما هو كورها؟ وما هو دورها؟

فهل إنّ كورها أن يحاط عليها؟ كما: <يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَي النّهارِ وَ يُكَوِّرُ النّهارَ عَلَي اللَّيْلِ>(٧:٣٩) إحاطة الليل على النهار بظلامه، والنهار على الليل بضوئه، إحاطة ماحيةِ لكيان كلٍّ منهما بكل منهما، فكذلك يحاط على الشمس بما يدمرها ويظلم عليها، وهذا هو كور الطاقات المدمِّرة للشمس؟

أو كورها في نفسها ذاتها بضم بعضها إلى بعض ككور العمامة ولفّها بنحو الإدارة؟ أو انه جمعها وصرعها، بنقص كيانها ونورها؟

أو زيادتها في حرارتها وسرعتها عند احتضارها كما عن الرسول5 قوله: <أعوذ من الحور بعد الكور>، أى من النقص بعد الزيادة.

أو كورها على أخيها الأصغر: القمر، بشمولها عليه <وجمع الشمس والقمر>(٨:٧٥)؟[١]

كلٌّ محتمل[٢]، أو أنها مرادة جمعاء، فإن قيامة الشمس تضم ضمها ولفها وجمعها وصرعها ونقصها في كيانها وزيادة سرعتها ونورها في اللحظات الأخيرة من عمرها،[٣] ثم برودتها وانطفاء شعلتها وانكماش ألسنتها الملتهبة التي تمتد الآن من جوانبها إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء، فسوف تكوّر لا ألسنة لها حداد ولا امتداد ولاجريان ولاضياء، وهذا هو مصير الشموس كلها، إذا جاء أجلها فتَّشتت ورجعت لحالها الأولى، وأحيلت إلى المصانع الإلّهية في العوالم الأثيرية ليصاغ منها عالم جديد.

---

[١] . وفي كور القمر أخرج البخارى عن النبى5 قوله: الشمس والقمر مكوّران يوم القيامة (الدرالمنثور) (٣١٨:٦).

[٢] . هذه المعانى اللغوية للكور المستفاد بعضها من القرآن والحديث، ذكرت في لسان العرب، وعن ابن عباس تفسير الكور بالنظام والإغورار وكما عن مجاهد وسعيد بن جبير الأخير وعن أبى صالح <نكست> وعن مجاهد اضمحلت عن الضحاك وعن قتادة ذهب ضوؤها، ومرجع الكل واحد كما عرفناء.

[٣] . ولعلها المعنية مما روي عن الرسول5 <كوِّرت في جهنم(المصدر)> أن اللحظات الأخيرة من عمرها تصبح كأنها جهنم من شدة حرارتها، إذ تنقبض إلى النهاية فتحترق إلى النهاية.

نرى بعض علماء الفلك يؤكدون أنّ منبع الطاقة الحرارية للشمس ليس إنقباضها وانكماشها وكورها التدريجى، وهذا هو الأثر الملموس في كل انضغاط وانكماش ولاسيما في الجسم الحار في نفسه كالشمس.

وحسب قانون الجاذبية لـ (نيوتون) نتأكد أن التشعشات الشمسية هي إلى النقصان المستمر، زهاء كيلومترين في كل قرنين، وبهذا تتأكد نظرية الإنقاض لـ (هامولتز)، وبالإمكان ألا يدرك هكذا نقصان في الشمس طول تاريخ الإنسان، لكنه قياساً إلى الزمان في أدوار معرفة الأرض، يظهر كثيراً وملحوظاً، فالقدر الناقض عن جرم الشمس حتى الآن زهاء (١٠٤٧ × ٢) أرجاً، وهي أقل بآلاف المرات من الطاقات العامة المنفصلة عنها حتى الآن.

إن نظرية الإنقباض وإن كانت بمحل من التصديق، إلا أن من المؤكد وجود منبع آخر لها أثقل من الطاقة الكيماوية والثقالة، ويقول (جورج قاموف) بعد تحقيقات عدة[1] أن حرارة الشمس من الطاقة تحت الذرية.

ويقول: <ليس بالإمكان أن يتجاوز عمر الشمس (١/١٠٠٠٠٠) مما هو الآن، لو كان المنبع الحراري لها شيئاً من المواد الكيماوية، لذلك فليكن القسم الأكبر من منبعها الحراري من العناصر الخالصة التي هي آخر المطاف للتبدلات الكيماوية لكل العناصر غير الخاصة>.

هذا ـ و حرارة الشمس الآن ـ في سطحها ثلاثة آلاف درجة وفي باطنها سبعون مليوناً، ولو لا نزول الأمطار المتناوبة عليها لأحرقت الأرض وانقرضت هي أيضاً قبل أجلها، وكما عن باقر العلوم قوله: <إن الشمس تطلع ومعها أربعة أملاك، ملك ينادي يا صاحب الخير أتمم وأبشر، وملك ينادي يا صاحب الشر إنزع وأقصر، وملك ينادي

[1] . في كتابه موت الشمس.

أعط منفقاً خَلَفاً وآت ممسكاً تَلَفاً، وملك ينزحها بالماء، ولولا ذلك اشتعلت الأرض>.[١]

ويؤيد الرواية ما عن الدكتور (دونال منزل) الفلكي الأمريكي الشهير: <أن اختلاف الأشكال في القطع المرئية في وجه الشمس، إنها نتيجة نزول أمطار غزيرة دائبة عليها، وقد أظهر هو قطعة من الأفلام المصورة عن الشمس، وفيها صورة أمطار شديدة تنزل على الشمس من ارتفاع ثمانين ألف كيلومتراً، رآها مرسلوا الفلكيين في المؤتمر المعنى لذلك.

إذاً فالشمس في كور دائم شيئاً فشيئاً حتى يخلص دورها فتنتهى إلى كورها الأخير، جارية في هذا الكور لمستقر لها ثم لادور لها ولاكور: <وَ الشَّمْسُ تَجْرى لِمُسْتَقَرّ لَها ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ>(٣٨:٣٦)

ومما يطوِّل عمرها أكثر، ما تسيل عليها من الأمطار الغزيرة؛ فتمدها في تباطؤ كورها؛ وتمنعها أن تحرق الأرض وسائر الكرات القربية منها إلى أجل معدود.

<وَ إِذَا النّجُومُ انْكَدَرَتْ>(٢)

النجم هو الكواكب الطالع، وعلّه يعم طلوع التمدن فيه أيضاً وأحرى، والإنكدار من الكدرة وهي الظلمة، أو كانكدار الطائر إلى الأرض وهو انقضاضه وسقوطه نحوها.

فالكواكب الطالعة سوف تغرب عن ضوئها وعن تمدُّنها، وسوف تتساقط هذه الطائرات الجوية السائرة على أفلاكها، بما معها من الكواكب غير الطالعة: <وإذا الكواكب انتثرت>(٨٢:٢) والكوكب يعم الطالع وسواه، والإنتثار هو من جرّاء الإنكدار، كما تنتثر الطير وتتساقط إلى عمق الفضاء عقب إنكدار حياتها، فما دامت حية لاتنتثر بُمسكة الحياة، فإذا انكدرت عليها حياتها انتثرت.

إن المعنى من طلوع الكوكب هو واقع الطلوع، لابالنسبة لإنسان الأرض، ومع العيون المجردة، إنما واقع الطلوع أينما كان موقعه من السماء.

---

[١] . نقلته جريدة اطلاعات الايرانية المنشورة يوم الخميس ١٥ ربيع الاول ١٣٦٩ هجرية قمرية الموافق ١٩٥٠ ميلادية، نقلته عن مكتوب الدكتور دونالد منزل.

والكوكب منذُ خلقه ليس طالعاً، ثم يتكامل؛ فيصبح طالعاً نيِّراً، ومن ثم قد يصلح للحياة والتمدن وهو الطلوع الأخير.

فمن الكواكب ما لم يطلع بعد، أو هو في الطلوع الأول أو الأخير، ومنها ما طلع طلوعاً أو طلوعين ثم غرب، والإنكدار يعني الغروب النهائي والوقوف عن الحراك، والتساقط إلى أعماق الفضاء، فالإنتثار هو المرحلة الأخيرة من غروبها.

يتبدّل النجم كوكباً <لانجم> ثم ينتثر وينطمس <فَإِذَا النّجُومُ طُمِسَتْ>(٨:٧٧) طمس الكيان النجومى، طلوعاً وحراكاً وتجمعاً، ارتجاعاً إلى الحالة الغازية الأولى التي خلقت هي ـ بادىء ذى بدءٍ ـ منها <وَ السّماءِ ذاتِ الرّجْعِ>(١١) ترجع بأنجمها إلى ما كانت عليه: <الدخان>: <ثُمّ اسْتَوي إِلَي السّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتا أَتَيْنا طائِعينَ(١١) فَقَضاهُنّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وَ أَوْحي في كُلّ سَماءٍ أَمْرَها وَ زَيّنّا السّماءَ الدّنْيا بِمَصابيحَ وَ حِفْظًا ذلِكَ تَقْديرُ الْعَزيزِ الْعَليمِ>(١٢:٤١).

أجل ـ وإن هناك انكداراً وانتثاراً وانطماساً، فالكواكب تنتثر، والنجوم تنطمس وتنكدر، وهذه حوادث جلل وطامات كبرى تقضي على السماء وكراتها حيث الطمس هو المحو وإزالة الأثر.

إن النجوم والكواكب لاتنحصر فيما نراه في السماء بالعيون المجردة أو بواسطة المراصد الفلكية، إنها هي العوالم السماوية كلها، التي لايعلم عددها ومواضعها إلا الله، فوراء ما نرى منها بمراصدنا مليارات من الفضاءات والمجرات لانعرف لها عدداً، فمنها ما هي بعيدة عنها بما لم يصلنا ضوؤها منذ خلقت، وبعد مليارات السنين، والضوء يسير كل ثانية ٣٠٠٠٠٠ كيلومتراً، فيا لها غوراً وبعداً عنا!

ومنها ما انقرضت قبل أن يصل إلينا ضوؤها، وعلّ منها ما لن يصل إلينا ضوؤها إلى حين انكدارها وانتثارها، ومنها ما لم تخلق بعد: <وَ السّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنّا لَمُوسِعُونَ>(٤٧:٥١). إنه تعالى دوماً في توسيع المملكة السماوية وحتى القيامة الكبرى،

ومن ثم سوف يخلق عوالم أُحرى، فـ <كُلّ يَوْمٍ هُوَ في شَأْنٍ>(٢٩:٥٥).

<وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ>:

... <وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَرابًا> (٢٠) إن هذه الجبال الرواسي الأوتاد سوف تصبح كالسراب، تحملها القدرة الإلهية وأرضَها حمل التدمير: <وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكّتا دَكّةً واحِدَةً>(١٤:٦٩) بعد ما كانت تحملها قبل قيامتها حمل التعمير: <وَ تَرَي الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحابِ صُنْعَ اللّهِ الّذى أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ إِنّهُ خَبيرٌ بِما تَفْعَلُونَ>(٨٨:٢٧) هذه قدرة الصنع والتعمير وتلك هي قدرة السحق والتدمير وكلتاهما من حكمة الخبير البصير.

والأنباء المسبقة عن قيامة الجبال في سورة النبأ كافية لحدٍّ ما فيما توحي لنا آيتنا هذه.

<وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ>(٤)

العشار ـ جمع العشراء ـ هي النوق الحبالى في شهرها العاشر، وهي أعلى ما تكون بما هي قريبة الولد، صاحبة للبن... فهي تعطل يوم الطامة الكبرى في الصيحة الأولى: عطلةً عن الحراك والولد والحليب، إذ تضع حملها قبل أوانه، ويجفّ حليبها لشدة الوقعة.. و هي تُهمل صواحبها ـ فـ <لِكُلّ امْرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنيهِ>(٣٧) وكيف لا؟ وهي الساعة التي: <تَذْهَلُ كُلّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَي النّاسَ سُكاري وَ ما هُمْ بِسُكاري وَ لكِنّ عَذابَ اللّهِ شَديدٌ>(٢:٢١)

والعشار ـ بما هي أثمن ما كانت تملكه العرب المخاطبون وقت النزول ـ إنها وبصورة عامة، تمثل أثمن ما يملكه الإنسان ويتنافسون، فهو يشتغل عنها بنفسه في صيحة الإماتة، وكما يفر عن ذويه في صيحة الإحياء، فـ <لِكُلّ امْرِيٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنيهِ>(٣٧).

<وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ>(٥)

فما هي الوحوش؟ وما هو حشرها؟... فهل إنها كل الدواب سوى الإنسان؟ وليست

الكل نافرة عن الإنسان، متنافرة مع بعض، حتى تكون وحوشاً كلّها!

أم هي غير الآنسة والمتآنسة من الدواب، ومن الإنسان؟ أظنه أسلم من غير الإنسان خاصة، ولأنه أعم، ويساعده عموم اللفظ، ومن الإنسان الوحش من هو أوحش من وحش الحيوان!

ثم هل إن حشرها هو جمعها يوم الجمع في صيحة الإحياء كسائر الأحياء من بني الجان والإنسان؟ قد ينافيه أن الآيات الست الأولى من السورة ـ وهي خامستها ـ أنها كلها تصف حالة الكائنات في رجفة الإماتة، وأن الحشر المطلق هو الجمع عن تفرق وافتراق دون اختصاص بجمع خاص، فما لوحوش الحيوان تختص بهكذا حشر؟

أم هو جمعها للموت كما الآية تخبر عن رجفة الإماتة؟ ولكنما الجمع هذا لايختص بالوحوش، فإنه يعمّها والكائنات الحية وسواها بأسرها.

أم هو جمعها بعد تفرقها، وأنسها بعد توحشها وتمزقها، فإنها نسيت نفسها من هول الواقعة القارعة، فكيف بتفرسّها وتوحشّها؟.. وإنها تمضي هائمة على وجوهها كأنها زالت طباعها المتنافرة الوحشية، وكما هو الحال في كافة المتنافرين المتوحشين من الإنس ومن سائر الحيوان، فهي إنما تفر وتهجم وتضر ما لم تر حادثة أشد وكارثة أعتد، ففيما إذا انفزعت بالفزع الأكبر نسيت وتناست ما بينها من عداء، وتآلفت واجتمعت وحشرت.

كما وقد يكون هكذا حشرٍ لشمول العدل إذ لاظلم ولاتخسير، وهو الحشر الأول في القيامة الوسطى، في دولة القائم المهدى، محمد بن الحسن العسكرىΔ إذ <تصطلح في ملكه السباع>.[1]

---

[1] . نجد هذه الجملة في روايات مستفيضة اسلامية وآيات عدة من كتب الانبياء السابقين فصَّلتها في كتابى <رسول الاسلام في الكتب السماوية> ومنها: في كتاب أشعياء ١٠: ٦ ـ ١٠ <فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدي ويكون العجل والشبل والمعلوف معاً وصبي صغير يسوقها ٦، ترعى البقرة والدّب معاً ويربض أولادهما معاً والاسد يأكل التبن كالثور ٧ ويلعب المرضع على حجر الأفعى ويضع الفطيم يده في الأرقم ٨، لايسيئون ولايفسدون في كل جبل قدسى لأن الارض تمتلىء ←

هذا هو الحشر بالمعنى العام: الجمع عن التوحش، وأما فيما إذا كان الحشر إلى الله فهو الحياة بعد الموت لعامة ذوي الحياة، ولتجيء كل نفس بما تسعى: <وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ>(٦:٣٨)... وهذا هو الحشر بمعنى الإحياء في صيحة الإحياء، يشمل الدواب والطير كلَّها، وحشاً وسواها، إنساناً وسواه، وعلّ الدابة في الأرض تشمل ما تمشى عليها وما في جوفها وفي بحارها، دبّاً على الماء والأرض وفي باطن الأرض.

وفيما إذا سُئلنا عن حشر الحيوان غير الإنسان: لماذا يحشر ويحيى؟ ألكى تجزى بما تسعى؟ فكيف تجزى الدابة ولاعقل لها ولاشرعة ومنهاجاً؟

فهنا الجواب: أن الجزاء يعم ذوي الشعور كما تشعر، إن عاقلة أم لا، فإنما المدار في الجزاء معرفة الله وإمكانية معرفته، وشعورٌ يميز بين العدل والظلم، كلٌ على قدره، والطير والدواب كلها تعرف الله تعالى دون تكلف واكتساب: <أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ>(٢٤:٤١) <وَ لِلّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ>(١٦:٤٩).

ثم نراها قد تَظلم وقد تُظلم وهي شاعرة أنه قبيح والله لايحب القبيح، فلولا شعورها بالقبح فلماذا تفرُّ من الظلم، أو تعضّ وتركل أو تفترس من يهاجمها من نوعها أو سواه؟

ثم الله أحل لنا أكل لحوم قسم منها، فعليه أن يبدلها ـ بما ذُبحت ـ برحمة منه في حشرها.

وقد نرى الإنسان يظلم ما يملكها فلا يؤدي حقها، والله تعالى أعدل من أن يذرها سدىً لايقتص لها من ظالمها.

←

من معرفة الرب كما تغمر المياة البحر ٩، وفي ذلك اليوم أصل يسي القائم راية للشعوب إياه تترجى الامم ويكون مثواه جيداً ١٠>.

وكل ذلك يتطلب لها حياةً بعد الدنيا، من عدل الله ورحمته، ولكي تجزى كلُّ بما تسعى.

هذه الآية هي الفريدة في نوعها ومن حيث حشر الدواب، ثم تضافر الروايات تدلنا على ما استوحينا منها.[1]

<وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ>(۶)

البحار هنا هي كل البحار، أرضية وسماوية، والتسجير هو تهييج النار، من سجرتُ التنور إذا أوقدتها، فكيف تهيج البحار بالنار، فأين الماء وأين النار؟

الجواب: أن الآية توحي للمصير الأخير للبحار يوم تكوير الشمس وانكدار النجوم، وأنها سوف تنقلب ناراً بعد ما كانت بحاراً كالترتيب التالي:

إن البحار تفجَّر في البداية: <وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ>(۸۲:۶) تفجُّراً على أثر زلزال الأرض وانشقاقها، والتفجر هو الانشقاق الواسع، تفرقاً وانشقاقاً وتغلغلاً عن حراكها الشديدة ـ والحركة تولِّد الحرارة ـ وعن ازدياد حرارة الشمس عند تكويرها.

ثم تحوِّلها بخاراً بخروج الكرة النارية المذابة من بطن الأرض، ثم تحوّل البخار ناراً كما كان بداية خلقة الأرض والسماوات وهذا هو تسجير البحار، فإن التسخير هو تهييج النار وكما هم: <في النار يسجرون>(۴۰:۷۲) فكما النار تحرق بلهيبا دوون اقتصار على الإغلاء، كذلك البحار تسجَّر، تبدلاً إلى لهيب النار بعد أن تفجَّر، وكما البحر المسجور

---

[1] . ففى نور الثقلين ١: ٥٩٢ عن الفقيه أن النبى5 أبصر تاقة معقولة وعليها جهازها فقال: أين صاحبها؟ مروه فليستعد غذاً للخصومة.

وفى المجمع عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول الله5 إذا انتطحت عنزان، فقال رسول الله5: أتدرون فيما انتطحا؟ فقالوا: لاندرى! قال: ولكن الله يدري وسيقضي بينهما.

وعن محمد بن جرير وغيره بزيادة: قال أبوذر: <لقد تركنا رسول الله5 وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً> (الدر المنثور ٣: ١١).

وعن الكافي بالاسناد عن سماعة بن مهران قال: أخبرنى الكلبي النسابة قال: قلت لجعفر بن محمد5 ما تقول في المسح على الخفَّين؟ فتبسم ثم قال: إذا كان يوم القيامه ورد الله كل شيء إلى شيئه، ورد الجلد إلى الغنم أصحاب المسح أين يذهب وضوؤهم.

من العذاب الواقع: <وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ(٦) إِنّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ>(٧).

إن المواد الكيماوية كلما زيدت حرارتها تفسَّخت وتفجرت عن تركّباتها وأخذت سبيلها إلى البساطة وإلى المادة الفردة الأولية، التي هي آخر المطاف في التقلبات الكيماوية، وهي تتحمل حرارة أشدّ وأكثر، كلما كان التحلّل عن التركبات أكثر وأكثر.

لذلك نجد الشمس في مركزها أثقل وأحر مما في سطحها، إذ إنها تحمل أبسط الذرات الكيماوية <الهيدروجين> التي هي آخر المطالف في التقلبات الكيماوية فيما نعرفه حتى الآن، وثم إلى المادة الفردة التي لانعرفها حتى الآن، وقد تحمل مليارات المرات من الحرارة التي نجدها الآن.

وهذه هي مصير كل المركبات والعناصر الكيماوية، ترجع إلى ما كانت، ومنها الماء، فالبحار تفجّر وتسجّر، كما الكائنات كلها تسجّر، فلا يبقى إلا مسجور محروق.

أجل ـ وإن الزلازل والبراكين سوف تزيل الحواجز بين البحار فتغلغل على أثرها، وسائر العوامل الحرارية المسبقة وإلى انفصال ذرتى الماء: الأوكسيجين والهيدروجين، وإلى تفجر هما أيضاً... وآخر المطاف أن البحار تسجّر: تصبح نيراناً ملتهبة هائلة لايتصور مداها.

وأنَّ تفجر قدر محدود من الذرات بالقدرة المحدودة البشرية في القنابل الذرية يحدث الهول الذى لانتحمله، فكيف بنا إذا انفجرت الذرات كلها ومعها البحار، بحار الأرض والسماء؟!

فعن القمى عن الصادقΔ في الآية قال: <تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيراناً>.[١]

<وَ إِذَا النّفُوسُ زُوِّجَتْ>(٧)

التزويج هو قرن كلِّ شيء إلى شيئه، أو مثله، أو ما يحق أن يقرن به، وعلّه لايشمل

[١] . نورالثقلين ٥: ٥١٤ ح ٤.

هنا النكاح لأنه يخص أهل الجنة دون النفوس كلها، وأن الآية تستعرض قيامة الاحياء قبل الحساب والجزاء ونشر الصحف وتسعير الجحيم وإزلاف الجنة، وقبل أن تعلم كل نفس ما أحضرت[١] اللهم إلا أن يعني من تزويج الأشرار غير النكاح، وأن خلط الآيات في القيامتين يسمح بشمول التزويج للنكاح وان ذكر قبل الحساب.[٢]

إذا فهو التزويج العام يوم القيام، الشامل لكل نفس خيرِّة وشريرة، قرناً في كل شيء.

من قرن الأجزاء الأصلية المعادة ـ لكل نفس ـ بعضها ببعض. دون أن تضل أو أن تتصل إلى غير بدنها، وقرن كلِّ نفس ببدنها الأصيل الذى عاشته طوال حياة التكليف، دون تَقَمُّص بغير قميصها، ودون أن تضل الأرواح ولا الأجساد: <وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنّا لَفى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ(١٠) قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الّذى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ>(١١)[٣] قرن كل نفس بما تجانسه وتقارنه في عقيدة الإيمان وعمل الإيمان من السابقين وأصحاب اليمين، أو ما تشاركه في تركهما من أصحاب الشمال: <وَ كُنْتُمْ أَزْواجًا ثَلاثَةً(٧) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ(٨) وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ(٩) وَ السّابِقُونَ السّابِقُونَ(١٠) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ>(١١)[٤].

---

[١] . هذه الآيات تجمع بين عالمي قيامة الإماتة والإحياء، فمن تكوير الشمس إلى تسجير البحار تشير إلى الأولى، ومن تزويج النفوس إلى نشر الصحف إلى الثانية، ثم ترجع إلى الأولى في كشط السماء، ثم بقية الآيات إلى الثانية، جمعاً بين القيامتين لو حدتهما في الطامة واتصالهما.

[٢] . ويؤيده المروى عن الامام الباقرΔ في الآية قال: أما الجنة فزّوجوا الخيرات الحسان، وأما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان، يعني قرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم، نور الثقلين ٥: ٥١٤ ح ٧ في رواية أبى الجارود عنهΔ أقول: وهذا من بيان بعض المصاديق الظاهرة.

[٣] . الدر المنثور ٦: ٣١٩ عن ابن عباس: ترسل الأرواح فتزوج الأجساد فذلك قول الله: <وإذا النفوس زوجت> ومثله عن أبي العالية والشعبى.

[٤] . في الدر المنثور ٦: ٣١٩، أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير سمعت رسول الله5 يقول: <وإذا النفوس زوجت: هما الرجلان يعملان العمل يدخلون الجنة والنار>.

←

وقرن كل تابع بمتبوعه وكل مأموم بإمامه: <احْشُرُوا الَّذينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ(٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحيمِ>(٢٣:٣٧) <يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتيلاً(٧١) وَ مَنْ كانَ في هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبيلاً>(٧٢:١٧). وقرن كل ساع بسعيه: <وأن ليس للإنسان إلا ما سعى> وقرن المؤمنين بالمؤمنات والحوريات في الزواج، وغير ذلك من التشكيلات المتجانسة، عدلاً في كل مجالاته، إذ ليس الملك هناك إلا لله الواحد القهار، دون الحياة الدنيا التي يقرن فيها الشيء بضده.

<وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ>(٩)

الموؤدة من <وأد> مقلوب <آد>: أثقل، فهى المثقلة وكما توحي إليه آية الكرسى: <ولايؤوده حفظها> لايُثقله ويتعبه ثقل السماوات والأرض، وكذلك الموؤدة كانت ثقلاً عند العرب الجاهلى، وفي عصر الصاروخ أيضاً من جهات عدة.

ان الموؤدة، المسؤولة ـ عنها ولها ـ هي البنت إذ كانت عبئاً وثقلاً ـ زعم العرب الجاهلى في الحياة: المادية منها والمعنوية سواء، ثقل المعيشة وثقل العار، فكانوا يثقلونها بالتراب تخفيفاً عنهم ثقلي الحياة، وعلّها سميت موؤدة لهذه الأثقال الثلاثة كلّها.

ورغم أن الوأد <الثقل> الأوّل كان خاصاً بالفقراء، وأكثرهم كانوا فقراء: <وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيّاكُمْ>. كان الأخيران يعم عرب الجزيرة كلهم: <وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ كَظيمٌ>(١٧) <يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ> (١٦: ٥٧ ـ ٥٨).

أقول: وهو تزويج كل إناس بعمله أى قرنه به، وفيه أخرج الفرّاء عن عكرمة في الآية قال: يقرن الرجل في الجنة بقرينه الصالح في الدنيا ويقر الذي كان يعمل السوء الدنيا بقرينه الذى كان يعينه في النار.

وإذا الموؤدة التي زُعمت ثقلاً: مادياً ومعنوياً ـ و لذلك كانت تُثقل بالتراب ـ إنها سئلت بأيّ ذنب قتلت.

ولقد كان من هوان تاريخ الإنسان عادة وأد البنات المظلومات خوفَ الفقر والعار، والقرآن يندد به في مواضع عدة، وأنهن إذا كن عاراً فلماذا تنسبون إلى الله البنات: <أم له البنات ولكم البنون> (٣٩:٥٢) <أَم اتّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ(١٦) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّا وَ هُوَ كَظِيمٌ(١٧) أَ وَ مَنْ يُنَشّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ>(١٨).

يختص القرآن هذه العملية الوحشية القاسية هنا بذكرها في طيّات علامات الطامة الكبرى وآثارها، إيحاءً إلى أنها من أقسى وأوحش ما مضى على تاريخ الإنسان، أنها طامة من الطامات، يحاسب بها فاعلها أول ما يقوم يوم الحساب، يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج كأنه حدثٌ كونى من هذه الأحداث العظام.

إن العرب الجاهلى الوائدين للبنات كانوا على فرق شتى، تعمُّها الصورة القاسية الوحشية لهذه العلمية العارمة.

فمنهم من كانوا يجلسون المرأة حين وضعها فوق حفرة هيأوها من قبل، فإن كان المولود بنتاً رمي بها فيها ورُدمت.

ومنهم من كان يتركها إلى السادسة من عمرها ثم يقول لأمها زيّنيها وطيّبيها لكى أذهب بها إلى أحمامها فيأخذها إلى حميم البئر، يدفعها فيها بكل قساوة وضراوة، ويهيل التراب عليها: <أم يدسّه في التراب>.

والبعض القليل كانوا يمسكونها مهينة <أيمسكه على هون> إلى أن تقدر على الرعي فيلبسها جبَّة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له وفيما إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى ثوبه عليها منعاً لها عن زواج آخر ثم يرثها أو تفتدي نفسها منه...

هذه وتلك كانت العادة الجاهلية بحق البنات عند العرب، فما كان لقبيل الأنثى أىّ

كيان عندهم، بل كنَّ أنزل مكانة من الحيوان أيضاً وأرذل كياناً.

ولقد كانت في نظر بعض الأجيال صِفراً وتحت الصِفر، ففى الجيل الخامس الميلادي كانت تعقد المجامع للنظر في هل هي إنسانة لها نفس إنسانية؟ أم هي دون الإنسان رغم صورتها الإنسانية، وهكذا كان العصر السابق على الإسلام عصر ضياع المرأة، وكان للرجل كل حق عليها وحتى وأدها دون أى نظام يطالبه بالتجريم أو يحكمه بالتحريم، كأن الوأد هو القانون، حتى جاء الإسلام مشنّعاً بهذه العادات، ومتَّعها بحقوقها واعتبرها بنتاً وزوجة وأماً، وخلّصها من وأدها وحرمانها حقوقها، ورفع لها من درجاتها كما تحق في كافة محالات الحياة فردية وجماعية.

فهل تظن الآن أن البنات خلصن من الوأد، وفي عصر تحضّر المرأة وتقدمها مع كل ما وصلت إليه المدنية الحديثة؟... كلا... وإنها الآن موؤدة أشر مما كانت في الجاهلية الأولى.

إن الآيات تندد بمن يئد البنات أياً كان، وأداً في التراب أم وأداً في تباب، قبل الولادة وبعدها، جسدانياً أم روحياً، وأحرى أن يسمى الوأد الروحي وأداً! فإنه بُعدٌ عن حياة الروح، وذلك عن حياة الجسم.

فإذا كانت الجاهلية الأولى تئد البنات، فالجاهلية المتحضرة تئدهن مع الذكور بعملية الإجهاض المتبعة في كافة البلاد، وتئدهم جميعاً بالأمراض التناسلية الناتجة عن تفشى الفحشاء والخلط بين الجنسين، لحد تولّد الولائد المرضى، المبتلين بالأمراض المهلكة، أم تقتلها قبل ولادتها، وما إلى ذلك من ألوان الوأد لحدٍّ لايحصى.

وإذا كانت الجاهلية الأولى تدفن البنات تحت التراب مخافة الفقر أو العار، فالجاهلية الأخيرة تدفنهن بشبابها وتدفعها إلى كل عار ودمار وبوار خلقي ورذالات جنسية همجّية، وأداً لكرامتها ودفناً لإنسانيتها، جاهلية أعمى من الأولى، غليظة الحس، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين وضلال مبين، فقدت المرأة ميزتها الإنسانية وانحطت إلى أحط الورطات والنكبات الحيوانية، لحدٍّ توزن بثقل

جسدها وجمالها وشبابها ونضارتها الجنسية، كأنها حيوانة خلقت لإرضاء ناحية الجنس ليس إلا.

فإذ يصف أميرالمؤمنينΔ الجاهلين الأولين بما يصف ـ والآخرون أحرى بوصفه ـ يخاطب الناس فيه: <أيها الناس إن الله تبارك وتعالى أرسل إليكم الرسول ـ إلى أن يقول: ـ ودفنوا في التراب الموؤدة بينهم من أولادهم، أو لايختارون دونهم طيب العيش ورفاهية حضوض الدنيا، لايرجون ثواباً ولايخافون والله منه عقاباً، حيهم أعمى نجس، وميِّتهم في النار مبلِس فجاءهم بنسخة ما في الصحف الأولى>.[1]

فهل يا ترى إن وأد البنات وقتلهن في أجسادهن مخافة الفقرء والعار المزعوم، هل إنه أوحش وأفحش، أم دفنهن في الملاهي والشهوات والدعارات وألوان العار والبوار، أن يصبحن لعبة للرجال دونما حسٍّ ولاحجز، نتيجةَ عدم الإكتراث بشأنهن؟

فهذا دفن للروح والجسم معاً وذاك دفن الجسم، هذا دفن المثل العليا والقيم الإنسانية، وذاك دفن القيم الجسدانية، فهو أشد من قتل الأجساد و وأدها، وكما توحي إليه آيات عدة: <وَ الْفِتْنَةُ أَشَدّ مِنَ الْقَتْلِ> و<أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ> وأية فتنة أشد وأكبر من فتنة اللامبالاة بين الفتيان والفتيات، الناتجة عن تركهم سدىً في خوضهم يلعبون وفي غيِّهم يعمهون.

وقد يفسر الإمامان الصادق والباقر(عليهما السلام) القتل في الآية: <مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعًا>(٥:٣٢) يفسرانه بقتل الروح وعلى حدّ قولهما: <من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد قتلها> بياناً لأهم المصاديق، كما ويفسر الحياة أيضاً بحياة الروح <ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعاً>: من أخرجها من ضلال إلى هدى.[2]

فسؤال الموؤدة يوجه إلى الآباء الحاليين قبل أن يوجَّه إلى القدامى، حيث القتل في

---

[1] . نورالثقلين ٥: ٥١٥، الكافى بالاسناد عن مسعدة عن الصادقΔ عنهΔ.
[2] . المصدر ١: ٥١٤ ح ١٥٣. ومثله عن الباقرΔ بسند آخر.

عصور الحضارة أشد وأكبر منه في الجاهلية الأولى.

إن موؤدة الجاهليات <سئِلت> تسأل هي بأى ذنبُ قتلت: سؤال ترحُّم واعتذار، ويسأل وائدها سؤال تقحّم وإنذار، سئلت: <لها وعنها>.

إن السؤال في لفظ الآية يوجّه إلى الوائد وهو المسؤول! إذ خرج بفعلته الوحشية عن أهلية الخطاب، والموؤدة هي المؤهلة للسؤال، أن تُسأل ترحُّماً واعتذاراً يجنب المسؤول، وتنديداً وإنذاراً للمسؤول، وكما السيد المسيح سُئل: <وَ إِذْ قالَ اللّهُ يا عيسَي ابْنَ مَرْيَمَ ءَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونى وَ أُمِّىَ إِلَهيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ>(٥:١١٦)

فقد انحطت درجة المسؤول هنا وهناك لحدٍّ لايوجَّه إليه وحتى خطاب العتاب فكيف بسائر الخطاب: <وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ>(٢:١٧٤).

<وَ إِذَا الصّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) وَ إِذَا السّماءُ كُشِطَتْ>(١١)

نشر الصحف وكشط السماء، فما هي الصحف المنشورة؟ وما هو كشط السماء؟ فما هي النسبة بينهما إذ قرنا؟

الصحيفة هي المبسوط من الشيء، وهي غير منشورة يوم الدنيا لأهلها، ثم تنشر: تبسط وتخرج عن الخفاء والخباء، وإنها: صحف الوحى، وصحف الأعمال من الأعضاء ومن الأرض، وصُحف القلوب والصدور والأفكار، التي كانت مبسوطة، عليها سطور الهداية وسجلات الأعمال، ولكنها كانت خفية عن غير أصحابها، أو خفية عن بعض أصحابها، الذين خفيت صحائفُ عقولهم <إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى> وصحائفُ قلوبهم <كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون> (٨٣:١٤) <وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل وكانوا مستبصرين> (٢٩:٣٨).

أخفوا على بصائرهم صحف الوحي، وأُخفيت عن أبصارهم سجلات الأعمال، وحقائق الأعمال، وخفيت على أنفسهم أنفسُهم فهم في غمرتهم وسكرتهم يعمهون وفي غيِّهم يترددون... وكان بإمكانهم أن يرووا الصحف صحفاً منشورة عندهم، رغم خفائها على من سواها، ولكنهم عموا وصمّوا حتى جاءهم وعد الله.

إن نشر الصحف هناك يفيد كشفها ومعرفتها فلا تعود خافية ولا غامضة وهذه العلنية الشاملة يوم المحشر أشد على إنسانها وأنكى، فكم من سوأة يخجل صاحبها منها في نفسه ويرتجف ويذوب من كشفها، فكيف إذا رآها منشورة حاضرة مشهودة!

إن صحف الإنسان تتكشف للحجة والحساب، وكما يتكشف الكون، بأرضه كما عرفناه، وبسمائه إذا كُشطت: تحللت عن كونها سماءً إلى ما كانت عليها من دخان: <يَوْمَ تَأْتِي السّماءُ بِدُخانٍ مُبِين(١٠) يَغْشَي النّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ>(٤٤:١١) تكشط وتتكشف لتحضير موقف الحساب ومصير أهل الحساب: <وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَ إِذَا الْجَنّةُ أُزْلِفَتْ>(١٣).

فذلك يوم الكشف والكشط، يوم ظهور الحقائق دون خفاء، فما هو إذاً كشط السماء؟

إنه من كشط الناقة ـ أى تنحية الجلد عنها ـ ومنه استعير انكشط روعه أى زال، فكما الناقة تكشط بعد نحرها فتقطع، كذلك السماء سوف تكشط بعد موتها في الطامة الكبرى، ينحّى عنها جلدها وجَلَدها، وينزع عنها رباطها، وترتجع إلى ما كانت<والسماء ذات الرّجع>(٨٦:٩) وأنها تنشق بكشطها: <إِذَا السّماءُ انْشَقّتْ(١) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقّتْ>(٢) انشقاقاً وافتراقاً عن امتدادها والتآمها، فكانت وردة كالدهن: <فَإِذَا انْشَقّتِ السّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ>(٥٥:٣٧) واهية مسترحية: <وَ انْشَقّتِ السّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ>(٦٩:١٦) ويومئذٍ تتساقط وتنتثر من حجرها وتفرج: <وإذا السماء فرجت> (٧٧:٨) <وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ>(٨٢:٢) وفتحت بعد غلقها: <وَ فُتِحَتِ السّماءُ فَكانَتْ أَبْوابًا>(١٩) وتمور وتكون كالمهل: <يَوْمَ تَمُورُ السّماءُ مَوْرًا>(٥٢:٩) <يَوْمَ تَكُونُ السّماءُ كَالْمُهْلِ>(٧٠:٨) وحينذاك ينقضى دور السماء وتُطوى طيّاً: <يَوْمَ نَطْوِى السّماءَ كَطَيّ السِّجِلّ لِلْكُتُبِ>(٢١:١٠٤)... يطوى طومار السماء كما تطوى طوامير الإنسان وصحفه، ثم تنشر الصحف المطوية بعد النشر وقيامة الحشر ولتجزى كل نفس بما تسعى.

إنها ليست هي السماء بمفردها التي تكشط وتسترخى عن الجاذبية العامة، إنها رخوة الكائنات كلها أن تعمل فيها فوضى الطاقات رجعاً إلى حالتها الأولى، تدميراً شاملاً بعد تعمير، فكما الله أعطى كذلك الله يأخذ.

هنا نعرف أن كشط السماء وقشطها ليس عن جلدها الظاهر فحسب، إنما عن كيانها السماوي ـ ككل ـ وإلى طيِّها، تبدلاً إلى غيرها: <يَوْمَ تُبَدّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ>(٤٨:١٤) وكما عن باقر العلوم∆ في ـ قوله: كُشطت، قال: أبطلت.[١]

<وَ إِذَا الْجَحيمُ سُعِّرَتْ(١٢) وَ إِذَا الْجَنّةُ أُزْلِفَتْ>(١٣)

إن الجحيم قبل دخول أهلها غير بارزة ولامسعرة، وإنما تسعيرها هو التهاب النار فيها، وإنه بوَقود الأجساد الجهنمية وأعمالها من الخالدين فيها، فإنهم <سيصلون سعيراً>(٤:١٠) أى يوقدونها: <مَأْواهُمْ جَهَنّمُ كُلّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعيرًا>(١٧:٩٧).

إن السعير هذا معدّ للكافرين مهما كانت أرضها حاضرة، والإعداد استعداد الواقع لاالواقع نفسه: <إِنّ اللّهَ لَعَنَ الْكافِرينَ وَ أَعَدّ لَهُمْ سَعيرًا> (٣٤:٦٤).

<بَلْ كَذّبُوا بِالسّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذّبَ بِالسّاعَةِ سَعيرًا>(١١) <أَعْتَدْنا لِلْكافِرينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالاً وَ سَعيرًا>(٧٦:٤).

فإعداد السعير شيءٌ وتسعير الجحيم شيءٌ آخر، إذاً فالجحيم موجودة الآن، دون نار مسعرة، أو أن فيها نارٌ غير مسعرة.

وإزلاف الجنة تقريبها لأهلها إذ قدموا وقربوا لها ما يؤهلم لاحرازها، قرباً بقرب: <وَ أُزْلِفَتِ الْجَنّةُ لِلْمُتّقينَ غَيْرَ بَعيدٍ>(٥٠:٣١) ازلفت ـ إليهم ـ وعلها إلى الجحيم أيضاً ليتراءى أهلوها فتزداد رحمة اهل الجنة وعذاب اهل الجحيم بهذه المواجهة.

و إزلاف الجنة للمتقين يوحي لمكرمتين: ١ ـ أنها كانت جنة قبل القيامة لأنها من

[١] . نورالثقلين ٥: ٥١ ح ١٤ عن القمي في تفسيره.

فضل الله دون أن تختص بقدر الطاعات، وإن كانت تزيد نضارة وطراوة بدخول أصحابها.

٢ ـ أنها على عظمتها تقرب إلى أهلها دون أن يتكلَّف أهلوها لطي مسافة إليها.

ذلك ولأن النار إنما هي على قدر الأعمال عدلاً من الله فلا تتأجج قبل أو انها والجنة هي على قدر فضل الله فليس له حدّ يعرف، وإن كانت الصالحات هي التي تؤهل لإزلافها ودخولها.

وحيث تسعّر الجحيم بواريها وتزلف الجنة لروّادها الموعودين بها أو الموعوظين لها، عندئذٍ لايبقى لدى النفوس أية ريبة في حقيقة ما أحضروها، إذ هم يرون أنفسهم في آثار الأعمال وحقائق الأعمال بعد ما يرون ضرر الأعمال.

<عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ>(١٤):

بعد هذه الحوادث العظام، وبعد ما كانت النفوس جاهلة بما عملت، علمت كلُّ نفس ما أحضرته من خير أو شرٍّ، علماً بما يرى ويسمع من أفعاله وأقواله: علم العيان: <يَوْمَ تَجِدُ كُلّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدّ لَوْ أَنّ بَيْنَهَا وَ بَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا> (٣: ٣٠).

تجدها وجداناً واقعياً فلا تملك إنكارها ولا أن تغير شيئاً منها ولا أن تزيد عليها أو تنقص منها، فقد جفّ القلم عما كان ولايحضر إلاّ ما كان.

صحيح أنه تبدّل كل شيء وتغير، ولكنما الأعمال لاتتغير، فإنما تبرز بحقائقها كما ارتجعت الكائنات كلها إلى حقائقها التي صدرت منها.

إن الحياة الدنيا رغم كونها حية العناء، ولكنما حياة التقديم، تخلّص وتحضِّر للآخرة، وكتابها: <لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً>.

إن الحياة الآخرة حياة العلم الضروري، تعلم فيها ما قدمت شئت أم أبيت، تعلم عن جهل أو تجاهل كما في الكافرين، أم بعد علم كما في المؤمنين، فهم وإن كانو على علمٍ

ـ مهما اختلفت مراتبه ـ علم بما يحضرون، ولكنما الغفلة أحياناً من ناحية، والجهل بحقيقة الأعمال من أُخرى، جعلاه جاهلاً، ثم يعلمها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، وإن كان أولياء الله الأكرمون يعلمون قبل الميعاد، وكما عن الإمام علىΔ: <لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً> والدنيا كلها غطاء تكشف بالموت، الموت الإختيارى عن الشهوات: <موتوا قبل أن تموتوا> أو الموت الاضطراري <ولات حين مناص>: <لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد>.

قيامة الكائنات

<بِسْمِ اللّهِ الرّحْمنِ الرّحيمِ إِذَا السّماءُ انْفَطَرَتْ(١) وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ(٢) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ(٣) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدّمَتْ وَ أَخّرَتْ>(٥)

<إِذَا السّماءُ انْفَطَرَتْ>(١)

علمت نفس ـ بعد قيامة الإماتة بانفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجُّر البحار، وبعد قيامة الإحياء ببعثرة القبور ـ علمت نفس ما قدمت وأخرت؟

إن الانفطار هو قبول الفَطر، وأصل الفطر الشق طولاً، وذلك قد يكون على وجه التعمير: <قالَ بَلْ رَبّكُمْ رَبّ السّماواتِ وَ الْأَرْضِ الّذي فَطَرَهُنّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشّاهِدينَ>(٢١:٥٦) وقد يكون على وجه التدمير: <تَكادُ السّماواتُ يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقّ الْأَرْضُ وَ تَخِرّ الْجِبالُ هَدّا>(١٩:٩٠)، <السّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً>(٧٣:١٨).

فالأول شق إلى البناء حيث انشقت السماء عن الدخان: <ثم استوى إلى السماء وهي دخان... فقضاهن سبع سماوات> كما الثانى شق إلى الفناء: <يوم تأتى السماء بدخان مبين. تغشى الناس هذا عذاب أليم> وذلك يوم تدميرها ورجعها إلى ما كانت من دخانها: <والسماء ذات الرجع>، وكما شرحناه مسبقاً في سورة التكوير والإنشقاق عن كشط السماء وقشطها، أنها سوف تنمحي عن كيانها السماوى ينحّى عنها جلدها وتنشق، فهى يومئذ واهية وردة كالدهان وتمور موراً وتصبح كالمُهل.

<وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ>:

هنا شبهت الكواكب بلآلىء منظومة انخرط سلكها فانتثرت وتفرَّقت، إنها تنتثر بعد تماسكها في أفلاكها جارية بسرعات هائلة، ممسَكة في داخل مداراتها، مرفوعة في أجوائها بعَمد لاترونها: <رَفَعَ السّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها> فثمّ عمد ولكن لاترونها، أعمدة القوة الجاذبية وسواها التي نجهلها حتى اليوم، فلما ذهبت هذه القوى التي تشدها وتربطها في سماواتها ومداراتها، ذهبت ـ إذاً ـ في الفضاء بَدَداً كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها.

فهل إنها ـ وكما يزعمها السذج ـ تتناثر على أرضنا؟ كلا، فإن أرضنا ـ وهي من أصغر الكواكب ـ تنتثر معها إلى أعماق الجو وتنطمس وتنمحي وترجع ـ كما السماء ـ إلى حالتها الأولى <دخان> وعلّها ـ ومعها الكائنات كلها ـ ترجع إلى <الماء> المادة المفردة الأولى.

أجل ـ وإن الكواكب تنتثر كما النجوم تنطمس وتنكدر وتنحدر: حادثات جلل تقضي على المملكة السماوية بأمر الملك العلام.

<وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ>(٣)

وكما عرفناه مسبقاً في التكوير، سوف يعم البحار ـ كل البحار ـ تفجير يتلوه تسجير، فتصبح ناراً هائجة ملتهبة بالتفجرت، فالحرارات التي تتحكَّمها فترجعها إلى ما بدأت، رجعاً إلى النار وإلى المادة الفردة، وكما جاء عن الصادقΔ: <تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيراناً>.[1]

<وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ>(٤)

وهذه قيامة الإحياء، تبعثر القبور وتخرج الأجساد من الأجداث: <يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعًا> (٤٣:٧٠) <فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ>(٥١:٣٦)

---

[1] . نورالثقلين ٥: ٥١٤ ح ٦.

ولنعرف هنا ما هي القبور وبعثرتها؟ إن القبور هي مخابىء الأبدان وأجداثها، فالقبر ـ لغوياً ـ مقر الميت أياً كان: جوف البر أو البحر، في جسد حيوان يأكل إنساناً، أم في جدث التراب، أم على وجه الأرض، أم أيّاً من الأماكن، فإن الأبدان لاتضل عن علم الله كما الأرواح لاتضل، مهما ضلت عن علمنا.

و <بُعثِر> كلمة مركبة من <بُعِث أُثير> وآيته أنها تشمل المعنيين. فبإثارة القبور تبعث ما في القبور، إثارة القبور وما في القبور، دون أن يضل شيء من الأجزاء الأصيلة لكل جسد وفي كل جدث: <وَ قالُوا أَ إذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْض أَ إِنّا لَفي خَلْق جَديدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ(١٠) قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الّذى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ>(١١). ترجعون إلى مَنْ <لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرّةٍ فِي السّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْض>(٣:٣٤).

<عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدّمَتْ وَ أَخّرَتْ>(٥)

علمت نفس: خيّرة أم شريرة ـ دون استثناء ـ علمت علماً شاملاً كما الجزاء هناك كامل، علمت بعد جهل تام يوم الدنيا، وبعد علم غير تام يوم البرزخ، كما الجزاء هناك برزخي دون تمام، فالبرزخ برزخ من كافة الجهات، ومنها العلم بحقيقة الأعمال كالجزاء بالأعمال. فما هو المقدم من الأعمال والعقائد والأقوال وما هو المؤخر؟

من الثابت قرآنياً أن كتاب الأعمال لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها <يُنَبّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدّمَ وَ أَخّرَ>(١٣:٧٥) فالمقدَّم أيّاً كان والمؤخر أياً كان، إنهما سوف يحضران يوم القيامة وفي موقف الحساب، دون مغايرة لشيء منهما ولامثقال ذرة إلا أتى الله بها وكفى به حفيظاً وحاسباً.

علمت نفس ما قدّمت: من الأعمال المنقطعة غير المستمرة خيراً وشراً، وما أخَّرت مما له استمرار يؤثَر، من خير أو شر، فالثانى من الآثار والأول مقدم وكلاهما مكتوبان يحضران يوم القيامة: <وَ نَكْتُبُ ما قَدّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ في إِمامٍ مُبينٍ>(١٢:٣٦) فالأعمال وإن كانت كلها مقدمة ليوم الحساب، إلا أن البعض منها

مؤخرة أيضاً بعد ما قدِّمت، تبقى دائبة تقدَّم دوماً ما دامت سنّة يعمل بها طوال زمن التكليف، سنّة حسنة أو سيئة، فللعامل المبدع المبتدىء نصيبٌ مما عملوا بها ولايُنقص أولئك من أجورهم في الحسنات، ولا من أوزارهم في السيئات، وكما نجدها أصلاً ثابتاً في الآيات وفي الروايات المأثورة عن الرسول الأقدس5 والأئمة من أهل بيته الكرام عليهم السلام وفي تفسير هذه الآية بالذات.[1]

و: علمت نفس ما قدمت من خير وما أخرَّت من شر، فإن الخير يقدَّم للإنسان والشر يؤخر، كما ويشير إليه القرآن: <وقدموا لأنفسكم> (٢٢٣:٢) <يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنى كُنْتُ تُرابًا>(٤٠:٧٨) <يَتَذَكّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنّى لَهُ الذِّكْري(٢٣) يَقُولُ يا لَيْتَنى قَدّمْتُ لِحَياتى>(٢٤:٨٩)، <إِنّها لَإِحْدَي الْكُبَرِ(٣٥) نَذيرًا لِلْبَشَرِ(٣٦) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدّمَ أَوْ يَتَأَخّرَ>(٣٧). تقدُّمٌ في الحياة بتقديم الصالحات، فالحرى للإنسان كإنسان، والذي يُحيى يوم الحساب للحساب، حري له أن يقدم لحياته الأُخرى من الصالحات، فإن الطالحات تسبِّب التأخر عن الحياة السعيدة، وإن كانت الأعمال كلها ـ خيرها وشرها ـ تقدم ليوم الحساب، فـ <لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدّمَتْ لِغَدٍ>(١٨:٥٩).

والآية: <عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدّمَتْ وَ أَخّرَتْ>(٥) تتحمل المعنيين، أن الإنسان سوف يعلم خيره وشره، ما قدمه وآثاره.[2]

---

[1] . نورالثقلين ٥: ٥٢٠ عن المجمع: جاء في الحديث أن سائلاً قام على عهد النبى5 فسأل فسكت القوم، ثم إن رجلاً أعطاه فأعطاه القوم، فقال النبى5: من استن خيراً فله أجره ومثل أجور من اتبعه غير منقص من أجورهم، ومن استن شراً فاستن فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منقص من أوزارهم، قال: فتلا حَديفة بن اليمان <علمت نفس ما قدمت وأخرت...>.
أقول: وفي الدر المنثور ٦: ٣٢٢، أخرجه الحاكم وصححه عن حذيفه عن5 من قوله <من استن ـ إلى ـ وآخرَّت...> وهي من المتواتر معنوياً.

[2] . كما أخرج الدر المنثور عن عكرمة وقتادة ومجاهد، قولهم في الآية: ما أدت إلى الله ما أمرها بهن وما ضيعت(٣٢٢:٦).

وهناك نفوس قدسية علمت حقائق أعمالها قبل موتها وقبل قيامتها، هي نفوس المعصومين، فلا تشملهم <نفس> لأنها منكرة لاتستغرق النفوس.

القيامة

خافضة رافعة

<إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ(١) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ(٢) خافِضَةٌ رافِعَةٌ>(٣)

الواقعة هذه هي واقعة قيامة الإماتة والتدمير، التي تتلوها قيامة الإحياء والتعمير: <فَإِذا نُفِخَ فِي الصّور نَفْخَةٌ واحِدَةٌ(١٣) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكّتا دَكّةً واحِدَةً(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ>(١٥:١٦) .

الحادثة التي هي لامحالة واقعة، لحدّ تسمَّت باسم الواقعة، إذ لا بداء عنها ولارجوع، فإنها حتمي الوقوع لحد كأنها الآن واقعة، كما توحى له الفاعلة مرتين: مرة لأن الفاعل لابد وهو شامل للحال، مهما شمل ـ أيضاً ـ الإستقبال، وأخرى إن كانت تاءها للمبالغة، كما قد تؤيده تاء الكاذبة، قرن مبالغة الوقوع بمبالغة اللاوقوع.

و <إذا> الظرفية ـ هنا مضمّنة معنى الشرط، أنها زعم ما كانت لها كاذبة قبل وقوعها، ليس لوقعتها كاذبة ظرف وقوعها، إذ يجد الكاذبة نفسه والكون كله، يجدها في واقع الواقعة، فأنى له أن يكون لها كاذبة؟ أو أن الجزاء محذوف يستوحى من <لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ(٢) خافِضَةٌ رافِعَةٌ>(٣). ثم فـ <كاذبة> هي مبالغة <كاذب> كما <الواقعة> مبالبغة في <الواقع>:

إن الذين كانوا يصرون مبالغين في تكذيبها يوم الدنيا، ليسوا ليكذبوا بها في الأخرى، فوقعتها ـ وهي وقوعها مرة دون مهل ولاتكرار ـ هي التي تزيل عنهم ذلك التكذيب الإصرار، فتحولهم إلى التصديق والإقرار، حين لايفيدهم تصديق ولا إقرار ولات حين فرار.

ثم <خافضة رافعة> قد تكون وصفاً! لـ <كاذبة>: الذى يكذب بها خفضاً لها عن

دورها الموعود، في الحساب العدل والعقاب، والفضل والثواب، أو رفعاً لها عن الكيان والوجود: أن لا قيامة فلا حساب، والفضل والثواب، أو رفعاً لها عن الكيان والوجود: أن لاقيامة فلا حساب، فلا ثواب ولاعقاب!.

أو أنها خبر محذوف المبتدء: <هى خافضة رافعة> خافضة أقواماً ترفّعوا يوم الدنيا دونما حق أو صلاحية فرفضتهم إلى النار وبئس القرار، ورافعة آخرين تنزلوا عما يحق لهم، فرفعتهم إلى الجنة[1] ونعم القرار، ولأن الواقعة ظاهرة حق وحساب دون الدنيا الفوضى اللاحساب!.

أو أن الوصفين تشملان الواقعة والكاذبة بالمعنيين، فقد تتحملها الجملة أدبياً ومعنوياً: فلا كاذبة للواقعة خفضاً ولارفعاً، بل هي خافضة لمكذبيها رافعة لمصدّقيها.

وقد يتخطى نفى الكاذبة لها يومَ القيامة، إلى ما قبلها، أن تكون <ليس لوقعتها كاذبة> وصفاً للواقعة قبل وقوعها[2] كما تصفها ليوم وقوعها: أن ليس لوقعة الواقعة قبلها، من يبالغ في التكذيب بها يوم الدنيا، كما ليس لها كاذبة يومها، سواء إذ لاسناد لمكذبيها يبالغون به في تكذيبها، إلا ظنوناً أوهاماً لاتملك إلا التشكيك بها، لا التأكيد من عدم وقوعها، وهذا ما يبرر المبالغة في الكاذبة، إذ لا يكذب بها الواقع فيها، المتواجد عندها، فضلاً عن أن يبالغ في تكذيبها، حتى يبرر نفى المبالغة.

فكما الواقعة يوم وقوعها تملك واقع البرهان الملموس على أنها واقعة، كذلك هي الآن، وطوال أيام الدنيا، تملك من البراهين ما توضحها وضح النهار، وكأنها الآن واقعة، بما تمكِّن من واقعها المستقبل من براهين، وما تفرضها بعد إمكانيتها من براهين اخرى.

---

[1] . الخصال للصدوق عن الزهري قال: سمعت علي بن الحسينΔ يقول في الآية: خافضة خفضت والله بأعداء الله في النار، لواقعة رفعت والله أولياء الله إلى الجنة.
وفى الدر المنثور ٦: ١٥٣ عن محمد بن كعب: تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مترفعين وترفع رجالاً كانوا في الدنيا منخفضين، ومثله عن السدي عن السدي وقتادة.

[2] . ذلك وإن كانت الجملة منكرة لاتأتي وصفاً إلا لنكرة، فان الواقعة أيضاً ليست معرفة حيث اللام فيها ليست تعريفاً، وإنما هي موصول، كما يقال: الذي يقع، ترى الجملة هذه معرفة أم نكرة؟

فلايملك أحد من ناكريها يوم الدنيا أن يكذب بها خفضاً عن شأنها، أو رفعاً و نكراناً لكونها وكيانها، كما لايملكون في الاخرى.

فـ <إذا وقعت الواقعة>: قيامة الإماتة والإحياة المتأكدة <ليس> حينها <لوقعتها كاذبة>[1] من يبالغ في تكذيبها <خافضة رافعة> لاتكذيب الخفض من دورها، ولا رفعها إزالة لها، كما و <ليس> الواقعة <لوقعتها كاذبة> لافى الأى ولا الاولى <خافضة> لها أو <رافعة>.. بل هي ـ الواقعة <خافضة> لأقوام <رافعة> لآخرين.

فهي هي خافضة لمن ترفّع دون حق، ورافعة لمن تخفض بباطل، دون أن يملك أحد خفضها هي أو رفعها، إذ الملك يومئذ لله وله الحكم واليه يرجعون، دون الدنيا الدنيَّة التي أكثر مُلاكها ظالمون، خافضون دون حقى ورافعون، كما وأنها خافضة للسماء المرفوعة بأنجمها، ورافعة للأرض المخفوضة بجبالها، خفض الزلزال ورفعه <يَوْمَ تُبَدّلُ ٱلأَرْضُ غَيْرَ ٱلأَرْضِ وَ السّماواتُ>.

ففى يوم الواقعة تختل الموازين والقيم الأرضية الواهية، وتحتل مكانها القيم والموازين الإلهية، بلا مؤاربة ولا مسايرة.

وترى ماذا يحدث اثر حدث الواقعة، أو ماذا الذى يحدثها؟

---

[1] . فاللام هنا للتوقيت، وعلى الوجه الثانى للتعدية.